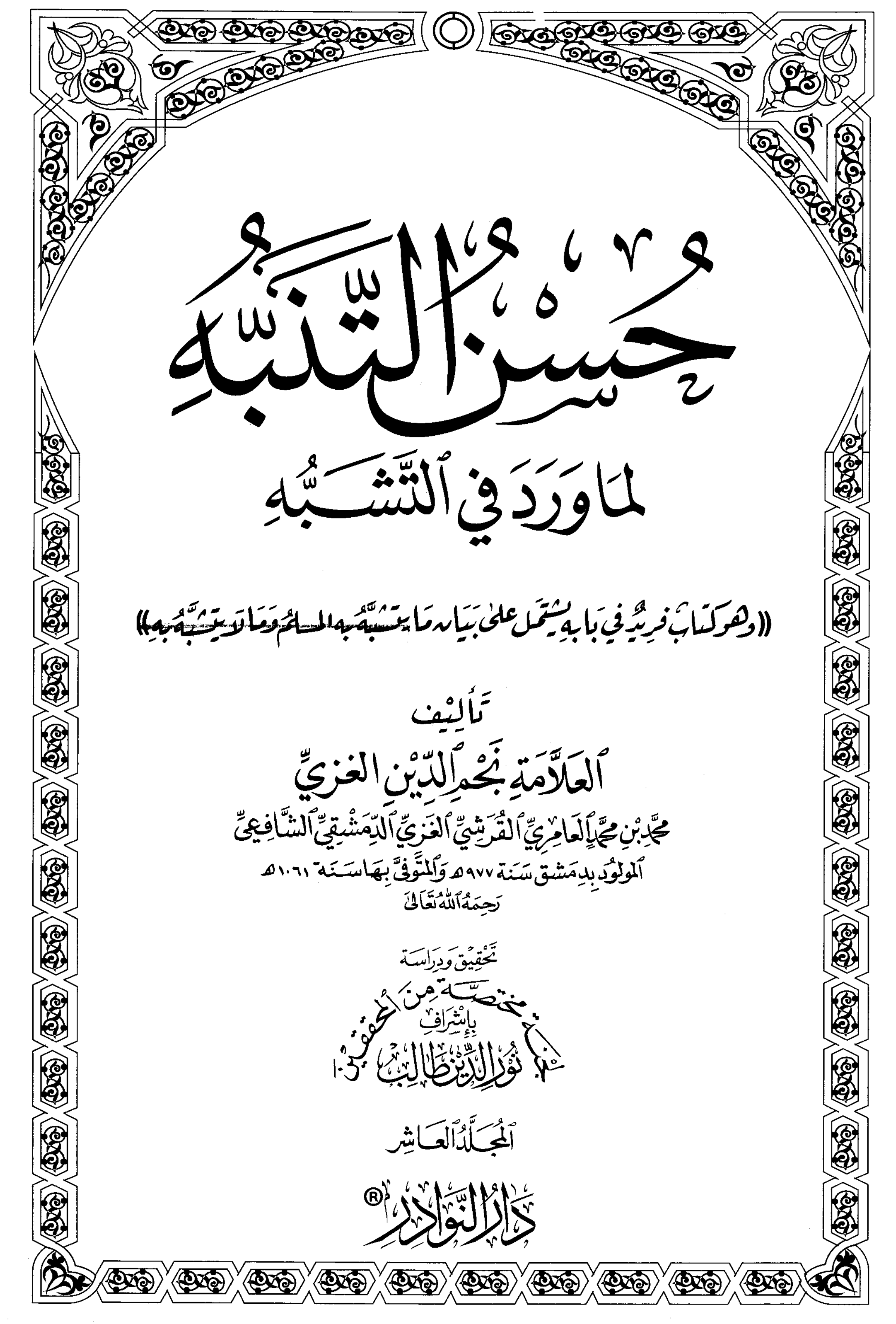


حسن التنبه

لما ورد في التشبه

((وهو كتاب فريد في بابه يشتمل على بيان ما يتشبه به المسلم وما لا يتشبه به))

تأليف

العلامة نجم الدين الغزي

محمد بن محمد العامري القرشي الغزي الدمشقي الشافعي

المولود بدمشق سنة ٩٧٧هـ والمتوفى بها سنة ١٠٦١هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

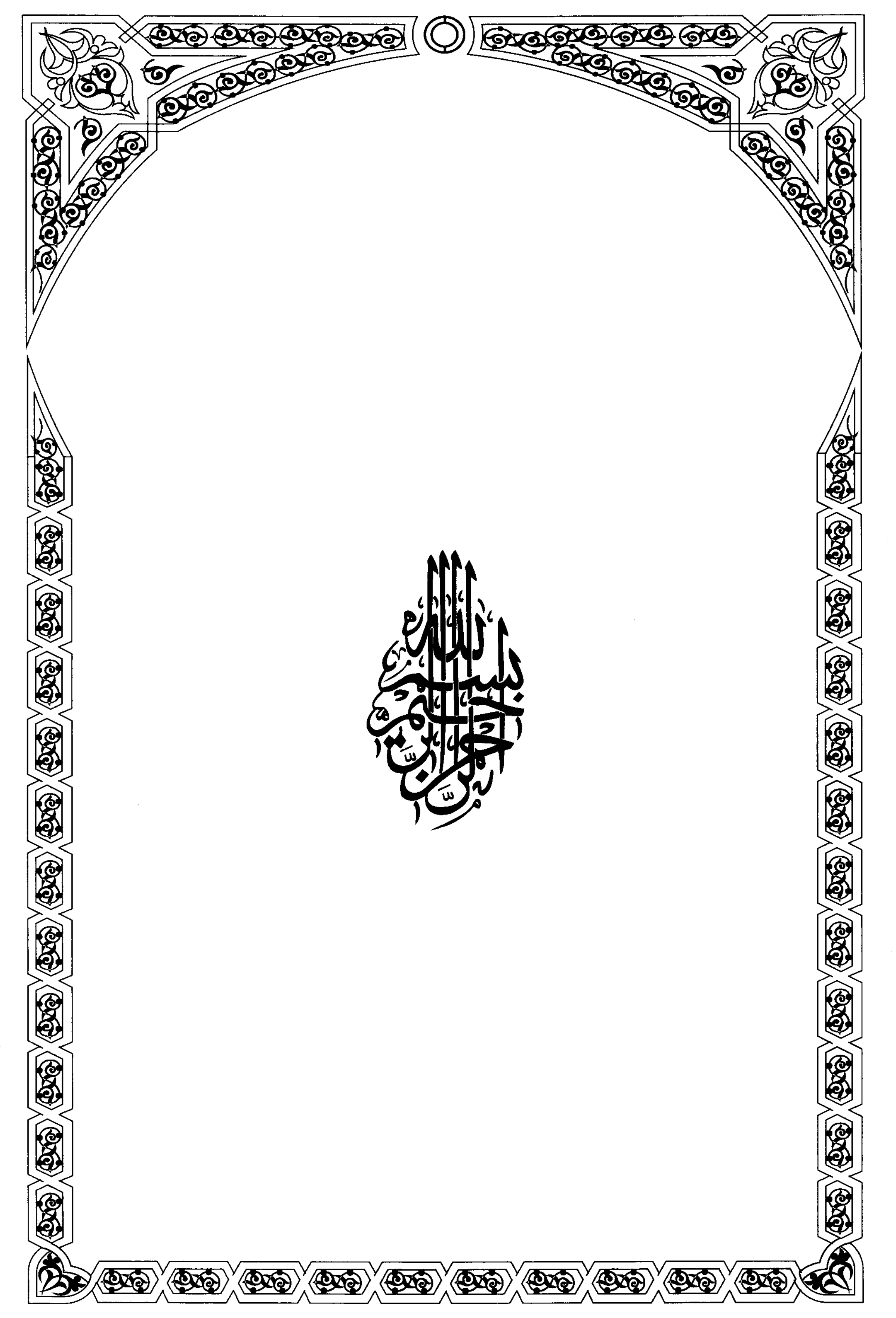
لجنة مختصة من المحققين

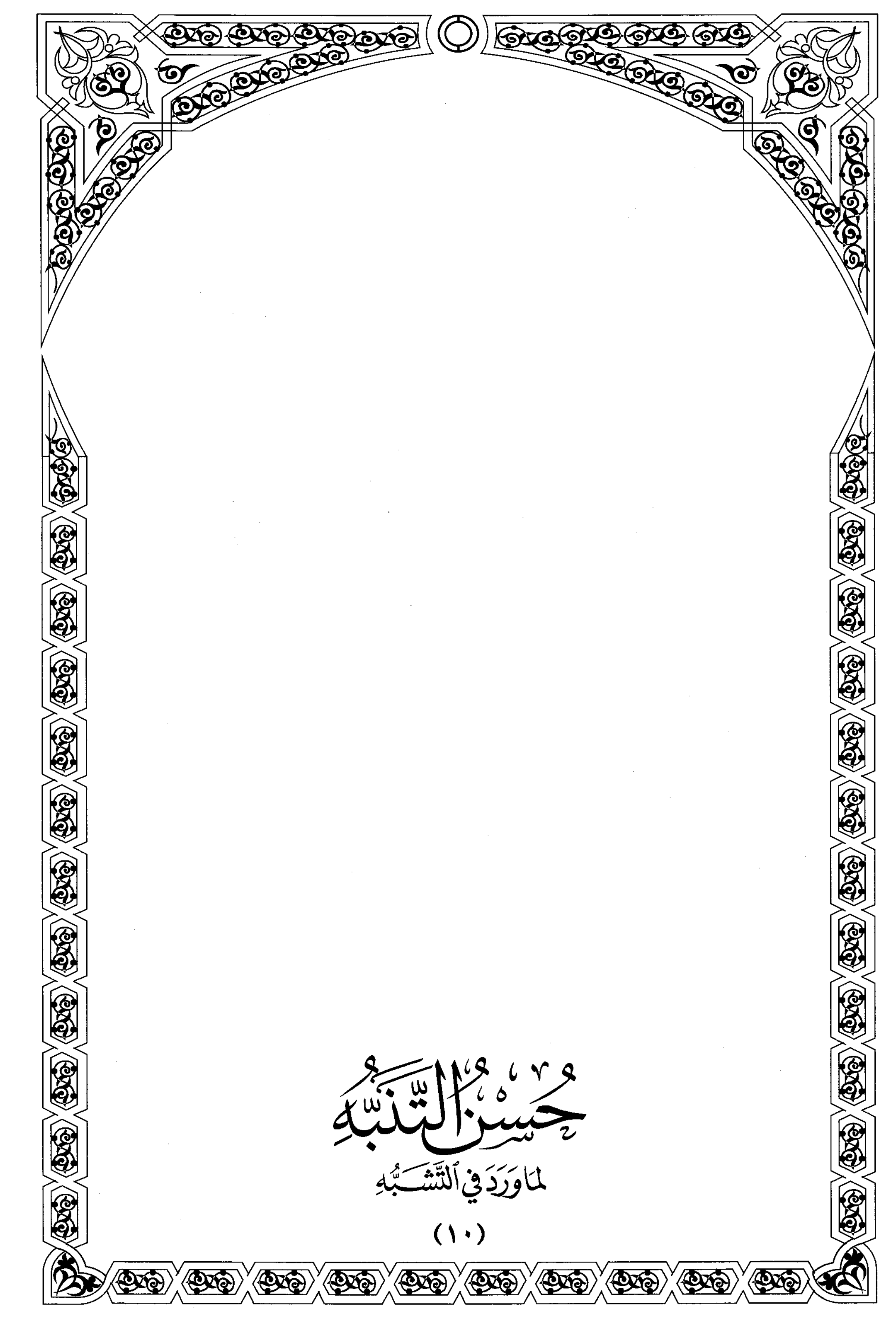
بإشراف

نور الدين طالب

المجلد العاشر

دار النوادر®

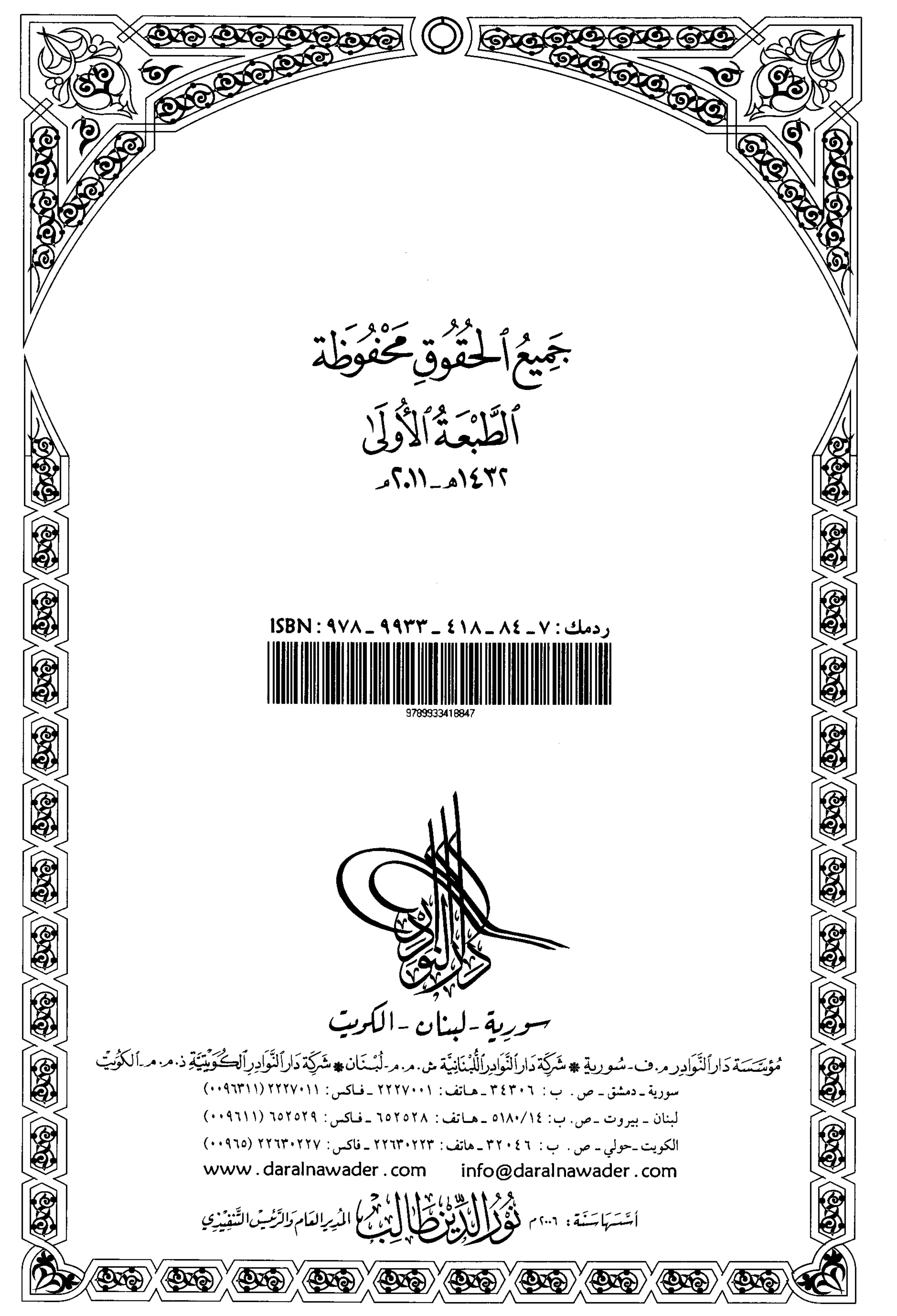

بسم الله الرحمن الرحيم



حُسْنُ التَّنَبُّهِ

لِمَا وَرَدَ فِي التَّشَبُّهِ

(١٠)



ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

ردمك : ٧ ـ ٨٤ ـ ٤١٨ ـ ٩٩٣٣ ـ ٩٧٨ : ISBN

9789933418847

دار النوادر

سورية ـ لبنان ـ الكويت

مُؤسَّسَة دَار ٱلنَّوَادِر م.ف ـ سُورية * شَرِكَة دار ٱلنَّوَادِر ٱللُّبْنَانِيَّة ش.م.م ـ لُبْنَان * شَرِكَة دار ٱلنَّوَادِر ٱلكُوَيْتِيَّة ذ.م.م ـ ٱلكُوَيْت

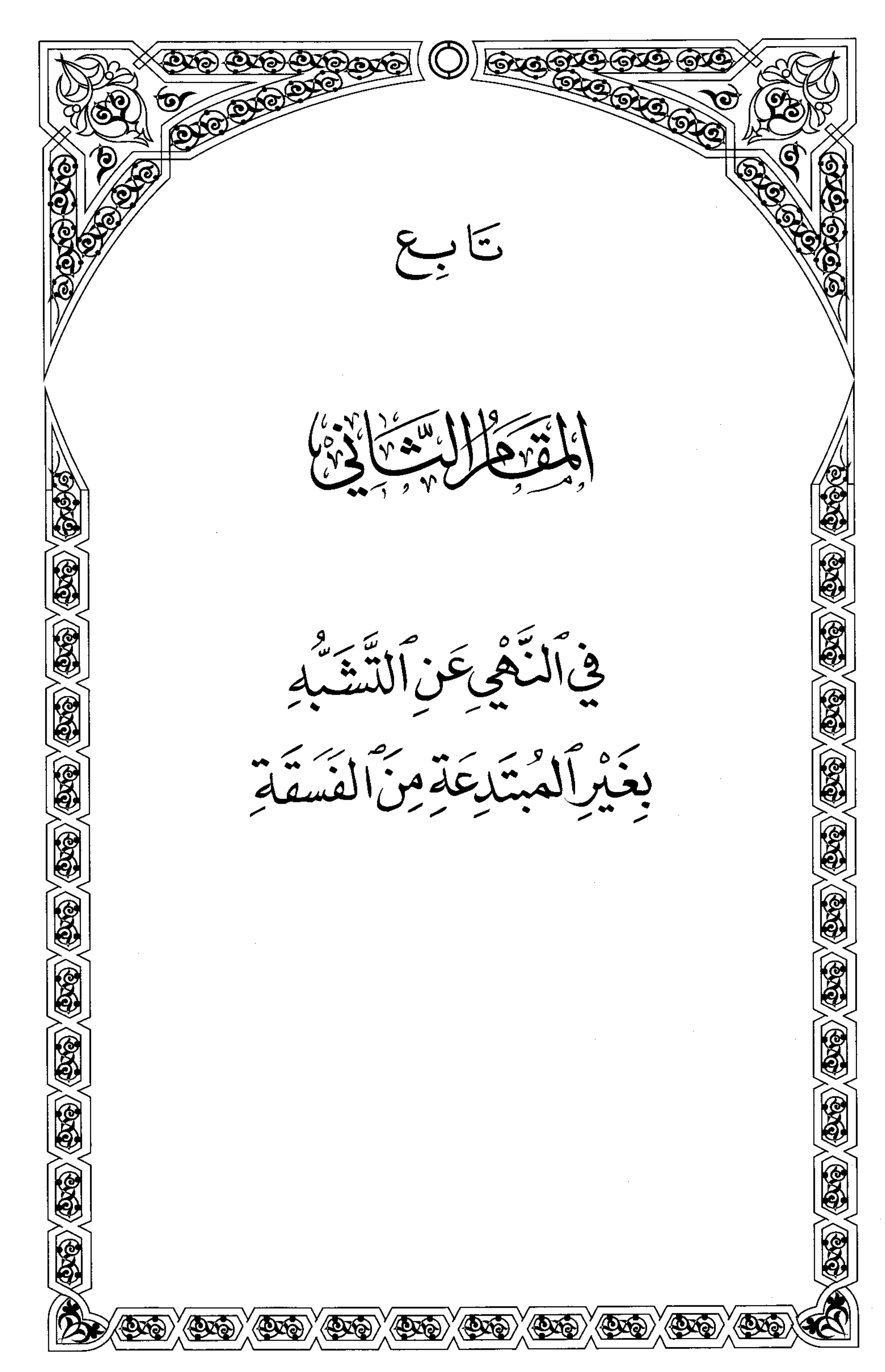
سورية ـ دمشق ـ ص. ب : ٣٤٣٠٦ ـ هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ ـ فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان ـ بيروت ـ ص. ب: ١٤/٥١٨٠ ـ هاتف : ٦٥٢٥٢٨ ـ فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت ـ حولي ـ ص. ب : ٣٢٠٤٦ ـ هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ ـ فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

www.daralnawader.com   info@daralnawader.com

أُسِّسَت سَنَة : ٢٠٠٦م   نُورُ الدِّين طَالِب   المُدِيرُ العَام وَالرَّئِيسُ التَّنفِيذِي



تابع

المقام الثاني

في النَّهي عن التَّشبُّه بغير المبتدعة من الفسقة



فصل

المتشبه بالفساق تارة يتشبه بهم في نفس الفسق، وهذا لا كلام في أنه منهم.

وتارة يتشبه بهم في الزي وظاهر الفعل، وهو ملحق بهم، وهو مرتكب لأمر محرم أو مكروه بلا شك ولا ريب.

وقد علمت الحديث الذي نهى فيه النبي ﷺ عن قراءة القرآن بألحان أهل الفسق في لحونهم فيها عن كونها طاعة، فصارت مكروهة أو محرمة، ولذلك قال العلماء بتحريم سماع المزامير والآلات لأنها شعار الشَّرَبة.

قال العلماء: ولو أدار سويق السكر أو الماء القراح كما تدار الخمرة كانت تلك الإدارة حراماً، وإدارة القهوة المتخذة من البُن على تلك الطريقة حرام وإن كانت القهوة المذكورة مباحة في نفسها، وتسميتها قهوة ـ والقهوة في الأصل من أسماء الخمر ـ لا ينقل حكمها من الحل إلى الحرمة، كما أن تسمية الخمر باسم غيرها من المباحات لا ينقل حكمها من الحرمة إلى الإباحة.

وكذلك العفيف إذا لبس زي المخنثين، والعفيفة إذا لبست زي

القحاب حرم عليهما ذلك.

ومن دخل الأسواق متمايلاً صارخاً على هيئة السكارى فهو متشبه بهم كائن معهم.

ومن ابتلع دواء يوهم الناس أنه شيء مسكر أو مخدر فهو متشبه بالحشاشين والمتكيفين.

ومن تبجح بإظهار العشق وتكلم بألفاظ أهله، أو فعل أفعالهم، أو حضر في مجلس يجتمع به الفسقة، فيحكون عن أنفسهم أنهم فعلوا كذا وكذا، فأوهمهم أنه عمل فوق عملهم، فقد ارتكب محرماً وإن كان كاذباً على نفسه.

بل على الإنسان أن يتبرأ من ذلك ويتَّقي مواطن التهم والريب، وإن ابتلي بشيء من ذلك فليستر ما أمكنه الستر.

روى الحاكم وصححه، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال بعد أن رجم الأسلمي: «اجْتَنِبُوا هَذِهِ القاذُوراتِ الَّتِي نَهى اللهُ عَنْها، فَمَنْ أَلَمَّ بِشَيْءٍ مِنْها فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ تَعالَى وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ؛ فَإِنَّ مَنْ يُبْدِ لَنا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتابَ اللهِ»[1].

في الأثر كما ذكره أبو طالب المكي: من تَزَيَّا بزي قوم فهو منهم[2].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨١٥٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٣٠). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٨١٣).

(٢) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (١/ ٤٢٨) من قول علي رضي الله عنه.

وقال رحمه الله تعالى: إن السلف كانوا يكرهون ما أحدث الناس من الثياب الرقاق، وكانوا يقولون: الثياب الرقاق لباس الفساق، ومن رق ثوبه رق دينه. انتهى[1].

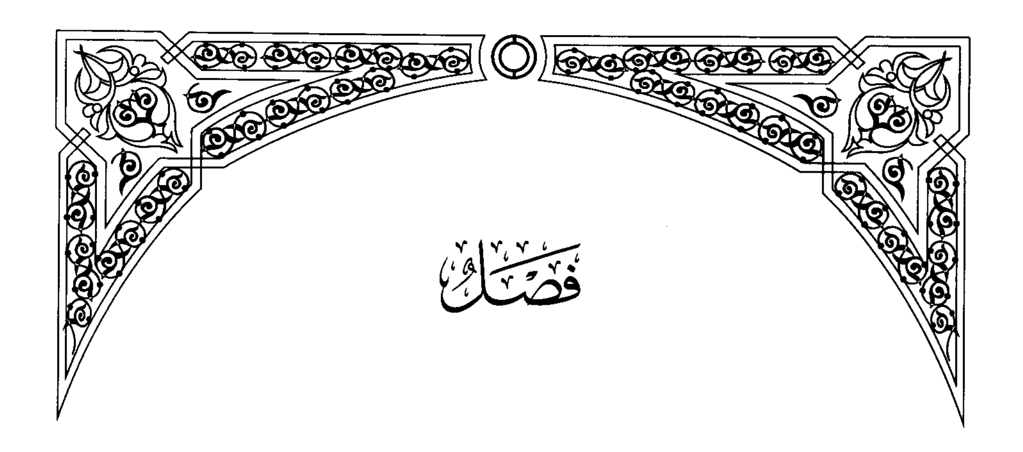
وما ظنك بما أحدث الناس اليوم مما لم يخطر لأحد من السلف على بال من زي أهل الخنوثة والتكسر.

وفي بعض الآثار: اجتنبوا فعل الذعار، وزي أهل النار.

* * *

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٨٩).



فَصْلٌ

ما يدخل في باب التشبه بالفساق والسفهاء تشبه أهل الكمال بأهل النقصان والاختلال كتشبه العقلاء بالمجانين، والرجال بالنساء أو الصبيان؛ لأنه لا يخلو عن فسق وإحباط مروءة، فمن خَلَقه الله تعالى بشراً عاقلاً، حراً، ذكراً، رجلاً، فليس له أن يسلك مسالك البهائم، والمجانين، والأرقاء، والنساء، والصبيان لأن ذلك يناقض الحكمة الإلهية، ويكون كفراً بنعمة الله تعالى.

كذلك كمال المرأة أن لا تخرج عن مسالك النساء إلى مداخل الرجال.

وكمال الرقيق أن لا يطلب السيادة وهو مقيم على الرق.

وكمال الصبي أن لا يزاحم الرجال الكُمَّل فيما يختص بهم من الرئاسات وابتداء الكلام والاستبداد بالرأي.

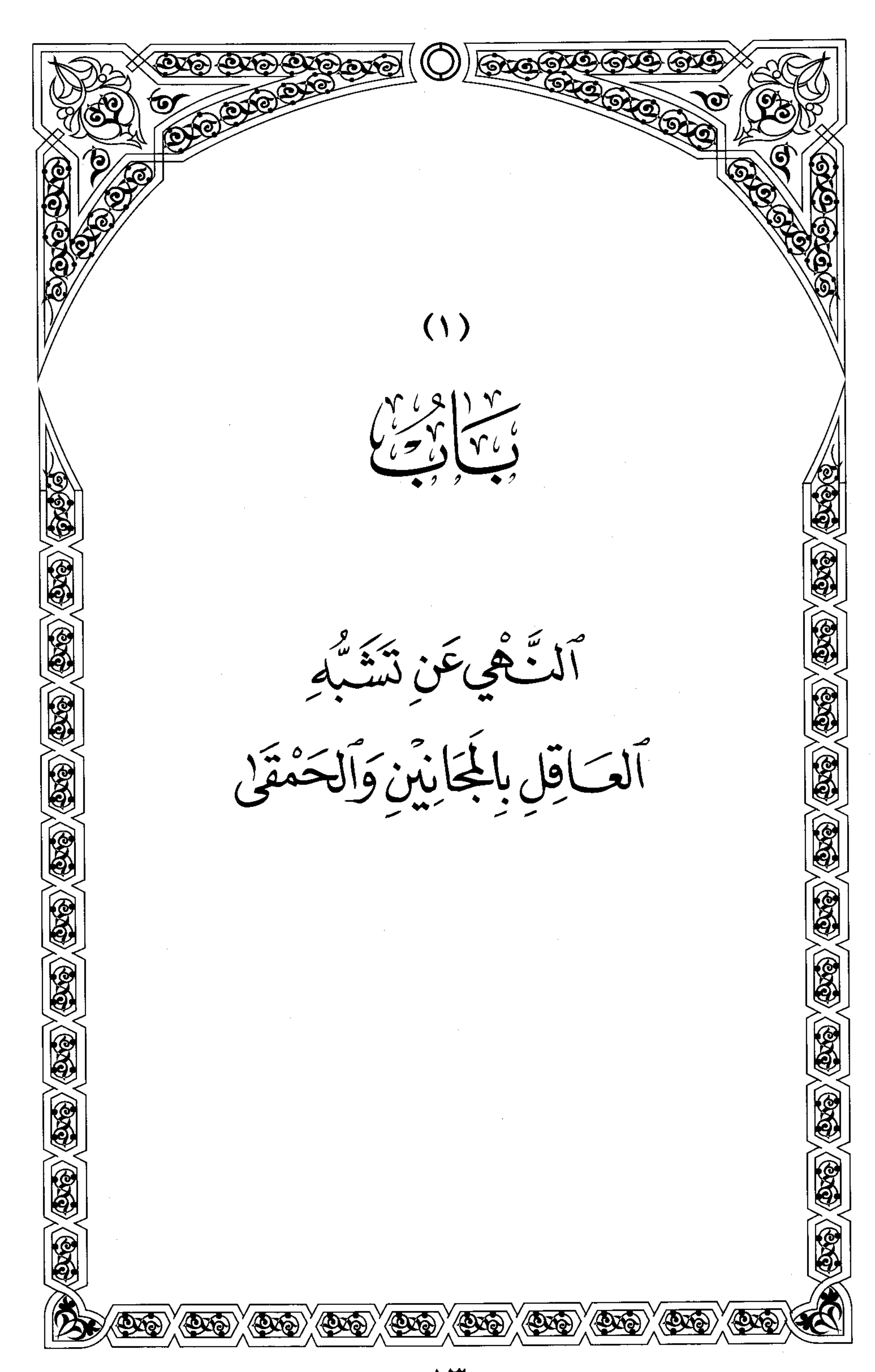
بل كمال المرء أن يكون بالمنزلة التي أنزله الله تعالى بها من صغر أو كبر، أو فقر أو غنى، حتى يكون الله تعالى هو الذي ينقله عنها إلى أكمل منها.

وإذا نقل الله تعالى العبد من حالة نقص إلى حالة كمال كانتقاله من الجهل إلى العلم فليس له أن ينزل من صفة الكمال إلى صفة النقص؛ فإن ذلك كفران للنعمة وعكس للحكمة، فتعيَّن أن نتكلم حينئذ في هذا المعنى في أبواب.

وأخَّرنا الكلام على التشبه بالبهائم لطول الكلام عليه، ولوجوه أخرى من المناسبات سنشير إليها بعون الله وتوفيقه.

❐ ❐ ❐

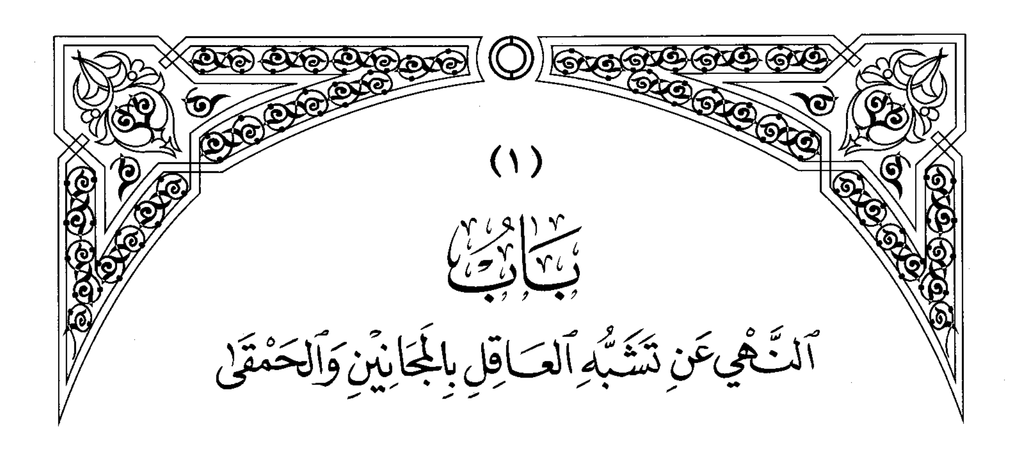




(١)

بَابُ

النَّهْيِ عَنْ تَشَبُّهِ الْعَاقِلِ بِالْمَجَانِينِ وَالْحَمْقَى



(١)

بَابُ
ٱلنَّهْيِ عَنْ تَشَبُّهِ ٱلعَاقِلِ بِالمَجَانِينِ وَٱلحَمْقَى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠].

إنما يتبعون آباءهم ولو كانوا مجانين ضُلاَّلاً.

وفيه إشارة إلى أنه لا يصلح لأن يقتدى به إلا من كان عاقلاً مهتدياً، وأن من اقتدى بمن يتصف بالجنون والضلال، وتشبه به حَرِيٌّ بالذم والإنكار عليه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾[النحل: ٩٢].

قال مقاتل، والكلبي: نزلت في امرأة خَرْقاء حمقاء من قريش يقال لها: ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد بن مناة بن تميم، وكانت بها وسوسة، كانت تغزل الغزل من الصوف، والشعر، والوبر، وتأمر جواريها بذلك، فكنَّ يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا

انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلنه، فهذا كان دأبَها. حكاه الثعلبي، وغيره[1].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص، وابنُ مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: أنها نزلت في سعيدة الأسدية، وكانت مجنونة تجمع الشعر والليف؛ أي: لتغزله وتبرمه، ثم تنقضه[2].

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي: أنها كانت امرأة بمكة تسمى: خرقاء مكة؛ كانت تغزل، فإذا برمت غزلها تنقضه[3].

وعن قتادة في الآية قال: لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها بعد إبرامه لقلتم: ما أحمقَ هذه.

قال: وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن نكث عهده[4].

والأنكاث: جمع نكث ـ بالكسر ـ: وهو النقض بعد الفتل، غزلاً كان أو حبلاً.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٣٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ١٦٢).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٦٦).

(٤) رواه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٦٦)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ١٦٣).

نهى الله تعالى عن التشبه بهذه الحمقاء المختلة في نقض ما غزلته، وهدم ما بنته؛ فإنَّ فِعْلَها اشتمل على إضاعة المال، وإضاعة الزمان في غير فائدة ولا عائدة.

ولقد روى الدينوري في «المجالسة» عن خلس قال: قيل لأعرابي ـ وأراد الحجاج قتله ـ: اشهد على نفسك بالجنون.

قال: لا أكذب على ربي وقد عافاني، فأقول: قد بلاني[1].

فتأمل كيف عرض على هذا أن يشهد على نفسه بالجنون؛ أي: بأن يتجامن ويتجانن لينجو من القتل، [فآثر القتل][2] على الاتصاف بعدم العقل!

وذكر أقضى القضاة الماوردي في «أدب الدين والدنيا» عن الأصمعي قال: قلت لغلام حَدَثٍ من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني بفصاحته: يسرك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنت أحمق؟

قال: لا والله.

قلت: ولم؟

قال: أخاف أن يجني عَلَيَّ حُمقي جناية تذهب بمالي، ويبقى عَلَيَّ حمقي.

قال الماوردي: فانظر إلى هذا الصبي كيف استخرج لفرط

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٧١).

(٢) ما بين معكوفتين زيادة من المحقق.

ذكائه، واستنبط بِجَودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سناً وأكثر تجرِبة[1].

ومن أول دليل على قبح التشبه بالمجانين والحمقى ما رواه ابن عدي في «كامله» عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَرَضاعَ الْحَمْقاءِ»[2].

والحكمة في ذلك أن الرضاع يغير الطباع، فنهى عن إرضاع الصبي من الحمقاء لئلا يسري إليه من حمقها شيء.

ولعل التشبه بالمجانين أبلغ من سريان حالهم إلى المتشبه من الرضاع في طباع الرضيع.

ولقد قال حجة الإسلام الغزالي: لا يتجنن إلا المجنون[3].

قلت: بل المتشبه بالمجنون أسوأ حالاً منه من وجهين:

الأول: أن المجنون سُلِبَ نعمة العقل فلا يطالب بشكرها، والعاقل المتشبه كفر نعمة العقل من حيث إنه لم يستعمله فيما خلق له، وهو بذلك متعرض لزوال تلك النعمة؛ فإن كفران النعم يبيدها، كما أن الشكر يفيدها ويزيدها، ولذلك قال بعض الحكماء: ما تجنن أحد قط إلا وانتهى أمره إلى الجنون.

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٨).

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٦٠) وأعله بالحسين بن علوان، وقال: كان يضع الحديث.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ١٥١).

والثاني: أن المجنون رفع عنه قلم التكليف فلا عقاب عليه، والمتشبه به مكلف فيعاقب بما أخل به من التكليفات بسبب التجني، فالمتجنن قد سلب حلاوة العقل في الدنيا وثوابه في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

والمجنون مثاب على مصيبته كالمريض، كما نص عليه الشافعي رضي الله تعالى عنه في «الأم».

وروى الشيخان عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟

فقلت: بلى.

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف؛ فادع الله لي.

قال: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ يُعافِيكِ».

فقالت: أصبر[1].

والمتجنن لا يثاب على مصيبته، بل هو من أشقى الناس.

روى الطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشْقَى النَّاسِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقْرُ الدُّنْيا

---

(١) رواه البخاري (٥٣٢٨)، ومسلم (٢٥٧٦).

وَعَذابُ الآخِرَةِ»[1].

ومن كان فقره في عقله فهو أسوأ حالاً ممن فقره في ماله لأنه سلب أحب النعم إلى الله تعالى وهو العقل، والفقير من المال سلب الدنيا وهي أبغض خلق الله تعالى إليه؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقاً هُوَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيا، وَما نَظَرَ إِلَيْها مُنْذُ خَلَقَها بُغْضاً لَها». رواه الحاكم في «تاريخ نيسابور» عن أبي هريرة رضي الله عنه[2].

وبين الدنيا وبين الحمقى مناسبة، ومن ثم تروق لهم ما لا تروق لغيرهم، وكلما تأخر الزمان نقصت العقول، وكلما نقصت العقول توافقت الدنيا مع أربابها.

ومن ثم قال بشر بن الحارث رحمه الله تعالى: يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم، ويأتي على الناس زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس. نقله المبارك ابن الأثير الجزري في كتاب «المختار من مناقب الأخيار»[3].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٨٨٧)، و(٩٢٦٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٧): رواه الطبراني في «الأوسط» بإسنادين؛ في أحدهما خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، وقد وثقه أبو زرعة، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، وفي الأخرى أحمد بن طاهر بن حرملة، وهو كذاب.

(٢) ورواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٠٠) من حديث موسى بن يسار مرسلاً.

(٣) ورواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٤٦).

والحكمة في كون الدولة آخراً للحمقى لغلبة الحمقى على الناس، فتتوافق عقول الرعاة والرعية.

قال عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»: حدثنا أبو عبدالله السلمي قال: حدثنا بشر بن الحارث بحديث حدثني به أحمد بن حنبل عن وكيع، وغير واحد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس قال: دخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ وعنده عائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت عائشة: من هذا؟

قال: «هَذا أَحْمَقٌ مُطاعٌ».

فقال بشر: نعم، هذا من المداراة.

قال لي بشر: أَقِلَّ من مخالطة الناس، واستخفف عنهم حتى تكون عزيزاً[1].

والمعنى: أنه ﷺ كان يلاطف عيينة ويداريه، وكان يكرمه ويعطيه، وهو من المؤلفة قلوبهم لكونه أحمق مطاعاً.

وهذا من النبي ﷺ تعليم لمن أدرك دولة الحمقى كيف يداريهم، فأما إخلاصهم المودة لأجل الدنيا والتوصل إلى مستلذاتها فغير مقبول.

والعاقل يتخلَّق بأخلاق أمثاله وأقرانه في زمانه ومكانه، فإن خالف ذلك فإما أن يكون الباعث له على المخالفة الانحطاط عن

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٣٤٧) دون قول بشر.

درجة العقل، أو الانسلاخ منه بالكلية فيكون من جملة الحمقى والمجانين، وإما أن يكون الباعث عليه الفاقة والإضاقة، أو طلب مساواة الناس في الدنيا والثراء، فيرضى بالتشبه بالحمقى والْمَساخر ليثرى ويتسع رزقه، ويؤثر ذلك على العقل، وقد وقع ذلك في الناس كثيراً حتى قيل: [من مجزوء الكامل المرفّل]

والعَـــيْشِ خَيْـــرٌ فِـــي خِـــلا   لِ النَّوكِ[1] مِمَّـنْ عـاشَ كَـدًّا[2]

وروى الدينوري عن الأصمعي قال: سأل أعرابي عن رجل فقالوا: أحمق مرزوق، فقال: ذاك والله الكامل[3].

فلا يستفزنك شيء من ذلك على أن تخرج عن السمت اللائق بك، والزي الذي تزينت به أولاً فتكون أحمق في نفس الأمر، وفي أعين الناس يُضرب المثل بك، ألا ترى أن العالم لا ينبغي له أن يتزيا بزي الأجناد، ولا بزي السُّوقة والغوغاء؟ ولا العامي ينبغي له أن يتخلق بخلق العلماء أو الأجناد؟ وليس العالم ولا لذي الهيئة أن يأكل في الأسواق إلا أن يعتاد عدم التقيد بذلك.

وقد سَفَّه قضاة الإسلام وشيوخ العلم أنفسهم إلا من حفظ الله عليهم عقولهم فاعتادوا الآن دخول بيوت القهوة بحيث يتساوى

---

(١) النوك: الحمق.

(٢) البيت للحارث بن حلزة، كما «الأغاني» للأصبهاني (١١/ ٥٢).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٦١).

القاضي والشيخ هما والسَّائس والحَمَّال والخادم في المجلس؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!

قال العلماء: ولو اعتاد الفقيه التعمم ولباس الفرجية والطيلسان فلا ينبغي له أن يخرج بلا عمامة ولا فرجية لإخلال ذلك بمروءته ما لو لم يعتد التقيد بذلك، وينبغي أن يعتبر أحوال السلف والخلف بهذا الميزان.

وروى أبو نعيم عن الجعيد قال: سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى للسائب بن يزيد ﷺ: هل رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يأتزر بالرداء، أو يرتدي بالإزار ثم يخرج؟

قال: نعم.

قال: لو صنع اليوم ذلك أحد لقيل: مجنون[1].

نعم، تتغير أحوال الناس في الزي والملابس باعتبار اختلاف عقولهم، وما أرى الناس كلما تأخرت الأزمان تختلف أحوالهم إلا بالنقص عن الكمال لتقهقرهم في العقول، فمتى استحسن الناس في زمن من الأزمنة زياً أو حالاً فلا يكون مقبولاً غير مأمون العاقبة إلا إن وافق الشرع ولم يصادم السنة، ولعل اختلال العقل يحمل الناس على دعوى أن بدعتهم سنة، واستحسانهم شريعة كما وقعت الإشارة في الحديث إلى ذلك، وعلى دعوى أن العلم

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٦١).

ما علموه، وأن كل علم عورضوا به جهل، ومَنْ سُلِب التوفيق وقع في ذلك كله.

ومما يدل على ذم الحماقة والجنون: أن العلم لا يصلح من فسادهما شيئاً، ولا يزين العلم شيء مثل العقل ونزاهته عن الرُّعونة، حتى قال أرسطاطاليس: زيادة العلم في الرجل الأحمق كزيادة الماء في أصول الحنظل؛ كلما ازداد علماً ازداد حماقة.

ومن ثم استعاذ رسول الله ﷺ من علم واسع[1]؛ فإنه لا ينفع إلا مع العقل.

وقيل [من الكامل]:

الْعِلْـمُ لِلرَّجُـلِ اللَّبِـيبِ زِيـادَةٌ ... وَنَقِيـصَةٌ لِلأَحْمَـقِ الطَّيَّـاشِ
مِثْلَ النَّهارِ يَزِيـدُ إِبْـصارَ الـوَرَى ... نُـوراً وَيُعْـشِي أَعْـيُنَ الْخَفَّـاشِ

* تَنْبِيهٌ:

قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من: حمقت السوق: إذا كسدت، وكأن الأحمق كاسد العقل والرأي، فلا يُشاور، ولا يلتفت إليه في أمر حرب أو غيره[2].

قال في «الصحاح»: الْحُمق والْحَمَق: قلة العقل[3].

---

(١) كذا في «أ»، ولعل الصواب: «لا ينفع».

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٢).

(٣) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٦٤) (مادة: حمق).

وفرَّق ابن الجوزي بين الحمق والجنون بأن الحمق هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود، بخلاف الجنون؛ فإنه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعاً[1].

ثم ذهب أكثر الناس إلى أن الحمق غريزة، حتى قال أبو إسحاق السبيعي رحمه الله تعالى: إذا بلغك أن غنياً افتقر فصدق، وإذا بلغك أن فقيراً استغنى فصدق، وإذا بلغك أن حياً مات فصدق، وإذا بلغك أن أحمق استفاد عقلاً فلا تصدق.

وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: بلغني أنه قيل لعيسى عليه السلام: يا روح الله! إنك تحيي الموتى؟

قال: نعم بإذن الله.

قيل: وتبرىء الأكمه والأبرص؟

قال: نعم بإذن الله.

قيل: فما دواء الحمق؟

قال: هذا الذي أعياني. رواهما ابن الجوزي[2].

وأنشد بعض الحكماء [من الخفيف]:

وَعِـلاجُ الأَبْـدانِ أَيْـسَرُ خَطْبـاً   حِينَ تَعْتَلُّ مِنْ عِلاجِ الْعُقُـولِ[1]

---

(١) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٢).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٣).

وقيل: [من البسيط]

لِكُــلِّ داءٍ دَواءٌ يُـسْتَطَبُّ بِـهِ إلاَّ ... الْحَماقَةَ أَعْيَـتْ مَـنْ يُـداوِيها[2]

وفي معناه ما أنشده الجوهري لقيس بن الحطيم [من الوافر]:

وَداءُ الْجِـسْمِ مُلْـتَمِسٌ شِـفاءً ... وَداءُ النُّـوكِ لَـيْسَ لَـهُ شِـفاءُ[3]

والنوك ـ بالضم ـ: الحمق.

فإن قلت: إذا كان الحمق غريزة فهو لا يدخل تحت الاختيار، فكيف ينهى عن التحامق والتشبه بالحمقى؟

قلت: إنما يقع النهي عن محاكاة الأحمق في مثل فعله وزيه لا في نفس الحمق، ومن ثم لا يقال للحاكي: أحمق إلا على تأويل، بل يقال: متحامق ومتشبه، ومن الناس من سماه: أرعن؛ ذاهباً إلى أن الرعونة تتولد من معاشرة النساء وغيرهن من ضعفاء العقول، وزعم أن الأرعن في الذم أسهل من الأحمق، والأنوك، ثم المائق أبلغ من الأحمق.

قال في «الصحاح»: الموق: حمق في غباوة، يقال: أحمق مائق، والجمع موقى؛ مثل: حمقى ونوكى[4]، وأقره صاحب «القاموس»[5].

---

(1) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(2) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٢١١).

(3) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦١٢) (مادة: نوك).

(4) انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٥٥٧)(مادة: موق).

(5) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١١٩٣) (مادة: موق).

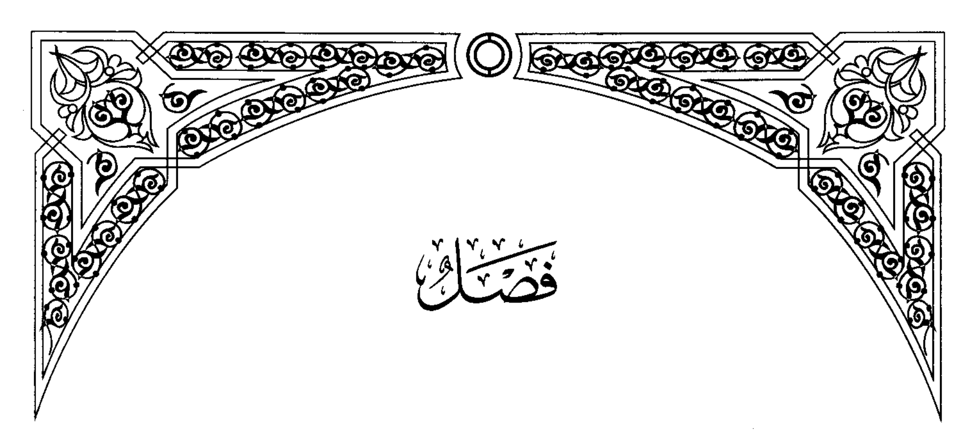
والحماقة تختلف اختلافاً كثيراً كالجنون، وكما قيل: الجنون فنون، والحماقة أيضاً فنون وألوان لا تكاد تنضبط.

قال أبو بكر النقاش: قيل لإبراهيم النظام: ما حد الحمق؟

قال: سألتني عما ليس له حد. رواه الخطيب، وغيره[1].

* * *

(١) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٥).



فصل

اعلم أن الجنون تارة يقع به الاختلال في أمور الدنيا، وتارة في أمور الآخرة.

فأما الأول: فهو أن الجنون قد يغلب عليه الخوف والحزن، فلا يلتفت إلى نعيم الدنيا، فربما ترك النساء ولم يلتفت إليهن، وربما أعرض عن أكل الخشكنان[1]، وأكل خبز الخشكار[2]، وربما ترك شم الرياحين، ونام في مجتمع القمامات والسراجين.

وقد يغلب عليه الأنس والطرب، فيموت ولده ولا يحزن، ويَخْرَب بيته ولا يهتم، ويذهب ماله ولا يتأثر، ويصفع عنقه ولا يغضب، وتتوالى عليه المصائب ولا يضجر، ولا يوحشه من غاب، ولا يؤنسه من حضر؛ فهذه الأحوال قد يحسن التوصل إليها والتخلق بها من العقلاء، لا من حيث تصدر من المجانين، بل من

(١) الخشكنان: فارسي وهو خبزة تصنع من خالص دقيق الحنطة، وتملأ بالسكر واللوز أو الفستق وتقلى.

(٢) الخشكار: فارسي وهو الخبز الأسمر غير النقي.

حيث النظر في العواقب؛ فإن التلذذ بالدنيا على وجه الغفلة قد يمنع من لذة الآخرة أو بنفعها، والاشتغال بالدنيا ونعيمها ليس من العقل في شيء إلا من حيث الاستعانةُ بها على الآخرة، وذلك بأن يستكثر العاقل من ذكر الموت، والبعث والنشور، والسؤال والحساب، والقصاص في الآخرة، وذكر عظمة الله تعالى وسطوته حتى يخاف، ويرهب ويحزن على ما فات من عمره في غير الطاعة، فتغلب عليه هذه الأحوال حتى تمنعه عن الالتفات إلى نعيم الدنيا، والتمتع بالنساء، والتقلب في الأموال والملابس، والمطاعم والمشارب، وسائر الملاذ، وهذا حال عقلاء المجانين وكثير من أولياء الله تعالى.

روى أبو عبيد القاسم بن سلام عن سليمان بن سُحيم قال: أخبرني من رأى ابن عمر رضي الله عنهما يصلي وهو يترجح ويتمايل ويتأوه، حتى لو رآه غيرنا ممن يجهله لقال: لقد أصيب الرجل، وذلك لذكر النار إذا مر بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾[الفرقان: ١٣]، أو نحو ذلك[١].

وروى الدينوري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن الفتى الذي كلم أيوب عليه السلام في بلائه قال له: يا أيوب! أما علمت أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله من غير عِي ولا بَكَم، وإنهم لهم النبلاء الطلقاء، الفصحاء العالمون بالله وبأيامه، ولكنهم إذا ذكروا

---

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١/ ١٥٩).

عظمة الله تقطعت قلوبهم، وكَلَّت ألسنتهم، وطاشت عقولهم فَرَقاً من الله وهيبته[1].

وعن ذي النون رحمه الله تعالى قال: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روانيق القلوب، وسَقَوها بماء التوبة، فأثمرت ندماً وأحزاناً، فجَنُّوا من غير جنون، وتبلَّدوا من غير عي ولا بكم، وإنهم لهم الفصحاء البلغاء، الدرباء العارفون بالله ﷻ، وبرسوله ﷺ، وبأمر الله تعالى[2].

وروى أبو نعيم عن الحسن رحمه الله تعالى قال: إن عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، قلوبهم محزونة، وسرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة، أما الليل فصافَّة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، فيجأرون لبارئهم؛ ربَّنا ربَّنا، وأما النهار فحلماء علماء، بررة أتقياء، كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم مرض، أو خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمرٌ عظيم[3].

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: لقيت مرة شيخاً متظاهراً

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٧٩).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٣).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥١).

بالجنون فناديته: قف يا مجنون، فالتفت إلي، وقال لي: أتدري من المجنون؟

فقلت: لا.

فقال: المجنون من يخطي خطوة ولم يذكر الله تعالى[1].

وروى ابن جهضم عن ذي النون رحمه الله تعالى قال: قلت لفليح المجنون: ما الذي جنَّنك وأذهب عقلك؟

فقال لي: لما طال حبسي في الدنيا صرت مجنوناً لخوف فراقه.

وروى الدينوري عن ابن أبي فديك رحمه الله تعالى قال: كان هاهنا بالمدينة في سنة سبع وثمانين رجل يكنى: أبا نصر بن جهينة، ذاهب العقل في غير ما الناس فيه، لا يتكلم في شيء من أمر الدنيا، وكان يجلس مع أهل الصفة في آخر مسجد رسول الله ﷺ، وكان إذا سئل عن الشيء أجاب جواباً معجباً حسناً.

قال ابن أبي فديك: فأتيته يوماً وهو مع أهل الصفة منكِّساً رأسه، واضعاً جبهته بين ركبتيه، فجلست إلى جنبه، فحركته، فانتبه، فأعطيته شيئاً كان معي، فأخذه، وقال: قد صادف منا حاجة.

فقلت له: يا أبا نصر! ما الشرف؟

فقال: حمل ما ناب العشيرة أدناها وأقصاها، والقبول من محسنها، والتجاوز عن مسيئها.

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (ص: ١٣٣).

قلت: فما المروءة؟

قال: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وتوقي الأدناس، واجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها.

قلت: فما السخاء؟

قال: جهد المقل.

قلت: فما البخل؟

قال: أُفٍّ، وحوَّلَ وجهه عني.

فقلت: إنه لم تجبني بشيء.

قال: بل قد أجبتك.

قال ابن أبي فديك: وقدم هارون أمير المؤمنين، فأحب أن ينظر إليه، فلما أتاه هارون حرك أبا نصر بيده، فرفع رأسه وهارون واقف، فقيل له: يا أبا نصر! هذا أمير المؤمنين واقف عليك.

فرفع رأسه إليه فقال: أيها الرجل! إنه ليس بين الله وبين أمة نبيه ﷺ خلق غيرك، وإن الله سائلك، فأَعِدَّ للمسألة جواباً، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لو ضاعت سخلة على شاطىء الفرات لخاف عمر أن يسأله عنها.

فبكى هارون وقال: يا أبا نصر! إن رعيتي ودهري غير رعية عمر ودهره.

فقال له أبو نصر: هذا والله غير مغنٍ عنك، فانظر لنفسك؛ فإنك

وعمر تسألان عما خَوَّلَكُما الله تعالى فيه.

ثم دعا هارون بِصُرَّة فيها مئة دينار فقال: ادفعوها إلى أبي نصر.

فقال: وهل أنا إلا رجل من أهل الصفة؟ ادفعوها إلى فلان يفرقها بينهم ويجعلني رجلاً منهم[1].

وروى أبو نعيم عن أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى: أنه كان يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان، ويقول: اذكروا الله حتى يقول الجاهل: إنك مجنون[2].

وروى أبو نعيم عن إسحاق بن خلف قال: قال سفيان رحمه الله تعالى لشاب يجالسه: أتحب أن تخشى الله حق خشيته؟

قال: نعم.

قال: أنت أحمق؛ لو خفته حق خوفه ما أديت الفرائض[3].

معناه: أنه كان يتبلبل عقله من شدة الخوف فلا يهتدي إلى تأدية الفرائض.

ومن أحسن ما قيل في وصف أولياء الله تعالى [من الكامل]:

فَهُمُ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا الأَشْغالا ... بَذَلُوا النُّفُوسَ وَأَنْفَقُوا الأَمْوالا

تَرَكُوا النِّساءَ كَأَنَّهُنَّ أَرامِلٌ ... قَبْلَ الْمَماتِ وَأَيْتَمُوا الأَطْفالا

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٦٩).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٢٤).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٠).

وَتَجَوَّعوا وَتَعَطَّشوا وَتَـضَمَّروا   طَلَبَ السِّباقِ وَخَفَّفـوا الأَثْقـالا

وَتَغَرَّبـوا وَتَعَزَّبـوا عَـنْ أَهْلِهِـمْ   حَذَرَ الفَواتِ وَفَكَّكوا الأَغْـلالا

فَطَمُوا عَنِ الدُّنْيا نُفوسـاً طالَمـا   كانَـتْ تَتِيـهُ عَلـى النَّعِـيمِ دَلالا

خافُوا البَيـاتَ فَـشَمَّروا بِعَزِيْمَـةٍ   طَلَبَ النَّجاةِ وَكابَـدوا الأَهْـوالا

حَتَّى إِذا بَلِيَتْ ضَنًى أَجْـسامُهُمْ   وَهَــوى شُــجوناً فِــي الْهَــوى

وَرَدوا جَنابَ مَلِـيكِهِمْ فَحَبـاهُمُ   زَيْنـاً يَفُـوقُ الفَرْقَـدَيْنِ مِثـالا[1]

وقد يكثر العاقل الفكر في سعة رحمة الله تعالى وكثرة عفوه، ويذكر لطفه بكثير من خلقه ورأفته بهم، فيغلب عليه الرجاء والفرح بفضل الله تعالى، فلا ينزعج بشيء من مصائب الدنيا، ولا يحزن على شيء فاته منها؛ خصوصاً إذا اطلع على ما أعده الله تعالى للصابرين من الأجر العظيم والثواب الكثير، وذلك عن ذوي الدنيا معدود في أحوال المجانين المولهين في الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «اذْكُرِ اللهَ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ». رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححاه، عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه[2].

وروى أبو نعيم عن عصام بن يزيد قال: ربما كان يأخذ سفيان رحمه الله تعالى في التفكر فينظر إليه الناظر، فيقول: مجنون[3].

---

(١) انظر: «التذكرة في الوعظ» لابن الجوزي (ص: ٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٩٢).

وكذلك لو غضب الإنسان لله تعالى لمشاهدة منكر في الدين، فاضطربت أحواله، وتبلبلت أقواله حتى صار في مثل حال المجانين؛ فإنه محمود على هذه الحالة ويثاب عليها.

روى ابن أبي شيبة عن أبي سلمة رحمه الله تعالى قال: لم يكن أصحاب النبي ﷺ متحرفين ولا متهاونين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه دارت حَمَاليق عينيه كأنه مجنون[١].

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ: «قَلِيلُ التَّوْفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ العَقْلِ، وَالعَقْلُ فِي أَمْرِ الدُّنْيا مَضَرَّةٌ، وَالعَقْلُ فِي أَمْرِ الدِّينِ مَسَرَّةٌ»[٢].

ومقتضاه أن العبد إذا حمله التوفيق على إنكار المنكر ـ ولو أخل إنكاره بشيء من أحواله الدنيوية المستحسنة عقلاً عند أهل الدنيا ـ فلا بأس عليه، بل هو على خلق محمود وخير موجود.

ومن غلب عقله في الدين على عقله في الدنيا لمطالعة أسرار الملكوت ظهرت محاسنه، وتميز بها على أهل الدنيا، وظهر حسن فهمه، وصحة نظره كما روى الدينوري عن إبراهيم بن حبيب قال: [سمعت أبا نعيم يقول]: مر أبو الديك ـ وكان معتوهاً ـ بمعلم كتاب

---

(١) تقدم تخريجه، وعنده: «متماوتين» بدل «متهاونين».

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٠/ ٣٤٩).

[جبانة كندة][1] وهو ينشد [من الكامل]:

إِنَّ الـصَّنِيعَةَ لا تَكُـونُ صَـنِيعَةً حَتَّى يُصابَ بِها طَرِيقُ الْمَـصْنَعِ

فقال له أبو الديك: كذبت، لا يكون المعروف معروفاً حتى يصرف في أهله وفي غير أهلـه، ولو كان لا يصـرف إلا في أهله كنت لا ينالني منه شيء[2].

وعن حفص بن غياث قال: مررت بطاق المحاملي، فإذا أنا بعليان المجنون جالس، فلما جزته سمعته يقول: من أراد سرور الدنيا وحزن الآخرة فليلتمس ما هذا فيه.

قال: فو الله لتمنيت أني كنت مت قبل أن ألي القضاء[3].

وربما غلب الوجد على أهل الله تعالى والوَلَه حتى يغيبوا عن وجودهم، فتبدو منهم أفعال وأحوال لو صدرت عن أحد وهو مشاهد العقل والإحساس بين أيديهم لحكموا عليه أنه خرج عن حد العقل، وألحقوا تلك الأفعال بأحوال المجانين كالرقص، والدوران، وتخريق الأثواب، وهي حالة شريفة علامة صحتها أن تحفظ على صاحبها أوقات الصلوات، وسائر الفرائض، فترد عليهم فيها عقولهم، وهذا حال جماعة من أولياء الله تعالى منهم: أبو بكر الشبلي، وأبو الحسين

---

(١) بياض في «أ» و«ت»، والمثبت من«المجالسة».

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٧٠).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٧٠).

النوري، وسمنون المحب، وبهلول، وأمثالهم.

وروى أبو الفرج بن الجوزي في «صفة الصفوة» عن فتح بن شحرف رحمه الله تعالى قال: كان سعدون صاحب المحبة لله ﷻ وصلَ صيام ستين سنة حتى خف دماغه، فسماه الناس مجنوناً لتردد قوله في المحبة، قال: فغاب عنا زماناً، فبينا أنا قائم على حلقة ذي النون رأيته عليه جبة صوف وعليها مكتوب: لا تباع ولا تشترى، فسمع كلام ذي النون، ثم أنشأ يقول [من الطويل]:

وَلا خَيْرَ فِي شَكْوى إِلَى غَيْرِ مُشْتَكَى

وَلا بُدَّ مِنْ شَكْوى إِذا لَمْ يَكُنْ صَبْرُ[1]

وروى الخطيب عن الأصمعي قال: مررت بسعدون المجنون فإذا هو جالس عند رأس سكران، فقلت له: ما باله؟

فقال: إنه مجنون.

فقلت له: أنت مجنون أو هو؟

فقال: لا، بل هو.

قلت: من أين قلت ذاك؟

قال: لأني صليت الظهر والعصر جماعة، وهو لم يصل جماعة ولا فرادى.

---

(١) رواه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٥١٣)، وكذا أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٧١).

فقلت له: فهل قلت في ذلك شيئاً؟

فأنشأ يقول [من المتقارب]:

تَرَكْتُ النَّبِيذَ لأَهْلِ النَّبِيذِ ... وَأَصْبَحْتُ أَشْرَبُ ماءً قراحا

لأَنَّ النَّبِيذَ يُذِلُّ العَزِيزَ ... وَيَكْبُو الوُجُوهَ النِّضارَ الصِّباحا

فَإِنْ كانَ ذا جائِزاً لِلشَّبابِ ... فَما العُذْرُ فِيهِ إِذا الشَّيْبُ لاحا[1]

وروى ابن جهضم عن سَرِي السَّقَطي رحمه الله تعالى قال: خرجت يوماً إلى المقابر، فرأيت بهلولاً رحمه الله تعالى قد دلى رجليه في قبر يعبث بالتراب، فقلت له: أي شيء تصنع هاهنا؟

فقال: أنا عند قوم لا يؤذونني، وإن غبت عنهم لا يغتابوني.

فقلت له: لا تكون جائعاً؟

فولى، وأنشأ يقول: [من الطويل]

تَجَوَّعْ فَإِنَّ الْجُوعَ مِنْ عَلَمِ التَّقي ... وَإِنَّ طَويلَ الْجُوعِ يَوماً سَيَشْبَعُ

فقلت له: إن الخبز قد غلا.

فقال: والله ما أبالي ولو بلغت حبة بمثقال؛ علينا أن نعبده كما أمر، وعليه أن يرزقنا كما وعد.

ثم ولى، وهو يقول [من الرمل]:

---

(١) انظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٥١٥).

أُفٍّ لِلدُّنْيا فَلَيْسَتْ لِي بِدارٍ إِنَّمـا الرَّاحَـةُ فِـي دارِ القَـرارِ
أَبَـتِ السَّاعاتُ إِلاَّ فُرْقَـةً فِي بِلى جِسْمِي بِلَيْلٍ أَوْ نَهـارِ[1]

وذكر اليافعي في «روض الرياحين» عن بعضهم قال: رأيت الشبلي قائماً يتواجد وقد خرق ثوبه، وهو يقول [من المديد]:

شَـقَقْتُ ثَوبِـي عَلَيْـكَ شَـقًّا وَمـا لِثَوبِـي أَرَدْتُ حَقَّـا
أَرَدْتُ قَلْبِـي فَصَادَفَتْهُ يَـداي بِالْجَيـبِ إذ يُـوَقَّى
لَـوْ كـانَ قَلْبِـي مَكـانَ جَيْبِـي لَكـانَ لِلشَّقِّ مُسْتَحِقَّا

وروى الرافعي في «أماليه» ـ بسنده ـ أن سمنون كان جالساً على الشط وبيده قضيب يضرب به فخذه وساقه حتى تبدد لحمه، وهو يقول [من السريع]:

كـانَ لِـي قَلْـبٌ أَعِـيشُ بِـهِ ضـاعَ مِنِّـي فِـي تَقَلُّبِـهِ
رَبِّ فَـارْدُدْهُ عَلَـيَّ فَقَـدْ ضـاقَ صَـدْرِي فِـي تَطَلُّبِـهِ
وَأَغِـثْ مـا دامَ لِـي رمَـقٌ يـا غِيـاثَ الْمُسْتَغِيثِ بِـهِ[2]

وروى ابن الجوزي عن أبي بكر الشبلي رحمه الله تعالى قال: رأيت يوم الجمعة سمنون عند جامع الرصافة عرياناً، وهو يقول: أنا

---

(١) ورواه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٥١٧)، ورواه البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ٢٦٠) بمعناه مع بعض الاختلاف.

(٢) ورواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٦٠).

مجنون الله، أنا مجنون الله.

فقلت: لم لا تدخل الجامع، وتتوارى وتصلي؟ فأنشأ يقول [من الطويل]:

يَقُولُــونَ زُرْنــا وَاقْــضِ واجِــبَ حَقِّنــا
وَقَــدْ أَسْــقَطَتْ حــالِي حُقُــوقَهُمُ عَنِّــي

إذا هُــمْ رَأَوْا حــالِي وَلَــمْ يَــأْنَفُوا لَهــا
وَلَــمْ يَــأْنَفُوا مِنْهــا أَنِفْــتُ لَهُــمْ مِنِّــي[1]

وأنشد الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد الزهري الشافعي مفتي دمشق معتذراً عن كشف رؤوس الفقراء في الذكر [من الطويل]:

يَلومُــونَنِي فِــي كَــشْفِ رَأْسِــي وَإِنَّنِــي
لَمُعْتَــرِفٌ أَنِّــي عَلَــى ذاكَ أُوجَــرُ

لِقَــصْدِي بِــهِ إِظْهــارَ ذِلَّتِــيَ الَّتِــي
هِــيَ الْمَقْــصِدُ الأَسْــنَى لِمَــنْ يَتَبَــصَّرُ

فأما من أظهر هذه الأحوال تعمداً للتوصل إلى الدنيا، أو ليعتقده الناس ويتبركوا به، أو لنحو ذلك، ففعله هذا من أقبح الذنوب المُهْلِكات، والمعاصي الموبقات.

---

(١) رواه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٥١٩).

وقد روى عبدالله ابن الإمام أحمد عن أبي عمران الجوني قال: وعظ موسى عليه السلام قومه، فشق رجل منهم قميصه، فقيل لموسى عليه السلام: قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ليشرح لي عن قلبه[1].

وربما حملته محبة الدنيا كثيراً من المتصوفة على صرف الهمة في التأنق بهذه الأحوال، والدخول في طلبها في كل باب وَلَهاً بالدنيا وولعاً بها، وهم يظهرون التولُّه في الله تعالى، ومن وصل في طلب الدنيا إلى هذه الحالة فهو أسوأ حالاً من المجانين حقيقة، وأوغل في الشرك ممن طلب الدنيا بالدُّفِّ والمزمار.

وقد روى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم من طريقه عن فرات ابن سلمان، [أن] أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه كان يقول: ويل لكل جَمَّاع فاغرٍ فاهُ كأنه مجنون، يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده، لو يستطيع لوصل الليل بالنهار، ويله من حساب غليظ وعذاب شديد[2]!

*** تَنْبِيهٌ:**

روى أبو نعيم عن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: لو أن رجلاً عاقلاً تصوَّف لم يأت الظهر

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٨٧).

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ١٤٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢١٧).

حتى يصير أحمق[1].

قلت: كثيراً ما كنت أحسب أن الشافعي ﷺ أراد بذلك ذم التصوف كما فهمه من كلامه غير واحد، ثم ظهر لي أنه لا يريد الذم لأن العاقل لا يدخل في باب إلا خرج من عُهدة ما فيه، والتصوف إذا أريد به التعبد وتطهير القلب من الأخلاق الذميمة، وتبديل الأخلاق الجميلة بها، والتأدب بآداب الشريعة فلا ينبغي ذمه أصلاً.

وإنما أراد الشافعي رضي الله تعالى عنه أن العاقل إذا تصوف رفض الدنيا، ولم يعبأ بها، وآثر زيَّ الفقراء، وغلب عليه الحب والوَلَه، وخوف العاقبة، فتبدو عليه أحوال هي عند أهل الدنيا من صفات المجانين، وسمات الحمقى والمغفلين، وذلك على حد قوله ﷺ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ»[2].

فقول الشافعي: حتى يصير أحمق معناه: حتى يرى الناس أنه أحمق.

* تَنْبِيهٌ آخَرُ:

روى البزار عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ»[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٤٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ورواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣١٣) وقال: بهذا الإسناد منكر، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٨٩)، و(٩٩٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٦٨).

وروى البيهقي في «الشعب» عن أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ـ قال: سئل أبو عثمان عن قوله: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ»، [فقال: الأبله] في دنياه الفقيه في دينه[1].

وقال الأوزاعي في الحديث: هو الأعمى عن الشر، البصير بالخير[2].

وقال سهل بن عبدالله: هم الذين ولهت قلوبهم وشغلت بالله[3].

رواهما البيهقي أيضاً.

وقال الجوهري: يعني: البله في أمر الدنيا لقلة اهتمامهم بها، وهم أكياس في أمر الآخرة.

قال الزبرقان بن بدر: خير أولادنا الأبله العقول؛ يريد أنه لشدة حيائه كالأبله، انتهى[4].

هذا الحديث قاضٍ بمدح العقل والذكاء في الدين، والبَلَه والتعقل في أمور الدنيا، وهو مؤيد لما ذكرناه.

وفي حديث أبي الدرداء المتقدم: «قَلِيلُ التَّوفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ العَقْلِ»؛ أي: الدهاء، والعقل في أمر الدنيا مضرة، والعقل في أمر الدين مسرة.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧١).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧٠).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٦٩).

(٤) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٢٢٧) (مادة: بله).

وأما الثاني: وهو وقوع الإخلال بالجنون في أمور الآخرة؛ فإن المجنون لا يتصور اللذة فيطلبها، ولا الشدة فيتجنبها، فلو تصور ألم العقاب لكان ربما لا يعمل معصية ولا يرتكب قبيحة، ولو تصور لذة الثواب لكان ربما لا يدع فريضة ولا يفوت فضيلة، ولكنه لا يتصور شيئاً من ذلك، ولهذا رفع عنه التكليف؛ إذ لا يهتدي إلى صلاة، ولا صيام، ولا صدقة، ولا يخرج من عهدة طاعة أصلاً، وقد تراه يصلي ويتكلم، أو يحدث في صلاته، أو يقطعها متى خطر له، أو يزيد فيها، وقد ينوي الصبح في وقت العشاء، وعكسه، وربما صفع أباه، أو بطش بسلطانه، وبمن لم يوده، وربما وقع على غير أهله، وكشف عن سوءته في ملأ الناس، ومزَّق أثوابه، وأتلف ماله أو مال غيره، وربما كسر الآنية، وأهلك الأمتعة، إلى غير ذلك من القبائح.

فتشبه العاقل به في ذلك أو في شيء منه غير سائغ ولا جائز؛ لأن المجنون يسامح في ذلك إلا لما لم يكن عقل يعقل به قبح هذه الأمور ومقاصدها، ويتعرف به ما يحمد عاقبته من أفعاله، وما تُذم عاقبته في الدار الآخرة.

وأما العاقل فإنه يعقل ذلك كله، فلا عذر له في فعل شيء من ذلك، فمن تابع هواه في شيء تذم عاقبته، وأعرض عن مقتضى العقل فهو ملحق بالمجانين من حيث إنه لم ينتفع بالعقل، ولكنه غير معذور كما يعذر المجانين لأن له عقلاً.

ومن ثم أطلق الحكماء اسم الجنون على كل وصف حمل صاحبه

على ما لا تحمد عاقبته خصوصاً المعاصي كالشباب والعشق، ومن هنا سمي مجنون ليلى مجنوناً.

وروى الخرائطي في كتاب «اعتلال القلوب» عن زيد بن خالد الجهني رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّبابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنونِ، وَالنِّساءُ حبالَةُ الشَّيْطانِ»[1].

ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» من حديث عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه[2].

وقال الشاعر: [من الخفيف]

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ وَالشَّعَرَ الأَسْـ وَدَ ما لَمْ يُعاصَ كانَ جُنوناً

وأنشد ابن قتيبة في «عيون الأخبار»: [من البسيط]

قالَتْ شَهِدْتُكَ مَجْنُوناً فَقُلْتَ لَها إِنَّ الشَّبابَ جُنونٌ بُرْؤُهُ الْكِبَرُ[3]

وهذا البيت لأبي عبد الرحمن محمد بن عبيدالله العتبي البصري الشاعر المشهور، وقبله:

---

(1) رواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (1/ 208)، وكذا القضاعي في «مسند الشهاب» (116).

(2) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (54) لكن عن عائشة رضي الله عنها.

(3) انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (ص: 256)، وعنده: «عهدتك» بدل «شهدتك».

لَمَّا رَأَتْنِيَ سَلْمى قاصِراً بَـصَرِي عَنْها وَفِي الطَّـرْفِ عَـنْ أَمْثالِهـا

ذكره القاضي شمس الدين خلكان في «تاريخه»[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه قال: ليس العاقل الذي يتحيَّل في الأمر الذي يقع فيه حتى يخلُص منه، ولكن العاقل الذي يتوقى الأمور حتى لا يقع فيها[2].

قلت: ومن ثم قال الشافعي رحمه الله تعالى: لا يدخل في الوصية أحمق أو لص. رواه أبو نعيم في «الحلية»[3].

ومن هذا القبيل ـ أعني: عدم النظر في العواقب ـ الذي هو من أحوال الحمقى والنوكى أن يكون الإنسان كامل الشهوة، واجداً لطَول الزوجة، ولا يتزوج.

روى عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب ﷺ: أنه قال لرجل: أتزوجت؟

قال: لا.

قال: إما أن تكون أحمق، وإما أن تكون فاجراً[4].

وروى هو وابن أبي شيبة عن إبراهيم بن ميسرة قال: قال لي

---

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٣٩٩).

(٢) ورواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٥٩).

(٣) ورواه ابن القيسراني في «المؤتلف والمختلف» (ص: ١٠٣).

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٣٨٣).

طاوس رحمه الله تعالى: لتنكحن أو لأقولن لك ما قال عمر رضي الله تعالى عنه لأبي الزوائد: ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور[1].

ومن هذا القبيل أيضاً ما رواه الثعلبي عن شريح الكعبي صاحب رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتموني أتصدق بشر ما عندي فاكووني ـ أي: داووني بالكَي ـ فإني مجنون[2].

وذلك لأن المتصدق يدخر الصدقة لنفسه في آخرته، والذي يأكل ويلبس ويتمتع به في الدنيا يبليه ويفنيه، والذي يدعه حتى يموت يتركه لغيره، وتبقى تبعته عليه، ومن يدخر لنفسه الأدنى والأردى، ويُتلف الجيد أو يدعه لغيره أقرب شيء إلى الجنون.

ومن ذلك ما ذكره المزي في «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» في ترجمة أبي مُسهر عبد الأعلى بن مُسهر عن يحيى بن معين رحمه الله تعالى قال: إن الذي يحدث بالبلد وبها من هو أولى منه بالحديث أحمق؛ إذا رأيتني أحدث ببلدة فيها أبو مسهر فينبغي للحيتي أن تحلق[3].

ووجه ذلك أن من حدث، أو أفتى في بلدة فيها أعلم منه، أو أحفظ لا يأمن أن يكون عاقبة أمره أن يخطأ من قبل من هو أعلم منه لإخلاله بشرط في الرواية، أو قيد في المسألة.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٠٣٨٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥٩١٠).

(٢) رواه الثعلبي في «التفسير» (٢/ ٢٧٠).

(٣) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٦/ ٣٧٤).

وكذلك حال من يفيد مسألة في حضرة من هو أعلم منه بها، أو يخبر بخبر في حضرة من أخبره به، وحال من يتكلم في أمرٍ غيرُه أولى بالتكلم فيه لتقدمه عليه في سن، أو معرفة، أو شرف.

١ ـ ومن أحوال الحمقى، والمجانين: الكبر، والعجب، والخيلاء، والإعجاب بالرأي.

وذلك يوجب ما ذكرناه آنفاً من التكلم بحضرة من هو أولى منه بالتكلم.

والمرء قد يخرج بهذه الصفات عن طباع العقلاء في لباسهم، وحليتهم، ومشيهم، وكلامهم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[الإسراء: ٣٧] إشارةٌ إلى ذلك؛ لأن من مشى هذه المشية، فكأنه صار له خرق الأرض أو مطاولة الجبال، وهذا مما لا يكون، ومحاولة ما لا يكون جنون.

وقال محمد بن علي الباقر رحمه الله تعالى: ما دخل قلبَ امرىء شيءٌ من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله[1] من ذلك قل ذلك أو كثر. رواه أبو نعيم[2].

وحكي أن قوماً مشوا خلف علي رضي الله عنه فقال: [كفُّوا] عني خفق

---

(١) في «أ» و«ت»: «مثله، والظلم» بدل «مثل ما دخله».

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٠).

نعالكم؛ فإنها مشغلة لقلوب نوكى الرجال[1].

وروى أبو نعيم عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى: أنه قام يوماً من مجلسه وتبعه الناس، فقال: يا قوم! لا تطؤوا عقبي، ولا تمشوا خلفي.

ووقف فقال: حدثنا أبو الأشهب عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن خفق النعال خلف الأحمق قلَّ ما يبقي من دينه[2].

وقال بعض القدماء: في العجب بالنعمة تهجين العقل، والعجب مأفون؛ أي: أحمق.

وقال آخر: ما يعجب إلا امرؤ ليس له عقل ولا دين.

وقال الماوردي في «أدبه»: وحكي عن عمر بن حصن: قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك بالعراق؟

قال: خير منزل لو كان الله تعالى بلغني أربعة، فتقربت إليه بدمائهم.

قيل: ومن هم؟

قال: مقاتل بن مسمع: ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما عزل دخل مسجد البصرة، فبسط الناس له أرديتهم،

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٥٣٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٢).

فمشى عليها، وقال لرجل يماشيه: لمثل هذا فليعمل العاملون.

وعبدالله بن زياد بن ظبيان التيمي: حزَّب أهل البصرة، أمر فخطب خطبة فيها، فنادى الناس من أعراض المسجد: أكثر فينا مثلك، فقال: لقد كلفتم الله شططاً.

ومعبد بن زرارة: كان يوماً جالساً في طريق، فمرت به امرأة، فقالت: يا عبدالله! كيف الطريق إلى موضع كذا؟

فقال: يا هَنْتاه! مثلي يكون من عَبيد الله؟

وأبو سماك الأسدي: أضلَّ راحلته فالتمسها الناس، فلم يجدوها، فقال: والله لئن لم يرد علي راحلتي لا صليت له أبداً، فالتمسها الناس حتى وجدوها، فقالوا: قد رد الله عليك راحلتك، فصلى، فقال: إن يميني يمين مُصِرٍّ.

قال الماوردي: فانظر إلى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب إلى حمق صاروا به نَكالاً في الأولين، ومَثَلاً في الآخرين.

قال: ولو تصور المعجب والمتكبر ما فطر عليه من جبلة، وبلي به من مهنة، لخفض جناح نفسه، واستبدل ليناً من عتوه، وسكوناً من نفوره.

قال الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر(١).

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٢٩٣).

وقد وقع في كلام الحسن البصري رحمه الله تعالى إطلاق اسم الجنون على العجب فيما أخرجه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن سعيد بن أيمن قال: سمعت الحسن يقول: لو أن قول ابن آدم كله حق، وفعله كله صواب لَجُنَّ.

قال سعيد بن أيمن في معناه: يعجب بنفسه[1].

٢ ـ ومن أحوال الحمقى: أنك إذا صنعت إلى أحد منهم معروفاً حسب أنه حق كان له عليك واجباً فأديته إليه، فلا يشكره لك، وربما طالبك بمثله، فإذا قصرت نسبك إلى الظلم، ومن ثم قيل في المثل: العروس الحمقاء تحسب أن المداعي جوارها.

وقال سعيد بن عمارة: مكتوب في التوراة: من صنع معروفاً إلى أحمق فهو خطيئة تكتب عليه. رواه ابن أبي الدنيا في «اصطناع المعروف».

وقال بعض الحكماء: مؤنة العاقل على نفسه، ومؤنة الأحمق على الناس.

وقال الآخر: متى أعطيت الأحمق حقه طلب أكثر منه[2].

قلت: والحكمة في ذلك أن الأحمق يرى نفسه أكمل الناس وفوقهم، فيرى على كل أحد حقه وتعظيمه، ولا يرى لأحد على نفسه حقاً.

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٦٦).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٧).

٣ ـ ومن أحوال الحمقى: عدم معرفتهم بعيوب أنفسهم.

روى أبو نعيم عن داود بن أبي هند قال: قال إياس بن معاوية: كل رجل لا يعرف عيبه فهو أحمق.

قالوا له: يا أبا واثلة! ما عيبك؟

قال: كثرة الكلام[١].

٤ ـ ومنها: الاغترار بمدح من يجهل حاله، أو يمدحه بما ليس فيه.

روى أبو نعيم عن ذي النون رحمه الله قال: من فرح بمدحة الجاهل ألبسه الله ثوب الحماقة[٢].

٥ ـ ومن أحوال المجانين، والحمقى: أنهم يطمعون فيما لا يكون، ويحاولون المحال أن يكون، ولذلك يطلق الجنون على كل من طلب المحال، وأراد التوصل إلى ما هو بعيد المنال.

روى السلمي في «طبقاته» عن يوسف بن الحسن الرازي رحمه الله تعالى أنه كان يقول: إذا أردت أن تعرف العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال، فإن قَبِـلَه فاعلم أنه أحمق[٣].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٢٤).

(٢) انظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ٣١٨)، وعنده: «ألبسه الشيطان» بدل «ألبسه الله».

(٣) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٥٤).

وقال رسول الله ﷺ: «الأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواها وَتَمَنَّى عَلى اللهِ»[1].

وذلك لأن الله تعالى لا يعطي الأماني إلا لمن خالف الهوى، أو على وجه الابتلاء كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠ ـ ٤١]

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: من أفتى الناس في كل ما يستفتون فهو مجنون. رواه الدارمي، والبيهقي[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفتى الناس في كل ما يسألون فهو مجنون. رواه البيهقي[3].

وإنما كان هذا مجنوناً لأن إفتاءه في كل ما يسأل عنه دليل دعواه أنه يعلم كل شيء، وهذا ليس من صفات الخلق.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾[البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠) لكن بلفظ: «العاجز» ولم أقف عليه بلفظ: «الأحمق» إلا في كتب اللغة كـ«غريب الحديث» لابن سلام (٣/ ١٤٣)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١٤/ ١٢٨).

(٢) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٢)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٢٤).

(٣) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٣).

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥].

٦ ـ ومن أحوالهم: كثرة الأماني.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[النجم: ٢٤ ـ ٢٥]؛ أي: ليس للإنسان كل ما يتمناه، ومن طمع فيما ليس له فهو أحمق.

قال أبو طالب المكي: وكان الحسن رحمه الله تعالى يقول: عباد الله! اتقوا هذه الأماني؛ فإنها أردية النوكى يحلون فيها.

قال: وقال بعض العلماء: كلما قل العقل كثرت الأماني[١].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «المتمنين» عن رجاء بن أبي سلمة قال: الأماني لنقص[٢] العقل[٣].

وروى الإمام أحمد [عن أبي هريرة][٤] رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ ما يَتَمَنَّى؛ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي ما يُكْتَبُ لَهُ مِنْ أُمْنِيَّتِهِ»[٥].

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ١٧٨).

(٢) في «أ»، ومصدر التخريج: «تنقص».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (ص: ٤٧).

(٤) ما بين معكوفتين زيادة من مصدر التخريج.

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٧)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (٧٩٤).

٧ ـ ومن أحوال المجانين، والحمقى: الإخبار بالأشياء المعلومة ضرورة كالسماء فوق الأرض، والنار محرقة، أو بأضدادها، والتصديق بذلك كالأرض فوق السماء، والسؤال عما هو ظاهر لكل أحد، أو عن ما ليس بمعقول، فإذا وقع مثل ذلك من العاقل ألحق بالمجانين، وضحك منه.

كما حكي أن أحمق سأله بعض العلماء: متى يفطر الصائم؟

قال: إذا غربت الشمس.

قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل[1].

وحكي أن رجلاً قال لولده ـ وكان الولد أحمق ـ: اشتر لنا حبلاً في طول كذا كذا ذراعاً.

فقال: في عرض كم؟

فقال: في عرض مصيبتي فيك[2].

ومن هذا القبيل ما يتفق في كل عام لكثير من العوام أن يسألوا العلماء في تاسع عشري شعبان: غداً يكون صوم أو فطر؟

وقد اتفق لشيخ الإسلام الوالد أنه سئل عن هذه المسألة فقال [من المجتث]:

قِيلَ صَومٌ غَداً ... فَقُلْتُ هَذا جُنُونُ

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٤١).

(٢) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٤/ ٧٦).

إِنْ رَأَوْهُ كــــــــــــانَ أَوْ ... مــــــــا رَأَوْا لا يَكُــــــــونُ

ومن هذا القبيل: البلاهة في الدين، وهي مذمومة كما روى ابن أبي الدنيا في «العقل» عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانَ رَجُلٌ فِي صَوْمَعةٍ فَمَطرَتِ السَّماءُ وَأَعْشَبَتِ الأَرْضُ، فَرَأى حِماراً لَهُ يَرْعى، فَقالَ: يا رَبِّ! لَوْ كانَ لَكَ حِمارٌ رَعَيْتُهُ مَعَ حِمارِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ نَبِيّاً مِنَ أَنْبِياءِ بَنِي إِسْرائِيلَ، فَأَرادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ تَعالَى: إِنَّما أَجْزِي عِبادِي على قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[1].

وأخرجه عن عطاء، ولم يرفعه؛ قال: كان ممن كان قبلكم راهب أشرف، فرأى الأرض مخضرة ذات نبات، فقال: يا رب! ما عندي ما أتصدق به، فلو كان لك حمار فأرعاه مع حماري، فأراد النبي الذي في عصره أن ينهاه، فأوحى الله تعالى إليه أن دعه؛ فإنما أجزي عبادي على قدر ما قسمت لهم من العقل[2].

وروى أبو نعيم عن زيد بن أسلم رحمهما الله تعالى قال: إن نبياً من الأنبياء عليهم السلام أمر قومه أن يقرضوا ربهم ﷻ، فقال رجل منهم: يا رب! ليس عندي إلا تبن حماري، فإن كان [لك] حمار

---

(١) ورواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ١٦٥) وقال: هذا حديث منكر، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٤٠).

(٢) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٣٩) عن عطاء عن جابر ﷺ موقوفاً.

علفته من تبن حماري هذا.

قال: فكان يدعو بهذا في صلاته، قال: فنهاه نبيه عن ذلك.

فأوحى الله تعالى إليه: لأي شيء نهيته؟ قد كان يضحكني في اليوم كذا وكذا مرة.

وفي رواية متصلة عن النبي ﷺ كما قال أبو نعيم: «فَإِنِّي إِنَّما أُجازِي عِبادِيَ عَلى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[1].

قلت: لعل وجه معاتبة الله تعالى هذا النبي على نهي هذا الأبله عن ذلك لأن البله أمر خلقي فلا يفيد صاحبه النهي شيئاً، بل ربما أوقعه البله بالنهي في أعجب منه.

وقوله: إنه كان يضحكني: الضحك من الله تعالى بمعنى الرضا؛ كأنه يقول: أنا طبعته على البله، ومنعته الفطنة، فرضيت بما يصدر منه؛ فإنه على وفق ما أردت منه[2].

وقوله في الرواية الأخرى: «إنما أجازي عبادي على قدر عقولهم»؛ فيه إشارة إلى أن العبد المؤمن كلما كان أتم عقلاً كان أوسع علماً ومعرفة، وأكثر عملاً وتقوى، فيكثر ثوابه، فيرجع المعنى إلى أن الثواب بقدر العقول الكاملة، وليس للعبد الذي خلقه الله تعالى كامل

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢٣).

(٢) هذا التأويل على مذهب المتأخرين، ومذهب السلف إثبات الصفة لله تعالى، مع التنزيه عن التشبيه والتسليم بمعناها إلى الله تعالى.

العقل، وافر الفطنة، ثابت اللب أن يتشبه بالنُّوكى والبُلْهِ في الأفعال الخارجة عن استحسان العقل لأنه يكون كافراً لنعمة العقل والفطانة.

٨ ـ ومن أقبح أنواع البله، والحمق والجنون، وأشدها ضرراً على أصحابها: الوسوسة، والانتهاء فيها إلى حد إنكار الأمور اليقينية، والحقائق.

قال ابن الجوزي في «الأذكياء»: حدثني أزهر بن عبد الوهاب قال: جاء رجل إلى ابن عقيل فقال: إني أنغمس في النهر غمستين أو ثلاثاً، ولا أتيقن أنه قد عمني الماء، ولا أني تطهرت، فكيف أصنع؟

فقال له: لا تصلي.

فقيل له: كيف قلت هذا؟

قال: لأن النبي ﷺ قال: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَنْتَبِـهَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيقَ»[١]، ومن ينغمس في البحر مرتين أو ثلاثاً، ويظن أنه ما اغتسل، فهو مجنونٌ[٢].

٩ ـ ومن أحوال المجانين، والحمقى، والمعتوهين: الولع بالشيء، والعبث به، وكثرة الحركة والالتفات لغير فائدة ظاهرة، واستحسان ما يضر أو يؤول إلى الضرر.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَكْلُ الطِّينِ، وَقَلْمُ الأَظْفارِ بِالأَسْنانِ،

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٠١)، والترمذي (١٤٢٣) وقال: حسن غريب، عن علي بن أبي طالب ﷺ.

(٢) انظر: «الأذكياء» لابن الجوزي (ص: ٨٣).

وَقَرْضُ اللِّحْيَةِ مِنَ الوَسْوَاسَ». رواه الديلمي عن علي رضي الله تعالى عنه[1].

وقال علي بن سهل الأصبهاني رحمه الله تعالى: لا يعدمك من الأحمق كثرة الالتفات وسرعة الجواب. رواه السلمي في «طبقاته»[2].

وقال الحافظ أبو حاتم بن حبان كما حكاه عنه ابن الجوزي في «الحمقى والمغفلين»: وعلامة الأحمق سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة في الأخيار، والاختلاط بالأشرار.

قال: والأحمق إن أعرضت عنه اغتم، وإن أقبلت عليه اغتر، وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته، فمن ابتلي بصحبة الأحمق فليكثر من حمد الله على ما وهبه مما حرمه ذاك[3].

وقد اشتمل كلامه على جملة من أخلاق الحمقى يجمعها وضع الشيء في غير محله، واستحسان ما يستقبحه العقلاء.

١٠ ـ ومن أحوال الحمقى: ما ذكره ابن الجوزي عن بعض الحكماء قال: يعرف الأحمق بست خصال:

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٠٠).

(٢) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٨٨).

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٥).

ـ الغضب في غير شيء، والإعطاء في غير حق.

ـ والكلام في غير منفعة.

ـ والثقة بكل أحد.

ـ وإفشاء السر.

ـ وأن لا يفرق بين صديقه وعدوه.

ـ ويتكلم بما يخطر على قلبه، ويتوهم أنه أعقل الناس[1].

وذكر ابن عبد ربه في «العقد» عن سفيان رحمه الله تعالى قال: حمقاء العُوَّاد أشد على أهل المريض من مريضهم، يجيئون في غير وقت العيادة، ويطيلون الجلوس[2].

١١ ـ ومنها: أن أحدهم يجمع بين اعتقاد أنه أكمل من غيره، فيزعم الكمال لنفسه، وبين انتقاص الناس، فيعاملهم بالسَّفَه وبذاذة اللسان، ويطلق لسانه ولا يخاف العقوبة، ويكثر الصَّخَب.

ومثل هذا التهور لا ينبغي أن يجارى فيه ويقابل بمثله، بل يقابل بالتأدب على وجهه، أو بالإعراض عن صاحبه والإغضاء عنه كما قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

وروى عبد بن حميد في «مسنده» عن خليد بن الحكم عن أبي المجبر قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعُ خِصالٍ مُفْسِدَةٍ لِلْقَلْبِ: مُجاراةُ

---

(١) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٥).

(٢) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٦٧).

الأَحْمَقِ؛ فَإِنْ جارَيْتَهُ كُنْتَ مِثْلَهُ، وَإِنْ سَكَتَّ عَنْهُ سَلِمْتَ مِنْهُ، وَكَثْرَةُ الذُّنوبِ مُفْسِدَةٌ لِلْقُلوبِ، وَقَدْ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]، وَالْخَلْوَةُ بِالنِّساءِ، وَالاسْتِماعُ مِنْهُنَّ، وَالْعَمَلُ بِرَأْيِهِنَّ، وَمُجالَسَةُ الْمَوْتَى».

قيل: يا رسول الله! وما الموتى؟

قال: «كُلُّ غَنِيٍّ أَبْطَرَهُ غِناهُ»[1].

وقال عبدالله بن حبيق رحمه الله تعالى: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لا تغضب على الحمقى فيكثر غَمُّك[2].

وقال الحسن رحمه الله تعالى: هجران الأحمق قربة إلى الله. رواهما أبو حاتم بن حبان[3].

١٢ ـ ومنها: قلة الأدب، والتهور المانع من حسن المجالسة، ولطف المعاشرة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الحجرات: ٤].

نزلت في جفاة الأعراب من بني تميم، نادوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: يا محمد! اخرج إلينا؛ فإنَّ مَدْحَنَا زَين، وذمنا شين،

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٤٤٧).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٦٨).

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٦).

ونحن أكرم العرب. والقصة في كتب التفسير[1].

قال أبو حاتم بن حبان: أنشدني أبو محمد الشامي [من السريع]:

لَنـا جَلِـيسٌ تـارِكٌ لِـلأَدَبْ   جَلِيسُهُ مِـنْ تَرْكِـهِ فِـي تَعَـبْ
يَغْضَبُ جَهْلاً عِنْدَ حالِ الرِّضا   عَمْـداً وَيَرْضَـى عِنْـدَ حـالِ

١٣ ـ ومنها: أن الأحمق متى سمع حديثاً صدقه وإن لم يتبين حقيقته ولم يتصور إمكانه، وربما خاصم من يعارضه فيه، ويمدح من لا يعرف خيره ولا فضله، ويذم من لم يعرف شره ولا جهله.

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن جريج: أن بعض الحكماء قال: ليس من العقل أن تذم من لم تخبر إساءته، أو تمدح من لم تخبر إحسانه[3].

وقال الأصمعي: إذا أردت أن تعرف عقل الرجل في مجلس واحد فحدثه بما لا يكون، فإن رأيته قد أصغى إليه وقبله فاعلم أنه أحمق، وإن أنكره فهو عاقل[4].

قلت: ومن أقبح أحوال الحمقى في هذا الباب أن يحدث أحد

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٦/ ١٢١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٠٢٢).
(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٥).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٦٩).
(٤) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٤).

صاحبه في المجلس بخبر، أو مدح رجل أو ذمه، أو نحو ذلك، فيعارضه صاحبه فيه ويأتي بضده، فيتعارضان فيه، ويتجادلان فيه، وكل واحد يستدل لصحة خبره أو قوله، وربما أدى ذلك بهما إلى الشقاق، والتشاتم، والتقاذف، وتكاشف العيوب، وتثور بينهما الحمية الجاهلية، وأكثر ما يتفق ذلك للبطَّالين والبَطِرين.

١٤ ـ ومنها: الخروج كل ساعة في طور غير الطور المتقدم من حيث الأخلاق، أو من حيث الحركة، أو من حيث الزي؛ فتارة يلبس لباس الأجناد، وتارة لباس الفتيان، وتارة لباس الفقهاء، وتارة يتكلم بالشيء ويناقضه في المجلس، ويقوم ويقعد في المجلس كثيراً، ويخرج منه ويعود كثيراً، إلى غير ذلك من الاختلافات والتطورات.

روى ابن أبي الدنيا عن عامر بن عبد قيس رحمه الله تعالى قال: إذا عَقْلُك [عَقَلَك] عما لا ينبغي فأنت عاقل[١].

وعن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى قال: لا تنظر إلى عقل الرجل في كلامه، ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره ومداخلها[٢].

ومن هذا القبيل ما رواه أبو عبدالله الحسين بن محمد بن زنجويه في كتاب «سنن الخواتيم» عن معاوية ﷺ أنه قال: اعتبروا الرجل في طول لحيته، وكنيته، ونقش خاتمه.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٤٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٥١).

فبينا هو جالس إذا أقبل رجل طويل اللحية فسلم عليه، فقال له معاوية رضي الله تعالى عنه: ما نقش خاتمك؟

فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠].

فقال: وما كنيتك؟

فقال: أبو الكوكب الدري.

قال معاوية: هذا منه[١].

وأخرج فيه عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اعْتَبِروا عَقْلَ الرَّجُلِ بِثَلاثٍ؛ بِطُولِ اللِّحْيَةِ، وَكُنْيَتِهِ، وَنَقْشِ خاتَمِهِ».

قلت: أما الأولى فليس للرجل فيه فعل ولا كسب، وإنما ذلك من الأمارات الصورية التي تدل على عقل الرجل.

وقد حكي أنه مكتوب في التوراة: إن اللحية مخرجها من الدماغ، فمن أفرط عليه طولها قل دماغه، ومن قل دماغه قل عقله[٢].

وقال عبد الملك بن مروان: من طالت لحيته تكوسج عقله[٣].

وقال بعض الشعراء [من المتقارب]:

إذا عَرَضَــتْ لِلْفَتَــى لِحْيَــةٌ ... وَطالَــتْ وَصــارَتْ إِلَــى سُــرَّتِهْ

فَنُقْـصانُ عَقْـلِ الفَتَـى عِنْـدَنا ... بِمِقْـدارِ مـا طـالَ مِـنْ لِحْيَتِـهْ[١]

---

(١) وانظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٢).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٩).

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٠).

وقال بعض أهل الفراسة: إذا كان الرجل طويلاً طويل اللحية فاحكم عليه بالحماقة، وإذا انضاف إلى ذلك أن يكون رأسه صغيراً فلا تشك في حمقه.

زاد بعضهم: إذا كان معلماً، أو حائكاً، أو قطَّاناً فقد تمَّ حمقُه[٢].

وأما الكنية؛ فإن كان المكني له غيره فليس له في ذلك كسب أيضاً، وقد يكون إنما كني بتلك الكنية لما رآه المكني له بها فيه من الحماقة ونحوها، وهذا عمدة من يكني الناس، أو يلقبهم بالألقاب المهملة.

وإما أن يكون هو المختار لتكنية نفسه، فالكنية الدالة على حمقه، وكفى بذلك دليلاً عليه.

وكذلك لو لقب نفسه بلقب هو قاصر عن الاتصاف به والقيام بأمره كالقاصر في العلم يلقب نفسه بشيخ الإسلام، أو العلاَّمة، أو النحرير، أو يفرح بتلقبه بذلك، والبخيل أو الجبان يفرح بوصفه بالكرم أو الشجاعة، أو لقب نفسه بلقب مكروه، أو مضحك.

وأما نقش الخاتم؛ فللإنسان فيه كسب، فينبغي للعاقل أن لا يتشبه فيه.

---

(١) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٩).

(٢) البيتان لابن الرومي، كما في «ديوانه» (ص: ٩٠٨)، و«محاضرات الأدباء» للأصبهاني (٢/ ٣٤٢).

ولا يختص ذلك بنقش الخاتم، بل قد تظهر الحماقة والرعونة في الزي، والعمامة، وركوب الدابة التي لا تليق به، وغير ذلك من الهيئات والعادات كالخروج بين الناس راكباً على قصبة، أو على دابة منكسة، أو لابساً زي النساء، ومشاركة الصبيان والرعاع في ملاعباتهم أو محاوراتهم، ونحو ذلك؛ فافهم!

ومن ذلك محاكاة الناس وتقليدهم في أمورهم الخلقية أو العادية كتعويج الفم، وتحويل العين، وغير ذلك؛ فإن ذلك يشعر برقاعة المرء وخفة عقله.

ومن لطائف هذا الباب ما رواه الخطابي في «الغريب» عن الأصمعي قال: حدثني خلف قال: أقبل أعرابي إلى قوم من أهل البصرة على غدير البحيت يشربون شراباً لهم، ومغن لهم يتغنى، فجعل يكسر عينيه، ويمط خديه، ويثنى أصابعه، فلما سكت قال للأعرابي: كيف رأيت؟ فقال [من الطويل]:

أَراكَ صَحِيحاً قَبْلَ شَدْوُكِ سالِماً ... فَلَمَّا تَغَنَّيْتَ اسْتَفاءَ لَـكَ الْخَبَـلْ

فَإِنْ كـانَ تَرْجِيـعُ الغِنـاءِ مُوَرِّثـاً ... جُنوناً فَأَخْزى اللهُ ذَلِكَ مِنْ عَمَلْ

قال الخطابي: قوله: استفاء ـ يعني: بالسين المهملة، والفاء معناه ـ: استجلبه عليك، واستدعاه إليك[1].

---

(١) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٨١).

١٥ ـ ومن أحوال المجانين، والحمقى: أنهم ربما أتلفوا شيئاً من أموالهم لحفظ مال غيرهم كالذي يحمل اللحم وغيره لغيره في ثوبه وهو جديد نفيس نظيف.

ومن ثم كان أحمق الناس من باع دينه بدنيا غيره كما روى الإمام أحمد في «الزهد» عن ميمون بن مهران قال: قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى لجلسائه: أخبروني بأحمق الناس.

قالوا: رجل باع آخرته بدنياه.

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: أفلا أخبركم بأحمق منه؟

قالوا: بلى.

قال: رجل باع آخرته بدنيا غيره[1].

وفي معنى ذلك قول أبي حازم سلمة بن دينار رحمه الله تعالى: إن أحمق الناس رجل اغتاظ في هوى أخيه.

اتفقت له هذه الحكمة في قصة وقعت له ينبغي ذكرها هنا:

روى أبو نعيم عن خالد بن كثير رحمه الله تعالى قال: دخل سليمان بن عبد الملك المدينة حاجاً فقال: هل بها رجل أدرك عدة من الصحابة؟

قالوا: نعم، أبو حازم.

فأرسل إليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم! ما هذا الجفاء؟

قال: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٢٥).

قال: وجوه الناس أتوني ولم تأتني.

قال: والله ما عرفتني قبل هذا ولا أنا رأيتك، فأي جفاء رأيت مني؟

فالتفت سليمان إلى الزهري، فقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا.

فقال: يا أبا حازم! ما لنا نكره الموت؟

فقال: عَمَرْتم الدنيا وخَرَبْتُم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب.

قال: صدق.

قال: يا أبا حازم! ليت شعري ما لنا عند الله ﷻ غداً؟

قال: اعرض عملك على كتاب الله ﷻ.

قال: وأين أجده من كتاب الله ﷻ؟

قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[الإنفطار: ١٣ ـ ١٤].

قال سليمان: فأين رحمة الله؟

قال: قريب من المحسنين.

قال سليمان: ليت شعري! كيف العرض على الله ﷻ غداً؟

قال أبو حازم: أما المحسن كالغائب يقدم على أهله، قال: وأما المسيء كالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان حتى علا نحيبُه واشتد بكاؤه، فقال: يا أبا حازم! فكيف لنا أن نصلح؟

قال: تدعون عنكم الصَّلَف، وتمسكون بالمروءة، وتقسمون

بالسوية، وتعدلون بالقضية.

قال: وكيف المأخذ من ذلك؟

قال: تأخذه بحقه، وتضعه بحقه في أهله.

قال: يا أبا حازم! من أفضل الخلائق؟

قال: أولو المروءة والنُّهى.

قال: فما أعدل العدل؟

قال: كلمة صدق عند من يرجوه أو يخافه.

قال: فما أسرعُ الدعاء إجابة؟

قال: دعاء المحسن.

قال: فما أفضل الصدقة؟

قال: جهد المقل إلى البائس الفقير لا يتبعها مَنٌّ ولا أذى.

قال: يا أبا حازم! من أكيس الناس؟

قال: رجل ظفر بطاعة الله فعمل بها، ثم دلَّ الناس عليها.

قال: من أحمق الخلق؟

قال: رجل اغتاظ في هوى أخيه، فهو ظالم باع آخرته بدنياه.

قال: يا أبا حازم! هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟

قال: كلا.

قال: ولِمَ؟

قال: أخاف أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني ضعف الحياة

وضعف الممات، ثم لا يكون لي معك نصيراً.

قال: يا أبا حازم! ارفع إلينا حاجتك.

قال: نعم: تدخلني الجنة وتخرجني من النار.

قال: ذاك ليس إلي.

قال: فما لي حاجة سواها.

قال: يا أبا حازم! ادع الله لي.

قال: نعم، اللهم إن كان سليمان من أوليائك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان من أعدائك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

قال سليمان: قط؟

قال أبو حازم: قد أكثرت وأطنبت إن كنت من أهله، وإن لم تكن أهله فما حاجتك أن ترمي عن قوس بلا وَتَر؟

قال: يا أبا حازم! ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟

قال: بل نصيحة تلقيها إلي.

قال: إن آباءك غصبوا الناس هذا الأمر فأخذوه عَنْوة بالسيف، عن غير مشورة ولا اجتماع من الناس، وقد قتلوا فيه مقتلة عظيمة وارتحلوا، فلو شعرت ما قالوا وقيل لهم.

قال رجل من [جلساء] سليمان: بئس ما قلت.

قال أبو حازم: كذبت، إن الله تعالى أخذ على العلماء الميثاق:

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[آل عمران: ١٨٧].

قال: يا أبا حازم! أوصني.

قال: نعم سوف أوصيك وأوجز: نزِّهِ اللهَ تعالى، وعَظِّمه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

ثم قام، فلما ولى قال: يا أبا حازم! هذه مئة دينار أنفقها، ولك عندي أمثالها كثير.

فرمى بها، وقال: والله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؛ إني أعيذك بالله أن يكون سؤالك إياي هَزْلاً، وردي عليك بَذْلاً.

إن موسى بن عمران عليه السلام لما ورد ماء مدين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص: ٢٤]؛ سأل موسى ربه ولم يسأل الناس، ففطنت الجاريتان ولم يفطن الرعاء لما فطنتا له، فأتيا أباهما وهو شعيب عليه السلام، فأخبرتاه خبره، فقال شعيب: ينبغي أن يكون هذا جائعاً، ثم قال لإحداهما: اذهبي ادعيه لي، فلما أتته أعظمته، وغطَّت وجهها، ثم قالت: إن أبي يدعوك، فلما قالت: ليجزيك أجر ما سقيت لنا كره ذلك موسى عليه السلام، وأراد أن لا يتبعها، ولم يجد بداً من أن يتبعها لأنه كان في أرض مَسْبعة وخوف، فخرج معها وكانت امرأة ذات عَجُز، فكانت الرياح تضرب ثوبها، فتصف لموسى عليه السلام عجيزتها، فيغض بصره ويعرض أخرى، فقال: يا أمة الله! كوني خلفي، فدخل إلى شعيب عليهما السلام والعشاء مهيأ، فقال: كُلْ.

فقال موسى: لا.

قال شعيب: ألست جائعاً؟

قال: بلى، ولكني من أهل بيت لا نبغي شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، وأخشى أن يكون هذا أجر ما سقيت لهما.

قال شعيب: لا يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي؛ قِرى الضيف وإطعام الطعام.

قال: فجلس موسى فأكل.

فإن كانت هذه المئة دينار عوضاً مما حدثتك، فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ منه، وإن كانت من مال المسلمين فلي فيها شركاء ونظراء؛ إن وازنتهم وإلا فلا حاجة لي فيها.

إن بني إسرائيل لم يزالوا على الهدى والتقى حيث كانت أمراؤهم يأتون إلى علمائهم رغبة في علمهم، فلما نكسوا وتعسوا وسقطوا من عين الله ﷻ، وآمنوا بالجِبْت والطاغوت، وكان علماؤهم يأتون إلى أمرائهم يشاركونهم في دنياهم، ويشركوا معهم في فتنتهم.

قال ابن شهاب ـ يعني: الزهري ـ: يا أبا حازم! إياي ـ يعني: أبي تعرض؟ ـ قال: ما إياك اعتمدت، ولكن هو ما تسمع.

قال سليمان: يا ابن شهاب! تعرفه؟

قال: نعم، جاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته كلمة قط.

قال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني، ولو أحببت الله لأحببتني.

قال ابن شهاب: يا أبا حازم! تشتمني؟

قال: ما شتمتك، ولكن شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقاً كحق القرابة؟

فلما ذهب أبو حازم قال رجل من حلفاء سليمان: يا أمير المؤمنين! تحب أن يكون الناس كلهم مثل أبي حازم؟

قال: لا[1].

أخرج هذه القصة الدارمي في «مسنده» عن الضحاك بن موسى بنحوه[2]، وقد أوردتها بتمامها لأنها من أنفع القصص للعلماء والعقلاء.

١٦ ـ ومن أحوال الحمقى: ما رواه المعافى بن زكريا في «الجليس والأنيس» عن الهيثم بن عدي قال: قال وهب بن منبه: الأحمق إذا تكلم فضحه حمقه، وإذا سكت فضحه عيه، وإذا عمل أفسد، وإذا ترك أضاع، لا علمه يغنيه، ولا علم غيره ينفعه، تود أمه لو أنها أثكلته، وتود امرأته لو أنها عدمته، ويتمنى جاره منه الوحدة، وتأخذ جليسه منه الوحشة، وأنشد لمسكين الدارمي [من الرمل]:

اتَّـقِ الأَحْمَـقَ لا تَـصْحَبَهُ	إِنَّما الأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الْخَلَقْ
كُلَّما أَرْقَعْتَ مِنْهُ جانِباً	حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ وَهْناً فَانْخَرَقْ
أَوْ كَصَدْعٍ فِي زُجاجٍ فاحِشٍ	هَلْ تَرى صَدْعَ زُجاجٍ يَتَّفِقْ
وَإِذا جالَسْتَهُ فِي مَجْلِسٍ	أَفْسَدَ الْمَجْلِسَ مِنْهُ بِالْخَرَقْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٧).

(٢) انظر: «سنن الدارمي» (٦٤٧).

وَإِذا نَهْنَهْتَهُ كَيْ يَرْعَوِي   زَادَ جَهْلاً وَتَمادَى فِي الْحُمُق[1]

وزاد فيه غيره:

كَحِمارِ السُّوءِ إِنْ أَشْبَعْتَهُ   رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جاعَ نَهَقْ

أَوْ كَعَبْدِ السُّوءِ إِنْ أَتْعَبْتَهُ   سَرَقَ النَّاسَ وَإِنْ يَشْبَعْ فَسَقْ[2]

وروى ابن السمعاني عن أبي الحسين محمد بن محمد بن جعفر ابن الحكم: [من الوافر]

زَمانٌ قَدْ تَضَرَّعَ لِلْفُضُولِ   فَسَوَّدَ كُلَّ ذِي حُمْقٍ جَهُولِ

إذا أَحْبَبْتُمْ فِيهِ ارْتِفاعاً   فَكُونُوا جاهِلِينَ بِلا عُقُولِ[3]

وقرأت بخط البرهان بن جماعة: وكان أبو عمر القاضي يقول: إعظام من لا دين له ولا دنيا عنده حمق.

قلت: وإعظام من عنده دنيا لا ينالك منها شيء، بل لمجرد كونه غنياً حمقٌ، بل أشد الحمق.

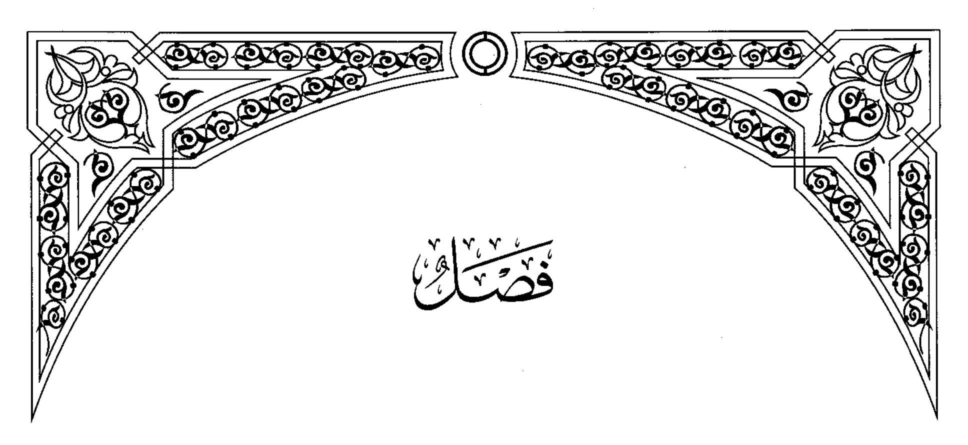
* * *

---

(١) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٢٧٣).

(٢) البيتان لمسكين الدارمي أيضاً، كما في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» للمعافى بن زكريا (ص: ٥٠٥».

(٣) انظر: «يتيمة الدهر» للثعالبي (٢/ ٤١٠).



فصل

التشبه بالمجانين تارة يكون مذموماً لما يعود على المتشبه به كمن يحاكي المجانين في حركاتهم وسكناتهم، وأقوالهم وأفعالهم، وأحوالهم تهكُّماً واستهزاءً بهم، وهذا حرام لما فيه من الأذية وانتهاك الحرمة، وإن كان المجنون لا يتأذى بذلك في نفسه فقد يتأذى به قريبه أو صديقه، ولو كان عاقلاً فذكر ذلك له لتأذى به وتألم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأَمْواتَ فَتُؤْذَى الأَحْياءُ»[1].

والمجنون لا أقل من أن ينزل منزلة الميت، بل هو أولى بأن لا يسب من الميت، فقد يعافى ويذكر له ذلك، فيتأذى به.

وقد سمعت بعض مشايخنا يقول: ما اعتاد أحد محاكاة المجانين إلا جن ولو قبل موته بيوم.

وفي الحديث: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]، وهو لا يحب لنفسه أن يحاكى، أو يسب.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٢) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

وكذلك من يحاكي المجانين ليضحك الجلساء ويعللهم، وهذا حرام أيضاً لأنه غيبة؛ فإن الغيبة ذكرك أخاك بما يكره، ولو كان المجنون عاقلاً يكره ذلك منك.

ولما ذكر العلماء المواضع التي تباح فيها الغيبة لم يذكروا غيبة المجنون منها، فبقيت على أصلها من التحريم، والتمسخر لإضحاك الناس حرام.

وروى ابن أبي الدنيا ـ بسند جيد ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لِيُضْحِكَ بِها جُلَساءَهُ يَهْوِي بِها أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا»[1].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[الكهف: ٤٩] الآية: الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة: القهقهة بذلك[2].

قال الغزالي: وهو إشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم والذنوب[3].

نعم، قد يحتاج العاقل إلى مشاكلة المجنون ومقابلته بمثل عمله

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٧٨). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٧٥). وأصله في الصحيحين.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ١٧٠).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ١٣١).

كأن ضرب رأسه عبثاً وجنوناً، فيضرب رأسه تأديباً وزجراً له عن جنونه، أو يسبه المجنون ويشتمه فينتهره ويزجره، فهذا غير مذموم لصحة القصد فيه، ومتى صح القصد في المشاكلة أبيحت.

ومن هذا القبيل ما أسنده ابن السبكي في «طبقاته» عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي ﷺ يقول: [الطويل]

وَأَنْزَلَنِي طُـولُ النَّـوَى دارَ غُرْبَـةٍ ... يُجاوِرُنِي مَنْ لَيْسَ مِثْلِي يُشاكِلُهْ

أُحامِقُـهُ حَتَّـى يُقـالَ: سَـجِيَّةٌ ... وَلَوْ كانَ ذا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعاقِلُـهْ[1]

وتارة يكون التــشبه بالمجـانين مذمومـاً لما يعود على نفس المتشبه، وهذا يختلف باختلاف الأغراض.

وتارة أن يكون عليه حقوق شرعية وهو قادر على أدائها، فيتجنن لئلا يطالب بها، فهذا حرام لأنه مِنْ أكل أموال الناس بالباطل، فأما لو أريد أن يقهره على أخذ ماله منه، أو يسطي عليه في عرضه أو في حريمه، أو حمل على فتنة في دينه، فإن أمكنه التخلص من ذلك بحيلة غير التجانن فهو أولى، وإلا فلا يكره في حقه التحامق والتجانن كما وقع لمِسْعر بن كدام ـ رحمه الله تعالى ـ لما دعاه السلطان إلى ولاية القضاء تحامق عليه، فتركه ولم يوله، وقال: هذا لا يصلح للقضاء.

ووقع مثل ذلك لسفيان الثوري.

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١/ ٣٠٦).

مات قاض من قضاة بني إسرائيل، فخرج بعض علمائهم راكباً على قصبة يتأله ويتجانن لئلا يولوه القضاء كما تقدم ذلك في باب النهي عن التشبه ببني إسرائيل[١].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن مالك بن دينار أنه قال لمسلم بن قتيبة: ويحك يا مسلم! إياك وأبواب الملوك، ويحك يا مسلم! تحامق لهم، وقد تحلفنا حتى عرفنا.

قال له مالك: تجان يا مسلم! إني أخاف أن يلقوك في ورطة لا تقوم لها ولا تخرج منها[٢].

ومن هذا القبيل تستر أولياء الله تعالى بما يشبه أفعال المجانين من غير ترتب لوم عليهم من حيث الشرع إيثاراً للخمول ليصفو لهم وقتهم في طاعة الله تعالى، وتخلص قلوبهم من الأشغال المكدرة لها عن مراقبة الله تعالى، ومشاهدة قدرته وعظمته.

قال سفيان رحمه الله تعالى: يأتي على الناس زمان لا ينجو فيه إلا من تحامق. رواه أبو نعيم[٣].

وروى الديلمي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلى النَّاسِ زَمانٌ تُقْتَلُ فِيهِ الْعُلَماءُ كَما تُقْتَلُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٣٢٥).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٦٧).

الْكِلابُ؛ فَيا لَيْتَ الْعُلَماءَ فِي ذَلِكَ الزَّمانِ تَحامَقُوا»[1].

أي: لغرض النجاة، فالتحامق بالقصد الصحيح مأذون فيه شرعاً، مستحسن مقبول.

ومن التشبه المذموم بالمجانين لما يعود على نفس المتشبه ضرره أمران عظيمان يلحقان العبد بالمجانين فعلاً وصورة، وبالهالكين مالاً وحكماً:

الأول، وهو من الأفعال: السكر؛ سواء كان بشرب الخمر والمسكر، أم بأكل الحشيش والأفيون، وغيرهما من أنواع الكيف؛ فإن السكران يعرض له ما يعرض للمجنون من كشف العورة، والتضمخ بالنجاسة، والكلام الفاحش، والأفعال المضحكة، والسكران أسوأ حالاً من المجنون؛ لأن السكران مؤاخذ بأفعاله وأقواله من طلاق وعتاق وإقرار، مطالب بما يفوته من الفرائض، معاقب على ما يقع منه من الذنوب كالقذف، والشتم، والقتل، والضرب، وكشف العورة بخلاف المجنون، وذلك لأن السكران عاص بتغييب عقله.

قال الحسن: جاء الخمر إلى أحب خلق الله إليه، فأتلفه؛ يعني: العقل[2].

لما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه،

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٦٧١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «ذم المسكر» (ص: ٨٢).

والطبراني عن أبي أمامة ﷺ، وأبو نعيم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالوا: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ، فَقالَ لَهُ: أَقْبِلْ، فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قالَ لَهُ: أَدْبِرْ، فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قالَ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي ما خَلَقْتُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي، وَبِكَ أُثِيبُ وَبِكَ أُعاقِبُ»[1].

والثاني، وهو من الأخلاق: الغضب، والإفراط فيه؛ إذ به يخرج المرء عن سياسة العقل والدين كما نص عليه في «الإحياء»، فلا يبقى له معه بصيرة، ولا نظر، ولا فكرة[2]، ويتغير لونه، وترتعد فرائصه، وتخرج أفعاله عن الترتب، ويضطرب كلامه وحركته، وينطلق لسانه بالفحش وقبيح الكلام الذي يستحيي منه ذوو العقول، وربما يبطش بالمغضوب عليه ويريد قتله وقد يقتل، فإذا غاب عنه أو حيل بينه وبينه فقد يعود أثر غضبه على نفسه باللطم وتمزيق الثياب، ونتف اللحية، وكسر الآنية، وقد يعدو عدو الواله السكران، وربما يسقط فلا يستطيع النهوض، وقد يغشى عليه، وربما طلق الزوجة ثلاثاً في غضب، وربما دعاه الغضب إلى النميمة وكشف الأسرار، وربما حصل له ضرر بذلك،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «فضل العقل» (ص: ٣٩) عن أبي هريرة ﷺ.
والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٠٨٦) عن أبي أمامة ﷺ.
وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣١٨) عن عائشة رضي الله عنها.
قال ابن حجر في «لسان الميزان» (٤/ ٣١٤): لا يثبت في هذا المتن شيء.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ١٦٧).

ويندم آخراً، ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن الغضب، وكون النهي عنه حسماً لهذه المواد كما رواه أبو داود، وغيره[1].

وهذه فوائد وتتمات لهذا الباب:

الأُولَى: ينبغي التحرز عن مجالسة المجانين والحمقى، ومسايرتهم لما قررناه من أن الطباع تسرق، وللمجالسة تأثير.

روى أبو نعيم عن عبدالله بن طاوس رحمهما الله تعالى: قال لي أبي: يا بني! صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أن لكل شيء غاية، وغاية المرء حسن عقله[2].

وقال شعبة: عقولنا قليلة، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلاً منا ذهب ذلك القليل، وإني لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلاً منه فأمقته. نقله ابن الجوزي، وغيره[3].

وفي حديث أبي المجبر رضي الله عنه: «أَرْبَعُ خِصالٍ مُفْسِدَةٌ لِلْقَلْبِ؛ مُجاراةُ

---

(١) روى أبو داود (٤٧٨٤) عن عطية السعدي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٣).

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ورواه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٢٤).

الأَحْمَقِ، وَإِنْ جارَيْتَهُ كُنْتَ مِثْلَهُ» الحديث؛ وسبق[1].

وقال مسكين الدارمي في أبياته السابقة [من الرمل]:

اتَّقِ الأَحْمَقَ لا تَصْحَبْهُ ... إِنَّما الأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الْخَلَقْ

وَإِذا جالَسْتَهُ فِي مَجْلِسٍ ... أَفْسَدَ الْمَجْلِسَ مِنْهُ بِالْخَرَقْ

الثَّانِيَةُ: كما لا ينبغي أن تجالس الأحمق لا ينبغي أن تتخذ منه صديقاً؛ وأولى.

روى ابن الجوزي عن عبدالله بن داود الحربي قال: كل صديق ليس له عقل فهو أشد عليك من عدوك[2].

قال: وقال علي رضي الله تعالى عنه: لا تؤاخ الأحمق؛ فإنه يشير عليك ويجهد نفسه فيخطىء، وربما يريد أن ينفعك فيضرك، وسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه، وموته خير من حياته[3].

ولصالح بن عبد القدوس [من الكامل]:

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالزَّمانُ يُفَرِّقُ ... وَيَظَلُّ يَرْتَعُ[4] وَالْخُطوبُ تُمَزِّقُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ورواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٣٩).

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٦)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٧٠).

(٤) في مصدر التخريج: «يرقع» بدل «برتع».

وَلأَنْ يُعَادِي عَاقِلاً خَيْرٌ لَهُ … مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ[1]

الثَّالِثَةُ: لا ينبغي معاداة الأحمق أيضاً؛ فإنه كما لا ينفع صديقاً فهو أضر ما يكون عدواً، وإذا عاديته حمله الخَرَق على ما لا تطيق مقابلته بمثله، وسبق أن مجاراة الأحمق مفسدة للقلب.

روى ابن الجوزي عن سلمان بن موسى، وعن الأحنف بن قيس قالا: ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: حليم من أحمق، وشريف من دنيء، وبر من فاجر[2].

ومن هنا لا يحسن من العاقل إلا الإعراض عن الأحمق لأن مجاراته تزري بمن يجاريه، وتفسد قلبه، ومعاتبته لا تفيد كما قال الأعمش فيما رواه ابن الجوزي عنه: معاتبة الأحمق نفخُ تليسه؛ أي: في عرامه، أو غفلته؛ من الليس ـ بالتحريك ـ وهو الشجاعة، أو الغفلة[3].

لبعض العرب [من مجزوء الرمل]:

إِنَّ لِلْحُبِّ وَلِلْبُغْـ … ـضِ عَلَى الْعَيْنِ عَلامَة

وَجَوابُ الأَحْمَقِ الصَّمْـ … ـتُ وَفِي الصَّمْتِ السَّلامَة[4]

---

(١) انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٩/ ٣٠٣).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٦)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٦٠) عن الأحنف، و(٨٤٦١) عن سليمان ابن موسى.

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٣٧).

(٤) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٥٤٩).

الفائِدَةُ الرَّابِـعَةُ: سبق أن داء الحماقة لا دواء له.

وذكر ابن السبكي في «طبقاته» عن ابن عبد الحكم قال: سمعت الشافعي ﷺ يقول: ثلاثة أشياء ليس لطبيب فيها حيلة: الحماقة، والطاعون، والهرم[1].

وهل يعارض هذا ما سبق عن الشافعي أنه قال: أربعة أشياء تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين، والعمل بالعلم؛ فإن زيادة العقل نقصان في ضده من الحماقة، أم لا؟

قلت: لا معارضة؛ فإن العقل إنما يزيد حيث كان، ومن كان فيه قدر من الحمق فلا ينقصه ما زاد من العقل.

أو نقول: إن ما يزيد من العقل ينقص بقدره من الرُّعونة؛ فإنها تحدث من مخالطة ضعفاء العقول على ما تقدم عن بعضهم، فتزول بالأسباب التي تزيد في العقل كالأمور المذكورة في كلام الشـــافعي، لا من الحماقة التي هي غريزة.

وروى الدينوري في «المجالسة» عن يحيى بن خالد قال: شيئان يُورثان العقل؛ التين اليابس إذا أكل، ودخان اللبان إذا بخر به[2].

والذي جرى عليه صاحب «الموجز»، وغيره من الأطباء: أن الرعونة والحمق نقصان في الفكر، أو بطلان ناشيء عن برد ساذج

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٢/ ٧١).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٠٢).

أو مادي، أو يبس، أو عنهما معاً، وأنه ينفع العلاج منهما والمداواة.

ويؤيده ما صح في الأحاديث: «إِنَّ لِكُلِّ داءٍ دَواءً إِلاَّ السَّام»[1].

وعليه: فمن قال: إنه لا دواء للحكماء، فإنما أراد بذلك التعبير عن عسر زوالها على وجه المبالغة حتى جعل متعذراً، أو غير ممكن.

وروى الدينوري عن ابن قتيبة أن الحكماء قالوا: سبعة أشياء تفسد العقل: الإكثار من البصل، والباقلاء، والجماع، والخمار، وكثرة النظر في المرآة، والاستفراغ في الضحك، ودوام النظر في البحر[2].

ولأبي العتاهية [من الرجز]:

إِنَّ الشَّبابَ وَالفَراغَ وَالْجِدَة ... مَفْسَدَةٌ لِلْعَقْلِ أَيَّ مَفْسَدَة[3]

وروى ابن أبي شيبة ـ بإسناد صحيح ـ عن خَوَّات بن جُبير ـ وكان بدرياً ـ رضي الله تعالى عنه أنه قال: نوم أول النهار خرق، وأوسطه خلق، وآخره حمق[4].

وروى البيهقي في «الشعب» عن عبدالله بن عمرو بمعناه، إلا أنه

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨) وصححه، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وابن حبان في «الصحيح» (٦٠٦٤)، عن أسامة بن شريك ﷺ.

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٠٣).

(٣) انظر: «الأغاني» للأصبهاني (٤/ ٤٠).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٦٧٧)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٤٢).

فسر نوم الحمق بالنوم عند حضور الصلاة[1].

وروى ابن أبي شيبة عن مكحول رضي الله تعالى عنه: أنه كان يكره النوم بعد العصر، وقال: يُخاف على صاحبه من الوسواس[2].

وقال الشاعر [من الطويل]:

أَلا إِنَّ نَوْمَــاتِ الــضُّحَى تُــوْرِثُ الفَتَـى

خَبــالاً وَنَوْمَــاتِ العُــصَيْرِ جُنُــونُ[3]

الفائِدَةُ الْخامِسَةُ: روى أبو نعيم عن وهب رحمه الله تعالى قال: ما عُبِدَ الله بشيء أفضل من العقل، وما تم عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال:

- حتى يكون الكبر منه مأموناً.
- والرشد فيه مأمولاً.
- يرضى من الدنيا بالقوت.
- وما كان من فضل فمبذول.
- والتواضع فيها أحب إليه من الشرف.
- والذل فيها أحب إليه من العز.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٣٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٦٧٨).

(٣) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ٤٧٦).

ـ لا يسأم من طلب العلم دهرَه.

ـ ولا يتبرم من طالب الخير.

ـ يستكثر قليل المعروف من غيره، ويستقل كثير المعروف من نفسه.

ـ والعاشرة، وهي ملاك أمره، بها ينال مجده، وربما يعلوه ذكره، وبها علا في الدرجات في الدراين كليهما.

قيل: وما هي؟

قال: أن يرى جميع الناس خيراً منه وأفضل، وآخر شراً منه وأرذل، فإذا رأى الذي هو خير منه وأفضل كره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإذا رأى الذي هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك، ولعل لهذا باطناً لم يظهر لي، وذلك خير له، وترى ظاهراً، ولعل ذلك شر لي.

فهنالك كمل عقله، وساد أهل زمانه، وكان من السباق إلى رحمة الله وجنته إن شاء الله تعالى[1].

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أخيه يزيد قال: لقيت وهب بن منبه في الموسم فقال لي: ألك عهد بالحسن بن أبي الحسن؛ يعني: البصري؟

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٤٠).

فقلت: نعم.

قال: هل أنكرتم من عقله شيئاً؟

فقلت: لا.

فقال وهب: إنا لنتحدث، أو قال: لنجد في الكتب أنه ما أوتي عبد علماً، فسلكه في سبيل هدى، فيسلبه الله ﷻ عقله[1].

قلت: قد يستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[التين: ٥ ـ ٦]؛ فقد جاء في تفسير ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: أنه الْخَرَف.

ولا شك أن العلماء العاملين هم خيار الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلا يخرفون، ولا تختلط عقولهم وإن طَعَنوا في السن.

وذكر الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» عن أبي عبدالله الشامي قال: استأذنت على طاوس لأسأله عن مسألة، فخرج عَلَيَّ شيخٌ كبير، وظننت أنه طاوس، فقلت له: أنت طاوس؟

قال: لا، أنا ابنه.

فقلت: إن كنت ابنه فقد خَرِف أبوك.

قال: تقول ذاك؟ إن العالم لا يخرف، وذكر الحديث[2].

---

(١) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ٢٦٨).

(٢) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٣/ ٣٦١)، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٦٩٥).

الفائِدَةُ السَّابِـعَةُ: روى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: كم لبث نوح عليه السلام في قومه؟

قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً.

قال: كان من كان قبلكم كانوا أطول أعماراً، ثم لم يزل الناس ينقصون في الأخـلاق والآجال، والأحلام، والأجسام إلى يومهم هذا[1].

قلت: وكلام ابن عمر يفهم أن الناس كلما تأخرت أزمنتهم نقصوا فيما ذكر، وهو كذلك كما هو محسوس مشاهد؛ فإنا شاهدنا أناساً كانوا أحسن خلقاً، وأطول عمراً، وأتم عقلاً وحلماً، وكلما تأخر الزمان غلب على أهله سوء الأخلاق، وسخافة العقول، وسفاهة الأحلام، وبشاعة الصور، وقلة البهاء، وصغر الجثث، وانمحقت أعمارهم، وذهبت البركة من أوقاتهم؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون!

وروى ابن أبي الدنيا في «العقل» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: يأتي على الناس زمان تنزع فيه عقول الناس حتى لا تَكاد ترى عاقلاً[2].

---

(١) ورواه نعيم بن حماد في «الفتن» (٢/ ٧٠٣)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤٥٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٥٦)، وعنده: «اعقلوا».

قلت: وفي هذا الزمان تكون الدولة للحمقى كما سبق في الأثر.

وروى ابن أبي الدنيا أيضاً عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: اعقل؛ فلا إخال العقل إلا قد رفع[1].

هذا قول أبي أمامة عن زمانه، فكيف بزماننا؟

وروى السلمي في «طبقاته» عن بشر بن الحارث الحافي رحمه الله تعالى قال: يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حليم، ويأتي عليهم زمان تكون الدولة فيه للحمقى على الأكياس[2].

وروى أبو نعيم عن زبيد اليامي ـ ويقال: الأيامي ـ رحمه الله تعالى قال: سئل عيسى بن مريم عليهما السلام عن أشراط الساعة.

قال: من أشراطها: إذا كانت أمة محمد ﷺ أخف الناس أحلاماً، وأقربهم من الله.

قالوا: يا نبي الله! وما خفة أحلامهم، وقربهم من الله؟

قال: أما خفة أحلامهم فإن أحدهم يلعن البهيمة، وأما قربهم من الله فإن خوان أحدهم يوضع فما يرفع حتى يغفر له لقوله: بسم الله والحمد لله[3].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن المعتمر بن سليمان، عن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٥٦).

(٢) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٤٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٢).

أبيه رحمهما الله تعالى قال: يأتي على الناس زمان لا يفهمون فيه الكلام[1].

وروى أبو نعيم عن أبي الجلد قال: والذي نفسي بيده ليكونن في آخر الزمان مُخْصِبة ألسنتهم، مُجْدِبة قلوبهم، قصيرة أحلامهم، رقيقة أخلاقهم، يتكافى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، [يتعلمون قول الزور لوناً غير لون][2]، فإذا فعلوا فانتظروا النكال من السماء[3].

وذلك لا يقال رأياً.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: مما يتعلق بكون الدولة في آخر الزمان للحمقى ولايةُ الوليد بن عقبة للكوفة، وكان مدمناً فصلى بهم الصبح أربعاً[4].

وحديثه مشهور، وهو الذي نزلت فيه هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: ٦] كما اتفق عليه المفسرون[5].

فذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب»: أن عثمان رضي الله تعالى عنه ولاه الكوفة، وعزل عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه ـ وهو من الأمور التي انتقدها أعداء عثمان رضي الله تعالى عنه عليه ـ

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٨٤).

(٢) بياض في «أ» و«ت».

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٨).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٤٤) عن الحارث بن وعلة.

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٢٦/ ١٢٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠/ ٣٣٠٣).

فلما قدم الوليد على سعد قال له سعد رضي الله تعالى عنه: والله ما أدري أكست بعدنا أم حمقنا بعدك؟

فقال: لا تجزعن أبا إسحاق؛ فإنما هو الْمُلك يتغدَّاه قوم ويتعشَّاه آخرون.

فقال سعد رضي الله تعالى عنه: أراكم والله ستجعلونها ملكاً.

قال ابن سيرين رحمه الله تعالى: لما قدم الوليد بن عقبة أميراً على الكوفة أتاه ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما جاء بك؟

قال: جئت أميراً.

فقال: ابن مسعود رضي الله عنه: ما أدري أصلحت بعدنا أم فسد الناس؟[1].

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ذكر حجة الإسلام في «الإحياء»: أن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما كان يتمثل ويقول: [من البسيط]

يا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيا لا بَقاءَ لَها ... إِنَّ اغْتِراراً بِظِلٍّ زائِلٍ حُمْقُ[2]

ولَمَّا ذُكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله تعالى أنشد: [من الكامل]

أَحْلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظِلٍّ زائِلٍ ... إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِها لا يُخْدَعُ[3]

---

(١) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٥٥٤).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٢١٤)، ورواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٢٥).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٢٤).

وقريب منه قول المتنبي: [من الكامل]

فَالْمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ ... وَالْمُسْتَغِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

وقلت في المعنى [من الرجز]:

إِنَّ الَّذِي أَصْبَحَ مِنْ دُنْيَـ ... ـاهُ مَعْ غُرورِهَا عَلَى ثِقَةْ

مَعْ كَوْنِهِ أَخْرَقَ مِنْ حَمَا ... مَةٍ أَحْمَقُ مِنْ هَبَنَّقَةْ

فإن العرب يضربون المثل بالحمامة في الخرق والحمق: أخرق من حمامة وأحمق لأنها لا تحكم عُشَّها، فإذا هبت الريح كان ما يكسر منه أكثر مما يسلم[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالى: أن المسيح عليه السلام كان يقول لأصحابه: إن استطعتم أن تكونوا بلهاء في مثل الحمام فافعلوا.

قال: وكان يقال: ليس شيء أبله من الحمام؛ إنك تأخذ فرخيه من تحته فتذبحهما، ثم يعود إلى مكانه فيفرخ فيه[2].

وأما هبنقة: فهو ذو الودعات يزيد بن ثروان، ويقال: ابن مروان [أحد بني قيس بن][3] ثعلبة، فإنما ضرب به المثل في الحمق، فقيل: أحمق من هبنقة ومن ذي الودعات؛ لأنه جعل في عنقه قلادة من ودع

---

(١) نظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٢٥٥).

(٢) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٣٩).

(٣) بياض في «أ» و«ت».

وعظام، وخرق مع طول لحيته، فسئل، فقال: لئلا أضل.

فسرقها أخوه في ليلة وتقلَّدها، فأصبح هبنقة، ورآها في عنق أخيه، فقال: أخي أنت أنا، فمن أنا؟

وأضل بعيراً، فقال: من وجده فهو له.

فقيل له: فلم تنشده؟

قال: فأين حلاوة الوجدان(١)؟

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: روى الدينوري في «المجالســـة» قال: حدثنا أحمد بن خالد الآجري قال: سمعت ابن عائشة يقول: قيل لبعض الحكماء: ما كمال الحمق؟

قال: طلب منازل الأخيار بأعمال الأشرار، وبغض أهل الحق، وصحبة أهل الباطل.

قيل: فما علامة الجهل؟

قال: حب الغنى، وطول الأمل، وشدة الحرص.

قيل: فما علامة العمى؟

قال: الركون إلى من لا تأمن غشه، والمن مع الصدقة، والعبادة مع البخل(٢).

قال: وقال ابن قتيبة: قرأت في كتب الهند: من الحمق التماس

---

(١) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٣٨٥).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٨٣).

الرجل الإخوان بغير وفاء، وطلب الآخرة بالرياء والسمعة، ومودة النساء بالغِلْظة، وينفع نفسه بضر غيره، وطلب العلم والفضل بالدَّعَة[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن الحسن رحمه الله تعالى أنه قال لأصحابه: يا ابن آدم! إلى متى؟ يا أهلاه! غَدُّوني، يا أهلاه! عَشُّوني، يوشك والله يغدى بك، يوشك والله يراح بك؛ إما هولاً أكلاً بلعاً بلعاً، وسرطاً سرطاً أحمق، إنما تجمع مالك لامرأة تذهب إلى زوجها، أو لرجل يذهب بمالك إلى زوجته؛ فإن استطعت أن لا تكون آخر الثلاثة فافعل[2].

وقوله: أحمق: منادى حذف منه حرف النداء؛ أي: يا أحمق.

والمراد: أن من جمع المال ولم ينفقه في سبيل الله، أو فيما ينتفع به في الدارين خلَّفه لمن يتمتع به، ولا يشكر له يداً فيه، وتبقى عهدته عليه، عليه تبعته، ولغيره متعته.

ولنا في المعنى: [من البسيط]

حَمَقٌ تُجَمِّعُ مالاً ثُمَّ تَتْرُكُه ... لِزَوْجَةٍ أَمْتَعَتْهُ بَعْدَكَ الرَّجُلا

الفائِدَةُ الْحادِيَةَ عَشْرَةَ: روى الإمام عبدالله بن المبارك، والإمام أحمد؛ كلاهما في «الزهد» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال:

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٩٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٢٧٤).

لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يرى الناس كأنهم حمقى في دينهم[1].

وبيانه: أن الناس الذين تراهم إما طائع وإما عاص، فالعاصي أحمق لأنه عبد ترك طاعة مولاه ولا غنى له عنه، ولا بد له منه، ولا قوام له إلا به.

والطائع إما مُراءٍ، وإما مخلص.

فالمرائي أحمق لأنه أراد بطاعته غير من هي له، فوضع الشيء في غير محله، وأعطى الحق لغير مستحقه.

والمخلص لا يخلو من تقصير وإن أفرغ جهده، والتقصير في حق من رزقه دائم عليه حمق؛ إذ كان ينبغي أن تكون طاعته له دائمة كما أن رزقه عليه دائم.

نعم، هذا الحمق أسهل هذه الأنواع كلها، وشره يذهب بالاعتراف والاستغفار كما قالت الملائكة عليهم السلام: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك[2].

وقال النبي ﷺ: «سُبْحانَكَ وَبِحَمْدِكَ! لا أُحْصِي ثَناءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَما أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ»[3].

ومن هنا كان ﷺ يقول: «إِنَّهُ لَيُغانُ عَلى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ فِي اليَوْمِ

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) هذا الحديث مجموع حديثين؛ رواهما مسلم (٤٨٤)، و(٤٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[1].

ومن لزم الطاعة، وداوم معها على الاستغفار سلم من هذه الحماقة لأنه اقتدى بأعقل الخلق ﷺ.

وهل ما ذكرناه هنا هو معنى قول مطرف رضي الله عنه: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه، غير أن بعض الحمق أهون من بعض؟ رواه ابن المبارك، وأحمد أيضاً[2].

ورواه أبو نعيم، ولفظه: لو حلفت لرجوت أني أَبَرُّ: أنه ليس أحد من الناس إلا وهو أحمق فيما بينه وبين الله عز وجل[3].

وروى النقاش عن سعيد بن المسيب قال: تلا عمر رضي الله تعالى عنه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[الإنفطار: ٦]؛ قال: الحمق يا رب[4].

ونقل ابن الجوزي عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: كلنا

---

(١) هذا الحديث مجموع حديثين: فقوله: «إنه ليغان على قلبي» رواه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه، وتتمته «وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».
أما تتمة حديث الأصل: «فأستغفر في اليوم أكثر من سبعين مرة» فرواه البخاري (٥٩٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٥٢٧)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٢٣٩).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠١).

(٤) وانظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٥).

أحمق في ذات الله ﷻ[1].

وقلت مقتبساً لكلام أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: [من الرمل]

كُلُّنـا أَحْمَـقُ فِـي ذاتِ الإِلَـهِ ... لَوْ عَقِلْنا لَمْ نَحُمْ حَوْلَ الْمَنـاهِي

لَـوْ عَقِلْنـا لأَطَعْنـا مـا نَـرى مـا ... قَـدْ أَطَعْنـا لا نُرائِـي لا نُبـاهِي

رُبَّما أَحْمَقُ كُـلُّ النَّـاسِ إِذْ هُـمْ ... بَـيْنَ مَهْمُـومٍ بِـدُنْياهُ وَلاهِـي

رُبَّ مَـنْ جَمَّـعَ دُنْيـاهُ وَأَوْعـى ... ثُـمَّ لَـمْ يَبْـقَ لَهـا كَـلاًّ وَلا هِـي

خُذْ مِنَ الدُّنْيا كَفافاً ثُـمَّ أَقْصِرْ ... لا تَكُنْ بِاللهِ مِنْ أَهْـلِ الْمَلاهِـي

الفائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ذكر ابن الجوزي عن علي ﷺ أنه قال: ليس من أحد إلا وفيه حمقة فيها يعيش[2].

وعن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: خلق الله تعالى آدم عليه السلام أحمق، ولولا ذلك ما هنَّأه العيش[3].

وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يعني: غِرّاً بأمر الله

---

(١) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٥).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٥).

(٣) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ورواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٧٣) عن سفيان الثوري قال: بلغني، وذكره.

تعالى. رواه المفسرون، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»[١].

وقال ابن جريح: ظلم نفسه في خطيئته، جهولاً بعاقبة ما تحمل. رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري[٢].

وقال مجاهد: ما كان بين أن تحمل الأمانة إلى أن خرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر. رواه ابن أبي حاتم[٣].

فمعنى الحمق والجهل الموصوف به الإنسان في الآية والأثر: هو اغتراره بما تتعلق به آماله من الخير، فعجل في ذلك الأمر، ولا يمعن لنفسه النظر في عاقبته، وذلك في طباع كل إنسان.

ومن هنا قيل: لا بد لكل عاقل من زلة.

بل قال رسول الله ﷺ: «لا حَكِيمَ إِلاَّ ذُو تَجْرِبَةٍ، وَلا حَلِيمَ إِلاَّ ذُو عَثْرَةٍ». رواه الحاكم من حديث دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[٤].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٥٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٥٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٥٩)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٦٦٩).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣١٦٠).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٧٩٩)، وكذا الترمذي (٢٠٣٣) وقال: حسن غريب.

الفائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: روى ابن أبي الدنيا في «العقل» عن أيوب ابن القرية أنه قال: الرجال ثلاثة؛ عاقل، وأحمق، وفاجر، فالعاقل إن كلم أجاب، وإن سمع وعى، وإن عمل خشع.

والأحمق إن تكلم عجل، وإن حدث ذَهَل، وإن حمل على القبيح فعل.

والفاجر إن ائتمنته خانك، وإن حادثته شانك[1].

قال الماوردي في «أدب الدين والدنيا»: وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل، والأحمق بما فيه من الرذائل، فقال: العاقل إذا والى بذل في المودة نصره، وإذا عادى رفع عن الظلم قدره، فيسعد مواليه بعقله، ويعتصم معاديه بعدله، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر، وإن أساء إليه مسيءٌ سبب له أسباب العذر، أو منحه الصفح والعفو.

والأحمق ضالٌّ مُضِلٌّ، إن أونس تكبر، وإن أوحش تكدر، وإن استنطق تخلف، وإن ترك تكلف، مجالسته مهنة، ومعاتبته محنة، ومجاورته تغر، وموالاته تضر، ومقارنته عمى، ومقاربته شقاء.

قال الماوردي: وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل.

قال: والأحمق يسيء إلى غيره ويظن أنه قد أحسن إليه، فيطالبه

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٤٧).

بالشكر، ويحسن إليه ويظن أنه قد أساء إليه، فيطالبه بالوتر، فمساوىء الأحمق لا تنقضي، وعيوبه لا تتناهى، ولا يقف النظر منها إلى غاية إلا لوحت بما وراءها مما هو أدنى منها، وأردى مما مر وأدهى، وفي أكثر العبر لمن نظر، وأنفعها لمن اعتبر.

قال: وقال الأحنف بن قيس: من كلٍّ يُحفَظ الأحمق إلا من نفسه، انتهى[1].

وروى ابن الجوزي عن ابن عائشة قال: قال جعفر بن محمد رحمهما الله تعالى: الأدب عند الأحمق كالماء في أصول الحنظل؛ كلما ازداد رِيّاً زاد مرارة[2].

وقلت: [من مجزوء الكامل]

فِعْلُ الْحَماقَةِ فِي الأَدَبْ ... فِعْلُ الْمَرارَةِ فِي الضَّرَبْ

وَالْعَقْلُ يُصْلِحُ مِنْ ذَوِيـ ... ـهِ فَسادَهُمُ وَيَقِي العَطَبْ

الفائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: روى ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبزى قال: قال داود عليه السلام: خطيئة الأحمق في نادي القوم كمثل الذي يتغنى عند رأس الميت[3].

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٦ ـ ١٧).

(٢) انظر: «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزي (ص: ٢٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٦١).

والمعنى أن الأحمق إذا وقعت منه الخطيئة تجاهر به حتى يضرب المثل به وبخطيئته، ويتضاحك القوم منه، ولا يبالي بهم، ولا باطلاعهم على عيبه، ولا يستحيي منهم كأنهم أموات عنده، وكأنه ميت عندهم لا يبالون بخطيئته أن يتذاكروها، ويضحكوا منه في حضرته لأنه لا يتأثر منها، بل ربما ضحك معهم.

الفائِدَةُ الْخامِسَةَ عَشْرَةَ: روى ابن أبي الدنيا في «اصطناع المعروف» عن سعيد بن عمارة قال: مكتوب في التوراة: من صنع معروفاً إلى أحمق فقد تكتب عليه خطيئة[1].

ووجه ذلك أن فعل المعروف إلى الأحمق قد يقوى به على معصية، وقد يدعوه إلى التِّيه والكِبر، وربما حسب أن فعل المعروف إليه أداء من الفاعل لحق له وجب عليه بمعروف آخر، ثم يحمله الحمق إلى أن الفاعل قصر في حقه، فقد يطالبه بغيره فيترقى عن كفران النعمة إلى نسبة ذلك المحسن إلى الظلم والإساءة، فيظهر خطأ المحسن إذن، وربما دعاه هذا الكفران والطغيان إلى الامتنان والندم على ما كان.

والعاقل يرى هذا المعروف لو فعل إليه إحساناً من الله تعالى، ثم يحمله العقل على شكر هذا المحسن لأنه ـ وإن كان واسطة في إيصال إحسان الله إليه ـ فقد أمرنا بشكر الواسط.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال المبلِّغ عن الله تعالى ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ»(١).

ثم لا يرى العاقل أن هذا الإحسان سيق إليه لحق له عند المحسن، ولا لفضيلة استوجب بها ذلك، بل هو مجرد فضل من الله تعالى، فإذا ابتلي لم يلم من سيق البلاء إليه على يديه، بل شهد البلاء من الله تعالى لحكمة فيه كما يشهد الإحسان منه، كما روى ابن جهضم عن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان ـ يعني: الداراني ـ رحمه الله تعالى يقول: تدري لِمَ أزال العاقل الملامة عن من أساء إليه؟

قلت: لا أدري.

قال: لأنه علم أن الله تعالى ابتلاه بذلك.

الفائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: من قبح الحماقة أن العلم ـ مع أنه أشرف الصفات وأكملها ـ لا يصلح من فسادها شيئاً.

ومن هنا ينبغي أن يختار العالم للتعليم من يعجبه عقله، ويدل على تمام عقل الطالب حسن نيته في الطلب، وقد سبق ما في فعل المعروف إلى الأحمق، وتعليم العلم أفضل المعروف.

قال أرسطاليس: زيادة العلم في الرجل الأحمق كزيادة الماء في أصول الحنظل؛ كلما ازداد علماً ازداد حماقة(٢).

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٥) وصححه عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه.

وتقدم نظيره عن جعفر الصادق في «الأدب».

ووجه ذلك أن الأحمق طائش العقل متكبر، والعلم أعظم ما يتكبر به؛ فإذا تعلم على حماقته ازداد طيشاً، فلا ينتفع بالعلم.

ومن [هنا] استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع[1]؛ فإنه لا ينفع إلا مع العقل.

وقيل: [من الكامل]

العِلْمُ لِلرَّجُلِ اللَّبِيبِ زِيادَةٌ	وَنَقِيضُهُ لِلأَحْمَقِ الطَّيَّاشِ
مِثْلُ النَّهارِ يَزِيدُ إِبْصارَ الوَرَى	نُوراً وَيُعْشِي أَعْيُنَ الْخُفَّاشِ

الفائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: روى ابن عدي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَرَضاعَ الْحَمْقَى»[2].

والحكمة في ذلك أن العادة جارية أن من ارتضع من لبن امرأة غلب عليه أخلاقها.

وأفصح عن ذلك ما رواه أبو الشيخ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، والقضاعي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «الرَّضاعُ يُغَيِّرُ الطِّباعَ»[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ورواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٢/ ١٠٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما. =

الفائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: روى الدينوري عن ابن عائشة قال: ذكر أعرابيٌّ رجلاً فقال: كأنه أحلم من فرخ طائر، ثم أنشد لبعض الشعراء: [من البسيط]

إنِّي لأُعْرِضُ عَنْ أَشْياءَ أَسْمَعُها ... حَتَّى يَظُنَّ رِجالٌ أَنَّ بِي حَمَقا

أَخْشَى جَوابَ سَفِيهٍ لا حَياءَ لَهُ ... فَسَلْ يَظُنَّ أُناسٌ أَنَّهُ صَدَقا[1]

ونقل ابن عبد ربه في «العقد» عن الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يقول: كان سنان بن أبي حارثة أحلم من فرخ طائر.

قلت: وما حلم فرخ الطائر؟

قال: إنه يخرج من بيضة في رأسه نبق، فلا يتحرك حتى ينبت ريشه ويقوى على الطيران[2].

وأنشد ابن عبد ربه لبعضهم: [من الطويل]

وَفِي الْحِلْمِ رَدْعٌ لِلسَّفِيهِ عَنِ الرَّدَى

وَفِي الْخَرْقِ إِغْراءٌ فَلا تَكُ أَخْرَقا

= والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١/ ٢١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٠٧): خبر منكر جداً، وفيه انقطاع، وعبد الملك بن مسلمة مدني ضعيف.

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٦٠).

(٢) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٢٨).

فَتَنْـــــدَمَ إِذْ لا تَنْفَعَنْــــكَ نَدامَـــــةٌ

كَمـــا نَـــدِمَ الْمَغْبُـــونُ لَمَّـــا تَفَرَّقـــا[1]

الفائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: قال ابن عبد ربه: قيل لعدي بن حاتم ﷺ: ما السؤدد؟

قال: السيد الأحمق في ماله، الذليل في عرضه، المطرح لحقده[2].

قال: وقيل لعرابة الأوس: لِمَ سوَّدك قومك؟

قال: بأربع خلال: أنخدع لهم في مالي، وأذل لهم في عرضي، ولا أحقر صغيرهم، ولا أحسد كبيرهم[3].

فالمرء إذا انخدع في ماله فأنفقه في وجوه الخير ووقاية العرض ـ وإن بالغ في ذلك حتى يعده كثير من الناس في ذلك أحمق ـ كان ذلك تماماً لسيادته، واستوجب الحمد به، وانقلب حمقه عقلاً.

ولعل تسمية ذلك حمقاً على وجه المشاكلة دالاً فقد قالوا: إنما يسود الرجل بأربعة أشياء: بالعقل، والأدب، والعلم، والمال[4].

---

(١) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٢٩).

(٢) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٣٤).

(٣) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٣٥).

(٤) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٣٥).

الفائِدَةُ الْمُتَمِّمَةُ عِشرِينَ فائِدَةً: روي عن وهب رحمه الله تعالى قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني أرزق الأحمق ليعلم العاقل أن الرزق ليس باحتيال[1].

وقال: أنشدني أحمد بن عباد التميمي قال: أنشدني أبي:

وَالغَيْثُ يُحْرَمُهُ أُناسٌ سُغَّبٌ ... وَيَبِيتُ يَهْمِلُ فِي بِلادِ جِلِّقِ

وَالرِّزْقُ يُخْطِىءُ بابَ عاقِلِ قَوْمِهِ ... وَيَبِيتُ بَوَّاباً لِبابِ الأَحْمَقِ[2]

ومن محاسن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ما رواه أبو نعيم في «الحلية»، ومن طريقه ابن السبكي في «الطبقات» عن أبي حيان النيسابوري قال: بلغني أن عباساً الأزرق دخل على الشافعي يوماً فقال: يا أبا عبدالله! قد قلت أبياتاً إن أنت أجزت لي بمثلها لأتوبن أني لا أقول شعراً أبداً.

فقال له الشافعي: إيهِ، فأنشأ يقول: [من الكامل]

ما هِمَّتِي إِلاَّ مُقارَعَةُ العِدا ... خَلَقَ الزَّمانُ وَهِمَّتِي لَمْ تَخْلَقِ

وَالنَّاسُ أَعْيُنُهُمْ إِلَى سَلَبِ الْفَتَى ... لا يَسْأَلُونَ عَنِ الْحِمَى وَالأَولَق

لَوْ كانَ بِالْحِيَلِ الغِنَى لَوَجَدْتَنِي ... بِنُجُومِ أَقْطارِ السَّماءِ تَعَلُّقِي

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٨٦).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٣٩).

فقال له الشافعي رضي الله تعالى عنه: هلا قلت كما أقول استرسالاً: [من الكامل]

إِنَّ الَّذِي رُزِقَ اليَسارَ فَلَمْ يُصِبْ ... حَمْداً وَلا أَجْراً لَغَيْرُ مُوَفَّقِ

فَالْجِدُّ يُدْنِي كُلَّ أَمْرٍ شاسِعٍ ... وَالْجِدُّ يَفْتَحُ كُلَّ بابٍ مُغْلَقِ

وَإِذا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَجْدُوداً حَوى ... عُوداً فَأَثْمَرَ فِي يَدَيْهِ فَحَقِّقِ

وَإِذا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَحْرُوماً أَتَى ... ماءً لِيَشْرَبَهُ فَغاضَ فَصَدِّقِ

وَأَهَمُّ خَلْقِ اللهِ بِالْهَمِّ امْرُؤٌ ... ذُو نِعْمَةٍ يَبْلَى بِعَيْشٍ ضَيِّقِ

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلى القَضاءِ وَكَوْنِهِ ... بُؤْسُ اللَّبِيبِ وَطِيْبُ عَيْشِ الأَحْمَقِ[1]

وأكثر الناس لم تكشف لهم حقيقة الأمر كما كشفت للشافعي وأمثاله من أن إفاضة الرزق وكثرة العرَض لكثيرٌ من أهل الحماقة والجهالة؛ إنما هي ليعلم العاقل أن الأرزاق مقسومة بأقضية محتومة وأقدار معلومة، لا بحيلة عاقل محتال، ولا بجهد فعال عامل، فمنهم من نسب ذلك إلى جور الزمان، ومنهم من حمل ذلك على التنزل من العقل إلى حال أهل الجهل، حتى قيل كما أنشده ابن عبد ربه عن الجاحظ عمرو بن بحر: [من الطويل]

تَحامَقْ مَعَ الْحَمْقَى إِذا ما لَقِيتَهُمْ ... وَلاقِهِمُ بِالْجَهْلِ فِعْلَ أَخِي الْجَهْلِ

---

(١) رواه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٣٠٤).

وَخَلِّطْ إِذا ما كُنْتَ[1] يَوْماً مُخَلِّطاً ... تُخَلِّطُ[2] فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزْلِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَشْقَى بِعَقْلِهِ ... كَما كانَ قَبْلَ اليَوْمِ يَسْعَدُ بِالعَقْلِ[3]

وروى ابن السمعاني بإسناده عن أبي الحسين محمد بن محمد بن جعفر بن الحكم: [من الوافر]

زَمانٌ قَدْ تَفَرَّغَ لِلفُضولِ ... يُسَوِّدُ كُلَّ ذِي جَهْلٍ جَهُولِ

إِذا أَحْبَبْتُمْ فِيهِ ارْتِفاعاً ... فَكُونُوا جاهِلِينَ بِلا عُقُولِ[4]

وقلت: [من مجزوء الرمل]

إِنَّما الإِمْلاقُ أَوْلَى ... إِنْ يَفُزْ بِالْمالِ أَحْمَقْ

إِنَّما الْحِلْمُ بِأَنْ ... يَبْلُغَهُ الإِنْسانُ أَلْيَقْ

لا أَرَى الْحُمْقَ وَإِنْ كا ... نَ بِهَذا الوَقْتِ أَلْبَقْ

فَارْضَ بِالْمَيْسُورِ وَالْعَقْلِ ... وَبِالصَّبْرِ تَمَنْطَقْ

إِنَّما تُحْمَدُ عُقْبَى الصَّـ ... ـبْرِ يَوماً فِيْهِ يُفْرَقْ

فَفَرِيقٌ فِي نَعِيمٍ ... وَفَرِيقٌ يَتَحَرَّقْ

---

(1) في مصدر التخريج: «لاقيت» بدل «كنت».

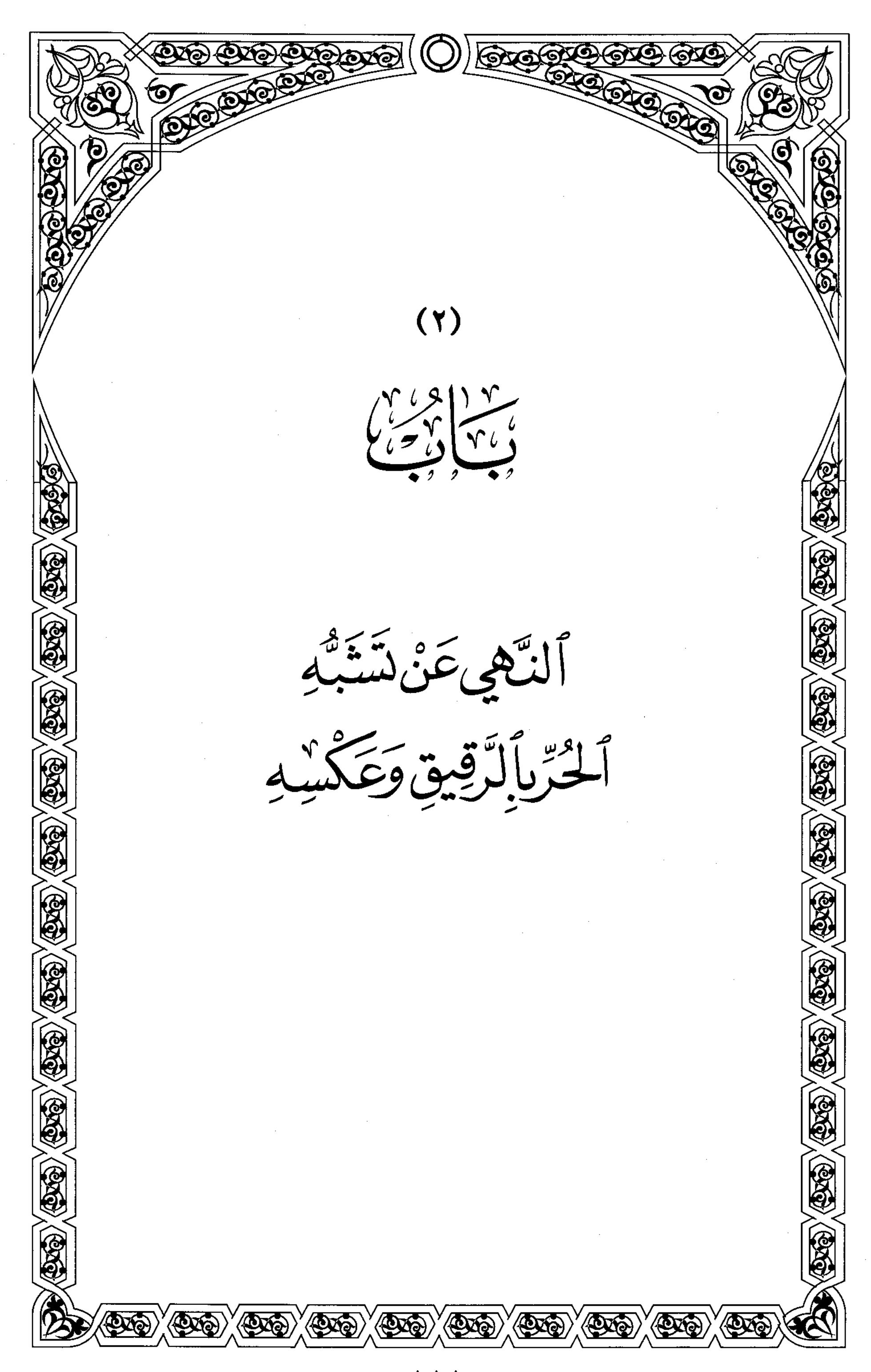
(2) في مصدر التخريج: «يخلط» بدل «تخلط».

(3) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (2/ 178).

(4) انظر: «يتيمة الدهر» للثعالبي (2/ 410)، و«معجم الأدباء» لياقوت الحموي (5/ 416).

إِنَّ عَقْلَ الْمَرْءِ مَحْمُو	دٌ وَإِنْ أَكْدَى وَأَمْلَقْ
تَتَلاشَى لَذَّةُ الْعَيْ	شِ إِذا ما قِيلَ أَخْرَقْ
لَمْ تَضُرَّ فِي ظُلْمَةِ الوَقْ	تِ وَنُورُ الْعَقْلِ أَشْرَقْ

❐ ❐ ❐

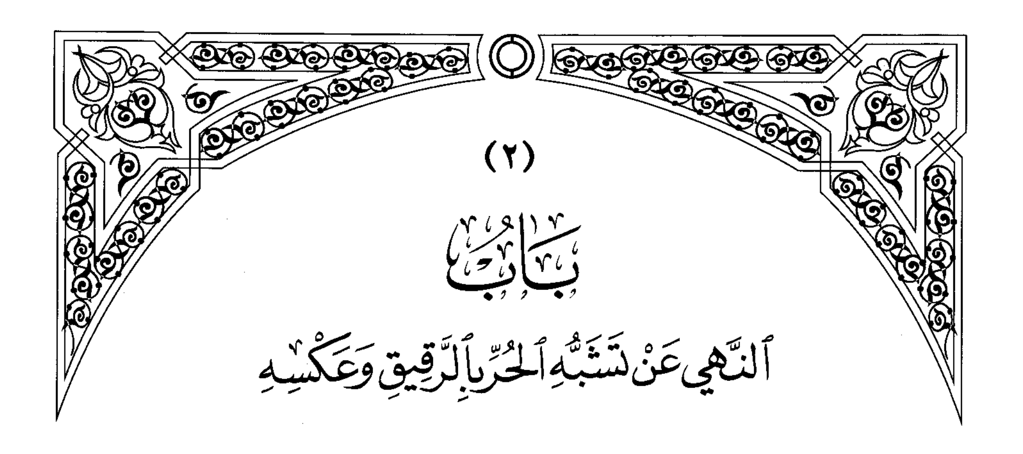


(٢)

بَابُ

ٱلنَّهيِ عَنْ تَشَبُّهِ ٱلحُرِّ بِٱلرَّقِيقِ وَعَكْسِهِ





(٢)
بَابُ
النَّهي عن تَشَبُّهِ الحُرِّ بالرَّقِيقِ وعَكْسِهِ

أما تشبه الحر بالرقيق فهو على قسمين:

الأَوَّلُ: أن يُرِقَّ الْحُرُّ نفسَه؛ بأن يصادق غيره أنه عبدُه، وهو كبيرةٌ من الكبائر.

روى الإسماعيلي في «معجمه» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَومَ القِيامَةِ؛ حُرٌّ باعَ حُرّاً، وَحُرٌّ باعَ نَفْسَهُ، وَرَجُلٌ أَبْطَلَ كِراءَ أَجِيرٍ حِينَ جَفَّ رَشْحُهُ»(١).

وأما مصادقة الخضر عليه السلام للمسكين الذي باعه بأربع مئة درهم وانتفع بها، فليس ذلك من شريعتنا، بل هو من قبيل ما اتفق له مع موسى عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار بغير قول، وهو من العلم الذي قال فيه الخضر لموسى عليه

---

(١) رواه الإسماعيلي في «معجمه» (٢/ ٦١٣)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (١/ ١٨٥).

السـلام: «إنـي علـى علـم عَلَّمنيـه الله تعـالى لا تعلمـه»، كمـا في «البخـاري»، وغيـره[1].

روى الطبراني ـ ورجاله موثوقون ـ عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أَلا أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الْخَضِـرِ عَلَيْهِ السَّلامُ؟».

قالوا: بلى.

قال: «بَيْنَما هُوَ ذاتَ يومٍ يَمْشِي فِي سُوقِ بَنِي إِسْرائِيلَ أَبْصَرَهُ رَجُلٌ مُكاتَبٌ فقالَ: تَصَدَّقْ عَلَيَّ باركَ اللهُ فِيكَ.

فَقالَ الْخَضِـرُ: آمَنْتُ بِاللهِ، ما شاءَ اللهُ مِنْ أَمْرٍ يَكُونُ، ما عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيكَهُ.

فَقالَ الْمِسْكِينُ: أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ لَما تَصَدَّقْتَ عَلَيَّ؛ فَإِنِّي عَرَفْتُ السَّماحَةَ فِي وَجْهِكَ، وَرَجَوْتُ البَرَكَةَ عِنْدَكَ.

فَقالَ الْخَضِـرُ عَلَيْهِ السَّلامُ: آمَنْتُ بِاللهِ! ما عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيكَهُ إِلاَّ أَنْ تَأْخُذَنِي وَتَبِيعَنِي.

فَقالَ الْمِسْكِينُ: وَهَلْ تَسُومُ هَذا؟

قالَ: نعَمْ، أَقُولُ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، أَما إِنِّي لأُجِيبَنَّكَ بِوَجْهِ ربِّي، بِعْنِي.

قالَ: فَقَدَّمَهُ، فَباعَهُ بِأَرْبَعِ مِئَةِ دِرْهَمٍ، فَمَكَثَ عِنْدَ الْمُشْتَرِي زَماناً

---

(١) رواه البخاري (١٢٢) عن أبي بن كعب ﷺ.

لا يَسْتَعْمِلُهُ فِي شَيْءٍ، فَقالَ لَهُ: إِنَّكَ اشْتَرَيْتَنِي الْتِماسَ خَيْرٍ عِنْدِي، ما وَصَّيْتَنِي بِعَمَلٍ!

قالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ؛ إِنَّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ضَعِيفٌ.

قالَ: لَيْسَ يَشُقُّ عَلَيَّ.

قالَ: قُمْ فَانْقُلْ هَذِهِ الْحِجارَةَ - وَكانَ لا يَنْقُلُها دُونَ سِتَّةِ نَفَرٍ فِي يَوْمٍ - فَخَرَجَ الرَّجُلُ لِبَعْضِ حاجَتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ نَقَلَ الْحِجارَةَ فِي ساعَةٍ.

قالَ: أَحْسَنْتَ وَأَجْمَلْتَ، وَأَطَقْتَ ما لَمْ أَرَكَ تُطِيقُهُ.

قالَ: ثُمَّ عَرَضَ لِلرَّجُلِ سَفَرٌ؛ قالَ: إِنِّي أَحْسِبُكَ أَمِيناً فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي خِلافَةً حَسَنَةً.

قالَ: فَأَوْصِنِي بِعَمَلٍ.

قالَ: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ.

قالَ: لَيْسَ يَشُقُّ عَلَيَّ.

قالَ: فَاضْرِبْ مِنَ اللَّبِنِ لِنَبْنِيَ حَتَّى أَقْدُمَ عَلَيْكَ.

فَخَرَجَ الرَّجُلُ لِسَفَرِهِ، قالَ: فَرَجَعَ مِنَ السَّفَرِ وَقَدْ شَيَّدَ بِناءَهُ، فَقالَ: أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللهِ ما سَبِيلُكَ؟ وَما أَمْرُكَ؟

قالَ: سَأَلْتَنِي بِوَجْهِ اللهِ، وَوَجْهُ اللهِ أَوْقَعَنِي فِي الْعُبُودِيَّةِ، سَأُخْبِرُكَ مَنْ أَنا؛ أَنا الْخَضِرُ الَّذِي سَمِعْتَ بِي، سَأَلَنِي مِسْكِينٌ صَدَقَةً فَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيهِ، فَسَأَلَنِي بِوَجْهِ اللهِ، فَأَمْكَنْتُهُ مِنْ

رَقَبَتِي، فَباعَنِي.

وَأُخْبِـرُكَ أَنَّهُ مَنْ سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ فَرَدَّ سائِلَهُ وَهُوَ يَقْدِرُ وُقِفَ يَوْمَ الْقِيامَةِ جِلْدُهُ وَلا لَحْمَ لَهُ، عَظْمٌ يَتَقَعْقَعُ.

فَقالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِاللهِ، شَقَقْتُ عَلَيْكَ يا نَبِـيَّ اللهِ وَلَمْ أَعْلَمْ.

قالَ: لا بَأْسَ، أَحْسَنْتَ وَاتَّقَيْتَ.

فَقالَ الرَّجُلُ: بِأَبِـي أَنْتَ وَأُمِّي يا نَبِـيَّ اللهِ! احْكُمْ فِي أَهْلِي وَمالِي بِما شِئْتَ، أَوِ اخْتَرْ فَأُخَلِّيَ سَبِـيلَكَ.

قالَ: أُحِبُّ أَنْ تُخَلِّيَ سَبِـيلِيَ فَأَعْبُدَ رَبِّـي، فَخَلَّى سَبِـيلَهُ، فَقالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوْثَقَنِي فِي الْعُبُودِيَّةِ، ثُمَّ نَجَّانِي مِنْها»[1].

* تَنْبِـيهٌ:

من ابتلي بالرق قهراً عليه، أو الأسر، فينبغي له أن يعامل سيده معاملة العبيد لسادتهم حتى يحكم الله له بالخلاص كما فعل يوسف والخضر عليهما السلام.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٣٠). قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٣٣٠): رفعه خطأ، والأشبه أن يكون موقوفاً، وفي رجاله من لا يعرف.

وقال ابن حجر في «الزهر النضر في أخبار الخضر» (ص: ٨٦): وسند هذا الحديث حسن، لولا عنعنة بقية، ولو ثبت لكان نصاً أن الخضر نبي، لحكاية النبي ﷺ قول الرجل: «يا نبي الله»، وتقريره على ذلك.

وقد قدمنا في التشبه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه يحتج يوم القيامة على الأرقاء بيوسف عليه السلام.

ومهما أمكنه الانفلات من الرق أو الأسر بدعوى أو هرب، ولم يخف على نفسه ضرراً، تعيَّن عليه بخلاف المرقوق بحق؛ فإن تفلته من رق سيده إباق، وهو كبيرة.

القِسْمُ الثَّانِي مِنْ تَشَبُّهِ الْحُرِّ بِالرَّقِيقِ:

أن يُدخل الإنسان نفسه تحت ذل الديون من غير ضرورة، أو تحت مِنَّةِ الرجال.

وإلى ذلك أشار الشافعي رضي الله تعالى عنه حين قال له رجل: أوصني.

قال: إن الله خلقك حراً؛ فكن كما خلقك[1].

وقد أشار النبي ﷺ إلى تسمية الدين رِقّاً فيما رواه البيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «أَقِلَّ مِنَ الذُّنُوبِ يَهُنْ عَلَيْكَ الْمَوْتُ، وَأَقِلَّ مِنَ الدَّيْنِ تَعِشْ حُرَّاً»[2].

وروى الإمام أحمد، وغيره، وصححه الحاكم، وسنده جيد، عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لا تُخِيفُوا

(١) انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (١/ ٧٧).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٥٥٧) وقال: في إسناده ضعف. وكذا ابن أبي الدنيا في «التوبة» (ص: ٣٨).

أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِها».

قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟

قال: «الدَّيْنُ»[1].

وصحح الحاكم أيضاً عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الدَّيْنُ رايَةُ اللهِ فِي الأَرْضِ؛ فَإِذا أَرادَ اللهُ أَنْ يُذِلَّ عَبْداً وَضَعَهُ فِي عُنُقِهِ»[2].

وروى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه عن حذيفة، والإمام أحمد، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي عن ابن عمر، وعن علي رضي الله تعالى عنهم: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ».

وفي رواية: قيل: كيف يذل نفسه؟

قال: «يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلاءِ لِما لا يُطِيقُ»[3].

قلت: ولا شك أن في تحمل مِنَنِ الناس ذلاً ظاهراً.

وقال الماوردي: أنشدني عن الربيع للشافعي رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢١٦).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٢١٠). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٧٠): فيه بشر بن عبيد الدارسي واه.

(٣) تقدم تخريجه.

[من مجزوء الكامل المرفَّل]

لا تَحْمِلَـــنَّ مِـــنَ الأَنـــا م لمـــن يَمُـــنُّ عَلَيْـــكَ مِنَّـــةْ

وَاخْتَـــرْ لِنَفْـــسِكَ حَظَّهـــا وَاصْبِـــرْ فَـــإِنَّ الـــصَّبْرَ جُنَّـــةْ

مِـــنَنُ الرِّجـــالِ عَلـــى الْقُلُـــو بِ أَشَـــدُّ مِـــنْ وَقْـــعِ الأَسِـــنَّةْ[1]

ومن اللطائف في هذا الباب ما ذكره عبد الكريم بن السمعاني فقال: أنشدنا أبو محمد بن طوق الرقي قال: أنشدنا أبو البركات بن الوكيل المقرىء لرافع الحمال: [من مجزوء الرمل]

كُـــدَّ كَـــدَّ العَبْـــدِ إِنْ أَحْـــ بَبْـــتَ أَنْ تُحْـــسَبَ حُـــرَّا

وَاقْطَـــعِ الآمـــالَ عَـــنْ فَـــضْـ ـــلِ بَنِـــي آدَمَ طُـــرَّا

لا تَقُـــلْ ذا مَكْـــسَبٌ يُـــزْ ـــرِي فَفَـــضْلُ النَّـــاسِ أَزْرى

أَنْـــتَ مـــا اسْـــتَغْنَيْتَ عَـــنْ مِثْلِـــكَ أَعْلَـــى النَّـــاسِ قَـــدْرا[2]

وإذا قدر الله تعالى على العبد أن يدخل تحت رق الدين أو المنة لم يبق إلا الاحتيال في الخروج عن العهدة بالوفاء في الدين، وبالمكافأة في المنة، ومهما كان لأحد عليه من دين أو نعمة فينبغي أن يشكر فضله لقوله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ تَعالَى»[3]،

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٢٥١).

(٢) وانظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٨/ ٢٤).

(٣) تقدم تخريجه.

وليكافىء على الهدية ونحوها، فإن لم يستطع ولا أقل من أن يقول لصاحبها: جزاك الله خيراً.

روى أبو داود، والنسائي ـ واللفظ له ـ وابن حبان، والحاكم ـ وصححاه ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اسْتَعاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَجارَ بِاللهِ فَأَجِيرُوهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[1].

وينبغي أن يوفي الدين ويكافىء عن الصنيعة من أجود ما عنده وأحسنه، ويمشي إلى تأدية الدين، ولا يكلف الدائن أن يمشي إليه، وليتلطف به وبالصانع في الخطاب شاكراً له، داعياً له بخير.

ومهما عجز عن الوفاء [فليقضه][2] متى أمكنه، وليلجأ إلى الله تعالى في قضاء الدين.

وقد ذكرت أحكام الاستدانة وآدابها مستوفاة في «منبر التوحيد» بما ليس عليه مزيد.

* **وهنا تنبِيهانِ:**

الأَوَّلُ: مَدَحَ الشرعُ وأهلُه، وأربابُ الحكمةِ [و]العقلِ القناعةَ؛

---

(1) رواه أبو داود (٥١٠٩)، والنسائي (٢٥٦٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٤٠٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٥٠٢).

(2) بياض في «أ».

لأنها تجزىء العبد عن عبودية الطمع والحاجة إلى الناس وعن سؤالهم.

وقيل: العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع.

وروى البزار، والطبراني بسند جيد، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَلَوْ بِشَوْصِ السِّواكِ»[١].

وروى الإمام أحمد عن ابن أبي مليكة رحمه الله تعالى قال: ربما سقط الخطام من يد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فيضرب بذراع ناقته، فينيخها فيأخذه.

قال: فقالوا له: أفلا أمرتنا فنناولكه؟

فقال: إن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً[٢].

وروى عند ذلك عن ثوبان، وأبي بكر، وغيرهما رضي الله تعالى عنهم.

ولعل هؤلاء بعض النفر الذين بايعهم رسول الله ﷺ على ذلك كما روى مسلم، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن أبي عبد الرحمن عوف ابن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة، أو ثمانية، أو سبعة، فقال: «أَلَا تُبايِعُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟»، وكنا

---

(١) رواه البزار في «المسند» (٤٨٢٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٥٧). وصحح العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٩٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١١).

حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعنا رسول الله ﷺ.

فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟»

فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟

قال: «أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْس، وَأَطِيعُوا».

وأسَرَّ كلمةً خفيةً: «وَلا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً».

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدهم أن يناوله إياه[1].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: «يا محمدُ! عِشْ ما شئتَ؛ فإنَّكَ ميتٌ، واعمَلْ ما شِئْتَ؛ فإنَّك تُجْزَى، وأَحْبِبْ مَنْ شئتَ؛ فإنَّكَ مُفَارِقٌ، واعلم أن شرفَ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزَّتَهُ استغناؤه عنِ النَّاسِ»[2].

التَّنْبِيهُ الثَّانِي مِنْ تَشَبُّهِ الأَحْرارِ بِالأَرِقَّاءِ: خدمة الإنسان أكابر الناس بالأجرة، وأقبح هذا النوع خدمة المُرْد الحِسان عند الأجانب

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٣)، والنسائي (٤٦٠)، وكذا أبو داود (١٦٤٢)، وابن ماجه (٢٨٦٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٧٨)، وعنده: «مجزي به» بدل «تجزى». وحسن المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٤٣).

خصوصاً عند الأجناد؛ فإنهم يعتقدون أن لهم التصرف في الصبي إذا خدم عندهم، وأخذ نوالهم كما يتصرف المالك في مملوكه، فإن تجاوزوا ذلك إلى اللواط ومقدماته فقد هلكوا ولو كان ذلك مع مماليكهم؛ فإن هذا أمر لم يحل في شريعة، وإنما نبهت عليه لكثرة وقوعه من غالبهم.

وأولياء المرد إذا رضوا لهم بذلك أثموا، فإن أمروهم بذلك أوحملوهم إلى الجند فأخدموهم إياهم تضاعف إثمهم، وكان ذلك نوعاً من الدياثة والقيادة.

ولقد كره العلماء الأولياء تزويج مولياتهم للفساق؛ لأن النكاح رق والتزوج إرقاق، حتى قال بعض السلف: من زوج موليته من فاسق فقد قطع رحمه[1].

ومن هنا منع الأولياء المجبرون من تزويجهن غير الأكفاء، فإن رضيت المرأة العاقلة بالتزوج بالفاسق والظالم، ورضيت صحبته، فقد غسلت اليد منها، ونبَتِ السعادة والخيرات عنها.

*** فائِدَتَانِ:**

الأُولَى: ينبغي للعاقل إذا اضطر إلى تحمل منة تعرض أو سؤال، أن لا يقصد إلا كريماً حسن الوجه يلقاه بوجه بشوش، ولا يقصد

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ١٩٩) عن الشعبي.

لئيماً، ولا من نعمته مستحدثة.

وفي الحديث: «اطْلُبوا الْخَيْرَ مِنْ حِسانِ الْوُجُوهِ»[1]، وهم أهل البشاشة والبِشْر.

وكذلك إذا حملته الضرورة على الخدمة فلا يخدم إلا العلماء، وأهل المجد والسماحة الذين لا يتبعون إحسانهم بالمن والأذى، دون السفهاء واللؤماء، والجند الظلمة، ومستحدثي النعمة، ومستذلي الحرفة؛ فإن الخدمة إذا كانت للعلماء والأشراف، والحاجة إذا كانت إليهم فتلك الخدمة التي تنتج الرفعة في الدنيا، والفوز في الآخرة إذا حسنت النية، وتلك الحاجة التي لا تزري بمحتاجها، وهي التي تنجح، ولا تكسر عرض صاحبها.

وأنشد ابن أبي الدنيا لمحمود الوراق: [من الوافر]

إِذا أَعْطَى الْقَلِيلَ فَتًى شَرِيفٌ ... فَإِنَّ قَلِيلَ ما يُعْطِيكَ زَيْنُ

وَإِنْ تَكُنِ الْعَطِيَّةُ مِنْ دَنِيْءٍ ... فَإِنَّ كَثِيرَها عارٌ وَشَيْنُ

وَلا يَرْضَى الْكَرِيْمُ بِيَوْمِ عارٍ ... وَإِنْ أَوْهَى وَهَدَّ قُواهُ دَيْنُ

فَعُذْ بِاللهِ وَالجَ إِلَيْهِ إِمَّا ... بَدَتْ لَكَ حاجَةٌ أَوْ كانَ كَوْنُ[2]

وروى الدينوري، والسلفي عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وانظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (١/ ٣٤٥).

قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: لأن تدخل يدك إلى المنكبين في فم التنين خيرٌ من ترفعها إلى ذي نعمة قد عالج الفقر[1].

وأنشد ابن سيده لبعض الأدباء: [من الهزج]

لَـصَيْدُ اللَّخْـمِ[2] فِـي الْبَحْـرِ ... وَصَـيْدُ الأُسْـدِ فِـي الْبَـرِّ

وَقَـضْمُ الـثَّلْجِ فِـي الْقَـرِّ ... وَنَقْـلُ الـصَّخْرِ فِـي الْحَـرِّ

وَإِقْـدامٌ عَلـى الْمَـوْتِ ... وَتَحْوِيـلٌ إِلَـى الْقَبْـرِ

أَشْـهَى مِـنْ طِـلابِ العـرْفِ ... مِمَّـنْ عـاشَ فِـي الْفَقْـرِ[3]

وأنشد غيره: [من السريع]

مُـسْتَحْدَثُ النِّعْمَـةَ لا تَرْجُـهُ ... فَكَفُّـهُ مَمْلُـوءَة فَقْـرُ

جُـنَّ لَـهُ الـدَّهْرُ فَنـالَ الْغِنَـى ... يـا وَيْلَـهُ إِنْ عَقَـلَ الـدَّهْرُ

* **الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ:**

كما يحسن من المرء أن لا يدخل تحت منة أحد، يحسن منه أن يعم الناس بنائلة ما أمكنه ذلك، ولا يحسن منه الامتنان به، وقد قال ﷻ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[المدثر: ٦].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٣).

(٢) اللخم: بضم اللام وإسكان الخاء المعجمة، ضرب من السمك ضخم يقال له الكوسج، وهو القرش.

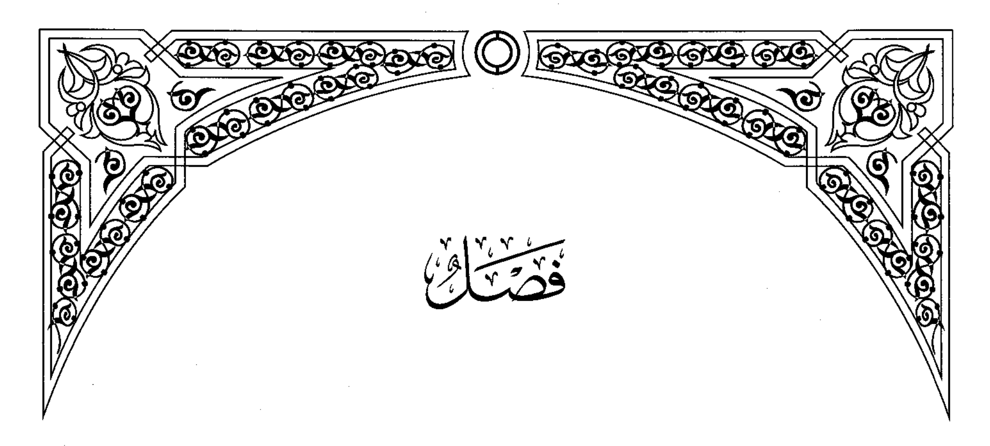
(٣) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٤٣٠).

وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وروى أبو الغنائم النرسي في كتاب «قضاء الحوائج»عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَشْتَرِي الْمَمالِيكَ بِمالِهِ ثُمَّ يُعْتِقُهُمْ، كَيْفَ لا يَشْتَرِي الأَحْرارَ بِمَعْرُوفِهِ؟ هُوَ أَعْظَمُ ثَواباً»[١].

* * *

(١) رواه أبو الغنائم النرسي في كتاب «قضاء الحوائج» (ص: ٥٤).



فصل

الرق صفة العبد، وقد علمت حكم التشبه به فيه، وله صفات أخرى:

١ ـ منها: طاعة سيده.

فإن أطاعه بسهولة وحسن انقياد كان عبداً طيباً، وإن أطاعه بتخويف وردع وإزعاج كان عبد سوء خبيثاً، فإن كان الغالب عليه العصيان كان أسوأ العبيد.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وكذلك ينبغي للعبد المكلف أن يكون سلس الانقياد، لين العريكة في طاعة الله تعالى، وإلا كان كعبد السوء كما روى الإمام عبدالله بن المبارك عن وهب بن منبه، قال: قال حكيم من الحكماء: إني لأستحيي من ربي أن أعبده مخافة النار فأكون كعبد السوء؛ إن رهب عمل، وإن لم يرهب لم يعبد، ولكني أعبده كما هو له أهل.

وفي رواية: ولكن يستخرج مني حب ربي ما لم يستخرج مني غيره[1].

نعم، إن تمرن هذا العبد الذي أطاع رهبة على الطاعة حتى صارت منه عن طيب نفس، وعادت خلقاً من أخلاقه، فهو مرجو، كما أن العبد قد يأبق، ثم يحسن صحبة مواليه، ويتمرن على الطاعة وحسن الخدمة، والحسنة تمحو السيئة، والماء الطهور يغسل الأدران وينظف المكان، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فأما إذا كانت صفة العبد المعصية الدائمة والتمرد، أو كان الغالب عليه ذلك فإنه لا يكون مرجواً، وقد يجبل العبد على ذلك ـ خصوصاً الأَسود ـ فيكون خبيث الطباع، قبيح الأخلاق كما في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ رواه الطبراني ـ قيل: يا رسول الله! ما يمنع حبش بني المغيرة أن يأتوك إلا أنهم يخشون أن تردهم.

فقال: «لا خَيْرَ فِي الْحَبَشِ ـ أي: غالباً ـ إِنْ جاعُوا سَرَقُوا، وَإِنْ شَبِعُوا زَنَوْا، وَإِنَّ فِيهِمْ لَخُلَّتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ؛ إِطْعامُ الطَّعامِ، وَبَأْسٌ عِنْدَ البَأْسِ»[2].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٧٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢١٣)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٣٨٤) وأعله بعوسجة مولى ابن عباس ﷺ، وقال: قال البخاري: لم يصح حديثه.

وأخرجه البزار بسند حسن نحوه[1].

وروى الطبراني عن أم أيمن رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ: «إِنَّما الأَسْوَدُ لِبَطْنِهِ وَفَرْجِهِ»[2].

ونقل السخاوي في «المقاصد الحسنة» أن الشافعي رحمه الله تعالى اعتمد هذا الحديث[3].

وفي حديث ابن عباس دليل أن في الحبشان، وكذا السودان طباعاً طيبة، وطباعاً خبيثة وإن كانت الخبيثة أغلب، وليست منحصرة فيما ذكر، وإنما نبه ﷺ على أمهات أخلاقهم.

فلا ينبغي للحر أن يتشبه بالأرقاء منهم في الأخلاق المذمومة كالأشر، والبطر، وكفران الإحسان، وسرعة التقلب والتلون، وخفة الحلم والدمدمة.

وما أحسن قول القائل: [من مجزوء الكامل المرفل]

الْعَبْدُ يُرْدَعُ بِالعَصا وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْمَلامَةْ[4]

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٣٥): رواه البزار ولفظه: أن النبي ﷺ قال: لا خير في الحبش، إن شبعوا زنوا، وان فيهم لخلتين؛ إطعام الطعام، وبأس عند البأس» ورجاله ثقات، وعوسجة المكي، فيه خلاف لا يضر، ووثقه غير واحد.

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٣٥): رواه الطبراني، وفيه خالد ابن محمد من آل الزبير، وهو ضعيف.

(٣) انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ١٩٠).

(٤) البيت لابن مفرغ الحميري، انظر: «طبقات فحول الشعراء» (٢/ ٦٨٩)، و«والمجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٢٦٩).

وقال آخر معاتباً: [من السريع]

مــا أَنْــتَ بِــالْحُرِّ فَتلْحَــى وَلا بِالعَبْــدِ يُرْجَــى رَدْعُــهُ بِالعَــصا

ولا شك أن الذم إنما يعود على طباع العبد الخبيث، لا على لونه، كما في الحديث الصحيح: «لا فَضْلَ لأَبْيَضَ عَلى أَسْوَدَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى»(١).

٢ ـ ومن صفـات العبـد اللازمـة لـه: أنه لا يتصرف في نفسـه، ولا فيما بينه مستقلاً إلا بإذن سيده أو أمره.

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٧٥].

قيل: هـذا مثـل للمعبـود بحـق، والمعبود بالباطل كالصنم الذي لا يتصرف في شيء.

وقيل: مثل للمؤمن الكريم، والكافر البخيل.

وروى البيهقي في «السنن» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه سئل عن المملوك يتصدق، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٤١١) عن أبي نضرة عمن سمع خطبة النبي ﷺ.

ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٤٩) عن أبي نضرة عن أبي سعيد رضي الله عنه.

﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[النحل: ٧٥]: لا يتصدق بشيء[١].

قلت: هذه الآية بينت كمال الفرق بين العبد المملوك والحر المنفق رزقاً حسناً، وهو أن العبد ممنوع من الإنفاق إلا بإذن سيده، وكل شيء أنفقه دون إذن سيده فهو آثم فيه، وما تصرف فيه مرجوع فيه، فينبغي للحر أن لا يتشبه به في أخذ مال غيره والتصدق به أو التكرم به، وكذلك لا ينبغي له أن يجعل نفسه مع زوجته، أو مع غلامه أو غيرهما كالعبد الممنوع من التصرف لا يتصرف في ماله إلا بإذن زوجته، أو بإذن من يهواه، كما يتفق كثيراً لكثير من الناس يصرف في هوى زوجته، أو ولده، أو معشوقه ما قل وكثر، وإذا أراد عمل خير من صلة رحم، أو صدقة امتنع منه طلباً لرضاهم، أو عملاً برأيهم.

وفي مثل ذلك قال الحسن رحمه الله تعالى: ما أصبح رجل يطيع زوجته إلا كَبَّه الله في النار[٢].

وأقبح من ذلك أن يصرف في الهوى الشيطاني الألوف، ويمنع الحقوق التي أمر الله تعالى بها، وهو دليل مكر الله تعالى بالعبد، ومن كان على هذا الوصف فهو ممكور به؛ والعياذ بالله تعالى!

---

(١) رواه البيهقي في «السنن» (٤/ ١٩٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٢٨٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٨).

٣ ـ ومن صفات العبد اللائقة به: التواضع، واحتقار النفس، وامتهانها.

والتشبه به في هذه الصفات محمود لكل أحد إذا صحت النية فيه.

وفي الحديث: «مَنْ تَواضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ». رواه البيهقي عن عمر ﷺ، وأبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[1].

وقال ﷺ: «آكُلُ كَما يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وأَجْلِسُ كَما يَجْلِسُ الْعَبْدُ، وَإِنَّما أَنا عَبْدٌ». رواه أبو يعلى عن عائشة رضي الله تعالى عنها[2].

وروى أبو نعيم عن أبي الجلد قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يدي فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولى

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٤٠)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٣٠٧) عن عمر ﷺ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٢): رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب.
ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٦)، وكذا مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) رواه أبو يعلى في «المسند» (٤٩٢٠). وحسن الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٩).

بالذم، وناجني حين تناجيني بقلب وَجِل ولسان صادق[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن عياش، عن عبدالله بن دينار، أو غيره: أن المسيح عليه السلام قال: ويلكم علماءَ السوء! لا تنظروا في عيوب الناس أمثال الأرباب، ولكن انظروا في عيوب أنفسكم أمثال العبيد، إنما أنتم أحد رجلين: إما رجل فيه عيب، وإما رجل معافى، فليس ينبغي للذي فيه العيب أن يعيب على غيره، ولا ينبغي لمن عوفي أن يعيِّر أخاه، ولكن يرحمه[2].

أما التواضع للدنيا والأغراض الفاسدة فإنه مذموم.

وقد ورد: من تضعضع لغني لأجل عناه ذهب ثلثا دينه. رواه الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه، وقال: إنه مكتوبٌ في التوراة[3].

وروى الديلمي عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللهُ فَقِيراً تَواضَعَ لِغَنِيٍّ مِنْ أَجْلِ غِناهُ؛ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَقَدْ ذَهَبَ ثُلُثا دِينِهِ»[4].

واعلم أن أصل إتعاب النفس وإذلالها للناس طلباً لنوالهم إنما

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٥٥).

(٢) رواه نحوه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٥٦) عن أبي الجلد.

(٣) رواه نحوه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٨٥).

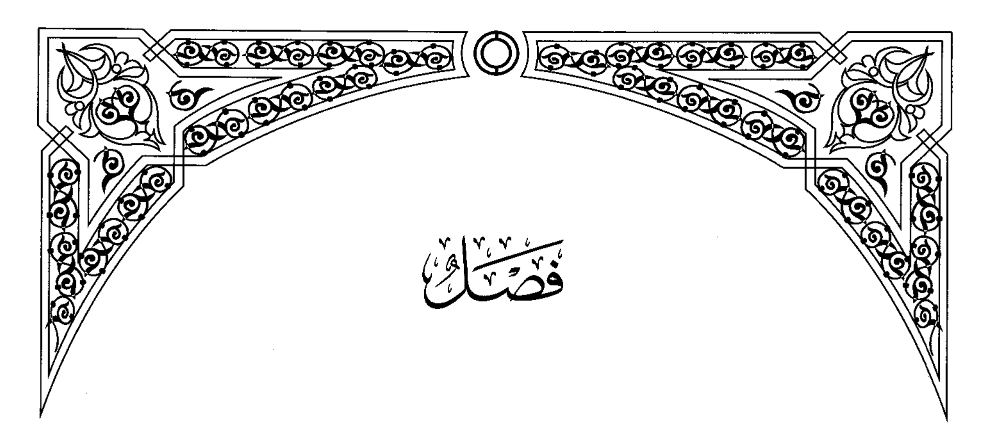
(٤) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٤٤٩).

هو لتعلقها بما تهوى من الشهوات والمستلذات؛ فإنها لا تتوصل إليها إلا بأغراض الدنيا، وهي تحتاج إلى التحيل بالإكساب؛ حلت أو حرمت، عزت النفس فيها أو ذلت، فلا ينقذ العبد من تلك الورطات إلا قلع تلك الشهوات من القلب، وتركها بالكلية من النفس، وإلا آلت به إلى الهلاك والتعس.

ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتُكِسَ، وَإِذا شِيكَ فَلا انتُقِشَ». الحديث رواه البخاري، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه[1].

* * *

(١) رواه البخاري (٢٧٣٠)، وابن ماجه (٤١٣٦).



فصل

وأما تشبه الرقيق بالحر فبأن يتغلب على مالكه، أو يجحد رقه، ويدَّعي أنه حر أو محرر، أو يأبق منه وينفي الحرية، أو يصادق غير سيده على رقه، وكل هذا حرام من الكبائر.

وفي الحديث: «مَلْعُونٌ مَنِ انتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوالِيهِ»[1] بأن يشمخ ويتكبر وهو حرام، ويلبس زي الرغادة، وذلك مكروه أو خلاف الأولى، بل الأولى في حقه أن يكون في المنزلة التي أنزله الله تعالى فيها حتى يكون الله تعالى هو الذي ينقله منها إلى أرفع منها.

وقد روي: أن عمر رضي الله تعالى عنهما رأى أمة متقنعة، فقال لها: أتتشبهين بالحرائر يا لَكَاع[2]؟

قال ابن أبي عصرون: إن عمر رضي الله تعالى عنه قصد نفي الأذى عن الحرائر؛ لأن الإماء كن يقصدن بالزنا حينئذ؛ قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[الأحزاب: ٥٩]، وكانت الحرائر

---

(١) رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٢٢٠٣) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٠٦٤) بمعناه.

يعرفن بالتستر، فخشي عمر إذا تسترت الإماء أن يتشبهن بالحرائر فيؤذين بتشبههن[1].

ولهذا صحح صاحب «المهذب»، والروياني، والرافعي حِلَّ النظر بلا شهوة إلى أمة الغير إلا ما بين سرتها وركبتها.

قال الرافعي: لكن يكره.

والذي صححه النووي، وهو مقتضى كلام الأكثرين، وهو أرجح دليلاً: أن الأمة في النظر إليها كالحرة[2].

قال السبكي: ولعل كلام عمر رضي الله تعالى عنه كان في واقعة خاصة، أو في الإماء المبتذلات البعيدات عن الشهوة، وإلا ففي الإماء التركمان ونحوهن من خوف الفتنة أشدُّ من كثير من الحرائر. انتهى[3].

وأثر عمر المذكور هكذا أورده أهل العربية مستشهدين به وغيرهم[4].

وقد أخرجه البيهقي عن صفية بنت أبي عبيد قالت: خرجت أمة مختمرة متجلببة، فقال عمر: من هذه المرأة؟

---

(١) انظر: «مغني المحتاج» للشربيني (٣/ ١٣١).

(٢) انظر: «شرح مسلم» للنووي (٤/ ٣١).

(٣) وانظر: «مغني المحتاج» للشربيني (٣/ ١٣١).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٢٦٩)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ٣٠٧).

فقيل: جارية بني فلان.

فأرسل إلى حفصة رضي الله تعالى عنها، فقال: ماحملك على أن تخمري هذه المرأة، وتجلببيها، وتشبهيها بالمحصنات حتى هممت أن أقع بها لا أحسبها إلا من المحصنات؟ لا تشبهوا الإماء بالمحصنات[١].

وروى ابن أبي شيبة عن أبي قلابة رحمه الله تعالى قال: كان عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه لا يدع في خلافته أمة تتقنع، ويقول: إنما القناع للحرائر لكي لا يؤذين[٢].

قلت: ولا يلزم أن يكون أذاهن بالتعرض للعُهر ونحوه، بل يجوز أن يكون الأذى بالامتهان وعدم التوقير، وهذا كان اجتهاد من عمر رضي الله تعالى عنه.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩].

قال: متجلببين بها، فيعلم أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى من قول ولا ريبة. رواه ابن أبي شيبة، والمفسرون[٣].

وروى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن أنس رضي الله عنه: رأى عمر

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٢٤٢).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٤٦)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٦٦١).

رضي الله تعالى عنه جارية متقنعة، فضربها بدَرَّته، وقال: ألق القناع؛ لا تتشبهين بالحرائر[١].

وروى ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩] قال: أخذ الله تعالى عليهن إذا خرجن أن يقذفنها على الحواجب، وهو أدنى أن يعرفن فلا يؤذين، قال: قد كانت المملوكة [إذا مرت تناولوها بالإيذاء][٢]، فنهى الله الحرائر أن يتشبهن بالإماء[٣]؛ أي: ذلك كان قبل أن تنزل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[النور: ٣٣].

واستنبط عمر رضي الله عنه من قوله تعالى في الآية: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[الأحزاب: ٥٩]: أن الأمة تمنع من زي الحرة لئلا تساوي الإماء الحرائر بأي أذى كان؛ وإن زال قصدهن بالزنا.

وروى أبو داود، وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها[٤].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦٢٣٩).

(٢) في «أ» و«ت»: «سادت»، كذا.

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٢/ ٤٦).

(٤) رواه أبو داود (٤١٠١).

وروى ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: رحم الله تعالى نساء الأنصار! لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾[الأحزاب: ٥٩] الآية؛ شققن مروطهن فاعتجرن بها، فصلين خلف رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان[1]؛ أي: من سواد القناعات.

شبهت رؤوسهن بما عليها من سواد القناعات بالغربان.

ووقع في كلام أم سلمة هذا المعنى، وأشارت إلى معنى آخر في قولها: كأن على رؤوسهن الغربان، وهو إيثار السكينة في مشيهن كما تقول: كان فلان يمشي في سكينة كأن على رأسه الطير؛ إن كان يخاف أن يطير طائر هذا على رأسه من حركته، فهو يتحرك حركة لطيفة بسكينة.

* تَنْبِيهٌ:

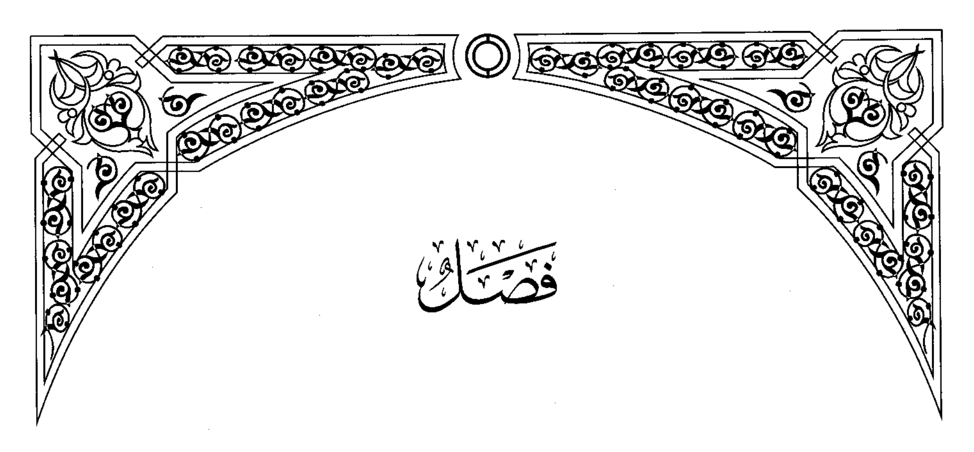
ما وقع في أثر أم سلمة، وعائشة رضي الله تعالى عنهما من تشبيه رؤوس النساء في سواد القناعات بالغربان دليلٌ على استحباب مبالغة المرأة في التستر؛ فإن نساء الأنصار إنما آثرن القنع السود لأن السواد أبلغ في الستر، ونساء مكة والمدينة وما والاهما إلى الآن يتلفعن بالسواد، ويرتدين به لذلك، وليس في الأثر دليل على جواز ما تعتاده النسوة من إلقاء القناع الأسود فوق أرديتهن البيض الآن عند المصيبة

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٦٦٠)، وروى شطره الأول البخاري (٤٤٨٠).

لأنهن لا يفعلن ذلك الآن للتستر، بل لإظهار الحزن والجزع، وهو بهذا القصد حرام؛ حيث لم يأذن فيه في الحداد الشرع لأنه من أفعال الجاهلية؛ فافهم!

* * *



فصل

لا يدخل في كراهية تشبه الرقيق بالحر سعي العبد في فكاك نفسه بالمكاتبة ونحوها؛ فإنه أمر محمود.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ﴾[النور: ٣٣].

قال سعيد بن جبير: يعني: الذين يطالبون المكاتبة من المملوكين. رواه بن أبي حاتم[١].

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[النور: ٣٣]؛ أي: كسباً وأمانة.

وأكثر العلماء يرون أن الأمر في الآية للندب[٢].

وروى عبد الرزاق، وغيره عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: سألني سيرين المكاتبة فأبيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فأقبل علي بالدِّرَّة، وقال: كاتِبْهُ، وتلا: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[النور: ٣٣]، فكاتَبَهُ[٣].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٥٨٣).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ١٨١)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢٢/ ١٨٩).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٥٧٧)، وذكره البخاري (٢/ ٩٠٢) معلقاً.

كأن عمر كان يرى الأمر في الآية للوجوب، أو رأى المصلحة في مكاتبته، فأمره بها أمراً منه بمندوب، فوجبت طاعته، فأطاعه أنس رضي الله تعالى عنه.

وقد أمر الله تعالى بعون المكاتب بقوله تعالى في الآية: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾[النور: ٣٣].

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٣]: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب[(١)].

قال: وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أمر الله السيد أن يضع للمكاتب الربع من ثمنه.

قال: وهذا تعليم من الله وليس بفريضة، ولكن فيه أجر[(٢)].

وذهب الشافعي، وغيره، وآخرون إلى أن الأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٣] للوجوب، فيلزم السيد أن يحط عن العبد جزءاً من المال، أو يدفعه إليه بعد قبضه، ويقوم مقامه غيره، والحط أولى[(٣)].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٥٨٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٥٨٦)، وكذا الطبري في «التفسير» (١٨/ ١٣٠).

(٣) انظر: «الأم» للشافعي (٨/ ٣٣).

وقال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلى اللهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَداءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفافَ». رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[1].

فعلى المكاتب أن يجتهد في وفاء سيده؛ فإنه بهذه النية يستحق من فضل الله تعالى المعونة، وكذلك يحمد منه ما لو اجتهد في فكاك رقبته من الرق بالتلطف لسيده، والتقرب لخاطره بإحسان خدمته، وبذل الوسع في مودته ونصيحته مع القصد إلى الله تعالى في قلب سيده إلى إرادة عتقه.

وينبغي أن يستعين على ذلك بالأربعة المذكورة فيما أخرجه الدينوري في «المجالسة» قال: حدثنا إبراهيم الحربي: ثنا داود بن رشيد قال: كان يقال: أربع يُسَوِّدْنَ العبد: الأدب، والصدق، والعفة، والأمانة[2].

فإن أريد بالعبد: المخلوقُ للعبادة، فمعنى يسودنه: يجعلنه سيداً إذا اتصف بهن.

وإن أريد به: الرقيق، فمعنى يسودنه: يؤول أمره بهن إلى أن يَمُنَّ الله عليه بالعتق ثم بالملك، ولذلك آثرت ذكر هذا الأثر هنا.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٣٧)، والترمذي (١٦٥٥) وحسنه، والنسائي (٣١٢٠)، وابن ماجه (٢٥١٨).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢١٩).

* تَنْبِيهٌ:

ذكر الخطابي في «غريبه» عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قالوا: علِّموا أرقاءكم سورة يوسف عليه السلام[1].

والحكمة في ذلك أن هذه السورة تدعوهم إلى الصبر على ذل الرق، وطاعة السادة، وعدم التقصير في طاعة الله تعالى بسبب الرق، وحسن التأدب مع السادة ونصيحتهم، ومع غير السادة.

وقد سبق أن الله تعالى يحتج يوم القيامة بيوسف عليه السلام على الأرقاء المقصرين في طاعته ﷻ.

* تَتِمَّةٌ:

كما لا ينبغي للعبد الذي هو مملوك الرقبة لمخلوق مثله أن يشاركه في السيادة، بل يلزم منزلته منه، وهي الخدمة وامتثال الأمر، لذلك لا ينبغي للعبد المخلوق للعبادة أن ينازع سيده الذي هو ربه في شيء مما يختص به من العزة والكبرياء وغيرهما كما تقدم في محله، بل يلزم مقام العبودية طاعة وخدمة، وتفويضاً وتسليماً كما ذكر أبو سعيد الحسن بن علي الواعظ في كتاب «الحدائق لأهل الحقائق»: أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى اشترى عبداً، فقال له: إيش تأكل؟

---

(١) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٦٨)، ورواه الثعلبي في «التفسير» (٥/ ١٩٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٤٠٠٦) عن أبي بن كعب ﷺ. وضعف إسناده الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٨٠).

قال: ما تطعمني.

قال: إيش تلبس؟

قال: ما تكسوني.

قال: إيش اسمك؟

قال: الذي تسميني.

قال: إيش تعمل؟

قال: ما تستعملني.

قال: وإيش لربك؟

قال: ساعة واحدة مثل ما كان لك هذا العبد في هذه الحالة.

وقال الدينوري في «المجالسة»: أنشدنا أحمد بن غيلان الأزدي[1] لغيره: [من مجزوء الرمل]

أَطِعِ اللهَ بِجَهْدِكَ ... عامِداً أَوْ دُونَ جَهْدِكْ

أَعْطِ مَوْلاكَ الَّذِي تَطْلُبُ مِنْ طاعَةِ عَبْدِكْ[2]

ومن أراد الوقوف على تحقق معنى السيادة والعبودية على الطريقة السديدة المرضية فعليه بكتابي «منبر التوحيد».

* **فائِدَةٌ:**

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إذا

(١) في «المجالسة»: «عبدان الأزهري» بدل «غيلان الأزدي».

(٢) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٢٠٩).

نَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَأَحْسَنَ عِبادَةَ رَبِّـهِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»[1].

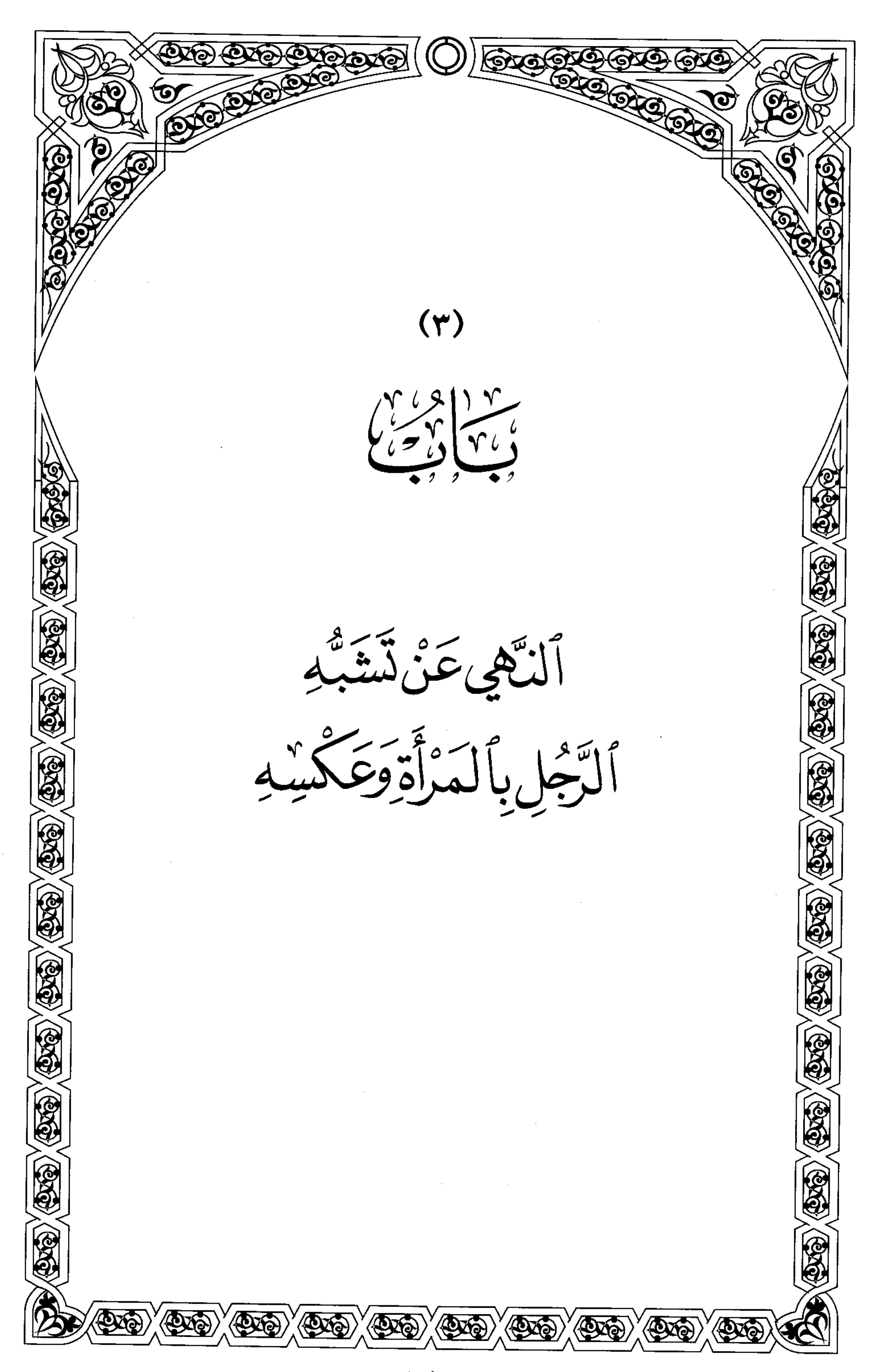
وروى الإمام أحمد، والشيخان، والترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لَهُمْ أَجْرانِ ـ وفي رواية: يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ـ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمَنَ بِنَبِـيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِـيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرانِ، وَرَجُلٌ كانَتْ لَهُ أَمَةٌ، فَأَدَّبَها فَأَحْسَنَ أَدَبَها، ثُمَّ أَعْتَقَها وَتَزَوَّجَها»[2].

وللشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى تأليف فيمن يؤتون أجرهم مرتين.

❐ ❐ ❐

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (١٦٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٥)، والبخاري (٤٧٩٥)، ومسلم (١٥٤)، والترمذي (١١١٦).

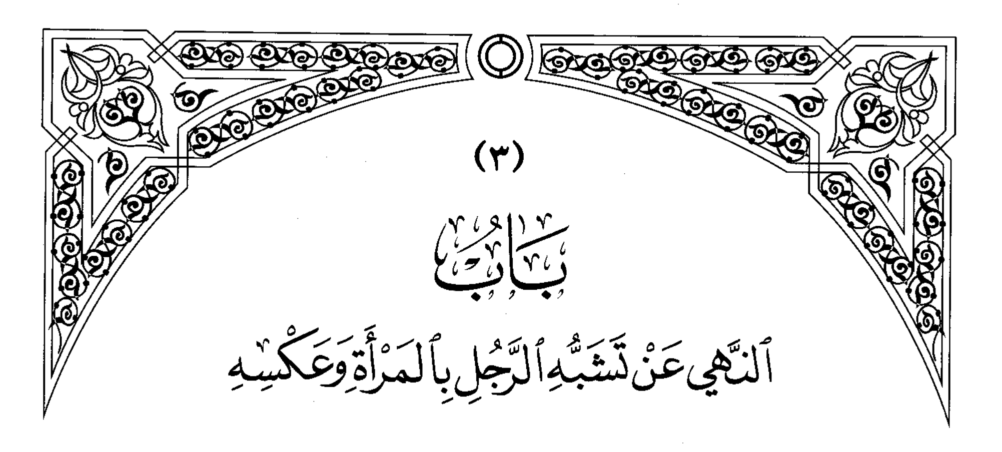


(٣)

بَابُ

النَّهي عَنْ تَشَبُّهِ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ وَعَكْسِهِ





(٣)
باب
النهي عن تشبه الرجل بالمرأة وعكسه

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾[النساء: ٣٢].

تتضمن هذه الآية الإشارة إلى النهي لكل من الرجال والنساء أن تتشبه بالطائفة الأخرى فيما اختصت به.

واعلم أن أكثر الناس أماني النساءُ، فهن يتمنين كل شيء يخطر لهن ولا يخشين العواقب، فربما تمنت الواحدة منهن الشيء يكون فيه ضررها أو هلاكها، والرجل إذا أكثر من الأمنيات كان أشبه شيء بهنَّ، والأكمل للرجل والمرأة جميعاً أن يحب كل واحد منهما ما أحب الله له، فإذا تمنى فلينظر ماذا يتمنى من خير لائق به.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[النجم: ٢٤]؛ أي: لا يكون له كل ما يتمناه، فربما يتمنى شيئاً ولم يعطه، فتكتب عليه أمنيته فيما لا يعنيه، ويزداد أسفاً لعدم حصوله، وقد يعطى الأمنية، وتكون عاقبتها وخيمة، فيندم.

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْظُرْ ما يَتَمَنَّى؛ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي ما يُكْتَبُ لَهُ مِنْ أُمْنِيَّتِهِ»[1].

فمن ذلك قول المرأة لولدها: ليتك بك من السوء كذا، أو: ليتني أراك كذا، أو: أرى فيك كذا، فربما أعطيت في نفسها، أو ولدها، أو مالها شيئاً تكلمت به في حال الحدة والغضب، وكان عاقبته وخيمة، وهو من عوائد النساء، وهو من الرجال أقبح.

فإن تجاوزا ذلك إلى الدعاء كان أشد خطراً.

قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلا تَدْعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ، وَلا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ؛ لا تُوافِقُوا مِنَ اللهِ ساعَةً فِيها إِجابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ». رواه أبو داود عن جابر رضي الله تعالى عنه[2].

وقال الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[الزخرف: ١٨]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٧)، وكذا الطيالسي في «مسنده» (٢٣٤١).

(٢) رواه أبو داود (١٥٣٢).

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية: هن النساء؛ فرَّقَ بين زيهنَّ وزي الرجال، ونَقَصَهنَّ من الميراث والشهادة، وأمرهن بالقعدة، وسمَّاهن الخوالف؛ أي: في قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾[التوبة: ٨٧]. رواه عبد بن حميد[١].

وقال قتادة في قوله: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[الزخرف: ١٨]: قلما تكلمت امرأة تريد أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. رواه ابن جرير، وغيره[٢].

وروى البخاري، والأربعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[٣].

وروى أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم ـ وصححاه ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل[٤].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٣٧٠).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٥/ ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٥٥٤٦)، وأبو داود (٤٠٩٧)، والترمذي (٢٧٨٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٢٥١)، وابن ماجه (١٩٠٤).

(٤) رواه أبو داود (٤٠٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٢٥٣)، وابن ماجه (١٩٠٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٥١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٤١٥).

وروى الإمام أحمد ـ قال المنذري: وهو حسن ـ عنه قال: لعن رسول الله ﷺ مخنثي الرجال الذين يتشبهون بالنساء، والمترجلات من النساء المتشبهات بالرجال؛ قال: وراكب الفلاة وحده[1].

وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن امرأة مرت على رسول الله ﷺ متقلدة قوساً، فقال: «لَعَنَ اللهُ الْمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّساءِ بِالرِّجالِ، وَالْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجالِ بِالنِّساءِ»[2].

*** تَنْبِيهٌ:**

اللعن الواقع في هذه الأحاديث ونحوها كلعن السارق، وآكل الربا، وشارب الخمر، ومن عمل عمل قوم لوط، ومن غَيَّر تُخُوم الأرض، ومن عَقَّ والديه، والراشي، والمرتشي، والرائش، والظالم، والنامصة، والمتنمصة، والنائحة، ونحو ذلك: بمعنى البعد عن حضرة الله تعالى ورحمته.

ثم قد تظهر آثار اللعنة على من ارتكب ذنباً لعن مرتكبه في الدنيا بقلة، أو ذلة، أو علة، أو سوء منية، وفي الغالب لا تظهر آثار اللعنة

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢ / ٢٨٧). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٧٦): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح إلا طيب بن محمد، وفيه مقال، والحديث حسن.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٠٠٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٠٣): فيه علي بن سعيد الرازي، وهو لين، وبقية رجاله ثقات.

مع الإصرار زيادة في الاستدراج، أو لأمر آخر.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في «العقوبات» عن حماد بن سلمة رحمه الله تعالى قال: ليست اللعنة بسواد في الوجه يراه الناس، إنما اللعنة الطرد والإبعاد، ولا تخرج من ذنب إلا وقعت في آخر مثله أو شر منه[1].

أي: وأنت ـ والعياذ بالله ـ مصر على الذنب، غير مستغفر منه ولا تائب عنه، غافل عن التذكرة والتيقظ.

فمن هذا القبيل ما نزل الآن بأهل الزمان إلا قليلاً منهم في تشبههم بالنساء، وتشبه نسائهم بهم وهم في أنواع العقوبة، ولا يرون آثار العقوبة، وإنما يشاهدها ذوو الأبصار فيهم، فيرون منهم من الغفلة عن الله تعالى، وعن ذكره وعن طاعته، والاستهلاك في معاصيه وهو يرزقهم، ويكثر لهم من الدنيا ما لا يرونه من أنفسهم؛ فافهم!

وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أتي رسول الله ﷺ: بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء، فقال رسول الله ﷺ «ما بالُ هذا؟»

فقالوا: يتشبه بالنساء.

فأمر به، فنفي إلى النقيع، فقيل: يا رسول الله! ألا تقتله؟

---

(١) ورواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٣٢).

فقال: «إِنِّي نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ الْمُصَلِّينَ»[1].

والنقيع ـ بالنون، والقاف ـ: ناحية بالمدينة، وهو غير البقيع ـ بالموحدة ـ.

والأحاديث في الباب كثيرة.

واعلم أن الحكمة في تحريم تشبه الرجل بالمرأة وتشبه المرأة بالرجل أنهما مغيران لخلق الله تعالى، ولأنه متى فعل الواحد منهما القليل من ذلك استجر إلى الكثير، فيكون ذلك سبباً لارتكاب العظائم؛ فإن الرجل إذا لبس الحرير الصِّرف، أو ما في أكثره حرير، وخاطه على مثل زي المرأة، وأرخى الذؤابة على هيئة المرأة، وتضمخ بالغالية، وتأنث في الأقوال والأفعال والحركات، ربما أدى به ذلك إلى فعل الفاحشة.

وهذا دأب مخنثي هذه الأعصار، فلقد حكي لنا عنهم ما تمجه الأسماع، وتنفر عنه القلوب والطباع، ولقد ذكر عن بعضهم أن لهم مواشط كمواشط النساء.

وكذلك المرأة متى تشبهت بالرجل في اللباس والهيئة والكلام والحركة، ربما أدى بها الحال إلى الخروج بين الرجال في مثل هيئاتهم، وترتب على ذلك أمور قبيحة ما خلا الكون عنها كالسُّحق، فجاء الشرع بحسم هذه المادة، وسد هذا الباب بالكلية.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٢٨).

ومن ذلك ما يفعله أهل الحباط، والسخرية في الولائم ونحوها في إخراج رجل في صورة امرأة، فيبدي أسرار النساء، ويحكي أحوالهن وعوائدهن، ويتكلم بالخنوثة الكلمات القبيحة، والألفاظ المستهجنة من النساء إلا مع بعولتهن، وهذا حرام ملعونٌ فاعله والراضي به، ويخشى على حاضره أن تعمه اللعنة ما لم ينكره ولو بقلبه.

وضد ذلك قبيح أيضاً محرم بأن تقيم مسخرات النسوة بعضهن في صورة رجل، فتفعل بصاحبتها فعل الرجل بالمرأة صورةً بحضرة النسوة لتضحكهن، وكلما أعجب الحاضرين والحاضرات ذلك من أهل السخرية أطروا فيه، فيكون ذلك أدعى للعنة، وأجلبَ للسّخط.

وكذلك ما يفعله النسوة بالمرأة في ليلة زفافها أو غيرها ـ صغيرةً كانت، أو كبيرة ـ من إلباسها العمامة والخوذة، وتقليدها بالسيف والخنجر، وإمساكها الدبوس على طريقة الرجال، فهو حرام، وفاعلاته ملعونات ممقوتات، وعلى الزوج إنكار ذلك، والإغلاظ عليهن حتى يتركنه ويتنزهن منه، ويستغفرن الله تعالى، ولذلك لو ألبسنها لباس الرجل من فرجية أو[. . .][1] أو كشتوان.

ومن هذا القبيل ركوب المرأة للخيل، وطرادها مع رجل وامرأة، ومصارعتها رجلاً أو امرأة، ولا يفعل ذلك إلا العاهرات المومسات.

---

(١) كلمة غير واضحة في «أ» و«ت».

ومن التشبه المذموم أن يخالط الرجل النساء الأجنبيات، والمرأة الرجال الأجانب، ومن ثم حرمت الخلوة بالأجنبية عليهما خشية الاستجرار إلى المعصية.

ولقد قال بعض الحكماء: باعدوا بين أنفاس الرجال وأنفاس النساء[1].

وروى الدارقطني في «الأفراد» بسند ضعيف، عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها: «أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْمَرْأَةِ؟»

قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل.

فضمها إلى صدره، وقال: «ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ»[2].

قال أبو طالب المكي: وكان النبي ﷺ[3] يقول: «شِرارُ خِصالِ الرِّجالِ خِيارُ خِصالِ النِّساءِ: الْبُخْلُ، وَالْجُبْنُ، وَالزَّهْوُ»[4].

لأن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مال زوجها، وإذا كانت زاهية معجبة استنكفت أن تكلم الرجال، وإذا كانت جبانة فَرَقَت من كل شيء فلم تخرج من بيتها.

---

(١) قال علي القاري في «الأسرار المرفوعة» (ص: ١٤٥): غير ثابت.

(٢) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٩٨): رواه البزار والدارقطني في «الأفراد» من حديث علي ﷺ بسند ضعيف.

(٣) في «قوت القلوب»: «وكان علي» بدل «وكان النبي».

(٤) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٤٢٢).

ومن شأن الرجال الخروج والحركة في الكسب وغيره، فإذا أكثرت المرأة من الخروج من بيتها كانت متشبهةً بالرجال.

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء: ٣٤].

وقال رسول الله ﷺ: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَها الشَّيْطانُ». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وابن حبان في «صحيحه» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه[1].

واعلم أن الله ﷻ لما أمر النساء بالتستر بحيث منعهن من أعمال الخير التي لا تتأتى إلا بالاجتماع بالرجال كالجهاد، والقضاء، والإمارة، جعلَ لهن من الأعمال ما أثابهن عليه مكان ما فاتهن.

روى البيهقي عن أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها: أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي! إني وافدة النساء إليك، نفسي لك الفداء! إنه ما من امرأة كانت في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا، أو لم تسمع إلا وهي على مثل رأيي؛ إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمنا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشرَ النساء محصوراتٌ مقصوراتٌ، قواعد بيوتكم، ومفضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشرَ الرجال فُضِّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج

---

(١) رواه الترمذي (١١٧٣) وقال: حسن غريب، وابن حبان في «صحيحه» (٥٥٩٩).

بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً، أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا أولادكم، فما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، فقال: «هَلْ سَمِعْتُمْ مَقالَةَ امْرَأَةٍ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ مُساءَلَتِها فِي أَمْرِ دِينِها مِنْ هَذِهِ؟»

فقالوا: يا رسول الله! ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا.

فالتفت النبي ﷺ إليها، ثم قال: «انْصَرِفِي أَيَّتُها الْمَرْأَةُ وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّساءِ أَنَّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنَّ لِزَوْجِها، وَطَلَبَها مَرْضَاتِهِ، وَاتِّباعَهَا مُوافَقَتَهُ تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ».

فأدبرت المرأة وهي تهلِّل وتكبر استبشاراً[1].

وقد علمت من هذا الحديث مع حديث: «إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ»: أن حسن تبعل المرأة ودخولها في أحوال النسوة الموافقة لشهواتهن إذا أحسنت النية فيه كان عملاً منها صالحاً، وذلك من الرجل أقبح شيء كما لا يحسن من المرأة الترجل.

وروى الإمام أحمد بسند ضعيف، عن امرأة كانت قد صلت القبلتين مع رسول الله ﷺ قالت: دخلت على رسول الله ﷺ، فقال: «اخْتَضِبِي؛ تَتْرُكُ إِحْداكُنَّ الْخِضابَ حَتَّى تَكُونَ يَدُها كَيَدِ رَجُلٍ؟» فما

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٧٤٣).

تركت الخضاب وإنها لابنة ثمانين[1].

فلو خضب الرجل يديه أو طرفيهما بالحناء، أو نقشهما، أو لبس الحلي الخاص بالنساء، حرم عليه ذلك.

وقد علمت أن النبي ﷺ نفى المخنث الذي وجده يخضب يديه ورجليه بالحناء، وإنما نفاه لئلا يفسد غيره من الرجال والنساء.

وكذلك لا والله لا يحسن من الرجل تقليد النساء في حركاتهن وكلماتهن ونغماتهن، فإن فعل شيئاً من ذلك تقرباً إلى رجل مثله لتجري الفاحشة بينهما كان ذلك أشد قبحاً، وأولى بأن يوجب لعناً وطرداً، وإبعاداً وسخطاً؛ ألا ترى أن النبي ﷺ قال: «مَلْعُونٌ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ» ـ سبعاً ـ[2].

وقد نطق كتاب الله تعالى بأن اللواط فاحشة مستبشعة.

ولو أن امرأة دعت حليلها إلى اللواط ـ ولو بأدنى قول أو فعل ـ أو وافقته عليه كانت ملعونة لأنها ضمت إلى هذه الفاحشة قبح التشبه بمخنثي الذكور.

وما أقبح قولَ القائل، وأولاه بالذم إذ مدح فيه هذا الوصف القبيح: [من البسيط]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٧١): فيه من لم أعرفهم، وابن إسحاق، وهو مدلس.

(٢) تقدم تخريجه.

مِنْ كَفٍّ ذاتِ حِرٍ فِي زِيِّ ذِي ذَكَرٍ لَهَا مُحِبَّانِ لُوطِيٌّ وَزَنَّاءُ

ومن ألطف ما وقع ما ذكره الزمخشري في «ربيع الأبرار»: أن ريطة بنت العباس سألها زوجها المتوكل أن تضم شعرها وتتشبه بالمماليك، فأبت، فخيرها بين ذلك وبين الفراق، فاختارت الفراق، فطلقها[1].

فتأمل كم بين عفتها وطغيانه، وتوفيقها وخذلانه!

ـ **ومن تشبه الرجال بالنساء المذموم**: كثرة الإرفاه، والمبالغة في تحسين اللحية وغيرها بالتدهن، والتطيب بطيب النسوة، واستعمال الأدوية والأغذية المسمنات.

ومن أمثال العرب: الرجال بأعضادها، والنساء بأعجازها؛ كما حكاه ابن هشام اللخمي في «شرح أبيات الإيضاح»[2].

ـ **ومن ذلك**: أن المرأة إذا أحبت أفرطت، وإذا قَلَتْ فَرَّطت، وإذا عادت حقدت، ولم تبق للصلح موضعاً، ولا تكاد تفي بعهد، ولا تدوم على ود، إن أحسنت إليها الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط؛ كما في الحديث[3].

وهذه الأمور ـ وإن كانت كلها قبيحة من الرجال والنساء ـ إلا أنها

---

(١) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ١٣٨).

(٢) وانظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١/ ٤١٢).

(٣) تقدم تخريجه.

تحتمل منهن ما لا تحتمل منهم، فلا ينبغي للرجل أن يلحقها في ذلك بالنساء.

وقد ألمَّ بذلك المتنبي في قوله: [من الطويل]

إذا غَــدَرَتْ حَـسْناءُ أَوْفَــتْ بِعَهْــدِها
وَمِــنْ عَهْــدِها أَنْ لا تَــدُومَ عَلــى عَهْــدِ

وَإِنْ حَقَـدَتْ لَـمْ يَبْـقَ فِـي قَلْبِــها رِضـا
وَإِنْ رَضِــيَتْ لَـمْ يَبْـقَ فِـي قَلْبِــها حِقْـدُ

وَإِنْ عَــشِقَتْ كانَــتْ أَشَــدَّ صَــبابَةً
وَإِنْ فَرِكَــتْ فَاذْهَــبْ فَمــا فِرْكُهــا قَــصْدُ

كَــذَلِكَ أَخْــلاقُ النِّــساءِ وَرُبَّمــا
يَضِـلُّ بِها الْهـادِي وَيَخْفَـى بِهـا الرُّشْـدُ[1]

ـ **ومن ذلك**: الجبن، والوهن، والخَوَر عند ملاقاة الرجال ومقارعة الأبطال.

ولقد ذم الله تعالى المنافقين بذلك، وشنع عليهم بقوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٧].

قال السدي رحمه الله تعالى معناه: رضوا بأن يقعدوا عن الجهاد كما قعدت النساء. رواه ابن أبي حاتم[2].

---

(١) انظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (ص: ١٥٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٥٩).

وأخرج نحوه هو وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[1].

وقال الشاعر: [من الخفيف]

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتالُ عَلَيْنا ... وَعَلى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيولِ[2]

واعلم أن وصف الشجاعة في الرجل من أكمل صفاته وأفضلها، وربما دعته إلى كل خير، وأنقذته من كل سوء.

وتعجبي شجاعة أبي محجن الثقفي رضي الله تعالى عنه إذ أنقذته آخراً مما كان عليه من معاقرة الخمر، وأمرُه في معاقرتها مشهور.

وقد ذكر قصته الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب»، وذكر أنه أسلم حين أسلمت ثقيف، وسمع من النبي ﷺ، وروى عنه.

قال ابن عبد البر: وكان أبو محجن هذا من الشجعان الأبطال في الجاهلية والإسلام، ومن أولي البأس والنجدة، ومن الفرسان البهم، وكان شاعراً مطبوعاً كريماً، إلا أنه كان منهمكاً في الشراب، لا يكاد يقلع عنه، ولا يردعه حد ولا لوم لائم، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يستعين به، وجلده عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في الخمر

---

(1) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٨٥٩)، والطبري في «التفسير» (١٠/ ٢٠٨).

(2) البيت لعمر بن أبي ربيعة، كما في «ديوانه» (ص: ٤٣٠)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٤/ ٣٨٠).

مراراً، ونفاه إلى جزيرة في البحر، وبعث معه رجلاً، فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص ﷺ بالقادسية وهو محارب للفرس، وكان قد هَمَّ بقتل الرجل الذي بعثه معه عمر، فأخبره الرجل بذلك، وخرج فاراً، فلحق بعمر وأخبره خبره، فكتب عمر إلى سعد رضي الله تعالى عنهما بحبس أبي محجن، فحبسه، وكانت بالقادسية أيام مشهورة؛ منها يوم الناطف، ويوم أرمات، ويوم الموات، ويوم الكتائب وغيرها، فلما كان يوم الناطف أو غيره، والتحم القتال، رآهم أبو محجن يقتتلون، وكأنه رأى أن المشركين قد أصابوا من المسلمين، فأرسل إلى أم ولد سعد ـ أي: امرأته ـ يقول لها: إن أبا محجن يقول لك: إن خليت سبيله، وحملته على هذا الفرس، ودفعت إليه سلاحاً، ليكونن أول من يرجع إليك إلا أن يقتل.

وأنشأ يقول: [من الطويل]

كَفَى حَزَناً أَنْ تردِيَ الْخَيْلُ بِالقَنا ... وأُتْـرَكَ مَـشْدُوداً عَلَـيَّ وثاقِيـا

إِذا قُمْتُ عَنَّانِيَ الْحَدِيدُ وَغُلِّقَـتْ ... مَصارِيْعُ دُونِي قَدْ تُصِمُّ الْمُنادِيا

وَقَدْ كُنْـتُ ذا مـالٍ كَثِيـرٍ وَإِخْـوَةٍ ... فَقَدْ تَرَكُونِي واحِـداً لا أَخـا لِيـا

وَقَدْ شَفَّ جِسْمِي أَنَّنِي كُـلَّ شـارِقٍ ... أُعالِجُ كَـبْلاً مُـصْمَتاً قَـدْ بَرانِيـا

فَلِلَّــهِ دَرِّي يَــوْمَ أُتْــرَكُ مُوْثَقــاً ... وَتَـذْهَلُ عَنِّـيَ أُسْـرَتِي وَرِجالِيـا

حُبِسْنا عَنِ الْحَرْبِ الْعوانِ وَقَدْ بَـدَتْ ... وَأَعْمالُ غَيْرِي يَوْمَ ذاكَ الْعَوالِيـا

فَلِلَّــهِ عَهْـدٌ لا أَخِـيسُ بِعَهْـدِهِ ... لَئِنْ فُرِّجْتُ أَنْ لا أَزُورَ الحوانيـا

فخلت سبيله وأعطته الفرس، فقاتل وأبلى بلاءً حسناً، ثم عاد إلى محبسه[1].

وروى عبد الرزاق عن ابن سيرين: أن أبا محجن لما قال ذلك لامرأة سعد حلت عنه قيوده، وحملته على فرس كان في الدار، وأعطي سلاحاً، ثم خرج يركض حتى لحق بالقوم، فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدق صلبه، فنظر إليه سعد، فجعل يتعجب، ويقول: من ذلك الفارس؟

قال: فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى هزمهم الله تعالى، ورجع أبو محجن، ورد السلاح، وجعل رجليه في القيود كما كان، فجاء سعد فقالت له امرأته وأم ولده: كيف كان قتالكم؟

فجعل يخبرها: لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلاً على فرس أبلق، لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننت أنها بعض شمائل أبي محجن.

فقالت: والله إنه لأبو محجن، كان من أمره كذا وكذا، فقصت عليه قصته، فدعا به وحل قيوده، وقال: لا أجلدك على الخمر أبداً.

قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربها أبداً؛ كنت آنف أن أَدَعها من أجل حَدِّكُم.

قال: ولم يشربها بعد ذلك[2].

---

(١) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٤٦ ـ ١٧٤٧).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٠٧٧).

وروى ابن الأعرابي عن المفضل الضبي قال: قال أبو محجن في تركه الخمر: [من الوافر]

رَأَيْتُ الْخَمْرَ صالِحَةً وَفِيها ... مَناقِبُ تُهْلِكُ الرَّجُلَ الْحَلِيما

فَلا وَاللهِ أَشْرَبُها حَياتِي ... وَلا أَشْفِي بِها أَبَداً سَقِيما[1]

* **وهنا لَطِيفَةٌ:**

هي أن العبد المسلم متى كان فيه خلق كريم وصدق في الإيمان، فقد يُصْلِح الله تعالى بذلك الخلق كثيراً من مفاسده، وليس من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥].

ومن شأن العبد المؤمن تأول أحوال أخيه المسلم التي يراها مخالفة، ومعرفة حقه في أحواله الموافقة، وحمله أخيه على أحسن الأحوال، واتهام نفسه واحتقارها دون أخيه، وقصة أبي محجن شاهد عجيب على صدق ما قررته.

وقد قال ابن عبد البر: ومن رواية أهل الأخبار أن ابناً لأبي محجن الثقفي دخل على معاوية رضي الله تعالى عنه، فقال له معاوية:

---

(١) وانظر: «الأغاني» للأصبهاني (١٩/ ١٤)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٤٩).

أبوك الذي يقول: [من الطويل]

إِذا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمَـةٍ تُرَوِّي عِظامِي بَعْدَ مَوْتِيَ عُروقُهـا
وَلا تَـدْفِنَنِّي بِـالْفَلاةِ فَـإِنَّنِي أَخافُ إِذا ما مِـتُّ أَنْ لا أَذُوقَهـا

فقال ابن أبي محجن: لو شئت ذكرت أحسن من هذا من شعره.

قال: وما ذا؟

قال: قوله: [من البسيط]

لا تَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ مالِي وَكَثْرَتِـهِ وَسائِلِ النَّاسَ عَنْ حَزْمِي وَعَنْ خُلُقِي
القَـوْمُ أَعْلَـمُ أَنِّـي مِـنْ سَـراتِهِمُ إذا تطـيشُ يـدُ الرِّعْديـدة الفَـرِقِ
قَدْ أَرْكَبُ الْهَوْلَ مَسْدُولاً عَساكِرُهُ وَأَكْـتُمُ الـسِّرَّ فِيـهِ ضَـرْبَةُ الْعُنُـقِ
أُعْطِي السِّنانَ غَداةَ الرَّوْعِ حِـصَّتَهُ وَعامِلَ الـرُّمْحِ أَرْويـهِ مِـنَ الْعَلَـقِ
وَأَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ قَدْ عَلِمُوا وَأَحْفَـظُ الـسِّرَّ فِيـهِ ضَـرْبَةُ الْعُنُـقِ
عفُّ الْمَطالِبِ عَمَّـا لَـسْتُ نائِلَـهُ وَإِنْ ظُلِمْتُ شَدِيدُ الْحِقْدِ وَالْحَنَـقِ
وَقَدْ أَجُودُ وَمـا مـالِي بِـذِي قَنَـعٍ وَقَـدْ أَكِـرُّ وَراءَ الْمُحْجِـبِ الْفَـرِقِ
وَالقَوْمُ أَعْلَـمُ أَنِّـي مِـنْ سَـراتِهِمُ إِذا سَـما بَـصَرُ الرِّعْدِيـدِ لِلـشَّفَقِ

فقال معاوية رضي الله تعالى عنه: لئن أسأنا القول لنُحسننَّ الصِّلة.

ثم أجزل جائزته، وقال: إذا ولدت النساء فلتلد مثلك.

قال ابن عبد البر: وزعم الهيثم بن عدي أنه أخبره من رأى قبر

أبي محجن بأذربيجان، أو قال: في نواحي جرجان، وقد نَبَتَ عليه ثلاث أصول كرم، وقد طالت وأثمرت، وهي معرشة على قبره، مكتوب على القبر: هذا قبر أبي محجن.

قال: فجعلت أتعجب، وأذكر قوله:

إذا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ

تُرَوِّي عِظَامِي فِي الْمَمَاتِ عُرُوقُها[1]

وإنما استوفيت هنا أخبار أبي محجن رضي الله تعالى عنه بعض الاستيفاء لما في قصته من تهييج نفوس الرجال إلى آثار الرجولية في محازها؛ فإن الشجاعة والكرم من أفضل أحوال الرجال دون النساء.

نعم، لو أريدت المرأة على بُضْعها، أو على نفسها من قبل غير حليلها لشجعت، ودفعت عنها، فليس ذلك من الشجاعة التي تختص بالرجال، ولا تكون مذمومة منها.

وكذلك لو خرجت المرأة الكبيرة مع المجاهدين لمداواة الجرحى ونحو ذلك لم يضر؛ كما صح ذلك عن نساء الأنصار وغيرهن، وذلك حيث الضرورة، وأما الغالب فأحسن أحوال المرأة أن تكون بعيدة التشبه من الرجال؛ ألا ترى أن الشرع فرَّق بين الرجال والنساء في كثير من العبادات، ولذلك تضم أعضاءها في السجود، وتلصق بطنها بفخذيها،

---

(١) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٤/ ١٧٤٩ ـ ١٧٥٠).

وكذلك تضم في الركوع، والرجل يجافي يديه عن جنبيه، ويقل بطنه عن ركبتيه، وهو يسبح إذا نابه في صلاته وهي تصفق، كما روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله تعالى عنه: «التَّسْبِيحُ لِلرِّجالِ وَالتَّصْفِيقُ لِلنِّساءِ»[1].

والمرأة تستر جميع بدنها في الصلاة إلا الوجه والكفين، والرجل لا يجب عليه إلا ستر السرة والركبة وما بينهما.

ولا يطلب من المرأة الجهر في القراءة، ولا يسن لها الأذان بخلاف الرجل.

والرجل يؤم الرجل، والمرأة لا تؤم الرجل، وتؤم النساء وتقف وسطهن، والرجل يقف أمام الرجال وغيرهم.

وأفضل صلاة المرأة في قعر بيتها، وأفضل صلاة الرجل في المسجد إلا النوافل.

وزيارة القبور للرجال سنة، وهي للنساء مكروهة.

ولا تلي المرأة الخلافة، ولا السَّلْطنة، ولا الإمارة، ولا القضاء، ولا عقد النكاح عند الأكثرين، ولا تملك الطلاق، ولا الرجعة إلى غير ذلك.

فهذه الأحكام ليس لكل من الرجل والمرأة أن يتشبه بالآخر فيما اختص به منها.

وفي الحديث: «طاعَةُ النِّساءِ نَدامَةٌ»[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٧).

(٢) تقدم تخريجه.

وفي الحديث الآخر: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ امْرَأَةٌ»[1].

وفي لفظ: «وَلَّوْا أَمْرَهَمُ امْرَأَةً»[2].

وقال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء: ٣٤].

ومن ثم كان الطلاق، والظِّهار، والإيلاء من قبل الرجل دون المرأة، وكانت الرجعة للرجل دون المرأة، فلو دخل الرجل تحت طاعة المرأة فقد عكس الحكمة، وخالف الشريعة.

وقال الحسن: ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تشتهي إلا أكبَّه الله في النار. رواه الإمام أحمد، وغيره[3].

وأما قول القائل: الرجال عند أغراضهم نساء، فهو من أمثال العامة لا يؤخذ به ولا يلتفت إليه، وإن وقع ممن يعتد به، فمعناه أن الرجل إذا كان له غرض صحيح في شيء أظهر من أخلاقه خلاف ما هو مطلوب منه [. . .][4] ذلك المطلوب من غير إثم.

*** تَنْبِيهٌ:**

كما لا يتشبه بالنساء في الزي لا يتبعن في الرأي، ومن ثم جاء

---

(١) بهذا اللفظ رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٤٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥١٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمتين.

في الحديث: «طاعَةُ النِّساءِ نَدامَةٌ». أخرجه الديلمي، والعسكري، والقضاعي عن عائشة رضي الله تعالى عنها[1].

وله شاهدٍ من حديث زيد بن ثابت، وطريقة القضاعي جيدة، ومن ثم كان إدخال ابن الجوزي له في الموضوعات ليس بجيد كما قاله السخاوي، وغيره[2].

وروى الإمام أحمد عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «هَلَكَتِ الرِّجالُ حِينَ أَطاعَتِ النِّساءَ»[3].

وقد قيل: شاوروهن وخالفوهن[4].

وروى ابن لال في «مكارم الأخلاق» عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْعَلَنَّ أَحَدُكُمْ أَمْراً حَتَّى يَسْتَشِيرَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَسْتَشِيرُهُ فَلْيَسْتَشِرِ امْرَأَةً ثُمَّ يُخالِفْها؛ فَإِنَّ فِي خِلافِها البَرَكَةَ».

وروى العسكري في «الأمثال» عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: خالفوا النساء؛ فإن في خلافهن البركة[5].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٤٠١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٤٥)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٢٣).

(٤) ذكره كثيرون حديثاً مرفوعاً، ولا يثبت بهذا اللفظ، كما قال علي القاري في «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» (ص: ١١٣).

(٥) ورواه ابن الجعد في «مسنده» (٢٩٧١) (ص: ٤٣٦).

وعن معاوية رضي الله تعالى عنه قال: عَوِّدوا[1] النساءَ [لا]؛ فإنها ضعيفة إن أطعتها أهلكتك[2].

[. . .][3] تقتدي بالنســاء، وهن أكثر أهل النـار، وهن نواقـص عقل ودين.

وقد ورد: [أنهن أول من][4] يتبع الدجال.

روى الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة، وابن عمر رضي الله تعالى عنهم مرفوعاً: «[لا ينزلُ الدَّجَّالُ المَدِينةَ، ولكنَّهُ ينزِلُ الخَنْدَقَ، وَعَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلاَئَكَةٌ يَحْرُسُونهَا][5]، فَأَوَّلُ مَنْ يَتْبَعُهُ النِّساءُ وَالإِماءُ»[6].

وعطف الإماء على النساء من عطف الخاص على العام، [فإنه قد][7] اجتمع فيهنَّ نقص الأنوثة، ونقص الرق، ونقصان عقول الأرقاء ـ ولا سيما الإماء ـ مشهور مشهود.

---

(1) بياض في «أ» و«ت».

(2) رواه ابن حزم في «المحلى» (٨/ ٢٨٨).

(3) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمتين.

(4) بياض في «أ» و«ت».

(5) بياض في «أ» و«ت».

(6) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤٩): رجاله رجال الصحيح غير عقبة ابن مكرم بن عقبة الضبي، وهو ثقة.

(7) بياض في «أ» و«ت» بمقدار ثلاث كلمات.

ومن هذا القبيل رغبة النساء في المنجِّمين، وأصحاب المنادل، والفالاتية، والكهان، والسحرة، والمشعبذين، والمطالبية.

وأقل الرجال عقولاً من يوافقهن في ذلك، وهو من قبيل التعلق بالأماني، وكم ضاعت أموال أهل الجهل في هذا الباب، وهو من قبيل المثل: رزق الكلاب على المجانين.

نعم، لو فرض وجود امرأة صالحة عارفة، وهي أعز من الغراب الأعصم كما في الحديث[1]، فلا بأس باستشارتها في بعض الأمور خصوصاً ما يرجع فيه إلىٰ رأيهن كأمر بناتهن، ولذلك جاء في الأثر: آمروا النساء في بناتهن[2]؛ أي: ذوات الصلاح الكاملات.

وفي الحديث: «كَمُلَ مِنَ الرِّجالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ إلاَّ أَرْبعٌ»[3].

وهذا مستثنى مما تقدم، والدليل عليه استشارة النبي ﷺ أم سلمة رضي الله تعالى عنها في صلح الحديبية كما هو مأثور في السير، وغيرها لفضلها ووفور عقلها، وهو أمر غريب في النساء حتى قال إمام

---

(١) روى الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٩٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٢٦٨) عن عمرو بن العاص ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ النِّساءِ إلاَّ مِثْلُ هَذا فِيْ هَذِهِ الْغِرْبانِ».

(٢) قد ورد هذا مرفوعاً، كما رواه أبو داود (٢٠٩٥) عن ابن عمر ﷺ.

(٣) تقدم تخريجه.

الحرمين: لا نعلم امرأة أشارت برأي فأصابت إلا أمَّ سلمة.

واستدرك عليه إشارة بنت شعيب في أمر موسى عليهم السلام[1].

ومن وهن آراء النساء أنهن لا يستقمن على أمر يبرمْنَه من عمل، أو بيع، أو نحوه، بل مهما لاح لهنَّ هوى في مخالفة ما فعلته بادرن، وطلبن نقضه، وكَلَّفن الوكلاء والوسائط ذلك.

وروى ابن أبي شيبة عن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه قال: إنما يرجع في المواهب النساء، وشرار الأقوام[2].

وما أقرب النساء من خلف الوعد، ونقض العهد، والفجور في الخصومة، فإذا اجتمعن بجماعتهن غير مباركة حتى كأن جماعتهن مستثناة من الحديث: «الْجَماعَةُ رَحْمَةٌ»[3].

وانفراد المرأة في بيتها أقرب إلى الخير من اجتماعها بالنساء؛ فإنها ترى ما ليس لها مثله، فيؤول بها ذلك إلى كفران العشير، ومناكدة الزوج، وتكليفه ما لا يطيق، ومن ثم قال عمر رضي الله تعالى عنه: اعروا النساء يلزمن الحجال[4].

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٥/ ٣٤٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢١٧٠١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٤٤) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) كذا ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٦) موقوفاً على عمر رضي الله عنه. =

وروى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ جماعَةِ النِّساءِ كَمَثَلِ حَدِيدَةٍ أَدْخَلْتَها النَّارَ، ثُمَّ أَخْرَجْتَها فَضَرَبْتَها، فَطارَتْ فصارَتْ شَرَراً»[1].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن محمد بن سلام الجمحي قال بعض الحكماء: ثلاثة أشياء تميت القلب: مجالسة الأنذال، ومجالسة الأغنياء، ومجالسة النساء[2].

وهي شاملة لمجالسة الرجل المرأة، والمرأة النساء.

وروى حسين المروزي في «زوائد الزهد» لابن المبارك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الرجل خلق من الأرض فنهمته من الأرض، والمرأة خلقت من الرجل فنهمتها في الرجل؛ فاحبسوا نساءكم[3].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «البر والصلة» عن الحسن قال: قال عمر رضي الله تعالى عنه: إنما النساء عورة؛ فاستروا

= وقد رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٤٣٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢١٤) مرفوعاً عن مسلمة بن مخلد ﷺ.

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٤٥٣).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٧١).

(٣) ورواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/ ٨٥٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٩٨).

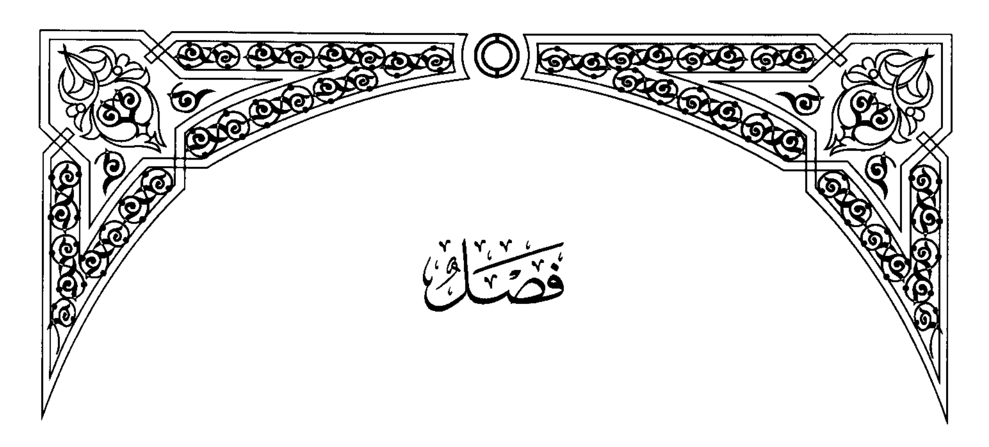
عورتهن بالبيوت، وداووا ضعفَهنَّ بالسكوت[1].

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: أما يغار أحدكم؟ يدع امرأته تخرج إلى السوق تزاحم العُلُوج.

وأصاب رضي الله تعالى عنه؛ فإن الأسواق إنما تليق بالرجال، فمزاحمة النساء الرجال فيها دخولٌ منهنَّ في غير ما لهن، وتشبه بالرجال وإن صحت معاملتهن.

* * *

(١) ورواه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ٨٥) عن أنس ﷺ مرفوعاً.
وابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٢١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٩٢٦) عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً.
ورواه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس» (ص: ١٤٠) عن ابن عباس ﷺ موقوفاً عليه.



فصل

ليس من تشبه المرأة المذموم بالرجال دخول المرأة في شيء من طلب العلم وتعليمه، وتربية المريدين، وإرشاد السائلين ما لم يكن ثَمَّ خلوة أجنبية، بل مع الصيانة وحفظ قوانين الشرع وأحكامه، فقد كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تفيد العلوم، وتورد الإشكالات على علماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقد استدركت على جماعة منهم في كثير من الأحاديث والأحكام، فاستدركت على عمر، وابنه، وأبي هريرة، وابن عباس، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وابن الزبير، وزيد بن أرقم، وأبي الدرداء، وسعيد، والبراء، وفاطمة بنت قيس، وغيرهم.

وقد ألف في ذلك طائفة من العلماء آخرهم الحافظ جلال الدين السيوطي؛ ألف كتاب «الإصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة» رضي الله تعالى عنهم.

وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام، والعلم، والشعر، والطب من عائشة رضي الله تعالى عنها[1].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٧٣٣).

وقال مسروق: لقد رأيت الصحابة رضي الله عنهم يسألون عائشة رضي الله تعالى عنها عن الفرائض[1]. رواهما الحاكم.

وكذلك بقية أزواج النبي ﷺ، وغيرهن من النساء الصحابيات كأم سليم، وأم الدرداء، وفاطمة بنت قيس، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وأسماء بنت يزيد، وأم حَرام، وغيرهن.

وصح عن عائشة رضي الله تعالى عنها: نِعْمَ النساء نساء الأنصار؛ لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين[2].

وعلى ذلك درج السلف والخلف؛ كانوا يأخذون العلم عن النساء كما يأخذون عن الرجال، وكانوا يتبركون بالنساء الصالحات والعارفات كرابعة العدوية، ورابعة الشامية، وشعوانة، وغيرهن؛ كانوا يحملون الأدب، والزهد، والمعارف عن النساء كما يحملونه عن الرجال، كما يؤخذ ذلك من سيرهم المذكورة في كتب الحديث، والتاريخ.

وقد روي من اجتهاد بعض النساء، وتدقيقهن في الورع ما عجزت عنه الرجال بحيث قيل في المعنى: [من الوافر]

وَلَوْ كانَ النِّساءُ كَما ذَكَرْنا ... لَفُضِّلَتِ النِّساءُ عَلى الرِّجالِ

فَما التَّأْنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ... وَلا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِلالِ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٧٣٦).

(٢) رواه مسلم (٣٣٢).

نعم، ينبغي أن لا تعلم المرأة الكتابة؛ لأن الكتابة ربما أدت إلى أمور فظيعة، وأحوال قبيحة من إيصال أسرارهن إلى الرجال، وأسرار الرجال إليهن.

وقد أخرج الحاكم، والبيهقي في «الشعب» عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال: «لا تُنْزِلُوهُنَّ الغُرَفَ، وَلا تُعَلِّمُوهُنَّ الكِتابَةَ، وَعَلِّمُوهُنَّ الغَزْلَ وَسُورَةَ النُّورِ»[1].

وقد بلغني أن بعض العلماء كان لا يستحب أن تقرأ سورة يوسف عليه السلام على النساء، ويستحب أن تقرأ عليهن سورة النور[2].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي سعد قال: إن لقمان عليه السلام مر بجارية تعلم الكتابة فقال: ليت شعري! من سأل هذا السبب؟

قال: ومر بامرأة معلقة بشعرها في شجرة، فقال: يا ليت الشجر كلها كان ثمرها مثل ثمر هذه الشجرة.

واعلم أن في إيثار الرجل الجهل والدَّعَة، والراحة والاشتغال

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٩٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٥٣). وفيه عبد الوهاب بن الضحاك متروك.
وروي من طريق أخرى أضعف من هذه رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧١٣). وفيه محمد بن إبراهيم الشامي، كذاب.

(٢) وهذا من الورع الكاذب، والجهل المركب.

بالشهوات، وترك الاشتغال بالعلم والتأدب بالآداب الشرعية تشبهاً بالنساء من حيث إن ذلك خلقهن.

وفي الحديث: «إِنَّكُنَّ نَوَاقِصُ عَقْلٍ وَدِينٍ»[1].

ومن ثم قال الزهري لأبي بكر الهذلي: يا هذلي! أيعجبك الحديث؟

قال: قلت: نعم.

قال: أما إنه يعجب ذكور الرجال، ويكرهه مؤنثوهم. رواه الخطيب[2].

وفي رواية عن الزهري قال: لا يطلب الحديث من الرجال إلا ذكرانها، ولا يكرهه إلا إناثها[3].

وعندي أن هذا لا يختص بالحديث، بل إلا من حيث إن معظم العلوم يرجع إليه، بل طلب العلم مطلقاً شيمة الرجال، واللهو عنه وعن كل خير لخلق لا يليق إلا بالنساء لو كان لائقاً، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[النور: ٣٧] الآية.

وإذا كانوا لا تلهيهم التجارة والبيع وهما أليق بالرجال، فلأَنْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٧٠).

(٣) رواه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٧١).

لا تلهيهم الحلي والحلل والألعاب أولى.

وقال الخطيب: أنشدني الحسن بن علي بن محمد البلخي بأصبهان قال: أنشدني أبو الفضل [العباس][1] بن محمد الخراساني:

[من البسيط]

رَحَلْتُ أَطْلُبُ أَهْلَ الْعِلْمِ مُجْتَهِداً ... وَزِينَةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيا الأَحادِيثُ

لا يَطْلُبُ الْعِلْمَ إلاَّ بازِلٌ ذَكَرٌ ... وَلَيْسَ يُبْغِضُهُ إلاَّ الْمَخانِيثُ

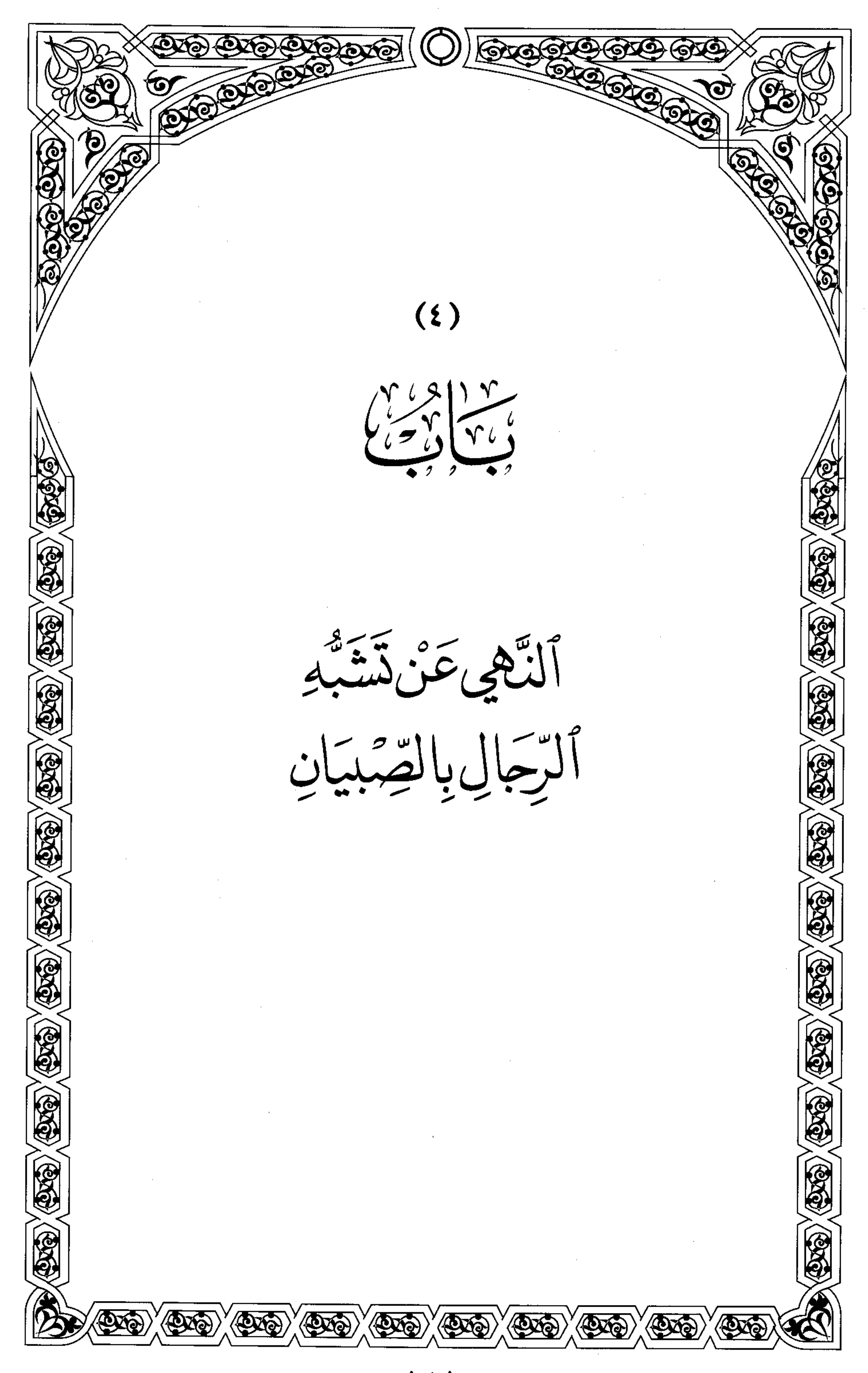
لا تُعْجَبَنَّ بِمالٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ ... فَإِنَّما هَذِهِ الدُّنْيا مَوارِيثُ[2]

□ □ □

---

(١) بياض في «أ» و«ت».

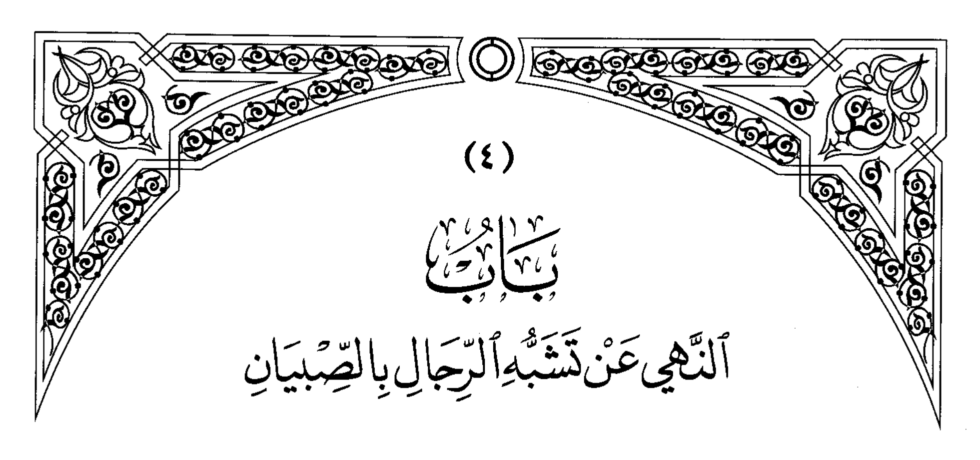
(٢) انظر: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص: ٧١).



(٤)

بَابُ

ٱلنَّهيِ عَنْ تَشَبُّهِ ٱلرِّجَالِ بِالصِّبيَانِ



(٤)

بَابُ النَّهيِ عَنْ تَشَبُّهِ الرِّجَالِ بِالصِّبيَانِ

وهو مذموم، وعكسه محمود.

اعلم أن تشبه الرجل الكامل ـ شاباً، أو كهلاً، أو شيخاً ـ بالصبي الصغير في اللعب واللهو، وما هو شأن الصغار نزولٌ من أفق العقل إلى حضيض الحماقة والجهل، وهو مما يعلم ضرورة.

ولقد تكلف بعضهم عن بعض المباحات التي هي بالصغار أليق خشية من الوقوع فيما وراء ذلك، كما روى ابن أبي شيبة عن إبراهيم النخعي: أنه أتي بخبيص فلم يأكله، وقال: هذا طعام الصبيان[1].

ومن النهي عن التشبه بالصبي ما أخرجه ابن جرير، والبيهقي عن أسلم رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا أسلم! لا يكن حبك كَلَفاً، ولا بغضك تلفاً.

قلت: وكيف؟

قال: إذا أحببت فلا تَكْلَفْ كما يَكْلَف الصبي بالشيء يحبه، وإذا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٢٣٤).

أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك ويهلك[1].

قلت: ومحل ذلك في المحبة من الخلق إلى محبة الله تعالى، وكلما زاد العبد حباً لله تعالى كلما زاد بها قرباً من الله ﷻ ولو صارت كَلَفاً؛ فإنها تزداد حسناً ويزداد بها صاحبها كمالاً، كما روي أن الله تعالى وصف أولياءه ببعض أنبيائه، فقال: الذين كلفوا بحبي كما يكلف الصبي بالشيء، ويأوون إلى ذكري كما يأوي الطير إلى وَكْره، ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرب؛ فإنه لا يبالي أَقَلَّ الناسُ أم كثروا[2].

قال أبو طالب المكي، وأبو حامد الغزالي رحمهما الله تعالى بعد أن ذكرا هذا الأثر: فتدبر هذه الأمثال: إن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه، فإن نام فمعه، وإن تحرك فبه، وإن هَبَّ من نومه فعنه، فإن فارقه بكى عليه، وإن وجده ضحك إليه، ومن نازعه فيه أبغضه، ومن أعطاه إياه أحبه، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا الصياح والبكاء عليه حتى يرد إليه.

قالا: وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب لنفسه حتى يبلغ من شدة غضبه أن يقتل نفسه[3].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥٩٨)، وكذا البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢٢).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٧٥) عن زيد بن أسلم عن نبي من أنبياء الله صلوات الله عليهم.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٣٣٤).

وذلك أنه يغيب الخلق عنه حتى نفسه فلا يعقل ما فعل، وعلم من هذا أيضاً من أبغض أحداً لمعصية الله تعالى جاز له أن يصل في البغضاء إلى التلف إذا كانت معصيته توجب ذلك كبغض الكفار حتى يسعى المسلمون في قتالهم، وإزهاق نفوسهم وأرواحهم، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[الأنفال: ٦٥].

فالتشبه بالصبيان الأطفال مما تنهى عنه بَوادِهُ العقل إلا فيما استثني من الكَلَف بحب الله تعالى، وحب ما يقرِّب إليه من علم وعبادة، فلا معنى للإطالة في النهي عن ذلك، وإنما نتكلم الآن في هذا الباب في تشبه الشيخ والكهل بالشاب.

روى أبو يعلى، والطبراني، والدينوري عن واثلة، وابنُ عدي عن ابن مسعود، والبيهقيُّ في «الشعب» عن أنس، وعن ابن عباس قالوا ﵃: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ شَبابِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِكُهُولِكُمْ، وَشَرُّ كُهُولِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِشَبابِكُمْ»[1].

---

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (٧٤٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٨٣)، والدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٩٥) عن واثلة بن الأسقع ﵁.

وابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٥٤) عن عمر ﵁، وقال: موضوع. و(٢/ ٣٠٧) عن أنس ﵁.

والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٧٨٠٥) عن أنس ﵁، و(٧٨٠٦) عن ابن عباس ﵁.

وقلت في معناه: [من الخفيف]

إِنَّ خَيْـرَ الـشَّبابِ مَـنْ يَقْتَـدِي بِـالْكُهُو

لِ أَوْ بِالـشُّيُوخِ فِـي الإِحْـسانِ

ثُـمَّ شَـرُّ الْكُهُـولِ كَهْـلٌ تَـراهُ

يَتَحَلَّـى بِحِلْيَـةِ الـشُّبَّانِ

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ ابْنَ سَبْعِينَ فِي أَهْلِهِ، ابْنَ عِشْرِينَ فِي مِشْيَتِهِ وَمَنْظَرِهِ»[1].

وروى الديلمي عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ابْنَ عِشْرِينَ إِذا كانَ شِبْهَ ابْنِ ثَمانِينَ، وَيُبْغِضُ ابْنَ السِّتِّينَ إِذا كانَ شِبْهَ ابْنِ العِشْرين»[2].

وإذا كان المتشبه من الكهول والشيوخ بأبناء العشرين مذموماً مبغضاً إلى الله تعالى، فما ظنك بالمتشبه منهم بأبناء العشر والسبع؟

ومن المعلوم أنه لا رخصة لبالغ عاقل كامل العقل في معصية الله تعالى ـ سواء كانت صغيرة أم كبيرة، وسواء كان هو شاباً أو كهلاً أو شيخاً ـ ولكن جرت العادة بأن يقام للشاب من العذر ما لا يقام للكهل

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧٨٢) وقال: لا يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٧١): فيه موسى ابن محمد بن إبراهيم بن الحارث، وهو ضعيف.

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٧٣).

والشيخ، وجاء الشرع بتقرير هذه العادة، والسبب في ذلك أن بعض الشباب تغلب عليه الحرارة والرطوبة، فتغلب عليه الشهوة ويشتد به الهوى، ومن ثم كان خلاص الشباب من موجبات الهوى أمراً عجيباً حتى قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ». رواه الإمام أحمد، والطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه[1].

والتعجب من الله تعالى بمعنى الاستحسان والرضا[2].

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعالَى يُحِبُّ الشَّابَّ الَّذِي يُفْنِي شَبابَهُ فِي طاعَةِ اللهِ تَعالَى»[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٥١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٠٩). وحسن الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٧٠).

لكن قال أبو حاتم: إنما هو موقوف. انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢/ ١١٦).

(٢) قال ابن قدامة المقدسي في «لمعة الاعتقاد» (ص: ١٢): ـ بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره ـ فهذا وما أشبهه، مما صح سنده وعدلت رواته، نؤمن به ولا نرده ولا نجحده، ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره، ولا نشبهه بصفات المخلوقين ولا بسمات المحدثين، ونعلم أن الله سبحانه وتعالى لا شبيه له ولا نظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] وكل ما تخيل في الذهن، أو خطر بالبال، فإن الله تعالى بخلافه.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٦٠) وقال: غريب.

وفي حديث «الصحيحين» المتقدم: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ: إِمامٌ عادِلٌ، وَشابٌّ نَشَأَ فِي عِبادَةِ اللهِ». الحديث[1].

ومع هذا فقد جاء التحذير من غوائل الشباب، حتى قال النبي ﷺ: «الشَّبابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ»[2].

شبهه بالجنون تقبيحاً لأمره، وتنفيراً عن العمل بمقتضاه.

وقال أبو العتاهية: [من الرجز]

إِنَّ الشَّبابَ وَالفَراغَ وَالْجِدَةْ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيَّ مَفْسَدَةْ

وروى أبو أحمد العسكري في «المواعظ» عن قبيصة بن جابر الأسدي: أنه تكلم بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: يا قبيصة! إنك لَسِنُ اللسان، فسيح الصدر؛ فاتق عثرات الشباب، وفلتات الغضب، ونوادر الكلام[3].

وإذا اتقى العبد عثرات الشباب، وطلب المعونة في ذلك من الله تعالى فقد يكون ذلك سبباً لتوفيقه في كهولته وشيخوخته.

قال القشيري رحمه الله تعالى في جزء جمع فيه كلام أبي علي الدقاق رحمه الله تعالى: وسمعته يقول: من ملك شهوته في حال شبيبته صيَّره الله تعالى في حال كهولته كيوسف عليه السلام؛ قال الله

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٢٤٦).

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠][١].

وأما سن الكهولة فإنه يكون الإنسان فيه في غاية الاعتدال، ويتم فيه عقله، وترسَخُ فيه طبيعته، ويستوي أشده، ولذلك لم يبعث الله تعالى نبياً إلا على رأس الأربعين إلا ما كان من عيسى ويحيى عليهما السلام.

وقوله ﷺ: «ما بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً إِلاَّ شابّاً». رواه ابن مردويه، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة»[٢]؛ معناه: كامل الشباب، وذلك في سن الأربعين.

و[قال عبدالله بن داود]: كان كثير من السلف في أمر دنياهم، حتى إذا بلغوا أربعين سنة طوى فراشه[٣].

وروى أبو أحمد العسكري في «المواعظ» عن هلال بن يساف[٤] قال: كان الرجل من أهل المدينة إذا بلغ أربعين سنة تفرغ لعبادة ربه[٥].

---

(١) وانظر: «ذم الهوى» لابن الجوزي (ص: ٣١).

(٢) رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١٠/ ١٥)، وكذا الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٧٧).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٧).

(٤) في «أ» و«ت»: «سنان» بدل «يساف».

(٥) ورواه هناد في «الزهد» (٢/ ٣٥٦).

وعن هذا كني عبدالله بن داود بطَيِّ الفراش.

فمن بلغ سن الاعتدال فلم يعتدل في طاعة الله تعالى، فذلك دليل تفريطه في جنب الله تعالى، وغلبة الهوى على عقله، لكنه في وقت التدارك والحذر والخوف.

قال الشيخ زين الدين بن رجب في «لطائفه»: وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ تَعالَى يَقُولُ لِلْحَفَظَةِ: ارْفَقُوا بِعَبْدِي ما دامَ فِي حَداثَتِهِ، فَإِذا بَلَغَ الأَرْبَعِينَ فَحَقِّقا وَتَحَفَّظا».

وكان بعض رواته يبكي عند روايته، ويقول: كبرت السن، ورق العظم، ووقع التحفظ[1].

وقال مسروق: إذا بلغت الأربعين فخذ حَذَرَك[2].

وأخرجه أبو أحمد العسكري في «المواعظ» عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

وأنشد لابن دريد: [من المتقارب]

إِذا مـا الفَتَـى جـاوَزَ الأَرْبَعِـينَ ... وَلَمْ يَعْقُبِ النَّقْصَ مِنْهُ الكَمـالا
وَلَـمْ يَتْبَـعِ الْعُـصْبَةَ الزَّاهِـدِينَ ... وَيَنْفِي الْحَـرامَ وَيَبْغِـي الْحَـلالا
فَـلا تَرْجُـهُ طُـولَ أَيّامِـهِ ... فَلَـيْسَ يَزِيـدك إِلاَّ خَبـالا

---

(١) وهو أبو سنان، كما في «الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح» لابن الجزري (ص: ٣٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٩٤).

وأما سن الشيخوخة فيغلب على الإنسان فيه البرودة واليبس، فتخف عنه الشهوة وتضعف، فلا يبقى لصاحبه عذر في اتباع الهوى، وهو السن الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر: ٣٧].

روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْذَرَ اللهُ ﷻ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً»[١].

وروى عبد بن حميد عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بَلَغَ العَبْدُ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ»[٢].

وروى أبو نعيم عن وهب رحمه الله تعالى قال: قرأت في بعض الكتب: إن لله منادياً ينادي من السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين! زَرْعٌ قد دنا حصاده، أبناء الخمسين! ماذا قدمتم وماذا أخرتم؟ أبناء الستين! لا عذر لكم، ليت الخلق لم يخلقوا، وإذا خلقوا علموا لماذا خلقوا، قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم[٣].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦).

(٢) ورواه الروياني في «مسنده» (١٠٦٨) (ص: ٢/ ٢١٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٦): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح. وكذا رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٦٠١) لكنه قال: «سبعين» بدل «ستين».

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٣).

وروى ابن أبي الدنيا، وأبو نعيم عن سويد الكلبي: أن زِرَّ بن حُبيش رحمه الله تعالى كتب إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يعظه، وكان في آخره: ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول الحياة صحة بدنك، وأنت أعلم بنفسك، واذكر ما تكلم به الأولون: [من الرجز]

إذا الرِّجالُ وَلَدَتْ أَوْلادُها ... وَبَلِيَتْ مِنْ كِبَرٍ أَجْسادُها

وَجَعَلَتْ أَسْقامُها تَعْتادُها ... تِلْكَ زُرُوعٌ قَدْ دَنا حَصادُها

فلما بلغ عبد الملك الكتاب بكى حتى بل طرف ثوبه[1].

ويعجبني في هذا الباب قول البهاء زهير: [من مجزوء الكامل]

أَتُرِيدُ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنِّي شِـ ... ـرَةَ الطَّرَبِ الْخَلِيعِ

لا لا وَحَقِّ اللهِ ما ... أَنا بِالسَّمِيعِ وَلا الْمُطِيعِ

إِنْ كُنْتَ تَرْجِعُ أَنْتَ بُعَيْـ ... ـدَ الشَّيْبِ فَايْئَسْ مِنْ رُجُوعِ

كَيْفَ الرُّجُوعُ وَقَدْ رَأَيْتَ الـ ... ـرِّيحَ تَلْعَبُ بِالزُّرُوعِ

عارٌ رُجُوعُكَ بَعْدَ ... ما عايَنْتَ حِيطانَ الرُّبُوعِ

وَحَلَلْتَ فِي ظِلِّ الْجَنا ... بِ الرَّحْبِ وَالْعِزِّ الْمَنِيعِ

ومن ثم عظم إثم الشيخ الزاني ـ وإن كان الزنا من كل أحد عظيماً ـ إلا أنه من الشيخ أعظم.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب» (ص: ٦٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٨٤).

روى مسلم، والنسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ تَعالَى يَوْمَ القِيامَةِ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»[1].

وروى الطبراني في «الأوسط» عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْظُرُ اللهُ تَعالَى يَوْمَ القِيامَةِ إِلَى الشَّيْخِ الزَّانِي وَالْعَجُوزِ الزَّانِيَةِ»[2].

وروى الطبراني بإسناد حسن، عن ابن عمر رضي الله عنهما: لا ينظر الله إلى الأشيمط الزاني، ولا العائل الزهو[3].

والأشيمط: تصغير الأشمط، وهو الذي اختلط شعره الأبيض بالأسود، صُغِّرَ تحقيراً للإزراء عليه والتشنيع.

وفي الباب أحاديث كثيرة.

وروى أبو نعيم عن الربيع بن صبيح رحمه الله تعالى: أنه كان بالأهواز ومعه صاحب له، فنظرت إليهما امرأة، فتعرضت لهما، فدعتهما إلى نفسها، فبكى الشيخ، فقال له صاحبه: ما يبكيك؟

---

(١) رواه مسلم (١٠٧) واللفظ له، والنسائي (٢٥٧٥).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٤٠١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٥): رواه الطبراني عن شيخه موسى بن سهل، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣١٩٥).

فقال: إنها لا تطمع في شيخين إلا ورأت شيوخاً مثلهما[1].

ولما كان من الشيخوخة بحاله واعظاً لمن طعن فيه خصَّ النبيُّ ﷺ الشباب بالتحذير من الزنا في قوله: «يا شبابَ قُرَيْشٍ! احِفَظُوا فُرُوجَكُمْ، لا تَزْنُوا؛ أَلاَ مَنْ حَفِظَ اللهُ فَرْجَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ».

وفي رواية: «يا فِتْيانَ قُرَيْشٍ! لا تَزْنُوا؛ فَإِنَّهُ مَنْ سَلِمَ لَهُ شَبابُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ». رواه الحاكم، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

ولذلك خصهم بقوله ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشَّبابِ مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجاءٌ»[3]؛ أي: قاطع لشهوته.

وقال ﷺ: «لا يَتِمُّ نُسُكُ الشَّابِّ حَتَّى يَتَزَوَّجَ». رواه أبو نعيم[4].

فلا ينبغي للكهل، ولا للشيخ أن يتشبها بالشبان في مقتضيات الهوى شكلاً، وهيئة، وعملاً وقولاً؛ كأن يقمط العمامة، ويلبس

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٠٦).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٨٠٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٢٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦)، وكذا سعيد بن منصور في «السنن» (١/ ١٦٥) عن طاووس يرفعه.

مصبغات الثياب مع تظريف تفصيلها، وتظريف خياطتها، أو يضع في رأسه عِرْقاً من الزهر، أو الورد، أو الريحان، أو يختال في مشيته، أو يشتد فيها ويطأ الأرض وطء أهل الشطارة والقوة، أو يغنِّي برفع الصوت بالموال ونحوه.

وهذه الأفعال ـ وإن كانت منكرة من كل أحد ـ إلا أنها من الكهول والشيوخ أقبح.

وكذلك شرب الخمر والزنا واللواط قبائح فواحش من كل أحد، إلا أنها من ذوي الأحلام والعقول أشد قبحاً، وأعظم فحشاً.

ـ **ومن التشبه القبيح بالشبان:** خضب الشيب بالسواد، وقد تقدم كله.

وروى ابن عدي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الغِرْبِيبَ»[1]؛ أي: الْمُتَشَبِّهَ بِالغُرابِ فِي سَوادِ الشَّعْرِ.

واعلم أن الشيخ متى اتبع الهوى، وتشبه في ذلك بأهل الصبا فعصى وطغى، وتمرد وبغى، كان شيطاناً في صورة إنسان؛ فإن الإنسان كلما كبر ازداد خيره، والشيطان كلما كبر ازداد شره.

وروى ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» عن مجاهد قال: قال

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٥٦) وأعله برشدين بن سعد.

إبليس: جعل لنا أنا نَرى ولا نُرى، وأن نخرج من تحت الثرى، وأن يعود كهلُنا فتى[1].

وروى الديلمي عن جابر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَرْعَوِ عِنْدَ الشَّيْبِ، وَلَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ العَيْبِ، وَلَمْ يَخْشَ اللهَ فِي الغَيْبِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ فِيهِ حاجَةٌ»[2].

وحيث كان الشيخ بهذه الصفة فلا يصلح للاقتداء به لأنه شيطان في صورة إنسان.

ولذلك قال أبو حازم رحمه الله تعالى: لا تقتد بمن لا يخاف الله بظهر الغيب، ولا يعف عن العيب، ولا يصلح عند الشيب. رواه أبو نعيم[3].

ولا يعارض ما قدمناه ما رواه الدينوري في «المجالسة» عن ربيعة ابن أبي عبد الرحمن قال: لقد رأيت بالمدينة مشيخة في زي الفتيان لهم الغدائر، وعليهم الموردة والمعصفرة، في أيديهم المخاصرة فيها أثر الحناء، ودين أحدهم أبعد من الثريا إذا أريد دينه[4].

فإن ربيعة رضي الله تعالى عنه لم يُرِد بذلك الثناء عليهم بالتشبه

---

(١) وانظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٢٧).

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٩٤٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٠).

(٤) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٩٠).

بالفتيان، وإنما أراد مدح الزمان المتقدم على زمانه بأن جهالهم كانوا أحرص على دينهم من عقلاء زمانه.

وهذا لم يختص به ربيعة، بل كل من قايس أهل زمانه بأهل الزمان المتقدم قبله وجد أهل زمانه دون أهل الزمان المتقدم في الحرص على الدين، وفي كل خير.

* تَنْبِيهٌ:

روى الإمام أحمد، ومسلم، والنسائي ـ وعلَّقه البخاري ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتانِ: الْحِرْصُ، وَالأَمَلُ»[1].

وفي لفظ ـ وهو عند الإمام أحمد رحمه الله تعالى ـ: «الْحِرْصُ عَلى الْمالِ وَالْحِرْصُ عَلى الْعُمُرِ»[2].

وروى مسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَلْبُ الشَّيْخِ شابٌّ عَلى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: حُبِّ الْعَيْشِ، وَالْمالِ»[3].

وفي لفظ عند الإمام أحمد، والترمذي وصححه: «عَلى حُبِّ اثْنَتَيْنِ: طُولِ الْحَياةِ، وَكَثْرَةِ الْمالِ»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٢)، ومسلم (١٠٤٧).

(٢) وهذا لفظ مسلم أيضاً.

(٣) رواه مسلم (١٠٤٦)، وابن ماجه (٤٢٣٣).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٩)، والترمذي (٢٣٣٨) وصححه.

وأخرجه بهذا اللفظ الحاكم عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

وهذا إخبار من النبي ﷺ بأن هاتين الخصلتين من طباع ابن آدم؛ كلما طعن في السن كلما شبَّا فيه، كما قيل: حب الحياة طبيعة الإنسان.

وصح عن أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى أنه قال: أتت عليَّ مئة وثلاثون سنة؛ ما مني شيء إلا نقص إلا أملي[2].

وحكى ابن السمعاني في «الأنساب» عن علي بن حجر الإمام الحافظ رحمه الله تعالى قال: انصرفت من العراق وأنا ابن ثلاث وثلاثين، [فقلت: لو بقيت ثلاثاً وثلاثين أخرى، فأروي بعض ما جمعته من العلم، وقد عشت بعده] ثلاثاً وثلاثين أخرى وأنا أتمنى بعد ما كنت أتمناه وقت انصرافي من العراق[3].

وتمني الحياة لنشر العلم والعبادة ونحوهما حسنٌ؛ لما في الحديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»[4].

كما أن تمنيها لغير ذلك كالتوسع في الدنيا قبيح؛ لما في

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٣١) بهذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٩٨)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ٣٧)

(٣) انظر: «الأنساب» لابن السمعاني (٣/ ٢٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

الحديث المذكور: «وَشَرُّكُمْ مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَساءَ عَمَلُهُ»[1].

والشيخ كلما علا سِنُّهُ حَسُنَ منه قصر الأمل والإعراض عن الدنيا، وكان ذلك مطلوباً منه لأنه أقرب من الشاب إلى الموت ومفارقة الدنيا، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[فاطر: ٣٧]؛ يعني: الشيب.

وهذا خلاف ما في طبعه، ومخالفة ما في الطبع شديدة على النفس، والثواب على قدر المشقة والصبر على الشدائد.

وفي «الصحيح»: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكارِهِ»[2].

فمن صبر على المكروهات، وزهد في الدنيا الفانية، نجا من المكروهات في الآخرة، وفاز بالجنات.

وفي الحديث: «[نَجا أَوَّلُ][3] هَذِهِ الأُمَّة بِالنَّفْسِ وَالزُّهْدِ، وَيَهْلَكُ آخِرُها بِالْبُخْلِ وَالأَمَلِ». رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الأمل» عن عبدالله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما، وابنُ لال في «مكارم الأخلاق» عن معاوية بن حيدة رضي الله تعالى عنه[4].

وقوله ﷺ: «وَيَهْلَكُ آخِرُها» حكمٌ على الغالب؛ أي: ويهلك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) بياض في «أ» و«ت».

(٤) تقدم تخريجه.

أكثر آخرها؛ إذ لا يزال طائفة من هذه الأمة على الحق إلى أن تقوم الساعة.

على أن أهل اليقين والزهد قد كانوا قليلاً في كل وقت، ولكن هم في هذه الأزمنة أقل من القليل.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: لا تزال نفس أحدكم شابة في حب الشيء ولو التفَّت ترقوتاه من الكبر، إلا الذين امتحن الله قلوبهم للآخرة؛ وقليل ما هم[1].

ومن القليل: الرجل الذي روى قصته الدينوري عن الأصمعي قال: دخل سليمان بن عبد الملك مسجد دمشق، فرأى شيخاً كبيراً، فقال له: يا شيخ! أيسرك أن تموت؟

قال: لا.

قال: وَلِمَ وقد بلغت من السن ما أرى؟

قال: ذهب الشباب وشرُّه، وجاء الكبر وخيره، فإذا قعدت ذكرت الله تعالى بالطاعة ومكارم الأخلاق، وقِصَر الأمل، والزهد والتقوى، وإذا نمت حمدت الله تعالى، فأحب أن تدوم لي هاتان الخصلتان[2].

---

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٨٧).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٤٥).

* **تَنْبِيهٌ:**

روى أبو نعيم عن محمد بن سوقة قال: لقيني ميمون بن مهران رحمه الله تعالى فقلت: حياك الله، فقال: هذه تحية الشباب؛ قل بالسلام[1].

أي: هذه تحية الشباب الذين لا يلتفتون إلى المحافظة على السنة؛ إذ التحية: السلام عليكم، وليس يريد أن هذه التحية مطلوبة من الشباب، ومثل هذا يقع كثيراً في كلام العقلاء، ينهون الطاعن في السن عن الشيء ويوبخونه على الكبر، لا تقريراً للشباب على ذلك، ولكن إشارة إلى أن وقوع مثله من الشبان يتفق على مقتضى الشبيبة، فلهم عذر في الجملة بخلاف أولي الأسنان والأحلام.

* **تَتِمَّةٌ:**

يستثنى مما أشرنا إليه من ذم تشبه الكهل والشيخ بالشاب: ملاعبة الرجل لحليلته لما في ملاعبتها من توفير الشهوة وتنميتها، وهو يقتضي اعتدال خلق الولد الذي طلبه أصل مشروعية النكاح، ويقتضي قضاء وطر المرأة الذي به يحصل إعفافها المطلوب بالنكاح أيضاً.

وقد أخرج الدينوري بسند صحيح، عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٨٦).

التمس ما عنده وجد رجلاً[1].

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى ـ وهو أحد رواته ـ: وبلغنا عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: أنه كان من أفكه الناس في أهله، وأزينهم إذا جلس مع القوم[2].

وروى البزار عن عطاء رحمه الله تعالى قال: رأيت جابر بن عبدالله، وجابر بن عمير؛ يقول أحدهما لصاحبه رضي الله تعالى عنهما: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ فَهُوَ سَهْوٌ وَلَهْوٌ إِلاَّ أَرْبعاً: مَشْيُ الرَّجُلِ بَيْنَ الغَرَضَيْنِ، وَتَأْدِيْبُهُ فَرَسَهُ، وَتَعْلِيمُهُ السِّباحَةَ، وَمُلاعَبَتُهُ أَهْلَهُ».

قال البزار: لا يعلم جابر بن عمير رضي الله تعالى عنه إلا هذا الحديث[3].

قال السيوطي: وقد أخرجه الطبراني في «معجمه الكبير»، وإسناده صحيح[4].

وكذلك ملاءمة الصبي الصغير بما يناسبه ويروح خاطره؛ فإنه

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٤١).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٨٢).

(٣) ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٣٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٨٥). وحسن ابن حجر إسناده في «الدراية» (٢/ ٢٤٠).

(٤) انظر: «الباحة في السباحة» للسيوطي (ص: ٤٠).

حسن من الشاب والشيخ.

وروى البزار، والطبراني في «الصغير»، و«الأوسط» بسند جيد، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أفكه الناس مع صبي[1].

وروى أبو القاسم البغوي من حديثه رضي الله تعالى عنه قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال والصبيان من رسول الله ﷺ[2].

والحديث في «صحيح مسلم» دون قوله: والصبيان[3].

وكذلك ممازحة الإخوان وملاطفتهم في بعض الأحيان؛ فقد صح أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً[4].

وروى أبو نعيم عن قرة بن خالد قال: قلت لمحمد بن سيرين: هل كانوا يتمازحون؟

فقال ما كانوا إلا كالناس؛ كان ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يمزح، وينشد الشعر، ويقول: [من الوافر]

يُحِبُّ الْخَمْرَ مِن كِيسِ النَّدامَى ... وَيَكْـرَهُ أَنْ تُفارِقَـهُ الْفُلُـوسُ[5]

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٨٧٠)، و«المعجم الأوسط» (٦٣٦١). وفي إسناده ابن لهيعة.

(٢) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٨٨).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٦).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٧٥).

وروى عبد الرزاق عن قتادة قال: سئل ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟

قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال[1].

* * *

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٦٧١).



فَصْلٌ

وأما تشبه الشـاب بالكهول والمشايخ في العلم، والعبـادة، والنطق بالحكمة، وجودة الـرأي، ونحو ذلك، فإنه محمود بشهادة الأحاديث إلا في طلب الرئاسة.

فقد قال الشافعي رضي الله عنه: مَنْ طلبَ الرئاسة فرت منه، وإذا تصدر الحديث فاته علم كثير.

رُويناهُ في كتاب «توالي التأنيس بمناقب ابن إدريس» للحافظ أبي الفضل بن حجر[1].

وروى أبو نعيم عن سفيان رحمه الله تعالى قال: إذا ترأس الرجل سريعاً أضر بكثير من العلم، وإذا طلب وطلب بلغ[2].

وهذا ما لم يشهد للشاب أكابر الناس ـ وهم العلماء ـ باستحقاق الرئاسـة كما أشـار الإمام مالك إلى الشـافعي رضي الله عنهما بأن يفتي وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنة، وكان يعظمه شـيوخ عصره كالإمـام أحمد،

---

(١) ورواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣١٢) عن الثوري.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٨١).

وغيره[1]، وكما أشار السري السقطي إلى الجنيد رحمهما الله تعالى أنه يتكلم على الناس وهو شاب، وكان يتكلم على الأكابر مثل أبي سعيد الخراز، وخير النساج[2].

وقد قيل: [من الطويل]

وَكَمْ مِنْ صَغِيرٍ صادَفَتْهُ عِنايَةٌ مِنَ اللهِ فَاحْتاجَتْ إِلَيْهِ الأَكابِرُ

وقد بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه إلى اليمن وهو في سن الشباب، وشهد له بأعلميته بالحلال والحرام، ورغَّبه في التعليم فيما رواه الإمام أحمد عنه: أن النبي ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمُرِ النَّعَمِ»[3].

وفي «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان أيضاً شاباً[4].

وبذلك احتج يحيى بن أكثم القاضي حين ولي قضاء البصرة

---

(١) انظر: «الثقات» لابن حبان (٩/ ٣١)، و«طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص: ٦١)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ١٦٤).

(٢) انظر: «الرسالة القشيرية» (ص: ٢٧٤)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٣٧٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وسنه عشرون سنة ونحوها، فاستصغره أهل البصرة، فقالوا: كم سن القاضي؟ فعلم أنه قد استصغر، فقال: أنا أكبر من عَتَّاب بن أسيد الذي وجه به النبي ﷺ قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي ﷺ قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر بن الخطاب قاضياً على أهل البصرة، فجعل جوابه احتجاجاً. ذكره ابن خلكان[1].

قال: وكان رسول الله ﷺ قد ولَّى عَتَّاب بن أسيد مكة بعد فتحها وله إحدى وعشرون سنة، وقيل: ثلاث وعشرون سنة، وكان إسلامه يوم فتح مكة[2].

وقال الدينوري في «المجالسة»: حدثنا إسحاق بن ميمون، ثنا أحمد بن موسى قال: كان فتى يجالس الثوري ولا يتكلم، فأحبَّ سفيان أن يسمع كلامه، فمر به يوماً فقال له: يافتى! إن من كان قبلنا مروا على الخيل وبقينا على حمر دبرة.

فقال له الفتى: يا أبا عبدالله! إن كنا على الطريق فما أسرعَ لحوقَنا بالغير[3].

---

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦/ ١٤٩).

(٢) انظر: «الأوائل» للعسكري (ص: ٨٤)، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٧/ ٤١٠).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٩٨).

ولعل بلوغ المرء في شبابه الدرجات العلى، وقعود الأكابر عنه أمران:

الأول: عناية الله تعالى، وهي أعظم الأمرين كعناية الله تعالى لعيسى ويحيى عليهما السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[مريم: ١٢].

وروى ابن أبي الدنيا في «الحذر» عن راشد بن سعد رحمه الله تعالى قال: نظر عيسى عليه السلام إلى غلام لم يدرك قد نحل جسمه فقال: ما الذي صيرك إلى ما أرى؟

قال: والله ما بي من السقم، ولكني أخاف أن أكبر فأعصي الله.

والثاني: حرص الوالدين، أو الولي على أدب الصغير وتعليمه.

قال رسول الله ﷺ: «ما نَحَلَ والِدٌ وَلَدَهُ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ». رواه الترمذي، والحاكم وصححه، من حديث عمرو بن سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه[1].

وروى الترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يُؤَدِّبَ أَحَدُكُمْ وَلَدَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصاعٍ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٢) وقال: وهذا عندي مرسل، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٧٩).

(٢) رواه الترمذي (١٩٥١) وقال: وناصح هو أبو العلاء كوفي، ليس عند أهل الحديث بالقوي، ولا يعرف هذا الحديث إلا من هذا الوجه.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[التحريم: ٦]؛ أي: علِّموهم، وأدِّبوهم[1].

وروى الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الَّذي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فِي صِغَرِهِ كَالنَّقْشِ عَلى الْحَجَرِ، وَمَثَلُ الَّذي يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فِي كِبَرِهِ كَالَّذي يَكْتُبُ عَلى الْماءِ»[2].

وأنشدوا: [من البسيط]

حَرِّضْ بَنِيْكَ عَلى الآدابِ فِي الصِّغَرِ   كَيْما تَقَرَّ بِهِ عَيناكَ فِي الْكِبَرِ

وَإِنَّما مَثَلُ الآدابِ يَحْفَظُها   فِي عُنْفُوانِ الصِّبا كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ

وروى البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلِمَ فَقَدْ أُوْتِيَ الْحُكْمَ صَبِيّاً»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَهُوَ فَتِيُّ السِّنِّ خَلَطَهُ اللهُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ»[4].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (ص: ٤٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٤٨) عن علي رضي الله عنه.

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٥): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه مروان بن سالم الشامي، ضعفه البخاري ومسلم وأبو حاتم.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٤٩).

(٤) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٥٠)، وكذا البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٩٤).

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام عن كعب الأحبار قال: إن في التوراة: إن الفتى إذا تعلم القرآن وهو حديث السن، وحرص عليه، وتابعه، خلطه الله تعالى بلحمه ودمه، وكتبه عنده من السَّفَرة الكرام البررة، فإذا تعلم الرجل القرآن وقد طَعَن في السن فحرص عليه، وهو في ذلك يتابعه ويتفلت منه، كتب له أجره مرتين[1].

وروى الدارمي، والبيهقي في «المدخل» عن شرحبيل بن سعد قال: دعا الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه وعن أبيه ـ بنيه وبني أخيه رضي الله تعالى عنهم فقال: يا بني، ويا بني أخي! إنكم صغار قوم أوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه ـ أو قال: يحفظه ـ فليكتبه، وليضعه في بيته[2].

وروى أبو نعيم عن هشام بن عروة رحمهما الله تعالى أنه قال: يقول لبنيه: يا بني! تعلموا؛ فإنكم إن تكونوا صغراء قوم عسى أن تكونوا كبراءهم، واسوأتاه ماذا أقبح من شيخ جاهل[3]؟

وروى الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما: أنه وقف على حلقة من قريش فقال: ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا، وأوسعوا لهم في

---

(١) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١/ ٦).

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٥١١)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٧١).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٧٧).

المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم؛ فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم[1].

وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى: أنه كان إذا رأى صبيان أصحاب الحديث وفي أيديهم المحابر يقربهم، ويقول: هؤلاء غرسنا الذين أخبرنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَزالُ اللهُ يَغْرِسُ فِي هَذا الدِّينِ غَرْساً يَشُدُّ الدِّينَ بِهِم»[2].

هم اليوم أصاغركم، ويوشك أن يكونوا أكابر من بعدكم[3].

ولصالح بن عبد القدوس:

وَإِنَّ مَنْ أَدَّبْتَهُ فِي الصِّبا ... كَالْعُودِ يُسْقَى الْماءَ فِي غَرْسِه

حَتَّى تَراهُ مُورِقاً ناضِراً ... بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ[4]

وأنشد الماوردي في «أدب الدين والدنيا» لبعضهم: [من البسيط]

إِنَّ الْغُصُونَ إِذا قَوَّمْتَها اعْتَدَلَتْ ... وَلا يَلِينُ إِذا قَوَّمْتَهُ الْخَطَبُ

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَحْداثَ فِي مَهَلٍ ... وَلَيْسَ يَنْفَعُ بَعْدَ الشَّيْبَةِ الأَدَبُ[5]

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه (٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٦) عن أبي عنبة الخولاني ﷺ.

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٥).

(٤) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ٢٥٥).

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٢٨٦).

ولنفطويه: [من الطويل]

أَرانِـيَ أَنْـسى مـا تَعَلَّمْـتُ فِـي الْكِبَـرْ
وَلَـسْتُ بِنـاسٍ مـا تَعَلَّمْـتُ فِـي الـصِّغَرْ

وَمـا الْعِلْـمُ إِلاَّ بِـالتَّعَلُّمِ فِـي الـصِّبا
وَمـا الْحِلْـمُ إِلاَّ بِـالتَّحَلُّمِ فِـي الْكِبَـرْ

وَلَـوْ فَلَـقَ الْقَلْـبَ الْمُعَلِّـمُ فِـي الـصِّبا
لأُلْفِـيَ فِيـهِ الْعِلْـمُ كَـالنَّقْشِ فِـي الْحَجَـرْ

وَمـا العِلْـمُ بَعْـدَ الـشَّيْبِ إِلاَّ تَعَـسُّفٌ
إِذا كَـلَّ قَلْـبُ الْمَـرْءِ وَالـسَّمْعُ وَالْبَـصَرْ

وَمـا الْمَـرْءُ إِلاَّ اثْنـانِ عَقْـلٌ وَمَنْطِـقٌ
فَمَـنْ فاتَـهُ هَـذا وَهَـذا فَقَـدْ دمـر(١)

فينبغي للأب أن يراقب ولده من أول الأمر، فلا يستعمل في رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متحرزة من أكل الحرام لئلا ينبت لحمه من السُّحت، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث.

ومهما ظهرت عليه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ما يظهر عليه من الأخلاق مخايل الحياء، فإذا كان الصبي يستحيي من بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه،

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٨٥).

وهو مبشر بكمال العقل منه عند البلوغ، وقد قل أن يكون صبي بهذه الحالة.

وروى أبو نعيم عن وهب رحمه الله تعالى قال: إذا كان في الصبي خلقان ـ الحياء، والرهبة ـ طمع في رشده[1].

وقال القاضي أبو الحسن الماوردي في «أدب الدين والدنيا»: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله! أوصني.

فقال: «اسْتَحْيِ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَياءِ».

ثم قال لي: «تَغَيَّرَ النَّاسُ».

قلت: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: «كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الصَّبِـيِّ فَأَرى فِيهِ الْبِـشْرَ وَالْحَياءَ، وَأَنَا أَنْظُرُ الْيَوْمَ فَلا أَرَى ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ». انتهى[2].

والصبي المستحيي لا ينبغي أن يترك، بل يربَّى حياؤه بتقبيح ما يستقبح عنده.

وانظر قول رسول الله ﷺ للحسن رضي الله تعالى عنه وقد أخذ تمرة من تمر الصدقة: «كخ كخ! ارْمِ بِها، أَما شَعَرْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟» رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٦).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٠٦).

(٣) رواه البخاري (١٤٢٠)، ومسلم (١٠٦٩).

ومتى استقبح ما قبحته عنده، وأنف منه ورجع عنه، كان ذلك من لطف الله تعالى أمارة على أهليته للخير في كبره.

وذكر ابن المبارك في «الزهد»: أنه[1] سأل معمراً رحمه الله تعالى عن هذه الآية: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾[مريم: ١٢]، فقال: بلغنا أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا عليه السلام: اذهب بنا نلعب، قال: ما للعب خُلقت[2].

أشار معمر إلى أن معنى (الحكم) في الآية: الحكمة؛ فإن قول يحيى عليه السلام: ما للعب خلقت مِنْ أبلغ الحِكَم.

فمتى أدرك الصبي قُبحَ القبيح فاجتنبَه، فقد بدت بَوادِهُ الحكمة في سره، وبَرَقَت بوارقها في قلبه.

وأول ما يغلب على الصبي شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه فيؤمر أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، ويقول: بسم الله، ويأكل مما يليه، ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره، ولا يحدق إليه، ولا إلى من يأكل، وأن يتأنى، ولا يلوِّث ثوبه، ويعلم تشمير الثوب عند الطعام، والجلوس معتدلاً من غير اتكاء، ويعود الخبز وحده لئلا يرى الإدام حتماً، ويقبح عنده كثرة الأكل، ويحبب إليه الإيثار بالطعام، وعدم الاهتمام به.

---

(١) في «الزهد»: «أخبرنا عبدالله قال: أخبرنا معمر سألته».

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٨٣).

وتأمل فيما رواه الشيخان، وابن ماجه عن عمر بن أبي سلمة رضي الله تعالى عنه وعن أبويه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحف، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»[1].

وينبغي أن يعلمه النظافة، ويحسنها له في الثوب والبدن والمجلس، ويحبب إليه الثياب البيض والثياب الخشنة دون الملونات والحرير ـ وإن كان ذلك مباحاً ـ ويعرفه أن ذلك يلبسه النساء والمخنثون ليعتاد التمعدد والرجولية.

فأما الصبية فلا بأس بإلباسها شيئاً من ذلك، ويُحفظ الصبي عن معاشرة الصبيان الذين عودوا التنعم والترفه ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يخشى من سريان طبعه إليه.

وقد روى الدينوري في «المجالسة»، ومن طريقه الحافظ ابن عساكر في «تاريخه» عن سليمان بن داود اليحصبي قال: رأيت محمد ابن الفضل الدمشقي ـ وكان من نبلاء الصوفية ورؤسائهم ـ يضرب ابناً له صغيراً، فقمت إليه لأخلصه منه، فقال: إليك عني؛ فإني أحب أن أبلغ من عقوبته اليوم أمراً أرضي الله به.

فقلت: وما قصته؟

قال: رأيته يضحك إلى غلام من أقرانه.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٠٢٢)، وابن ماجه (٣٢٦٧).

قلت: وما أنكرت من ذلك؛ صبي ضحك إلى تِرْبه؟

فقال: أكره أن أجرئه على معاصي الله، فيأتي اليوم صغيرة ويركب غداً كبيرة[1].

وإنما الحديث على ما ينشأ عليه من الخير والشر؛ فإنه زجر عن الشر في صغره تخطاه في كبره، وإن هو ترك عليه تمادى في غيه، ولم يشك إلا أنه الأمر الذي ندب إليه.

وروى أبو نعيم عن حسان بن عطية رحمه الله تعالى قال: أبصر أبو الدرداء رجلاً وقد زوق ابنه فقال: زوقوهم بما شئتم؛ فذلك أغوى لهم[2].

ثم ينبغي أن يشغله بتعليم القرآن والكتابة، ويسمعه أحاديث الأخيار والأبرار، وحكايات الصالحين لينغرس حب الصالحين في قلبه، فيرغب في اتباعهم والاهتداء بهديهم، ويُحفظ عن الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ومدح الخمر، وذكر الهزل والمجون؛ فإن ذلك يزرع في قلبه بذر الفساد، ويحسن له سبيل أهل الغي.

وإذا ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يحمد به، ويستحسن منه، ويُكرم عليه، فإن خالف ذلك مرة فينبغي أن يتغافل عنه، ولا يكاشف به، خصوصاً إذا ستره الصبي واستخفى به،

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٥/ ٩٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٢٣).

فإن عاد إليه مرة أخرى عوقِبَ عليه سراً، وهُوِّلَ عليه فيه، ويقال له: إياك أن يطلع عليك أحد وأنت كذلك فتفتضح!

ولا يكثر عليه الملامة فيهوِّن عليه سماعَها وركوبَ القبائح.

والإفراط في ذلك ربما أوجب في الصبي القحة والجرأة، وربما حملته عرامة نفسه على التجاهر بما كان يستخفي منه، والشيء إذا تجاوز عن حده يعكس إلى ضده.

وليحفظ الأب نفسه الكلام معه، ولا يوبخه إلا أحياناً، وينبغي للأم أن تخوفه من الأب، ولهما أن يخوفاه من المؤدب والمعلم، وينبغي للأم أن تزجره عن القبائح، وتحذره أن يطلع أبوه عليها، ويحذره الأب من اطلاع مؤدبه على قبائحه، ويعظم مقام المؤدب عنده، ويمنع من كثرة الكلام، بل ينبغي لأمه أن تعلمه السكوت والأدب في حضور أبيه ليربو معه هذا الأدب مع أبيه ومع غيره، وتعلمه الأدب في الخطاب والجواب، وحسن المعاشرة، وأن لا يتكلم في أمر مع وجود أكبر منه، ويعلمه والده أن لا يتكلم في مجلس الرجال، بل يسكت ولا يبادرهم بالكلام، بل يكون كلامه جواباً.

روى ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى قال: كان إذا تكلم الحَدَث عندنا في الحلقة آيسنا من خيره[1].

وينبغي أن يمنع من نوم النهار؛ فإنه يُورث الكسل، اللهم إلا أن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٦٥).

يعلم القيلولة.

ويمنع من استيفاء الليل في النوم، ومن النوم عند طلوع الفجر، وفي وقت الضحى، وبعد العصر لما ورد مما يدل على كراهية ذلك.

ويُعَوَّد خشونة المفرش، والأكل، والقيام في أمر نفسه، والقيام في خدمة من يستحق الخدمة من أب أو شيخ، ولا يترك في رفاهيته، ولا يتابع في رأيه، ولا يستناب في شيء، بل يعلم الاستشارة والتأني، ويمنع من العجلة؛ فإن كمال الرأي تابع لكمال العقل، وإنما يتم العقل بالبلوغ، ومن هذا كانت إمارة الصبي مذمومة.

أنشد الإمام أبو بكر الشاشي لبعضم كما رواه ابن السمعاني: [من الكامل]

شَيْئانِ يَعْجَزُ ذُو الرِّياضَةِ عَنْهُما ... رَأْيُ النِّساءِ وَإِمْرَةُ الصِّبْيانِ

أَمَّا النِّساءُ فَمَيْلُهُنَّ إِلَى الْهَوى ... وَأَخُو الصِّبا يَجْرِي بِكُلِّ عِنانِ[1]

وينبغي أن يمنع مما يستخفي به لئلا يتعود الجرأة على القبيح، ويعرف أن الله تعالى يطلع على ما يفعله العبد سراً، ويؤاخذه بفعله القبيح سراً أو جهراً لتنغرس التقوى والخوف من الله تعالى في قلبه.

ويُعَوَّد المشي والحركة في بعض النهار لئلا يغلب عليه الكسل، ويُنهى عن الإسراع في المشي، ويؤمر بأن ينظر إلى ما بين يديه حين

---

(١) البيتان لأبي عثمان المازني. انظر: «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٢/ ٣٥٢).

يمشي لئلا يعثر أو يؤذى، ويُخَوَّف من الأمور المَخُوفة حالاً ومآلاً، ويمنع من الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه أبوه، أو بمطعمه، أو ملبسه، أو لوحه، أو دُواته، أو بحَسَبه أو نسبه، أو جاه أبيه أو قريبه.

ويُعَوَّد إلى التواضع والتلطف في الكلام، والعفو، والسخاء، والامتناع عن الأخذ من الصبيان أو غيرهم.

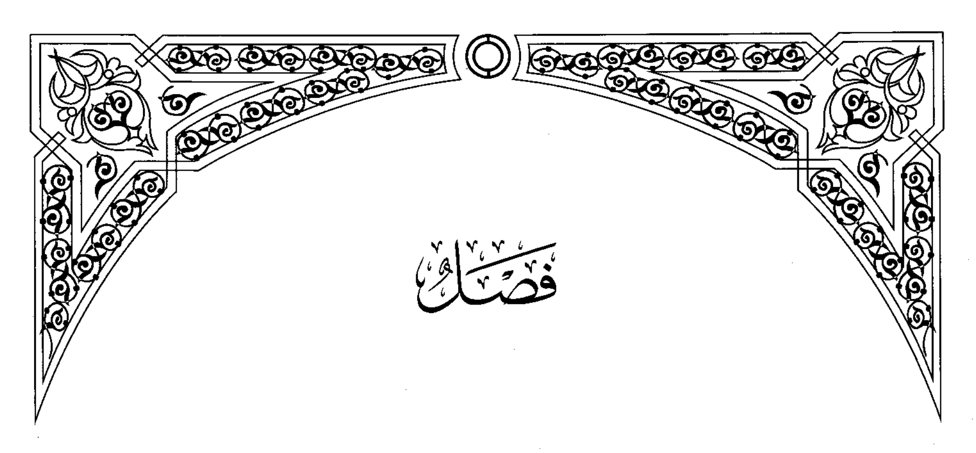
ويُقَبَّح له حب الدرهم والدينار، ويُعَرَّف أن الرزق مقسوم، ويُعَلَّم التوكل على الله، وانتظار ما عنده، والسؤال منه لا من غيره، ويُمْنَع عن الطلب من الناس إلا من أبيه أو من يتولَّى أمره.

ويُمْنَع من التأنث في الكلام، ومن كثرة الكلام، ومن كثرة الأيمان، ومن اليمين مطلقاً ولو كان صادقاً.

ويُعَلَّم تعظيم الأكابر والتأدب معهم والقيام لهم، وأن يجلس بين أيديهم متأدباً على ركبه، مسكناً أطرافه، مطرقاً ببصره، ويُمْنَع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، ويُقَبَّح إليه البصق، والامتخاط، والتجشؤ، والتثاؤب في حضور غيره، ويُحَذَّر من الحُصاص والإضراط بفمه، والإشارة بيده إلى غيره بإساءة الأدب، وأن يستدبر غيره، أو يمد رجليه بين يدي غيره، أو يضع رجلاً فوق أخرى ولو كان خالياً وحده، أو يضرب بيده تحت ذقنه، أو يعتمد على ساعديه برأسه؛ فإن ذلك دليل الكسل، بل يمنعه مطلقاً من العبث والولع بالشيء خصوصاً بحضرة الناس، ويُعَلَّم كيفية الجلوس.

ويُعَلَّم طاعة أبيه وأمه وبرهما، ويُمْنَع من سوء الأدب معهما، وأن يتأدب مع معلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والمهابة والتعظيم، ويُعَلَّم مواساة إخوانه ومحبتهم وإيثارهم، ويُقَبَّح إليه الاستئثار عنهم بل مطلقاً، ومهما أساء إلى أحد من إخوته أو غيرهم أُدِّبَ أو عوقب، وإذا ضربه أبوه أو معلمه فينبغي أن يصبر على ذلك، ويُنْهَى عن الجزع والصخب، ويُعَرَّف أنه دأب النساء والمماليك، ولا يذم معلمه في حضرته على ضربه، ولا يعاتب عليه بحضوره، بل يمدح ويشكر، وينسب إلى التقصير في التربية.

* * *



فصل

أول ما ينبغي أن يعلمه الصبي ـ ومثله الصبية ـ في أوائل ظهور مَخَايل التمييز عليه: ذكر الله تعالى، وتعظيمه، ويربى جلال الله عنده، وليحمله على ذكر الله تعالى إذا نابه أمر، ويعلمه أن يسأل من الله تعالى حاجته إذا طلب من أمه أو أبيه شيئاً بأن يقول له: قل: يا الله! يا رب! حتى يجيئك ما تطلب، وليزجره عن سؤال الناس، والأخذ منهم، والتلفت إلى شيء مما في أيديهم، وعن طلب مثل ما يرى مع أهل سنه من شيء، ويعرِّفه أن ذلك لا يليق إلا بالأراذل والأسافل بإشارة يفهمها، وإذا علَّمه والده أو أسلمه للمعلم، فأول ما ينبغي أن يلقن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾[الإسراء: ١١١]؛ لما رواه عبد الرزاق عن عبد الكريم ابن أبي أمية قال: كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[الإسراء: ١١١] إلى آخر السورة[١].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٧٩٧٦).

وروى ابن أبي شيبة عن عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب قال: كان الغلام إذا أفصح من بني عبد المطلب علَّمه النبي ﷺ هذه الآية سبع مرات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[الإسراء: ١١١][١].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في كتاب «البر والصلة» عن إبراهيم التيمي قال: كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبي أول ما يُعْرِب أن يقول: لا إله إلا الله سبع مرات[٢].

ورواه ابن السني عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده متصلاً[٣].

وهذا أولى، وأحسن مما اعتاده المعلمون من أنهم أول ما يعلمون الصبي هجاء أبي جاد[٤]؛ فإنها أسماء ملوك تقدموا[٥]، فحَمْدُ الله وتوحيدُه أحق ما تمرَّن عليه الصبي.

وكان شيخنا العبد الصالح الورع الزاهد يحيى المغربي الغماري المالكي رحمه الله تعالى أول ما يعلم الصبي هجاء البسملة، وهو أول ما يكتب للصبي في لوحه، ثم يعلمه سورة الفاتحة، ولا يعلمه هجاء أبي جاد.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٩٨).

(٢) ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٧٩٧٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٠٠).

(٣) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٣٧٤).

(٤) هجاء أبو جاد: هي الحروف الأبجدية المعروفة أبجد هوز.

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٤).

ولقد أحسن في ذلك غاية الإحسان، وأجاد للتيمن بكتاب الله تعالى، ولقوله ﷺ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِـ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ».

وفي رواية: «بِالْحَمْدِ لِلَّهِ». أخرجه أبو داود، والحافظ ابن هانىء في «الأربعين»، وغيرهما[1].

وكان شيخنا المذكور يعلم الصبي تجويد القرآن من أول الهجاء شيئاً بعد شيء، ويعلمه المدود والوقوف، وكان رحمه الله تعالى من أولياء الله تعالى.

ولا بأس برشوة الصبي على التعلم، وإتحافه إذا أحسن شيئاً مما يعلمه بطرفة أو نحوها مما يسرُّه ويَلَذُّ به، فإذا عقل عرَّفه أن العلم والدين ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى.

وقد روى الخطيب عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى قال: قال لي أبي: يا بني! اطلب الحديث، وكلما سمعت حديثاً وحفظته فلك درهم، فطلبت الحديث على هذا[2].

وكان والدي شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بعد أن أمرني بصوم رمضان وأنا في السنة السابعة من عمري ـ وهي سنة أربع وثمانين وتسع مئة ـ يقول لي: كلما صمت يوماً أعطيتك درهماً، فصمت رمضان كله إلا يومين أو ثلاثة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٧).

وتوفي شيخ الإسلام بعد رمضان المذكور في أواخر شوال.

وإذا بلغ الصبي سن التمييز فلا ينبغي أن يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في رمضان ولو أياماً بحسب حاله، ويُعلَّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع وأحكامه، ويُرغَّب في ذلك، ويخوف من الله تعالى، ويحذر من السرقة وأكل الحرام، ومن الكذب، والنميمة، والفحش في كل ما يغلب على الصبيان.

قال الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

قالوا: يا رسول الله! كيف نقي أهلنا ناراً؟

قال: «تَأْمُرُونَهُمْ بِما يُحِبُّ اللهُ وَتَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُ اللهُ»[1].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية: علموا أنفسكم وأهليكم الخير، وأدبوهم[2].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذِّكر ينجيكم الله من النار[3].

رواهما ابن جرير، وابن المنذر، وغيرهما، وصحح الحاكم

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٢٢٥) إلى ابن مردويه عن زيد بن أسلم يرفعه.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٢٨/ ١٦٥)، وكذا عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٢٦).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٢٨/ ١٦٦).

حديث علي رضي الله تعالى عنه.

وأراد ابن عباس بالذكر قراءة القرآن، وأمرهم بذكر سطوة الله وعقابه، ورحمته وثوابه.

وأهل الرجل خاصته من زوجة، وولد، وخادم.

وروى ابن أبي شيبة عن سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه قال: إذا علَّمتُ ولدي القرآن، وأحججته، وزوَّجته، فقد قضيت حقه، وبقي حقي عليه[1].

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الوَلَدِ عَلى الوالِدِ أَنْ يُعَلِّمَهُ، أَنْ يُحْسِنَ أَدَبَهُ، وَيُحْسِنَ مَوْضِعَهُ، وَيُحْسِنَ اسْمَهُ»[2].

وروى هو والحكيم الترمذي عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «حَقُّ الوَلَدِ عَلى والِدٍ أَنْ يُعَلِّمَهُ الكِتابَةَ، وَالسِّباحَةَ، وَالرِّمايَةَ، وَأَنَ لا يَرْزُقَهُ إِلاَّ طَيِّباً»[3].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٣١٩).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٥٨)، ولفظه: «أن يحسن اسمه ويحسن أدبه»، وقال: محمد بن الفضل بن عطية، ضعيف بمرة، لا يفرح بما ينفرد به.

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٦٥) وقال: عيسى بن إبراهيم يروي ما لا يتابع عليه، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٤٨).

والثلاثة الأولى خاصة بالغلام بدليل حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «عَلِّمُوا أَبْناءكُمُ السِّباحَةَ وَالرِّمايَةَ، وَالْمَرْأَةَ الغَزْلَ». رواه الشافعي[1].

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم وصححه، عن عبدالله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مُروا أَوْلادكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْناءُ سَبْعِ سِنِيْنَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْها وَهُمْ أَبْناءُ عَشْرِ سِنِيْنَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضاجِعِ»[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن بكر بن عبدالله المزني رحمه الله تعالى: أن لقمان عليه السلام قال: ضرب الوالد لولده كالسَّماد للزرع[3].

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلِّقُوا السَّوْطَ حَيْثُ يَراهُ أَهْلُ البَيْتِ»[4].

وعن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن

---

(١) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٦٤) وقال: عبيد العطار منكر الحديث.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠٨).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٦).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٣٢). وله شواهد من حديث ابن عباس وجابر رضي الله عنهم.

داود عليهما السلام لابنه: يا بني! إن أردت أن تغيظ عدوك فلا تبعد عصاك عن ابنك[1].

وبيان ذلك أنك إذا قربت العصا من ابنك، وعرضتها عليه، وضربته بها، وأدبته حتى تأدب بآدابه وكماله [اغتاظ] عدوك؛ لأن عدو المرء يحب أن يرى فيه وفي ولده السوء، ويكره أن يراه، أو يرى ولده على حال التوفيق، ونعت الكمال.

وذكر جار الله الزمخشري في «الفائق»: أن النبي ﷺ خرج إلى طعام دعي له فإذا حسين رضي الله تعالى عنه يلعب مع صبية في السكك، فاستل رسول الله ﷺ أمام القوم، فبسط إحدى يديه، فطفق الغلام يفر هاهنا وهاهنا، ورسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى في فأس رأسه، ثم أقنعه فقبله[2].

قال الزمخشري: الصبوة والصبية: جمع صبي، والواو هي القياس.

واستل: تقدم ليأخذ.

وفأس الرأس: طرف القمحدوة المشرف على القفا.

وأقنعه: رفعه[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٧٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٧١) عن يعلى العامري رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الفائق» للزمخشري (٢/ ٢٨٢).

ولا بأس بالإغضاء عن الصبي في بعض الأحيان وهو في لهوه ولعبه، ولا تقام عليه حدود التأديب ولاء؛ لئلا ينفر طبعه عن التأدب، ويَسْأم من الخير.

وقد روى أبو داود في «مراسيله» عن الزهري رحمه الله تعالى: أن النبي ﷺ قال: «رَوِّحُوا القُلُوبَ ساعَةً وَساعَةً»[1].

وهذا في حق عموم الناس، فكيف بالصبي وضعف طبعه، وقلة احتياله؟

نعم، لا يُمَكَّن من لعبٍ فيه قمار، ولا من اللعب بالكلاب والقاذورات.

وقد روى ابن أبي شيبة عن طاوس: أنه كان يكره القمار، ويقول: إنه من الميسر؛ حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب[2].

وعن ابن سيرين: أنه مر على غلمان يوم العيد وهم يلعبون بالمِرْبد، وهم يتقامرون بالجوز، فقال: يا غلمان! لا تقامروا؛ فإن القمار من الميسر[3].

---

(١) ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٧٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٥).
ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٧٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣١٨١) مسنداً عن أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٦٩).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٧٠).

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «البر والصلة» عن إبراهيم ـ يعني النخعي ـ رحمه الله تعالى قال: كانوا يرخصون للصبيان في اللعب كله إلا في الكلاب[1].

ومراده اللعب المباح.

ومن السلف من كان يرى صيانة الولد عن اللعب مطلقاً.

وروى ابن المبارك، وابن أبي شيبة عن بكر بن ماعز: أن الربيع ابن خُثيم رحمه الله تعالى أتته ابنة له فقالت: يا أبتاه! أذهب ألعب أبي؟

فسكت عنها، فلما أكثرت عليه قال له بعض جلسائه: لو أمرتها تذهب.

قال: لا يكتب عليَّ اليوم أني أمرتها تلعب[2].

فانظر كيف تورع عن قوله لصغيرة لا حرج عليها: اذهبي العبي؛ لئلا يوجد ذلك في صحيفته.

وأين هذا ممن يحمل الصبي على اللعب واللهو، وإطالة اليد واللسان إليه وإلى غيره؟ ومثل ذلك من الإفراط، ولا يليق.

ومن ثم قال محمد بن المكندر رحمه الله تعالى: لا تمازح

---

(١) ورواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (٢/ ٧٩٨).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٢٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٥١).

الصبيان فتهون عليهم، ويستخفوا بحقك. رواه أبو نعيم[1].

وهذا لا يعارض ما سبق من استحباب الممازحة مع الفتيان؛ لأن ذلك محمول على القليل من ذلك، وعلى الصغار جداً الذين لا يخشى من ممازحتهم الجرأة والوقاحة بأن كانوا غير مميِّزين.

وعليه يحمل ما رواه ابن أبي الدنيا في «المداراة»، وابن عساكر ـ وقال: إنه غريب جداً ـ عن معاوية رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً دخل عليه فرأى صبياً على ظهره وهو يحبو على أربع، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الناس لو رأوك على هذه الحالة لازدروك.

قال: اسكت؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كانَ لَهُ صَبِيٌّ فَلْيَتَصابَ لَهُ»[2].

وروى أبو يعلى: أن النبي ﷺ كان يدلع لسانه للحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما، فيرى الصغير لسانه، فيهش إليه[3].

وهذا ظاهر أن الحسين رضي الله تعالى عنه كان صغيراً جداً لا يدرك شيئاً أبلغ من البشاشة للسان.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٥٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (١/ ٣٩٩).

(٣) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٩٧): رواه أبو يعلى بسند جيد عن أبي هريرة ﷺ.

وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٥٩٦).

وروى ابن أبي الدنيا عن ابن أبي نجيح رحمه الله تعالى قال: كان الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما يركبان فوق ظهر رسول الله ﷺ، ويقولان: حل حل.

فقال النبي ﷺ: «نِعْمَ البَعِيْرُ بَعِيْرُكُما»[1].

وروى أبو يعلى، وأبو حفص بن شاهين في «السنة» عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: رأيت الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما على عاتقي رسول الله ﷺ فقلت: نعم الفرس تحتكما.

فقال رسول الله ﷺ: «وَنِعْمَ الفارِسانِ هُما»[2].

وروى ابن أبي شيبة عن أبي جعفر رحمه الله تعالى قال: مرَّ رسول الله ﷺ بالحسن والحسين وهو حاملهما على مجلس من مجالس الأنصار، فقالوا: يا رسول الله! نعم المطيَّة.

قال: «وَنِعْمَ الرَّاكِبانِ»[3].

وعنه قال: اصطرع الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، فقال رسول الله ﷺ: «هِيْ حُسَيْنُ!»

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (٢/ ٧٩٧)

(٢) ورواه البزار في «المسند» (٢٩٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٦٢) وقال: والبلاء فيه من علي بن هاشم لا من حسين الأشقر. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٨٢): رواه أبو يعلى في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بإسناد ضعيف.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢١٩٥).

فقالت فاطمة رضي الله تعالى عنها: كأنه أحب؟

قال: «لا، وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقُولُ: هِي حُسَيْنُ!»[1].

قلت: فيه دليل على أنه لا بأس بنصرة الصغير في مثل ذلك.

وفي «الصحيح» من حديث أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول لابن أبي طلحة الأنصاري رضي الله تعالى عنه: «يا أَبا عُمَيْرٍ ما فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»[2].

ومحل ذلك كله فيمن هو دون سن التمييز، فأما بعد التمييز فقد أنكر رسول الله ﷺ على الحسن رضي الله عنه أخذَه التمرة من الصدقة، وقال له: «كخ كخ! أَلْقِها»[3] كما سبق.

على أنه يحتمل أنه قال لأبي عمير ما قاله وهو مميز لأنه علم أن ذلك لا يضر.

والقول الفصل في ذلك: أن ممازحة الصبي والتنزل لعقله إنما يترخص فيها حيث علم أنها لا تضره ولا تجرئه، بل إنما تروح خاطره وتستعطفه.

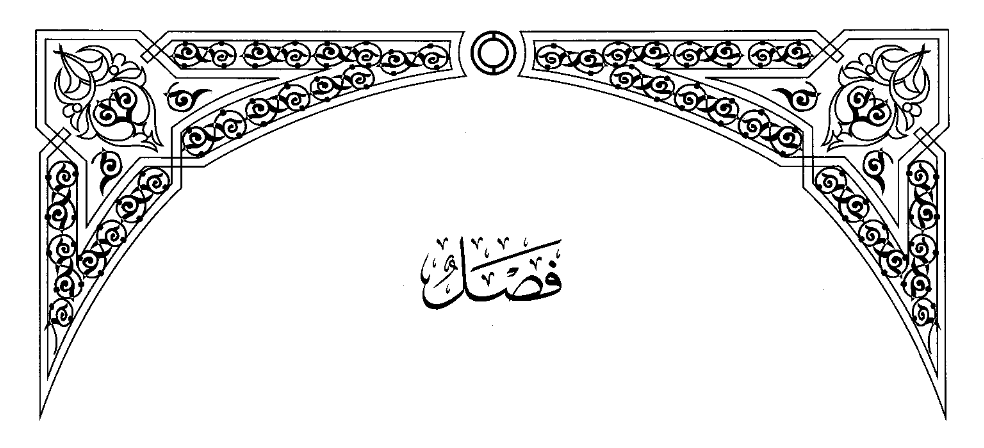
* * *

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢١٩٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.



فَصْلٌ

يجوز ويحسن أن يتولى الإنسان تأديب ولده وتعليمه بنفسه، لكن إذا دفع ولده إلى مؤدب أو معلم غيره كان ذلك أنفع له، وأقرب إلى أن يخاف الصبي منه؛ لأنه لا يخاف من أبيه ما يخاف من المؤدب والمعلم، لأنه يَعْهَد من والده من المودة والشفقة والتنزل إلى عقله بخلاف المؤدب والمعلم.

وقد روى أبو نعيم عن المزني قال: سمعت الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: لولا أن الله تعالى أعان على عرامة الصبيان مخافة المؤدبين ما انكسرت[1].

وليختر الإنسان لولده معلماً ديِّناً، عفيفاً، صالحاً، ملازماً للصلاة في أول وقتها، وَقوراً لا يمازح الصبيان، ولا يحادثهم بغير التعليم؛ فإنهم يقتدون بأفعاله أكثر مما يستفيدون من أقواله.

روى اللالكائي في «السنة» عن أيوب رحمه الله تعالى قال: إن

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٤٠).

من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله تعالى للعالم من أهل السنة[1].

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه لمؤدبِ أولاد الرشيد وقد التمس منه أن يوصيه، فأقبل عليه فقال له: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك؛ فإنَّ أعينَهم معقودة بعينك، فالحَسَن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تستقبحه، علِّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه، ولا تتركهم منه فيهجرونه، ثم رَوِّهم من الشعر أعَفَّهُ ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. رواه أبو نعيم[2].

ومن اللطائف: ما رواه أيضاً عن شريح القاضي رحمه الله تعالى: أنه كان له ولد يدع الكتاب ويُهارش الكلاب، فدعا بقرطاس ودواة، وكتب إلى مؤدبه: [من الكامل]

تَرَكَ الصَّلاةَ لأَكْلُبٍ يَسْعَى بِها ... طَلَبَ الْهِراشَ مَعَ الغُواةِ الرُّجَّسِ

فَإِذا أَتاكَ فَخُصَّهُ بِمَلامَةٍ ... وَعِظَنْهُ مَوْعِظَةَ الأَدِيبِ الأَكْيَسِ

وَإِذا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدِرَّةٍ ... وَإِذا ضَرَبْتَ بِها ثَلاثاً فَاحْبِسِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ ما أَتَيْتَ فَنَفْسُهُ ... مَهْما يُجَرِّعُني أَعَزُّ الأَنْفُسِ[3]

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١/ ٦٠).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٤٧).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٣٧).

وروى الخطيب في كتاب «الزهد والرقائق» عن أبي العباس بن مسروق قال: أنشدني بعض الأصحاب:

اجْعَـلْ تِـلادَكَ فِـي الْمُهِـمِّ ... مِـنَ الأُمُـورِ إِذا اقْتَـرَب

حَـسَنَ التَّبَـصُّرِ مـا اسْتَطَعْـ ... ـتَ فَإِنَّـهُ نِعْـمَ الـسَّبَب

لا تَلْـهُ عَـنْ أَدَبِ الـصَّغِيرِ ... وَإِنْ شَـكا أَلَـمَ التَّعَـب

وَدَعِ الكَبِـيرَ لِـشَأْنِهِ ... كَبُـرَ الكَبِـيرُ عَـنِ الأَدَب

لا تَـصْحَبِ النطـفَ الْمُرِيـبَ ... فَقُرْبُـهُ إِحْـدى الرِّيَـب

وَاعْلَـمْ بِـأَنَّ ذُنُوبَـه ... تُعْـدِي كَمـا يُعْـدِي الْجَـرَب[1]

* **فائِدَةٌ:**

روى ابن أبي الدنيا في كتاب «تعليم الصغار» عن عبدالله بن عيسى قال: لا تزال هذه الأمة بخير ما تعلَّمَ أولادُها القرآن[2].

وعن ثابت بن العجلان قال: إن الله ﷻ ليريد بأهل الأرض العذاب، فإذا سمع أصوات الصبيان يتعلمون الحكمة فيرده عنهم.

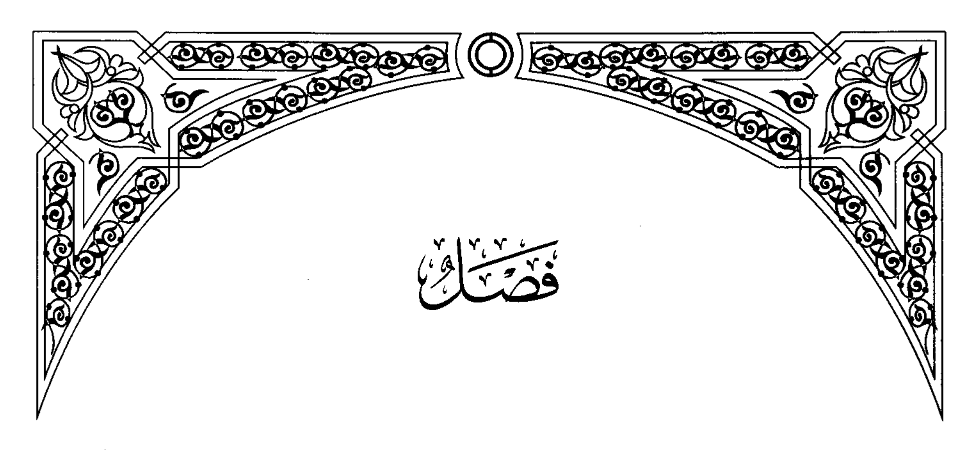
قال مروان بن محمد ـ أحد رواته ـ: الحكمة: القرآن[3].

* * *

(١) رواه الخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (ص: ٨٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (١/ ٤٨٠).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «العيال» (١/ ٤٨١).



فصل

ومتى راهق الصبي أو بلغ استقل بنفسه في التأدب بالآداب الشرعية، وطلب العلم على الشيوخ المرضية، ووضع كل شيء في محله، ولا يدع تعاهده الأب أو الولي في هذه الحالة، بل يراقبه، فإن بلغ صالحاً لدينه ودنياه كان رشيداً، فتصح معاملاته من البيع والشراء، والسَّلَم، والإجارة، وغير ذلك، وإذا بلغ فعلى وليه أن يعرِّفه، وعليه أن يتعرف أنه قد صار مكلفاً؛ أي: مخاطباً بالأحكام الشرعية، موعوداً بالثواب على طاعاته، والعتاب [أو العقاب] على مخالفاته، وفي هذه الحالة يكون شاباً يحسن منه التشبه بالكهول والشيوخ الكُمَّل، ويبلغ أشده، ويستوفي شبابه ببلوغ ثمان وعشرين سنة.

وقال النووي في «شرح مسلم» في كتاب النكاح: الشاب عند أصحابنا هو من بلغ ولم يجاوز ثلاثين سنة[1].

وينتهي ببلوغ أربعين سنة، فينبغي أن يشغل نفسه بالطاعات من

---

(١) انظر: «شرح مسلم» للنووي (٩/ ١٧٣).

الصلاة والصيام، والحج، والعمرة، والتلاوة، وقيام الليل، وقضاء حوائج الناس ـ ولاسيما الضعفاء والشيوخ ـ وليكرم الأكابر وذوي الأسنان، ويوقرهم، ويرحم الأصاغير ـ ولاسيما الأيتام والمساكين والأرامل ـ ويُحسن إليهم، وإلى الجيران والإخوان، ويَعْرِف لهم حقوقهم.

روى الترمذي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَكْرَمَ شابٌّ شَيْخاً لِسِنِّهِ إِلاَّ قَيَّضَ اللهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ»[1].

وروى الدينوري عن الحسن رحمه الله تعالى قال: من أحسن عبادة ربه في شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[القصص: ١٤][2].

وروى أبو نعيم عن شريح القاضي رحمه الله تعالى قال: حدثني البدريون ـ منهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ شابٍّ يَدَعُ لَذَّةَ الدُّنْيا وَشَهْوَتَها، وَيَسْتَقْبِلُ بِشَبابِهِ طاعَةَ اللهِ تَعالَى إِلاَّ أَعْطاهُ اللهُ ﷻ أَجْرَ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ صِدِّيقاً».

ثم قال: «يَقُولُ اللهُ تَعالَى: يا أَيُّها الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتَهُ لِي! أَنْتَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٢٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن بيان.
قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٥٧٢): هو وشيخه أبو الرحال ضعيفان.

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٦).

عِنْدِي كَبَعْضِ مَلائِكَتِي»[1].

وروى أبو بكر بن السني عن طلحة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُباهِي بِالشَّابِّ العابِدِ الْمَلائِكَةَ؛ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي تَرَكَ شَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي».

وروى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الشَّابَّ الَّذِي يُفْنِي شَبابَهُ فِي طاعَةِ اللهِ»[2].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك رضي الله تعالى عنه عن عتبة بن عبد السلمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: إن الشاب المؤمن لو أقسم على الله لأبره[3].

وعن مريح بن مسروق قال: ما من شاب يدع لذة الدنيا وشهوتها، ويعمل شبابه لله تعالى إلا أعطاه الله ـ والذي نفس مريح بيده ـ أجر اثنين وسبعين صديقاً[4].

وتقدم في رواية أبي نعيم موصولاً مرفوعاً، وقسم مريح لتحقق الحديث عنده.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٣٩) وقال: غريب من حديث شريح، تفرد به يحيى عن عبد الجبار.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٦٠) وقال: غريب، تفرد به محمد ابن الفضل.

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١١٧).

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١١٧).

ثم روى ابن المبارك عن يزيد بن ميسرة قال: إن الله تعالى يقول: أيها الشاب التارك شهوته لي، المبتذل شبابه من أجلي! أنت عندي كبعض ملائكتي[1].

وقد سبق في رواية أبي نعيم عن شريح نحوه، لكن هذا أتم.

وقوله في هذه الرواية: المبتذل ـ بالذال المعجمة ـ: الذي يسمح بنفسه فيبذلها في الطاعة، أو الذي يمتهن نفسه في خدمة الله تعالى وطاعته.

والبذلة: المهنة؛ من قولهم: ابتذلت الثوب، إذا لبسته في الخدمة ولم تصنه.

وروى ابن أبي الدنيا عن حفصة رضي الله تعالى عنها: أن شاباً رأى في منامه أن شيخاً يمشي بين يديه، قال: فجعل يمشي بين يدي ولا ألحقه، قال: فالتفت إلي وقال: إني كنت سريعاً في الشباب.

قال ابن أبي الدنيا: قلت لأزهر ـ يعني: ابن مروان ـ: ما يعني بذلك؟

قال: يقول: كنت سريعاً في العمل في الشباب. انتهى[2].

قلت: يحتمل هذا الكلام وجهين:

أحدهما: أن من كان سريعاً إلى طاعة الله في شبابه حفظ الله

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١١٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (ص: ٤٢).

تعالى عليه قوته، فلا يَهْرَم.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[التين: ٥ ـ ٦].

والثاني: أن العبد إذا كان مجتهداً في طاعة الله في شبابه أجرى الله تعالى عليه ثواب جَلَدِه وقوته حين يكون ضعيفاً عاجزاً، كما يجري عليه في مرضه وسفره ثوابُ ما كان يعمله من الصالحات في صحته وحضره.

وهاتان فائدتان عظيمتان لطاعة الله تعالى في الشباب.

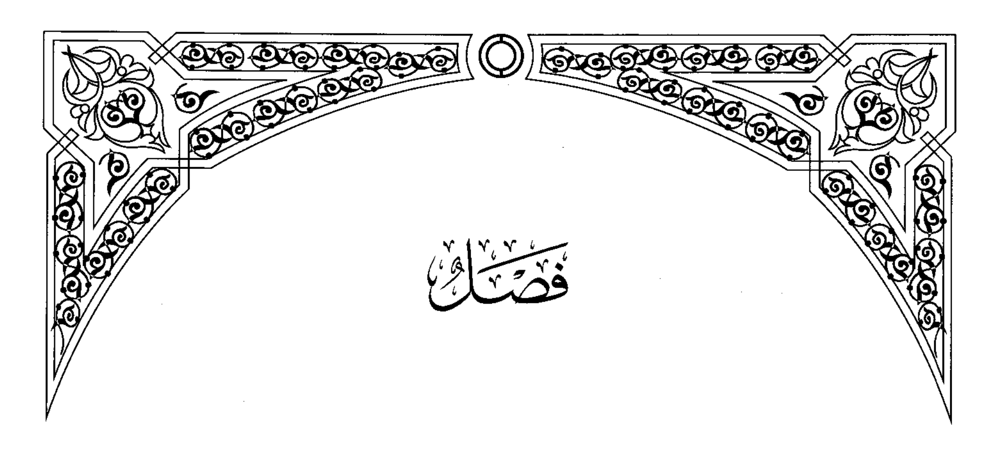
ولهما فائدة أخرى عظيمة أيضاً: أن العبد إذا حفظ حق الله تعالى في شبابه، فقام بطاعته، وشكر نعمته، فلم يكفر بها بالمعصية، حفظ الله له حق شيخوخته، وقام بكفايته فيها، ولم يحوِجه إلى سؤال الناس والاستعانة بهم في شيء.

روى الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته»، والحافظ ابن عساكر في «تاريخه» عن أبي بكر الرازي: أن أبا بكر الكتاني رحمه الله تعالى نظر إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل، فقال: هذا رجل أضاع حق الله في صغره، فضيَّعه الله في كبره[1].

* * *

---

(١) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ٧٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٢٥٨).



فَصْلٌ

وإذا قصر الشاب في طاعة الله تعالى وهو صحيح قوي، فليتعرف أنه مسؤول عن شبابه وقوته وصحته، فينبغي أن يعد لهذا السؤال جواباً.

روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزُولُ قَدما ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيما أَفْناهُ، وَعَنْ شَبابِهِ فِيما أَبْلاهُ، وَعَنْ مالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيما أَنْفَقَهُ، وَماذا عَمِلَ فِيما عَلِمَ»[1].

لكن ذكر أبو عبدالله بن حفيف الشيرازي في كتاب «المسائل» عن بعض أهل العلم: أنه ورد في الروايات أن من حج على قدميه لم يسأل يوم القيامة عن شبابه فيما أبلاه.

وليعلم الشاب أنه من أوفر الناس نصيباً من نعمتي الصحة والفراغ المغبون فيهما كثير الناس كما في الحديث[2] حيث كانتا

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٦) وقال: غريب.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

محفوظتين عليه لأنهما في الشباب أمتن منهما، وأقوى فيما بعد الشباب؛ فإن صرفهما في الطاعة كان من أولى من يغبط بهما، وإن صرفهما فيما لا يجديه كان أغبن الناس فيهما.

وأنشد البيهقي في «الشعب» في عقد الحديث المشار إليه لأبي عصمة محمد بن أحمد السجستاني: [من السريع]

أَنْبَأَنَـــــا خَيَـــــرُ بَنِـــــي آدَمٍ ... وَمَــا عَلَــى أَحْمَــدَ إِلاَّ الــبَلاغْ

النَّــاسُ مَغْبُونــونَ فِــي نِعْمَــةٍ ... صِـــحَّةِ أَبْـــدانِهِمُ وَالفَــراغْ[1]

فعلى الشاب أن يغتنم أيام الشباب والصحة والفراغ، فيصرفها في طاعة الله تعالى دون تُرَّهات الدنيا عملاً بقوله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ، وَغِناكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَراغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَياتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ». صححه الحاكم من حديث ابن عباس على شرط الشيخين[2].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٥١).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٦)، وكذا ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٨) وقال: هكذا وجدته في كتاب «قصر الأمل» وكذلك رواه غيره عن ابن أبي الدنيا، وهو غلط، وإنما المعروف بهذا الإسناد، وذكر حديث: «نعمتان مغبون...».
قال ابن حجر في «الفتح»: وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون.

وروى الطبراني، والحاكم وصححه، وغيرهما، عن قبيصة بن جابر: أن عمر بن الخطاب ﷺ قال له: يا قبيصة! إني أراك شاباً حديث السن، فصيح اللسان، فسيح الصدر، إنه قد يكون في الرجل سبعة أخلاق صالحة فيغلب خلقه السيىء أخلاقه الصالحة؛ فإياك وعثرات الشباب[1].

وروى أبو محمد التكريتي في «معرفة النفس»، والديلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الشَّابِّ العابِدِ الَّذي تَعَبَّدَ فِي صِباهُ عَلى الشَّيْخِ الَّذِي تَعَبَّدَ بَعْدَما كَبُرَتْ سِنُّهُ كَفَضْلِ الْمُرْسَلِينَ عَلى سائِرِ النَّاسِ»[2].

ووجه التمثيل أن الشاب العابد في شبابه حفظ في شبابه من أوله كما عصم المرسلون من أول شبابهم.

وروى أبو نعيم عن الفريابي قال: كان سفيان الثوري يصلي، ثم يلتفت إلى الشباب فيقول: إذا لم تصلوا اليوم فمتى[3]؟

وعن أبي المَليح قال: قال لنا ميمون بن مهران رحمه الله تعالى ونحن حوله: يا معشر الشباب! قوتَكم احفظوها في شبابكم، ونشاطَكم في طاعة الله تعالى، يا معشر الشيوخ! حتى متى[4]؟

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٣٥٥).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٥٩).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٨٧).

وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن الجنيد رحمه الله تعالى قال: سمعت السري رحمه الله تعالى يقول: يا معشر الشباب! جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصُروا كما قصرت.

قال: وكان في ذلك الوقت لا تلحقه الشباب في العبادة[1].

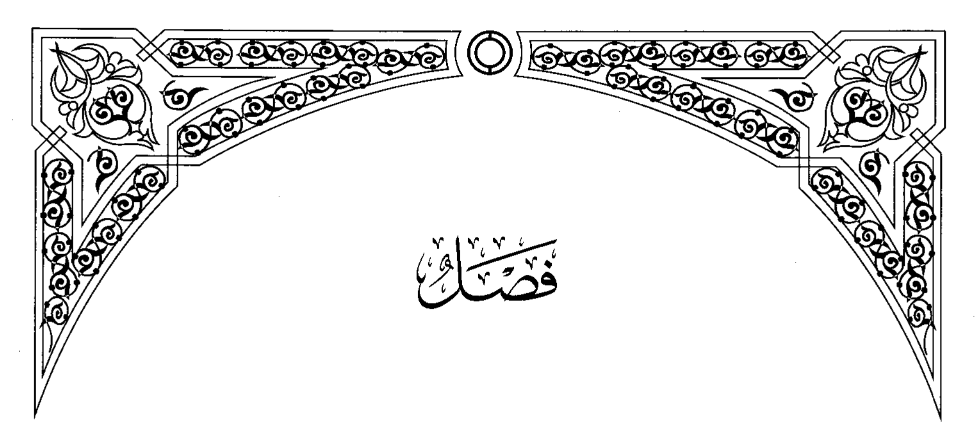
* **فائِدَةٌ:**

روى المعافى بن زكريا في «الجليس والأنيس» عن المأمون أنه قال: ما أقبح اللجاجة للسلطان، وأقبحُ والله من ذلك الضجر من القضاة قبل التفهم، وأقبحُ منه سخافة الفقهاء بالدين، وأقبحُ منه البخل بالأغنياء، والمزاح بالشيوخ، والكسل بالشباب، والجبن بالمقاتل[2].

* * *

(١) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ١٣٤)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠/ ١٧٨).

(٢) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٣١٥).



فصل

وإذا حصلت من الشاب زلة فلا ينبغي له التمادي في الضلال، و[لا يقل]: بالخير التؤدة، بل يبادر إليها؛ فإنه قد يؤخذ على غرة فجأة، وليعتبر بمن يموت شاباً، فليس كل الأموات شيوخاً، بل أكثرهم غير الشيوخ، ولا شك أن من أهل النار شيوخاً وشباباً.

وقد روى الدينوري في «المجالسة» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إذا سكن أهل النار في النار سمعت للنار قعقعة في العظام منهم، فنادت: ما لكم من شباب! ما كان أحسن وجوهكم! وما لكم من شيوخ! ما كان أجملكم! ما أحسن زرعكم لو كان لكم حاصد غيري[1].

والتوبة ـ وإن كانت سبب محبة الله تعالى للعبد كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢] ـ فإن توبة الشاب لها مزية على توبة غيره، وهي أحب إلى الله تعالى من توبة غيره، ولذلك وقع النص على توبته فيما رواه أبو الشيخ في كتاب «الثواب» عن أنس رضي الله تعالى

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٦٤).

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الشَّابَّ التَّائِبَ»[1].

ورواه الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته» بلفظ: «ما مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ شابٍّ تائِبٍ»[2].

وروى أبو المظفر السمعاني في «أماليه» عن سلمان رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعالَى مِنْ شابٍّ تائِبٍ، وَما مِنْ شَيْءٍ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ مِنْ شَيْخٍ مُقِيمٍ عَلى مَعاصِيهِ، وَما فِي الْحَسَناتِ حَسَنَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعالَى تُعْمَلُ فِي لَيْلَةِ جُمُعَةٍ أَوْ يَوْمِ جُمُعَةٍ، وَما فِي الذُّنوبِ ذَنْبٌ أَبْغَضَ إِلَى اللهِ تَعالَى مِنْ ذَنْبٍ يُعْمَلُ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ».

وإذا كان للشاب مال يفضل منه شيء يفضل عن كفايته وكفاية عياله وعن دينه، فينبغي له أن يجود ويسخو به إفضالاً على الإخوان والجيران لأنه ادخار لهم، وصدقة على اليتامى والأرامل والمساكين؛ فإنه ذخيرة له في الآخرة.

ويعوِّد نفسه مكارم الأخلاق، ومتى غلبت عليه حدة الشباب

---

(١) ورواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» (ص: ٣١٣). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٨٣): رواه ابن أبي الدنيا في «التوبة»، وأبو الشيخ في كتاب «الثواب» من حديث أنس ﷺ بسند ضعيف.

(٢) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ١٢٦)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١١٨) وأعله بأبي عاتكة، وقال: منكر الحديث، وعامة ما يرويه عن أنس لا يتابعه عليه أحد من الثقات.

حسن منه التشبه بذوي الأسنان في رياضة الأخلاق، ويستحضر حينئذ الحديث: «خَيْرُ شَبابِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِكُهُولِكُمْ»[1].

وروى الحاكم في «تاريخه» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «شابٌّ سَخِيٌّ حَسَنُ الْخُلُقِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ شَيْخٍ بَخِيلٍ عابِدٍ سَيِّءِ الْخُلُقِ»[2].

وينبغي للشاب إذا خوَّله الله تعالى في الأموال أن لا يبطر بها، ولا يغتر بكثرتها فيصرفها في الملاذِّ المحرمة، أو يسرف فيها فيندم عند الحاجة إليها في كبره أو قبل كبره، ويعرض على نفسه أنه مفارق لها، ويبقى ثوابها أو عقابها، فلا يسترسل في هوى نفسه من المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، فربما ألهاه ذلك عن ذكر الله تعالى؛ وكفى بذلك خسراناً.

وقد قال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل أو مال [أو ولد] فهو عليك شؤم[3].

وإذا ولي ولاية، أو صار له جاه أو سلطان فلا يحمله ذلك على الغرور والتسلط على أموال الناس، أو أعراضهم، أو نفوسهم، ويمنع نفسه مما تدعو إليه نفوس الشبان من ذوي الحداثة والشباب، وأهل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ورواه تمام الرازي في «فوائده» (١/ ١٢٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٥٨٧).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٦٤).

الجاهات والوجاهات، ومن لباس الحرير، وافتراش الديباج، والركوب على مياثر الإِبْريسم، واستعمال آنية الذهب والفضة، وشرب الخمور، واتخاذ القَينات والقِيان، وغير ذلك مما تذهب لذته وتبقى تبعته؛ فإن هذه الأمور قد تكون سبباً لمحق الأعمار، وخراب الديار، وتعجيل الدمار، والسَّوْق إلى النار.

ولقد قيل: [من البسيط]

تَفْنَى اللَّذاذَةُ مِمَّنْ نالَ صَفْوَتَها يَوْماً[1] وَيَبْقَى عَلَيْهِ الإِثْمُ وَالعارُ[2]

وفي «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، وغيره: عن يحيى الغَسَّاني قال: نظر سليمان بن عبد الملك في المرآة، فأعجبه شبابه وجماله، فقال: كان محمد ﷺ نبياً، وكان أبو بكر صديقاً، وكان عمر فاروقاً، وكان عثمان حيياً، وكان معاوية حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جباراً، وأنا الملك الشاب، فما دار عليه الشهر حتى مات[3].

فانظر كيف غر سليمان شبابه وسلطانه حتى ألحق نفسه في التمثيل بالنبي ﷺ وبخلفائه الراشدين، وأسقط اسم علي رضي الله تعالى عنهم منهم، ثم لوح لنفسه بطول المدة من حيث إنه في ريعان شبابه وفَورة سلطانه، وكان مماته أقرب شيء إلى ما تلفظ به.

---

(١) في «حلية الأولياء»: «من الحرام» بدل «يوماً».

(٢) البيت لمسعر بن كدام، كما في «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٢٢١).

(٣) انظر: «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص: ٢٢٦).

وأين هذا من يقظة عمر بن عبد العزيز في شبابه، واتصافه في سلطانه بالخوف من الله تعالى والاستقامة في نفسه، والعدالة في رعيته؟

ذكر الحافظ المزي في «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» عن صالح بن حسين[1] الصدئي الشامي الطبراني كاتب عمر بن عبد العزيز على الخراج والجند، وكان كتب ليزيد بن معاوية قال: ربما كلمت عمر بن عبد العزيز فيغضب، فأذكر ما في الكتاب: اتق غضب الملك الشاب، فلا أزال أرفق به حتى يذهب غضبه، فيقول لي بعد ذلك: ما يمنعك يا صالح ما ترى مني أن تراجعنا في الأمر إذا رأيته؟

وقال عمر بن عبد العزيز: وجدنا صالح بن حسين كاسْمِهِ[2].

ولا ينبغي لمن وجد الشاب من أهله وهو أسن منه على غروره وبطره أن يخليه من رأيه ونظره، ويغفل عن نصيحته لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

ورأى طاوس رحمه الله تعالى فتية من قريش وهم يرفُلُون في مشيتهم، فقال: إنكم لتلبسون لبسة ما كان آباؤكم يلبسونها، وتمشون مشية ما يحسن الزفافون[3] يمشونها.

وقال ابن طاوس: قلت لأبي: إني أريد أن أتزوج فلانة.

---

(١) في «تهذيب الكمال»: «جبير» بدل «حسين».

(٢) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٣/ ٢٤).

(٣) في «حلية الأولياء»: «الرقاص» بدل «الزفافون».

قال: اذهب فانظر إليها.

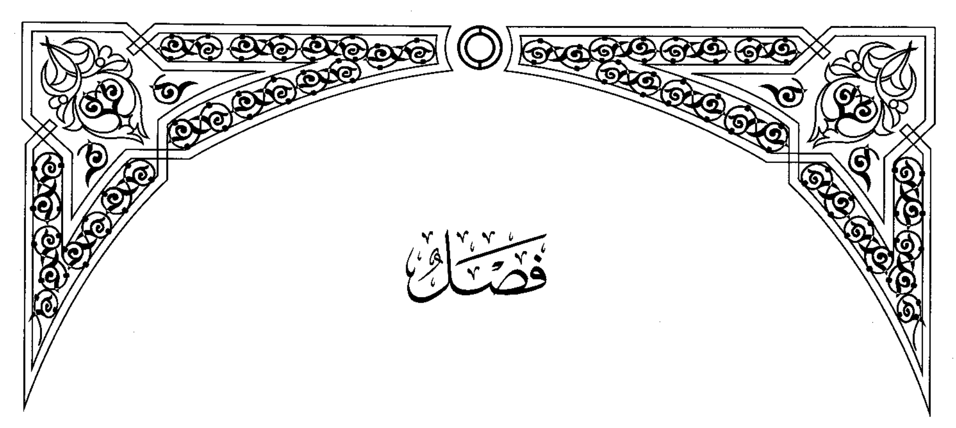
قال: فذهبت فلبست من صالح ثيابي، وغسلت رأسي وادَّهنت، فلما رأى مني تلك الهيئة قال: اقعد ولا تذهب. رواهما أبو نعيم[1].

وإنما منعه من الذهاب بعد ما أمره به لأنه لو ذهب في تلك الهيئة كانت هيئته غارَّة للمرأة وأوليائها لو رأوه في تلك الهيئة؛ إذ يظنون فيه فوق ما هو عليه؛ فانظر هذا الحذر، وتأمل هذا الورع!

* * *

---

(١) رواهما أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٠).



فصل

وينبغي للشاب أن يكون حريصاً على طلب العلم ولو ما يحتاج إليه فقط، وخصوصاً إذا قصَّر وليه في تعليمه في صغره، فإن طلب العلم يحتاج سلامة الطبيعة، وجَودة القريحة، وأكمل ما يكون ذلك في سن الشباب؛ فإن الشاب أخلى بالاً، وأصفى فكراً، وأفرغ قلباً.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما أوتي عالم علماً إلا وهو شاب[1].

وليحذر كل الحذر طالب العلم في شبابه مما يطمس بصيرته، ويجمد قريحته، ويبدِّد فكره من الإكثار من الترفهات، وإيثار الدعات.

وإياه، ثم إياه من استعمال ما يغمر عقله، ويفرق فكره من المسكرات والمصطلات؛ فإنها مصائب ابتلي بها أهل هذه الأعصار في سائر الأمصار، وهي تعجل للشاب الهرَم قبل الهرم، وتلحقه في

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٤٢١).

صحته بأهل السقم بل بالعدم، وتمنعه من طلب العلم وفهمه، ولا اعتبار لما يزينه الشيطان اللعين لبعضهم من أن استعمال الكيف يشحذ الخواطر، وأن هذا محال وغلط وضلال.

وهذه الأمور التي حذَّرنا منها هنا وفيما سبق هي التي شغلت كل الناس إلا أقل قليل في هذه الأزمنة عن طلب العلم، واستمالتهم إلى معاشرة أهل الجهل، ونشأ شبابهم على ما عليه كهولهم وشيوخهم، فكانوا جميعاً من الهالكين إلا غرباء منهم قليلين.

وقد روى الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري في كتاب «اعتقاد الشافعي» عن أبي عبدالله الفقيه المراغي: أنه أنشد للشافعي رضي الله تعالى عنه: [من البسيط]

إِذا رَأَيْتَ شَبابَ الْحَيِّ قَدْ نَشَؤُوا ... لا يَنْقُلُونَ قِلالَ الحِبْرِ وَالوَرَقا

وَلا تَراهُمْ لَدى الأَشْياخِ فِي حِلَقٍ ... يَعونَ مِنْ صالِحِ الأَخْبارِ ما اتَّسَقا

فَدَعْهُمُ عَنْكَ وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ هَمَجٌ ... قَدْ بُدِّلوا بِعُلُوِّ الْهِمَّةِ الْحَمَقا[١]

وليعلم أنه متى أخر العلم والتعلم إلى وقت الكبر، وقد مثل النبي ﷺ من يتعلم في كبره كمن يكتب على الماء[٢]، ومحال أن يرتسم له على الماء خط، وكذلك بعد على الكبير أن يتعلم العلم.

---

(١) ورواه ابن القيسراني في «المؤتلف والمختلف» (ص: ٩٠)، وأبو سعد السمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» (ص: ١٥٣).

(٢) تقدم تخريجه.

وروى الدينوري عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى: أنه قال في قصصه: ما أشد فطام الكبير.

وأنشد: [من الكامل]

أَتَرُوضُ عَرْسَكَ بَعْدَمَا كَبِرَتْ وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرِمِ[1]

وروى الرامهرمزي في كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» عن أبي إسحاق قال: كان يختلف شيخ معنا إلى مسروق رحمه الله تعالى، وكان يسأله عن الشيء فيخبره، فلا يفهم، فيقول له: أتدري ما مثلك؟ مثل بغل هَرِمٍ حَطِمٍ جَرِبٍ دفع إلى رائض.

فقيل له: علمه الهملجة[2].

ومتى حصل الشاب رأس مال من العلم فلا يكتفي به ويمل من طلبه، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]؟

ولا يبادر إذا ما وجد من نفسه قوة التعليم فيتصدر حتى يمرَّن على العلم، وتشهد له الأكابر.

فقد سبق عن الشافعي رضي الله تعالى عنه أن الحَدَث إذا تصدر فاته علمٌ كثير[3].

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٠٦).

(٢) رواه الرامهرمزي في كتاب «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» (ص: ٣٠٧).

(٣) تقدم تخريجه.

وقال بعض الحكماء: من طلب الرياسة قبل وقتها حُرِمها إذا جاء وقتُها.

ومن أمثالهم: من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وقال المروزي: كان المزي رحمه الله تعالى يقول: [قال الشافعي رحمه الله تعالى]: آفة المتعلم الملل، وقلة صبره على الدرس.

وكان [أبو حامد] يقول: سبيل الحدث أن يدرس، وسبيل الشاب أن يتفهم، وسبيل الكهل أن يناظر، وسبيل الشيخ أن يعلم[1].

وليستعن على طلب العلم بالتقوى والعمل بما يتعلمه أولاً فأولاً.

قال الحسن كما تقدم: من أحسن عبادة الله في شبيبته لقَّاه الله الحكمةَ عند كبر سنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤][2].

وروى ابن جهضم عن السري السَّقطي رحمه الله تعالى قال: يا معشر الشباب! اعملوا؛ فإن العمل في الشبيبة، ما يفوتني ورد فأقدر على إعادته[3].

وقلت: [من الرجز]

---

(١) رواه أبو حيان التوحيدي في «البصائر والذخائر» (٢/ ٤٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ورواه البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ١٩٩).

احْرِصْ عَلى عُمْرِكَ أَنْ تُضَيِّعَهْ　　فِي غَيْرِ طاعَةٍ وَعِلْمٍ وَدَعَةْ

ما فاتَ مِنْهُ لا يَعُودُ لا وَلا　　دامَتْ لِعَبْدٍ راحَةٌ وَلا دَعَةْ

طُوبَى لِمَنْ يَغْتَنِمُ الوَقْتَ إِذا　　نالَ شَباباً وَفَراغاً وَسَعَةْ

* تَنْبِيهٌ:

من تأمل في نَشْءِ هذا الزمان يرى لهم من العقول والأفكار ما لم يكن يراه لمن قبلهم، فتراهم يتأنقون في مآكلهم ومشاربهم، وملابسهم، وسائر أحوالهم بحيث تراهم أقوى إبداعاً، وأبلغ اختراعاً، وأتم وضعاً، وأليق زياً، غير أن عقولهم مصروفة إلى أحكام دنياهم، وفي أمور عاجلتهم، وهم عن الآخرة غافلون، وعما ينفعهم أو يضرهم ثَمَّ معرضون.

وعلى ذلك يحمل ما ورد من نقص الأحلام والعقول عند قيام الساعة، فعقول أكثر الناس أو كلِّهم إلا الشاذ النادر بالنسبة إلى أمور الآخرة عارية ذاهبة، وبالنسبة إلى أمور الدنيا حاضرة باهرة، بل ترى الأطفال يبدو فيهم من بواده الإدراك والتمييز ما يحير العقول، ويبهر الأبصار.

وقد روى أبو نعيم عن الشعبي رحمه الله تعالى قال: رُزِق صبيان هذا الزمان من العقل ما نقص من أعمارهم[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٢٤).

ومعناه أن الزمان كلما تأخر نقصت أعمار أهليه، لكن الله تعالى عوضهم عما نقص من أعمارهم ما تراه يزيد في عقولهم حتى ترى الأطفال الصغار ينجم فيهم التمييز والإدراك قبل إبَّانه من أسلافهم، ثم كلما شبوا كانت الفطنة والذكاء أتم فيهم من ذوي أسنانهم من السلف، لكن ترى أكثر ذكاء الشبان في هذه الأزمان مصروفة إلى اللهو واللعب، وسائر أمور الدنيا، وما لا يجدي منها إلا من شذ منهم ممن وفقه الله تعالى، والموفق في هذه الأزمنة وإن كان عزيزاً قليلاً فإن ثوابه كثير جليل؛ إذ صح الحديث بأن للعامل في زمان الصبر أجر خمسين من السلف، وهذا الزمان هو زمان الصبر والقبض على الجمر[1]، صبيهم عارم، وشابهم ظالم صارم، وشيخهم جهول، لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، بل الآباء والأولياء يرضون ممن في حجرهم وولايتهم بما هم فيه، لا يرشدونهم إلى صرف عقولهم فيما ينفعهم في آخرتهم.

---

(١) روى أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال أية آية؟ قلت: قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنياً مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم».

وهنا انتهى ما تيسر لنا من بيان ما يحسن من الشاب أن يتشبه فيه بالكهول والشيوخ.

* * *



فصل
في نهي الكهول والشيوخ عن التشبه بالشبان والصبيان

فإذا بلغ العبد سن الكهولة، فالكهل كما في «القاموس»: من وخطه الشيب؛ أي: من فشا فيه، أو استوى سواده وبياضه، أو من جاوز الثلاثين، أو أربعاً وثلاثين، أو[1] إحدى وخمسين[2].

وقيل: إذا بلغ أربعين فهو كهل؛ نقله الفيومي في «المصباح المنير»[3].

فلا ينبغي له التشبه بالشاب ومقتضياته التي أشرنا إليها.

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

---

(١) في «القاموس المحيط»: «إلى» بدل «أو».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٣٦٣) (مادة: كهل).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (٢/ ٥٤٣) (مادة: كهل).

نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، كما رواه أبو بكر ابن مردويه، وابن عساكر، وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[1].

فانظر كيف أثنى الله تعالى عليه بما كان من خلقه ﷺ؛ فإنه أسلم في هذا السن، وأسلم أبواه، فقال ما حكاه الله تعالى فيه، وطلب من الله سبحانه أن يوفقه ويلهمه الشكر على ما أنعم عليه وعلى والديه من نعمة الإسلام، وأن يوفقه للعمل بما يرضاه من الأعمال الصالحة، وأن يصلح له في ذريته، فأسلموا.

ثم قال الله تعالى ـ مشيراً إلى من هذه أخلاقهم، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه أولهم ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف: ١٦].

فهذه وظيفة الكهل لأنه في سن كمل فيه عقله، وصفا فيه جوهره، ومن ثم بعث النبي ﷺ وأكثر النبيين على رأس الأربعين، وهو سن الكمال للصديقين والصالحين، فمن بلغ هذا السن وانحرف عن هذا السنن، فقد عاكس الحكمة، وخالف أهل الكمال، ودخل في سلك الضلال.

ومن ثم جاء عن النبي ﷺ: «مَنْ أَتَى عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً فَلَمْ يَغْلِبْ

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٤٣).

خَيْرُهُ عَلى شَرِّهِ فَلْيَتَجَهَّزْ إِلَى النَّارِ». رواه أبو الفتح[1] الأزدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

وروى ابن أبي حاتم، وغيره عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق رحمه الله تعالى: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟

قال: [إذا] بلغتَ الأربعين، فخذ حذرك[3].

ويروى عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: جاء جبريل عليه الصلاة والسلام إلى النبي ﷺ فقال: إن الله تعالى أمر الحافظَين عليهما السلام، فقال لهما: ارفقا بعبدي في حداثته، حتى إذا بلغ الأربعين فاحفظا وحقِّقا[4].

فأما إذا استقام على الطريقة الشرعية لتمام الأربعين فقد وافق الحكمة.

أو من الحكمة أن يستوي في الْخُلُق من استوى خَلْقه.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) في «أ» و«ت»: «أبو الشيخ».

(٢) ورواه ابن بشكوال في «الصلة» (ص: ١٢١)، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٤٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٩٤).

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٤٤٢) إلى ابن الجوزي في «الحدائق» وضعفه.

ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾[الروم: ٥٤].

قوله: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾؛ أي: ابتدأكم ضعفاء.

وقال قتادة: من ضعف: من نطفة.

وكأن معنى قول قتادة من ذات ضعف؛ إذ أصلها ماء مهين.

وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾: الهرم، ﴿شَيْبَةً﴾: التعمر. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم(١).

ففي الآية إشارة إلى أن ضعف الإنسان الذي ابتدىء خلقه عليه يستصحبه ينتهي إلى قوة، وهي بلوغ الأشد بالإدراك، أو ببلوغ ثمان عشر سنة، أو ثمانية وعشرين سنة، أو ثلاثين على الأقوال في الأَشُدِّ.

ثم قوته هذه تنتهي بعد استوائها ببلوغ ثلاثين سنة، أو أربعين إلى إحدى وخمسين على الخلاف أيضاً إلى ضعف، وهو الشيب والهرم.

فسن الكهولة سن الكمال، فإذا لم يكمل فيه المرء في طريق آخرته فمتى يكون كماله؟

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[غافر: ٦٧].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٢١/ ٥٧).

أَفردَ طفلاً على إرادة الجنس، أو على تأويل كل واحد منكم، واللام متعلقة بمحذوف تقديره: ثم يبقيكم بعد الإخراج لتبلغوا أشدكم؛ أي: يبقي من شاء منكم بدليل قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾.

قال ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل أن يكون شيخاً.

قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾: الشاب والشيخ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن ربكم أنه يحييكم كما يميتكم؛ أي: ليجازيكم.

قال: وهذه لأهل مكة؛ كانوا يكذبون بالبعث. رواه ابن المنذر[1].

والمعنى: وليبلغ كل واحد منكم أجلاً له مسمى، فكل واحد منكم لا يتقدم أجله ولا يتجاوزه.

وقال الشعبي: يثغر الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، وينتهي عقله لثمان وعشرين، ويبلغ أشده لثلاث وثلاثين. رواه ابن أبي حاتم[2].

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٣٠٥).

(٢) وذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ٢٧٧).

وروى نحوه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٨) من قول عمرو بن العاص رضي الله عنه.

ورواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص: ١٨٨) عن الثوري.

وهذا الذي ذكره الشعبي حكم الغالب.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

بيَّن الله تعالى في هذه الآية تقلُّب الإنسان في أطواره وأحواله من نشأته إلى بعثته ليوقن بأنه مبعوث للحساب والجزاء، وبين فيها ما تنتهي إليه الشبيبة والشيخوخة المجملتان في الآيتين السابقتين، وهو الهرم والخرف، وإذا انتهى العبد إلى هذه النهاية فَقَدَ العلم والإحساس فضلاً عن القيام بحق العمل والطاعة، فالحزم ممن بلغ الأشد وتناهى في الكهولة أن يسعى في تدارك ما ينتفع به من ذلك قبل أن يحال بينه وبينه بالهرم والخرف، أو بالموت والوفاة.

ولا يتشبه بالصبيان والشبان؛ فإن الصبا والشباب إن كانا نوماً أو جنوناً أو سكراً فينبغي أن تكون الكهولة والشيبة يقظة وإفاقة وصحواً.

وما أحسن قولَ العتبي الشاعر الأديب كما حكى ابن خلكان أن

ابن قتيبة في «المعارف»، وابن المنجم في «التاريخ»[1] أورداه له: [من البسيط]

لَمَّا رَأَتْنِي سُلَيْمى قاصِراً بَصَرِي ... عَنْها وَفِي الطَّرْفِ عَنْ أَمْثالِها زَوَرُ

قالَتْ عَهِدْتُكَ مَجْنُوناً فَقُلْتُ لَها ... إِنَّ الشَّبابَ جُنونٌ بُرْؤُهُ الْكِبَرُ[2]

وفي الحديث المتقدم: «الشَّبابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنونِ»[3].

من محاسن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد الجرجاني قاضي البصرة أحد أصحاب الإمام الشافعي ما أنشده له النووي[4] في «طبقاته»: [من الطويل]

تَصَرَّمَ أَيّامُ الشَّبِيبَةِ مِنْ عُمُرِي ... وَلَمْ أَشْفِ مِنْ أَطْرابِها لَوْعَةَ الصَّدْرِ

وَلَمْ أَقْضِ مِنْ رَيْعانِها وَطَرَ الصِبَى ... لِكَثْرَةِ ما لاقَيْتُ مِنْ نُوَبِ الدَّهْرِ

وَلَمْ أَدَّخِرْ حَمْداً يُخَلَّدُ ذِكْرُهُ ... عَلى الدَّهْرِ إِنَّ الْحَمْدَ مِنْ أَنْفَسِ الذُّخْرِ

وَلا صالِحَ الأَعْمالِ قَدَّمْتُ راجِياً ... بِتَقْدِيمِها قَبْلُ الْمَثُوبَةَ وَالأَجْرِ

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَيْفَ حالِيَ بَعْدَها ... لَهَوَّنْتُ ما أَلْقَى وَمَنْ لِي بِأَنْ أَدْرِي

فَإِنْ يَكُ حالِيَ فِي الْمَشِيبِ عَلى الَّتِي ... عَهِدْتُ شَبابِيَ فَالْعَفاءُ عَلى عُمْرِي[5]

---

(١) في «وفيات الأعيان»: «البارع» بدل «التاريخ».

(٢) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٣٩٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) كذا في «أ» و«ت»، ولعله يريد: ابن الصلاح.

(٥) انظر: «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (١/ ٣٧٢).

فأول شيء يطلب من الشيخ إذا أفاق من جنون الشباب وسكره أن يتوب إلى الله تعالى؛ فإن باب التوبة مفتوح لكل تائب ولو لشائب، وتقبل توبة العبد ـ وإن شاخ ـ إن لم يُغَرْغِر بروحه.

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطاياكُمُ السَّماءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ»(١).

وروى الإمام أحمد، ومسلم عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ فِي النَّهارِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِـها»(٢).

وروى الإمام أحمد، وأبو يعلى، والطبراني، والحاكم وصححه، عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطانَ قالَ: وَعِزَّتِكَ يا رَبِّ! لا أَزالُ أُغْوِي عِبادَكَ ما دامَتْ أَرْواحُهُمْ فِي أَجْسادِهِمْ، فَقالَ الرَّبُّ ﷻ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي! لا أَزالُ أَغْفِرُ لَهُمْ ما اسْتَغْفَرُونِي»(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (٢٧٥٩).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧٦)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٧٢). وحسن ابن حجر إسناده في «الأمالي المطلقة» (ص: ١٣٧).

ولا يُسَوف بالتوبة؛ فإن التسويف بالتوبة قبيح، ومن الشيخ أقبح.

فقد روى ابن أبي الدنيا في كتاب «الأمل» عن بعض السلف أنه قال: إن أكثر صياح أهل النار من التسويف[1].

وما أحسن قولَ عبدالله بن المعتز: [من الطويل]

نَسِيرُ إِلَى الآجالِ فِي كُلِّ ساعَةٍ ... وَأَيَّامُنا تُطْوَى وَهُنَّ مَراحِلُ

وَلَمْ نرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقّاً فَإِنَّهُ ... إِذا ما تَخَطَّتْهُ الأَمانِيُّ باطِلُ

وَما أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبا ... فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ نازِلُ

تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيا بِزادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيّامٌ وَهُنَّ قَلائِلُ[2]

وإذا تاب فليَدُم على التوبة، وليُقبل على الطاعة، ولا يتعبد على حرف ويتطوع على جهل، بل حيث فاتت منه أيام الشباب ولم يطلب العلم ولم يتعلم، فلا ينبغي أن ييأس من رَوح الله، وتشبُّه الشيوخ بالشبان مذموم إلا بالنشاط في الطاعة وطلب العلم؛ فإنه محمود.

وروى البخاري في «تاريخه» عن جابر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَطْلُبِ الْعِلْمَ صَغِيراً، فَطَلَبَهُ كَبِيراً، فَماتَ، ماتَ شَهِيْداً»[3].

---

(١) وذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٥١).

(٣) قال الذهبي في «لسان الميزان» (٥/ ٤٣٣): وهذا خبر مركب على هذا =

ولا يستحيي من طلب العلم في الكبر حيث قصَّر في طلبه في الصغر.

وحكي أن بعض الحكماء رأى شيخاً يحب النظر في العلم ويستحيي من طلبه، فقال: يا هذا! أتستحيي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله[1].

وذكر أن إبراهيم[2] بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في التفقه، فقال له: يا عم! ما عندك فيما يقول هؤلاء؟

فقال: يا أمير المؤمنين! شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر.

فقال: لم لا تتعلم اليوم؟

فقال: أو يحسن لمثلي طلب العلم؟

قال: نعم، والله لأن تموت طالباً للعلم خير من أن تعيش قانعاً بالجهل.

قال: وإلى متى يحسن لي طلب العلم؟

قال: ما حسنت لكم الحياة[3].

= الإسناد، وعبد الجبار ومن فوقه رجال الصحيح، ومحمد بن يعقوب لا أعرفه ويحتمل أن يكون الفرغاني.

(١) وهو سقراط، كما رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٨).

(٢) في «الفقيه والمتفقه»: «منصور» بدل «إبراهيم».

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٧).

ولا يخفى أن طلب العلم إذا كان يفيد فرغبة ذوي الأسنان فيه أولى، والابتداء بالفضيلة فضيلة، كما قال أبو الحسن الماوردي[1].

وروى الخطيب في «شرف أهل الحديث» عن أبي عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى قال: سئل الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما عن الرجل يكون له ثمانون سنة يحسن يكتب الحديث؟

قال: إن كان يحسن أن يعيش[2].

وقوله: (يحسن) حَذَفَ منه حرف الاستفهام؛ يعني: أيحسن منه أن يكتب وقد بلغ الثمانين؟

فقال: إن كان يحسن أن يعيش كان من حسن عيشه أن يكتب؛ وأي عيشة أحسن من عيشة العلماء بأحاديث النبي ﷺ؟

وروى الدينوري في «المجالسة» عن معاوية بن بجير قال: أوحى الله تعالى إلى داود النبي عليه السلام: يا داود! اتخذ نعلين من حديد، وعصا من حديد، واطلب العلم حتى تنخرق نعلاك وتتكسَّر عصاك[3].

وفي هذا إشارة إلى أن طلب العلم يحسن في الشبيبة وفي الشيبة، ويحسن من العالم كما يحسن من الجاهل بأن يزداد إلى

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٦).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

علمه؛ فإن العلم لا نهاية له.

وفي الحديث المتقدم: إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحال فهو شهيد[1].

ومن ثم قال الإمام أحمد رضي الله عنه: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر. رواه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»، وعبد الكريم السمعاني في «ذيل تاريخه»[2].

وروى أبو نعيم عن فَرقد إمام جامع البصرة قال: دخلوا على سفيان الثوري رحمه الله تعالى في مرضه الذي مات فيه، فحدثه رجل بحديث، فأعجبه، وضرب بيده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحاً له، فكتب ذلك الحديث، فقالوا له: على هذه الحالة منك؟

فقال: إنه حسن؛ إن بقيت فقد سمعت حسناً، وإن مت فقد كتبت حسناً[3].

وجرى نحو ذلك لأبي جعفر الطبري، فذكر المعافى بن زكريا في «الجليس والأنيس» الدعاء الذي أسنده إلى جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: يا سابق الفوت! ويا سامع الصوت! وكاسي العظام بعد الموت!

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٨).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٦٤).

ثم قال المعافى: وذكر لي بعض بني الفرات عن رجل منهم، أو من غيرهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري قبيل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى بمحبرة وصحيفة، فكتبها، فقيل له: أوفي هذه الحال؟

فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى يموت[1].

وروى الخطيب عن ابن المبارك رحمه الله تعالى أنه قيل له: إلى كم تكتب الحديث؟

قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد[2].

ولو لم يستفد الشيخ من التعلم إلا التخلص من وصمة الجهل وعاره، فإنه لا يذم شيخ جاهل بأقبح من جهله.

ولقد قدمنا قول عروة بن الزبير: ماذا أقبحُ من شيخ جاهل[3]؟

وروى الرامهرمزي في كتابه «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» ـ واللفظ له ـ والطبراني في «الأوسط» عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ ثَلاثَةً: الْغَنِيَّ الظَّلُومَ، وَالشَّيْخَ الْجَهُولَ، وَالعالِمَ الزَّهُوَّ الْمُخْتالَ»[4].

---

(١) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٣٤٢).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٨).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» (ص: ٤٩٩)، =

وروى ابن السني عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحِكْمَةِ كَبَيتٍ خَرِبٍ، فَتَعَلَّمُوا وَعَلِّمُوا، وَتَفَقَّهُوا، وَلا تَمُوتُوا جُهَّالاً؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَعْذُرُ عَلَى الْجَهْلِ»[1].

وروى الرامهرمزي، والخطيب من طريق أبي صالح الطرسوسي عن أبي جعفر محمد بن محمد بن عقبة الشيباني: ثنا معروف بن حاتم البزار المقرىء: سمعت غنام بن علي: سمعت الأعمش يقول: إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن، ولم يكتب الحديث، فاصفح له[2]؛ فإنه من شيوخ القراة[3].

قال أبو صالح: قلت لأبي جعفر: ما شيوخ القراة؟

قال: شيوخ مقريون[4] يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام الناس، ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة[5].

= والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٣١): فيه الحارث الأعور، وهو ضعيف، وقد وثق.

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٥٩٠).

(٢) في «المحدث الفاصل»: «فاصفعه»، وفي «شرف أصحاب الحديث»: «فاصفع له» بدل «فاصفح له».

(٣) في «المحدث الفاصل»: «القمراء»، وفي «شرف أصحاب الحديث»: «القمر» بدل «القراة».

(٤) في مصدري التخريج: «دهريون» بدل «مقريون».

(٥) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص٣٠٦)، والخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٧).

وروى الرامهرمزي عن محمد بن عبيد قال: جاء رجل وافر اللحية إلى الأعمش يسأله عن مسألة من مسائل الصلاة يحفظها الصبيان، فالتفت إلينا الأعمش فقال: انظروا لحيته؛ يحتمل حفظ أربعة آلاف حديث، ومسألته مسألة الصبيان[1].

وروى الخطيب عن سفيان رحمه الله تعالى: أنه كان إذا رأى شيخاً لم يكتب الحديث قال: لا جزاك الله عن الإسلام خيراً[2].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الفرج»، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وأبو نعيم عن أنس رضي الله تعالى عنه، والبيهقي عنه، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اطْلُبُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ، وَتعَرَّضُوا لِنَفَحاتِ رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى؛ فَإِنَّ لِلَّهِ تَعالَى نَفَحاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ، وَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْراتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رَوْعاتِكُمْ»[3].

---

(١) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص٣٠٦).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٦٧).

(٣) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٩٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٦٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٢١)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٠) عن أنس ﷺ.

ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٢٣) وقال: هذا هو المحفوظ دون الأول ـ يعني حديث أنس ـ، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٢٨) عن أبي هريرة ﷺ.

فإذا لم يطلب العبد الخير والعلم من أفضل الخير في كل دهره فلا ينبغي أن يفوته في شيبته وعند انتهاء أجله؛ فإن الأعمال بالخواتيم.

ـ **ومن أحسن أخلاق الشيوخ، وأهم ما يطلب منهم**: رقة القلب، ورحمة الخلق لأنهم أحوج الناس إلى رحمة الله تعالى؛ فإنهم أقرب إلى الموت، و«إِنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبادِهِ الرُّحَماءَ»، كما في «الصحيحين» عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما[1]، فإذا غلبت الشفقة والرحمة على الشيخ مع الإيمان كانت دليل رحمة الله تعالى، وإذا غلبت القسوة على الشيخ كانت دليل سخط الله تعالى.

ومن ثم كان يقال: خمس خصال هن أقبح شيء فيمن كن فيه: الحدة في السلطان، والكبر في ذي الحسب، والبخل في الغني، والحرص في العالم، والقسوة في الشيخ.

وثلاث أحسن شيء فيمن كن فيه: تؤدة في غير ذل، وجود بغير ثواب، ونَصَب لغير الدنيا. رواه أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب» عن زيد الكوفي، عن رجل من أهل العلم[2].

* **تَنْبِيهٌ**:

إذا رزق العبد التوفيق في صغره وشبابه فليستعذ بالله أن يمكر به

---

(1) رواه البخاري (١٢٢٤)، ومسلم (٩٢٣).

(2) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٢١٤)، إلا أنه قال: «والفسق في الشيخ».

في آخر عمره؛ فـ: «إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُها كَيْفَ يَشاءُ»[1] كما في الحديث.

واتفق لبعضهم أنه ابتلي بهذه المحنة، فأنشد: [من الطويل]

أَطَعْتُ الْهَوَى عَكْسَ القَضِيَّةِ لَيْتَنِي ... خُلِقْتُ كَبِيراً وَانْقَلَبْتُ إِلَى الصِّغَرْ

ومن هنا تفهم معنى ما رواه الإمام عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن[. . .][2] قال: رأى أبو هريرة رضي الله عنه شباباً يتنسكون فقال: ليت الموت ذهب بهؤلاء؛ يعني: قبل أن يفتتنوا بالدنيا.

وقد قدمنا ما رواه ابن أبي الدنيا في «الحذر» عن راشد بن سعد رحمه الله تعالى قال: نظر عيسى بن مريم عليهما السلام إلى غلام لم يدرك قد نَحَلَ جسمه، قال: ما الذي صيرك إلى ما أرى؟

قال: والله ما بي من السقم، ولكني أخاف أن أكبر فأعصي الله[3].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: ما أقبحَ الفقرَ بعد الغنى، وأقبحَ الخطيئةَ مع المسكنة، وأقبحُ من ذلك كله رجلٌ كان عابداً فترك عبادة ربه[4].

---

(1) رواه الترمذي (٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٣٨٣٤) عن أنس رضي الله عنه.

(2) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمة.

(3) تقدم تخريجه.

(4) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٧١).

وقلت في معناه: [من السريع]

مـا أَقْـبَحَ الفَقْـرَ عُقَيْـبَ الْغِنَـى ... وَأَقْـبَحَ الـذَّنْبَ مَـعَ الْمَـسْكَنَةْ

أَقْـبَحُ مِـنْ هَـذا وَذا مَـنْ نَـشا ... فِـي طاعَـةٍ ثُـمَّ عَـصَى دَيْدَنَـهْ

ومن عجيب ما اتفق في هذا الباب: ما رواه أبو نعيم عن مجاهد، وابن عياش: أن الشعبي كانت أخته عند أعشى همدان، وكانت أخت أعشى همدان عند الشعبي.

[فقال الأعشى]: يا أبا عمرو! رأيت كأني دخلت بيتاً فيه حنطة وشعير، فقبضت بيميني حنطة، وبيساري شعير، ثم خرجت فنظرت، فإذا في يميني شعير، وإذا في يساري حنطة.

فقال: لئن صدقت رؤياك لتستبدل بالقرآن الشعر.

فقال الأعشى الشعر بعد ما كبر، وكان قبل ذلك إمام الحي ومقرئهم[1]؛ نعوذ بالله من تحول النعمة!

وروى أبو نعيم أيضاً عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى: أنه سئل: ما علامة الخذلان؟

قال: أن يستقبح الرجل ما كان يستحسن، ويستحسن ما كان قبيحاً[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٢٥).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢١٤).

أشار إلى أن العبد إذا كان في شبابه يحذر من محرم أو مكروه، ثم صار في شيخوخته يترخص فيه، فهو مخذول ممكور به؛ والعياذ بالله تعالى!

فينبغي للعبد كلما كبر أن يترقب أحواله وأفعاله، وليجتهد أن يكون كلها على السداد، وفي الترقي ليكون من خيار الناس، ويسأل ربه التوفيق لذلك في كل وقت.

روى الإمام أحمد في «الزهد» عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: قال داود عليه السلام: يا رب! طال عمري، وكبرت سني، وضعف ركني.

فأوحى الله تعالى إليه: يا داود! طوبى لمن طال عمره وحسن عمله[1].

وفي «المسند» بإسناد صحيح، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وأخرجه ابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «الشعب» من حديثه، والحاكم وصححه، من حديث جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ؟»

قالوا: نعم.

قال: «خِيارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْماراً وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمالاً»[2].

---

(١) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٦٥).

(٢) تقدم تخريجه.

وفي رواية عن أبي هريرة عن قوله: «وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمالاً»، «وَأَحْسَنُكُمْ أَخْلاقاً». رواهما الإمام أحمد، والبزار[1].

وروى الترمذي، والحاكم وصححاه، والطبراني بإسناد صحيح، عن أبي بكرة ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أي الناس خير؟

قال: «مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ».

قال: فأي الناس شر؟

قال: «مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَساءَ عَمَلُهُ»[2].

وروى أبو يعلى بإسناد حسن، عن [أنس ﷺ][3] قال: قال رسول الله ﷺ: «خِيارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْماراً إِذا سُدِّدُوا»[4].

ومن علامة التوفيق للعبد، وإرادة الخير به عند كبره، وسداد أمره ومرمة[5] حاله: نشاطُه في الطاعة، وأن يخف جسمه ويرق عظمه.

وعلامة ذلك نورانية الوجه، وصحة الذهن، وجودة الرأي، وأكثر ما يكون ذلك لمن حفظ الله وأطاعه في شبابه.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) بياض في «أ» و«ت».

(٤) رواه أبو يعلى (٣٤٩٦). وحسن المنذري إسناده في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٢٧).

(٥) مرمة: أي صلاح.

والذي رأيته واستقريته طول عمري، ولا أراه إلا كذلك أبداً أنه ما صان ذو جمال جماله، ولا ذو مال ماله، ولا ذو نعمة نعمته في شبابهم، إلا حفظ الله تعالى عليهم ما أنعم به عليهم في كبرهم وشيخوختهم، ولا فرط ذو جمال في حفظ جماله حتى امتهن جماله بالفسق والفاحشة إلا أجرم في كبره، وأظلم وجهه، وقبحت هيئته، ولا ذو مال في حفظ ماله بمنع زكاته والحقوق الشرعية عليه فيه إلا سلبه آخراً، أو كان سبباً لنزول البلاء عليه بسببه ورؤيته الآفات فيه، وكذلك سائر النعم.

ولقد صدق عمر رضي الله تعالى عنه في قوله: من اتقى الله وَقَاه؛ كما رواه ابن أبي الدنيا، وغيره[1].

وروى ابن أبي شيبة عن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: قالت أم الدرداء لأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما: يجيء الشيخ فيصلي، ويجيء الشاب فلا يصلي.

فقال أبو الدرداء: كُلٌّ في ثواب أُعِدَّ له[2].

فينبغي لمن حصل منه تقصير وتفريط في أوائل عمره أن لا يفرط في أواخره وبقيته؛ إذ لا قيمة لما بقي من عمره كما قيل: [من البسيط]

بَقِيَّةُ العُمْـرِ عِنْـدِي مـا لَهـا ثَمَـنُ ... وَإِنْ مَضى غَيْر مَحْمُودٍ مِـنَ الـزَّمَنِ

يَسْتَدْرِكُ الْمَرْءُ فِيها ما أَفاتَ وَيُحْـ ... ـيِـي مـا أَمـاتَ وَيَمْحُـو الـسُّوْءَ

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٥٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٨٩).

(٣) البيتان لأبي الفتح البستي، كما في «زهر الآداب» لابن رشيق (١/ ٥٢).

ولقد أحسن الشيخ شهاب الدين الأذرعي في قوله رحمه الله تعالى: [من مجزوء الكامل المرفل]

كَيْفَ النَّجاةُ وَهِمَّتِي ... فِي اللَّهْوِ وَالتَّقْصِيرِ دابِي

لا أَرْعَوِي بِزَواجِرٍ ... نَطَقَتْ بِها آيُ الْكِتابِ

قَدْ صِرْتُ فِي السِّتِّينَ فِي ... مَيادِينِ التَّصابِي[1]

شِبْهَ ابْنِ عِشْرِينَ غَدا ... نَشْوانَ مِنْ سُكْرِ الشَّبابِ

قَدْ آنَ لِي أَنْ أَسْتَعِدَّ ... لِيَوْمِ عَرْضٍ وَالْمَآبِ

وَأَجِدَّ فِي الْعَمَلِ الرَّبِيـ ... ـحِ وَحُسْنِ تَصْحِيحِ الْمَتابِ

فَعَسى الكَرِيمُ يَجُودُ لِي ... بِالْعَفْوِ عَنْ سُوءِ اكْتِسابِي

يا خَجْلَتا يا حَسْرَتا ... إِنْ ناقَشُونِي فِي الْحِسابِ

وَبَدَتْ خَفِيّاتُ الأُمُو ... رِ وَطالَبُونِي بِالْجَوابِ

يا رَبِّ بِالْهادِي البَشِيرِ ... وَصَحْبِهِ خَيْرِ الصِّحابِ

ثَبِّتْ عُبَيْدَكَ أَنْ يَزِلَّ ... هُناكَ عَنْ نَهْجِ الصَّوابِ

وَاسْتُرْ صَحائِفَ عَيْبِهِ ... عَنْ نَشْرِها يَوْمَ الْحِسابِ

ولنختم هذا الفصل بما رواه ابن أبي الدنيا في «الأمل»، وابن حبان في «الثقات»، وأبو نعيم عن أبي عبيدة الناجي قال: دخلنا على

---

(١) كذا في «أ» و«ت».

الحسن ـ يعني: البصري ـ في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحباً بكم وأهلاً، وحياكم الله بالسلام، وأدخلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة، إن صبرتم وصدقتم وأيقنتم، فلا يكن حظكم من هذا الخبر أن تسمعوه بهذه الأذن، وتُخرجوه من هذه الأذن؛ فإنه من رأى مُحمَّداً ﷺ فقد رآه غادياً ورائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له عَلَم فشمَّر إليه، الوَحَاءَ الوَحَاءَ! النَّجَاءَ النَّجَاءَ! على ما تُعَرِّجُون؟ أنتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معاً، رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً، وأكل كسرة، وألبس خلقاً، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب من العقوبة، وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك[1].

* تَتِمَّةٌ:

قال الحافظ أبو الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي في «المقاصد الحسنة»: روينا في «جزء أبي حامد[2] الحضرمي» من حديث الأعمش عن إبراهيم قال: كان يعجبهم أن يكون للشاب صبوة[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في «المقاصد الحسنة»: «حاتم» بدل «حامد».

(٣) انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٢٠٦)، ورواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٣٨٨).

قلت: ليس المفتى فيه أن المعصية أو المكروه كان يعجبهم في نفسه من الشاب، ولا أنهم كانوا يرضون منه بذلك، وحاشا الله لا يكون ذلك منهم، ولكن المعنى فيه أمران:

الأول: أنهم كانوا يخافون على الشاب إذا كان محفوظاً من كل صبوة، كاملاً من كل وجه أن يعجب بنفسه ويستبد من رأيه، وما أقرب الشاب إلى ذلك فيهلك، فالصبوة تطأ من مَنِّه وتكسر نفسه.

ومن هنا ينبغي للشاب إذا كان موفقاً أن لا يزدري غيره لتقصيره عنه، وبذلك يتم توفيقه، ويكمل سواده، بل ينبغي أبداً أن يرى غيره أكمل منه، ويقيم له العذر في مخالفته، ويتهم نفسه.

كما روى الإمام أحمد، وأبو نعيم عن بكر بن عبدالله المزني رحمه الله تعالى: أنه كان إذا رأى شيخاً قال: هذا خير مني، عبدالله قبلي، وإذا رأى شاباً قال: هذا خير مني، ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب.

وكان بكر يأمر أصحابه بذلك[١].

والأمر الثاني: أنهم كانوا يخافون على الشاب إن لم يكن له صبوة من العين؛ فإن العين حقٌّ، كما في الحديث الصحيح[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥٤٠٨)، ومسلم (٢١٨٧).

وبلغني عن الحافظ أبي الفضل ابن حجر العسقلاني: أنه كان يقول عن تلميذه الشيخ نجم الدين بن قاضي عجلون: ما رأيت في شباب هذا العصر مثله قط، وما رأيت فيه خصلة تدفع عنه العين، فمات الشيخ نجم الدين شاباً بعدما ألف مؤلفاته التي تقف دونها فحولُ الرجال.

وينبغي لمن كان له ولد ونحوه فيه مَخايل الخير والكمال أن يعوِّذه بكلمات الله تعالى التامة، أو يقول عليه: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ فقد روى البخاري، وأصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما وعن أبويهما: «أُعِيذُكُما بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ وَهَامَّةٍ، وَكُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ».

ثم يقول: «كانَ أَبُوكُمْ إِبْراهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلامُ يُعَوِّذُ بِهِما إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ عَلَيْهِما السَّلامُ»(١).

وروى أبو يعلى، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَنْعَمَ اللهُ عَلى عَبْدٍ نِعْمَةً فِي أَهْلِهِ أَوْ مالِهِ أَوْ وَلَدِهِ فَيَقُولُ: ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، إِلاَّ دَفَعَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ كُلَّ آفَةٍ حَتَّى تَأْتِيَهُ مَنِيَّتُهُ»، وقرأ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧١)، وأبو داود (٤٧٣٧)، والترمذي (٢٠٦٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٧٢٦)، وابن ماجه (٣٥٢٥).

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[الكهف: ٣٩][1].

ثم إذا كان الشاب على خلاف ما ذكرناه كالانهماك في الشهوات والإقبال على المعصية، فلا ينبغي أن يقطع باليأس من صلاحه وفلاحه، ولا أن يدعى عليه بالهلاك كما يفعله كثير من الجهلة مع أولادهم وأهلهم وخدمهم، بل ينبغي الدعاء لهم بالهداية، والرشاد والسداد؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١].

فسَّره الحسن وغيره بالدعاء على الزوجة والأولاد في حال الغضب، ثم يندم الداعي.

روى أبو داود عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُوا عَلى أَوْلادِكُمْ، وَلا تَدْعُوا عَلى أَمْوالِكُمْ؛ لا تُوافِقوا مِنَ اللهِ ساعَةً فِيها إِجابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ»[2].

وروى أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَتَمَنَّوْا هَلاكَ شَبابِكُمْ وَإِنْ كانَ فِيهِم

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥٢٥)، وكذا ابن أبي الدنيا في «الشكر» (ص: ٥).

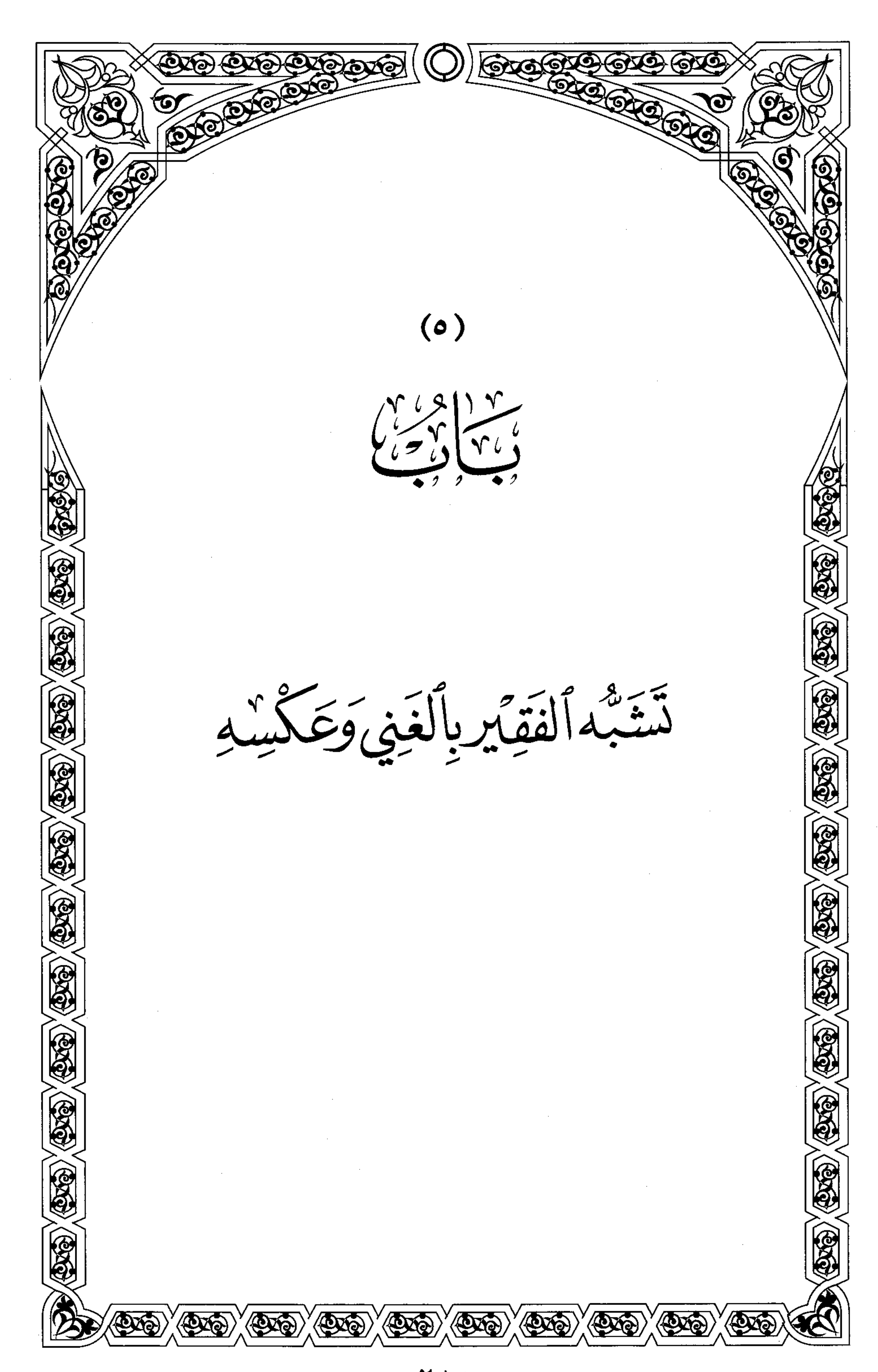
وعزاه ابن كثير في «تفسير» (٣/ ٨٥) لأبي يعلى، وقال: قال الحافظ أبو الفتح الأزدي: عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس، لا يصح حديثه.

(٢) تقدم تخريجه.

غَرامٌ؛ فَإِنَّهُمْ على ما كانَ فِيهِم إِمَّا أَنْ يَتُوبوا فَيَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِم، وَإِمَّا أَنْ تُرْدِيَهُمُ الآفاتُ، إِمَّا عَدُوّاً فَيُقاتِلُونَهُ، وَإِمَّا حريقاً فَيُطْفِؤُونَهُ، وَإِمَّا مَاءً فَيَسُدُّوْنَهُ»[1].

❒ ❒ ❒

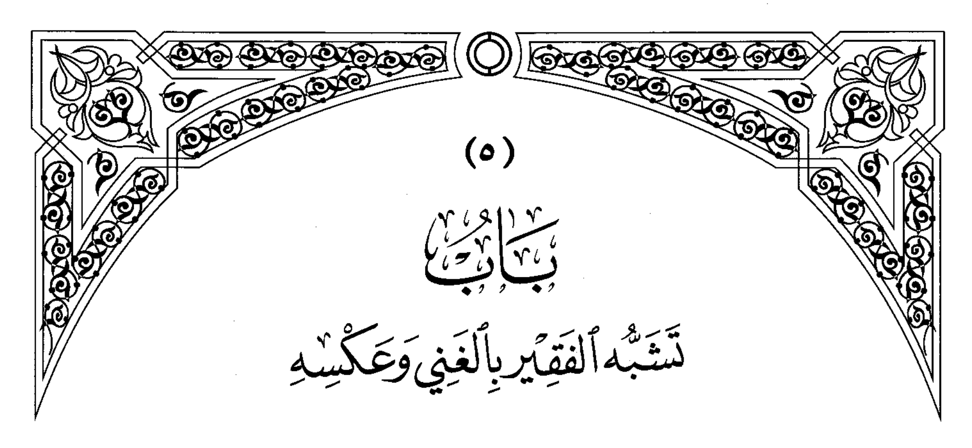
(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١١٩).



(٥)

بَابُ

تَشَبُّهُ ٱلفَقِيرِ بِٱلغَنِي وَعَكْسِهِ



أما تشبه الفقير بالغني فقد يكون مستحسناً، وقد يكون مذموماً:

فالأول: أن يتشبه بالأغنياء في اللباس ونحوه من غير تكلف ستراً للفقر، وتعففاً عن السؤال، وهو من آداب الفقراء الصالحين.

قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وروى ابن ماجه عن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيالِ»(١).

وروى البزار عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ، وَيُبْغِضُ الْبَذِيْءَ الفاحِشَ السَّائِلَ الْمُلِحَّ»(٢).

والمراد بالغني هنا الذي نفسه غنيَّة، كما يدل عليه وصفه

---

(١) رواه ابن ماجه (٤١٢١). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٧٩).

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧٦): رواه البزار، وفيه محمد بن كثير، وهو ضعيف جداً.

بالتعفف، ومقابلته بالسائل المُلح، فلا معارضة بينه وبين حديث عمران ﷺ.

وروى الشيخان، وأبو داود، والترمذي، والنسائي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ الْغِنَى غِنَى كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[1].

والعَرَض ـ بفتحتين ـ: حطام الدنيا، أو ما كان من مال؛ قلَّ أو كثر.

وروى ابن حبان في «صحيحه» عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذَرٍّ! تَرَى كَثْرَةَ الْمالِ هُوَ الْغِنَى؟»

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: «أَتَرى قِلَّةَ الْمالِ هِيَ الْفَقْرَ؟»

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: «إِنَّما الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ»[2].

وروى الطبراني في «الأوسط» ـ وسنده حسن ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «يا محمد! عش ما شئت؛ فإنك ميت، واعمل ما شئت؛ فإنك مَجْزِيٌّ

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨١)، ومسلم (١٠٥١)، والترمذي (٢٣٧٣)، وكذا ابن ماجه (٤١٣٧).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٨٥).

به، وأحِبَّ من شئت؛ فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس»[1].

والاستغناء عن الناس قد يكون بالحِرفة والاكتساب، وقد يكون بالتقنع بالميسور والإعراض عما وراءه كما قال ﷺ: «اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَلَوْ بِشَوْصِ السِّواكِ». رواه البزار، والطبراني، والبيهقي من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما[2].

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أفضل الأعمال التجمل عند المحنة[3].

وقال بعض السلف: ستر الفقر من كنوز البر[4].

وقال أبو مدين رحمه الله تعالى: الفقر نورٌ، فإذا كشفته كسفته.

والثاني: أن يتشبه بالأغنياء في اللباس لمجرد الشهوة أو للشهرة، وفي التوسع في المآكل والمشارب، والمركب، والمسكن، والخدم، وشراء ما ليس معه ثمنه، أو ما يستدين ثمنه، وفي الجود والسخاء بما ليس عنده ولا يتوصل إليه، وربما يكون ذلك بإلجاء

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٧٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٣): وفيه زافر بن سليمان؛ وثقه أحمد وابن معين وأبو داود، وتكلم فيه ابن عدي وابن حبان بما لا يضر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٣٢٥).

(٤) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٢٠٦).

الزوجة، أو الولد والعيال حيث يريدون التشبه بعيال الأغنياء، وذلك وَبَال على الفقير في الدنيا والآخرة حيث يضيق عليه الأمرُ بطلب الغرماء لأثمان مبيعاتهم له، والديون التي تترتب لهم عليه بسبب ذلك، وربما أدى به الحال إلى الهرب، وتعلق حقوق الناس بذمته، أو الحبس والعقوبة، أو إلى الدخول في مداخل السوء لتحصيل ما يسد أمره به؛ كالسرقة، والغصب، والرشوة، والسعاية إلى الحكام، وخدمة الظلمة، وهو في الأصل مسرف مبذِّر، والإسراف والتبذير منه كلاهما محرَّم، فيكون فاسقاً، فيجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

وقد روى الطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «أَشْقَى الأَشْقِياءِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقْرُ الدُّنْيا وَعَذابُ الآخِرَةِ»[1].

وفي «الكبير» ـ ورواته ثقات ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ اشترى عيراً قدمت، فربح فيها أواقاً من ذهب، فتصدق بها على أرامل عبد المطلب، وقال: «لا أَشْتَرِي شَيْئاً

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٨٨٧)، و(٩٢٦٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٧): رواه الطبراني بإسنادين؛ في أحدهما خالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، وقد وثقه أبو زرعة وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات، وفي الأخرى أحمد بن طاهر بن حرملة، وهو كذاب.

لَيْسَ عِنْدِي ثَمَنُهُ»[1].

وروى البيهقي، وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يَأْتِي عَلى النَّاسِ زَمانٌ يَكُونُ هَلاكُ الرَّجُلِ عَلى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَأَبَوَيْهِ وَوَلَدِهِ؛ يُعَيِّرُونَهُ بِالفَقْرِ، وَيُكَلِّفُونَهُ ما لا يُطِيقُ، فَيَدْخُلُ الْمَداخِلَ الَّتِي يَذْهَبُ فِيها دِيْنُهُ فَيَهْلَكُ»[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: ثلاثة لا تكون في بيت إلا نُزعت البركة منه: الخيانة، والزنا، والسرقة[3].

ومن هنا ينبغي للفقير أن لا يخالط الأغنياء، ولا يجالسهم ولا يعاشرهم، ولا ينظر إلى زيهم، ولا يفعل ذلك عيالُه مع عيالهم؛ فإنه يَزدري نعمةَ الله تعالى عليه، ويرى ما لا يطيقه، وتدعوه نفسه وعياله إلى مثل ما عندهم.

ولقد روى الترمذي، والحاكم وصححه، عن عائشة رضي الله

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٨٢)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٣٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١١٠): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

(٢) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ١٨٣) بمعناه. وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٧١).

(٣) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٦٩)، إلا أنه قال: «السرف والزنا والخيانة».

تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال لها: «يا عائِشَةُ! إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيا كَزادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجالَسَةَ الأَغْنِياءِ، وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْباً حَتَّى تُرَقِّعِيهِ»(١).

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: يا معشر المهاجرين! لا تدخلوا على أهل الدنيا؛ فإنها مَسْخطة للرزق(٢).

وصدق رضي الله تعالى عنه؛ فإن مخالطة الفقير لأهل الدنيا تدعوه إلى التشبه بهم في حبها وطلبها؛ إذ تَهُشُّ نفسُه إلى مثل ما لهم من الدنيا، فإن طلبها وحصلت له شَغَلَتْه عن الله تعالى، وعما فيه نجاة نفسه [. . .](٣) وإن لم تحصل له بقي ساخطاً ما قسم الله له، محتقراً ما أنعم الله به عليه، ولذلك جاء النهي عن مجالسة الأغنياء كما في حديث عائشة، وعن النظر إليهم وإلى ما شغلوا به.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[طه: ١٣١].

---

(١) رواه الترمذي (١٧٨٠) وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، وسمعت محمداً ـ أي البخاري ـ يقول: صالح بن حسان منكر الحديث. والحاكم في «المستدرك» (٧٨٦٧).

(٢) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٦٣).

(٣) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمة أو كلمتين.

نزلت تعزيةً للنبي ﷺ عن الدنيا كما رواه ابن أبي حاتم عن سفيان[1]، بل أخرجه بمعناه ابن أبي شيبة، والبزار، وأبو يعلى، والمفسرون عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه[2].

ونقل الشعبي، وغيره عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: من لم يتعز بعزاء الله تعالى تقطَّعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره ما في أيدي الناس تَطُلْ حسرته، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه، وملبسه فقد قل علمه، وحضر عذابه[3].

وروى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٦١٢).

(٢) ورواه الروياني في «مسنده» (٦٩٥)، والطبري في «التفسير» (١٦/ ٢٣٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٨٩).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ١٢٦): رواه الطبراني في «الكبير»، والبزار، وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

ولفظ الحديث عند الروياني: نزل ضيف بالنبي ﷺ فدعاني، فأرسلني إلى رجل من اليهود ببيع، فقال: يقول لك محمد ﷺ أو رسول الله ﷺ: نزل بنا ضيف، ولم يبت عندنا ما يصلحه فبعني كذا وكذا من الدقيق أو اسلفني إلى هلال رجب، قال: والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن، فخرجت إليه فأخبرته فقال: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه، اذهب بدرعي» فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٣٣) عن الحسن عن أبي الدرداء ﷺ.

هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ»(١).

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد عن عون بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: صحبت الأغنياء فلم يكن أحد أطول غمّاً مني؛ إنْ رأيتُ رجلاً أحسن ثياباً مني أو أطيب ريحاً مني غمني، فصحبت الفقراء فاسترحت(٢).

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام، وابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير ـ مرسلاً ـ: أن رسول الله ﷺ مر بإبل لِحَيٍّ يقال لهم: بنو الملوح، أو: بنو المصطلق، قد عنست في أبوالها من السمن، فتقنع بثوبه، ومر ولم ينظر إليها لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[الحجر: ٨٧ ـ ٨٨](٣).

والمراد بالأزواج: الأصناف والأمثال.

ـ ومن تشبه الفقير المذموم بالغني: أن يتشبه به في الكبر والخيلاء، وذلك ـ وإن كان قبيحاً من كل أحد ـ فإنه من الفقير أقبح، ومنه إذا كان عائلاً أشد قبحاً، ولذلك وقع النص عليه في قوله ﷺ: «ثلاثة

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٤)، ومسلم (٢٩٦٣)، والترمذي (٢٥١٣)، وابن ماجه (٤١٤٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ تَعالَى وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ». رواه مسلم، وغيره[1].

وروى الطبراني في «الكبير»، والبيهقي عن سلمان رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ: أَشْمَطُ زانٍ، وَعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضاعَتَهُ؛ لا يَشْتَرِي إِلاَّ بِيَمِينِهِ، وَلا يَبِيعُ إِلاَّ بِيَمِينِهِ»[2].

وروى الطبراني في «الكبير» أيضاً عن عصمة بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: [قال رسول الله ﷺ:] «ثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ إليهم غداً: شيخٌ زانٍ، ورجلٌ اتخذَ الأيمانَ بضاعةً فحلَفَ في كلِّ حقٍّ وباطلٍ، وفقيرٌ مختالٌ مَزْهوٌ»[3].

ـ ومن أخلاق الأغنياء المذمومة: أن مترفيهم إذا جلس بعضهم إلى بعض في مجلس أكثر فيه من الثناء على ماله وخدمه، وخيوله ومواشيه، وملابسه، وعقاراته.

ومنشأ هذا من الجهل والإعراض عن الله تعالى، فلا ينبغي للفقير

---

(1) رواه مسلم (١٠٧).

(2) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٥٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٨): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(3) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٤). وضعف الهيثمي إسناده في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٨).

أن يتشبه بهم في مدح شيء من ذلك اللائقة به؛ فإن ذلك مستسمج من الغني، وهو من الفقير أسمج وأقبح، وأكثر ما يكون هذا الخلق القبيح ممن غناه عارض وقد كان غريقاً في القِلَّة.

وقد روى أبو نعيم عن ماهان الحنفي رحمه الله تعالى قال: ما يستحيي أحدكم أن تكون دابته التي يركب، وثوبه الذي يلبس أكثر ذكراً لله تعالى منه[1].

قلت: وأنا أقول: من هذا خلقه وعادته يجري على لسانه ذكر بزته وملابسه، ومراكبه، وسائر أغراض دنياه أكثر من جريان ذكر الله تعالى عليه، فأين الحياء من هذا؟ وهل ترك من القحة والجفاء شيئاً؟ وإذا تبجح بما لا يملكه وأثنى على شيء من ذلك وهو لا يملكه كان أسوأ حالاً وأعظم ذنباً؛ لأنه ضم إلى ذلك كذباً وزُوراً.

وفي الحديث الصحيح: «الْمُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[2].

فإن كان ثناؤه على مال قريبه أو رفيقه أو جاره، مفتخراً بذلك، ومتكثراً به لانتسابه إليه أو في نسبه، فهذا ضم إلى معصيته حماقة وجهلاً؛ فإنه يفرح بما ليس له، ويقنع نفسه بالجوز الفارغ الخال، ويسكِّن عطشها بالسراب والآل.

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.



فصل

وأما تشبه الغني بالفقراء فهو على قسمين أيضاً: محمود ومذموم.

فالأول: أن يتشبه بهم في خشونة العيش، والرضا بالدون من المجالس، ولباس ما تيسر تواضعاً وتبذلاً، لا شُحّاً وبخلاً.

وأمارة الصدق أن يكون مع ذلك جواداً سخياً، محباً للتصدق والإيثار، والتوسط على العيال، والإفضال على الجيران والإخوان.

روى الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن معاذ بن أنس رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَ اللِّباسَ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَواضُعاً لِلَّهِ تَعالَى دَعاهُ اللهُ يَومَ القِيامَةِ عَلى رُؤُوسِ الْخَلائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيْمانِ شاءَ يَلْبَسُها»[1].

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَبَذِّلَ الَّذِي لا يُبالِي ما لَبِسَ»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨١) وحسنه، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٦).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٧٦). قال الدارقطني في «العلل» (٨/ ٣٣٧): الصحيح أنه موقوف.

وروى الإمام أحمد ورجاله ثقات، والبيهقي عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: «إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ»[1].

قلت: ومن هنا كان عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه يَطْعم طعام الإمارة، ويصوم ويفطر على ما تيسر.

وسبق أن سليمان عليه السلام كان يطعم طعام الملوك، ويصوم ويفطر على خبز الشعير والملح الجريش[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كونوا جُدُدَ القلوب خُلْقان الثياب، ينابيع العلم، مصابيح الليل، أَحلاس البيوت، كونوا خلقان الثياب يعرفكم أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض[3].

وروى [عبدالله ابن الإمام أحمد][4] في «زوائده» عن عبدالله بن

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٧٨). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٠٢): رواة أحمد ثقات.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) وروى نحوه الدارمي في «السنن» (٢٥٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٦).

(٤) بياض في «أ» و«ت».

شوذب قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام: جودة الثياب خيلاء القلب[1].

وروى الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن طلحة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ التَّواضُعِ الرِّضا بِالدُّونِ مِنَ الْمَجْلِسِ»[2].

ومن هذا القبيل مساواة الفقراء في المجلس ونحوه، والتسوية بينهم وبين الأغنياء في الإكرام والاحترام، بل تقديمهم وتفضيلهم إذا كان لهم فضيلة لم تكن في الأغنياء.

قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[الكهف: ٢٨].

وتقدم أن سليمان بن داود عليهما السلام كان يدخل المسجد فيرى أغمص مجلس من بني إسرائيل فيجلس إليهم، ويجلس مع المساكين، ويقول: مسكين بين مساكين؛ مع ما أوتي من الملك.

وروى ابن أبي شيبة عن سلمان بن عامر الشيباني قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «أَرَأَيْتُمْ سُلَيمانَ وَما أَعْطاهُ اللهُ مِنْ مُلْكِهِ؟ وَإِنَّهُ لَمْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٢٣٩). قال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» (ص: ٩٥): هذا حديث حسن غريب.

يَكُنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّماءِ تَخَشُّعاً لِلَّهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ»[1].

وروى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شَدَّ سُلَيْمانُ طَرْفَهُ إِلَى السَّماءِ تَخَشُّعاً حَيْثُ أَعْطاهُ اللهُ ما أَعْطاهُ»[2].

والثاني: وهو تشبه الغني بالفقير المذموم.

١ ـ فمنه: أن يتشبه بالفقير في التبذُّل والتقلُّل في المأكل والملبس، ونحوهما بخلاً وشحاً على نفسه، أو ليظن الناس أنه فقير فيعطى، وذلك كله قبيح، فإن تشبه بالفقير السائل في المسألة كان أقبح.

روى الترمذي، والحاكم وصححه، عن عبدالله بن عمرو رضي

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٧٠)، وكذا ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٤٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٢٤٤) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.
وقد جاء القرآن بالأمر في النظر إلى السماء للتفكر، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق: ٦].
قال ابن بطال في «شرح صحيح البخاري» (٩/ ٣٦٠ ـ ٣٦١) ـ في شرح باب رفع البصر إلى السماء ـ: وفيه عن ابن عباس: بت عند ميمونة والنبي ﷺ عندها، فلما كَانَ ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء.
هذا الباب رد على بعض أهل الزهد في قولهم: إنه لا ينبغى النظر إلى السماء تخشعًا وتذللاً لله تعالى.
ثم روى حديث أبي داود عن عبدالله بن سلام: كان رسول الله ﷺ إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء.

الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلى عَبْدِهِ»[1].

وروى البيهقي في «الشعب» عن الأحوص، عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: رآني النبي ﷺ، فقال: «هَلْ لَكَ مِنْ مالٍ؟»

قلت: نعم.

قال: «مِنْ أَيِّ الْمالِ؟»

قلت: قد آتاني الله من الشَّاء والإبل.

قال: «فَلْتُرَ نِعْمَتُهُ وَكَرامَتُهُ عَلَيْكَ»[2].

وروى مسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّراً فَإِنَّما سَأَلَ جَمْراً؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»[3].

وروى الإمام أحمد بسند جيد، والطبراني، والبزار عن عمران ابن حصين رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَسْأَلَةُ الْغَنِيِّ شَيْنٌ فِي وَجْهِهِ يومَ القِيامَةِ».

زاد البزار: «وَمَسْأَلَةُ الْغَنِيِّ نارٌ؛ إِنْ أُعْطِيَ قَلِيلاً فَقَلِيلٌ، وَإِنْ أُعْطِيَ كَثِيراً فَكَثِيرٌ»[4].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه مسلم (١٠٤١)، وابن ماجه (١٨٣٨).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣٦)، والطبراني في «المعجم =

٢ ـ ومن التشبه المذموم من الأغنياء بالفقراء: أن ينفق الموسر على عياله نفقة المعسر أو المتوسط؛ فإن ما يوفره من ذلك لنفسه ظلم فيه غيره من المستحقين، وخالف فيه سنن الشريعة؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾[الطلاق: ٧].

ومن هذا القبيل إمساك الغني عما يطلب منه شرعاً إما على وجه الإيجاب عليه، أو الندب إليه مما لا يطلب من الفقير كمنع الزكاة، والقعود عن الحج مع الاستطاعة، وعن الجهاد مع تعيُّنه، وسائر ما يجب على الغني، وكالامتناع من الضيافة، والأفضال، وسائر النفقات المطلوبة، والصدقات المندوبة.

ولقد ذم الله تعالى أغنياء المنافقين وأقوياءهم [المتشبهين] بالفقراء والضعفاء من المؤمنين وغيرهم، وأشار إلى أنهم في ذلك يتخلقون بأخلاق النساء، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾؛ أي: أهل الغنى.

﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ عن النساء المتخلفات عن الحرب والنفقة في الجهاد.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: ٨٦ ـ ٨٧]؛ أي:

= الكبير» (١٨/ ١٦٢)، والبزار في «المسند» (٣٥٧٢). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٣٢٣): إسناد أحمد جيد.

لا يفهمون ما في الجهاد والنفقة في سبيل الله، والشجاعة من السعادة، وما في القعود رغبة من العار في الدنيا، والنار في الآخرة.

وإنما طبع على قلوبهم بسبب حبهم الدنيا، ولذلك قال عيسى بن مريم، ونبينا عليهم الصلاة والسلام: «حُبُّ الدُّنْيا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[1].

ثم بين الله تعالى ذوي الأعذار المقبولة فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[التوبة: ٩١]؛ أي: بإرادة الخير له ولمن معه، والدعاء لهم لأن ذلك ما في قدرتهم ووسعهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

وهم سبعة من الأنصار سألوا النبي ﷺ أن يحملهم بالزاد والماء فقط، أو أن يحملهم على البغال لا على الدواب، فأَسِفوا لذلك.

أو من الأشعريين سألوه ظهراً يعتقبون عليه، فبيَّن الله تعالى أن ذوي الأعذار ـ وإن حبسهم العذر عن الجهاد والخروج مع النبي ﷺ ـ فإنهم محسنون بقلوبهم وألسنتهم، وبطاعة الله تعالى في حال تخلُّفهم[2].

---

(١) تقدم تخريجه عن نبينا ﷺ وعن عيسى ﷺ.

(٢) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٤٨٦).

وروى الإمام أحمد، والبخاري عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ لما قفل من تبوك أشرف على المدينة، فقال: «لَقَدْ تَرَكْتُمْ فِي الْمَدِينَةِ رِجالاً ما سِرْتُمْ مِنْ سَيْرٍ، وَلا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ، وَما قَطَعْتُمْ مِنْ وادٍ إِلاَّ كانُوا مَعَكُمْ فِيهِ».

قالوا: يا رسول الله! كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟

قال: «حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[1].

أي: كانوا معكم بالقلوب، فأثيبوا ثواب من كان معكم حقيقة بالأجساد والقلوب.

وروى الإمام أحمد، ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجالاً ما قَطَعْتُمْ وادِياً، وَلا سَلَكْتُمْ طَرِيقاً إِلاَّ شَرَكُوكُمْ فِي الأَجرِ؛ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»[2].

وأين هؤلاء من المُخَلَّفين من أهل الثروة والقوة والصحة، فإنهم مؤاخذون بتخلفهم؛ إذ لا عذر لهم وإن اعتذروا بما ليس عذراً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٦٠)، والبخاري (٤١٦١).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤١)، ومسلم (١٩١١).

﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ٩٣ ـ ٩٤].

٣ ـ ومن التشبه المذموم من الأغنياء بالفقراء: أن يكون للرجل طَول وسعة، ولا يتزوج رغبة عن السنة، أو شحاً، أو بخلاً، لا للانقطاع عن العبادة.

روى النسائي عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنته، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانَ ذا طَوْلٍ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لا فَالصَّوْمُ لَهُ وِجاءٌ»[1].

وبالجملة فكل من وجد سعة، وتأخر عن عمل بر يمكنه التوصل إليه بسعته، وقصَّر عنه شحاً أو بخلاً، أو خوفاً من الفقر، فهو داخل في هذا الباب، غير واثق بوعود الله تعالى، مأخوذ بغرور الشيطان؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾؛ أي: يخوفكم منه حين تنفقون، فيقول لكم: لا تنفقوا، أو: لا تكثروا الإنفاق؛ فإن الزمان طويل، فتصرفون ما معكم، ولعلكم لا تكسبون غيره فتبقوا فقراء.

وأكثر ما يؤثر وعده الفقر فيمن كان معدماً ثم وجد، ولذلك ترى الأغنياء الذين غناهم حادث أشد إمساكاً وحرصاً على ما بأيديهم، وإذا صرفوا شيئاً كانوا أشد أسفاً وحرصاً على ما بأيديهم، وإذا صرفوا شيئاً

---

(١) رواه النسائي (٢٢٤٣).

كانوا أشد أسفاً عليه من غيرهم، وأكثر مناً به وذكراً له.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: ألا أخبركم بأفضل الحسرات؛ يعني: بأشدها؟ رجلٌ جمع درهماً إلى درهم، وقيراطاً إلى قيراط، ثم مات وورثه غيره، فوضعه في حقه، أو أمسكه في حقه[1].

وبالجملة فالسخاء محمود من الغني والفقير لأن عمدة السخي في حالة الثقة بالله تعالى وبموعوده؛ فإنه سبحانه يخلف نفقة المنفقين.

والبخل مذموم من الغني والفقير؛ لأن أصل إمساك البخيل خوف الفقر، وهو من وحي الشيطان ووعده.

ولقد أحسن القائل: [من البسيط]

لا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيا وَهْيَ مُقْبِلَةٌ ... فَلَيْسَ يُنْقِصُها الإِنْفاقُ وَالسَّرَفُ

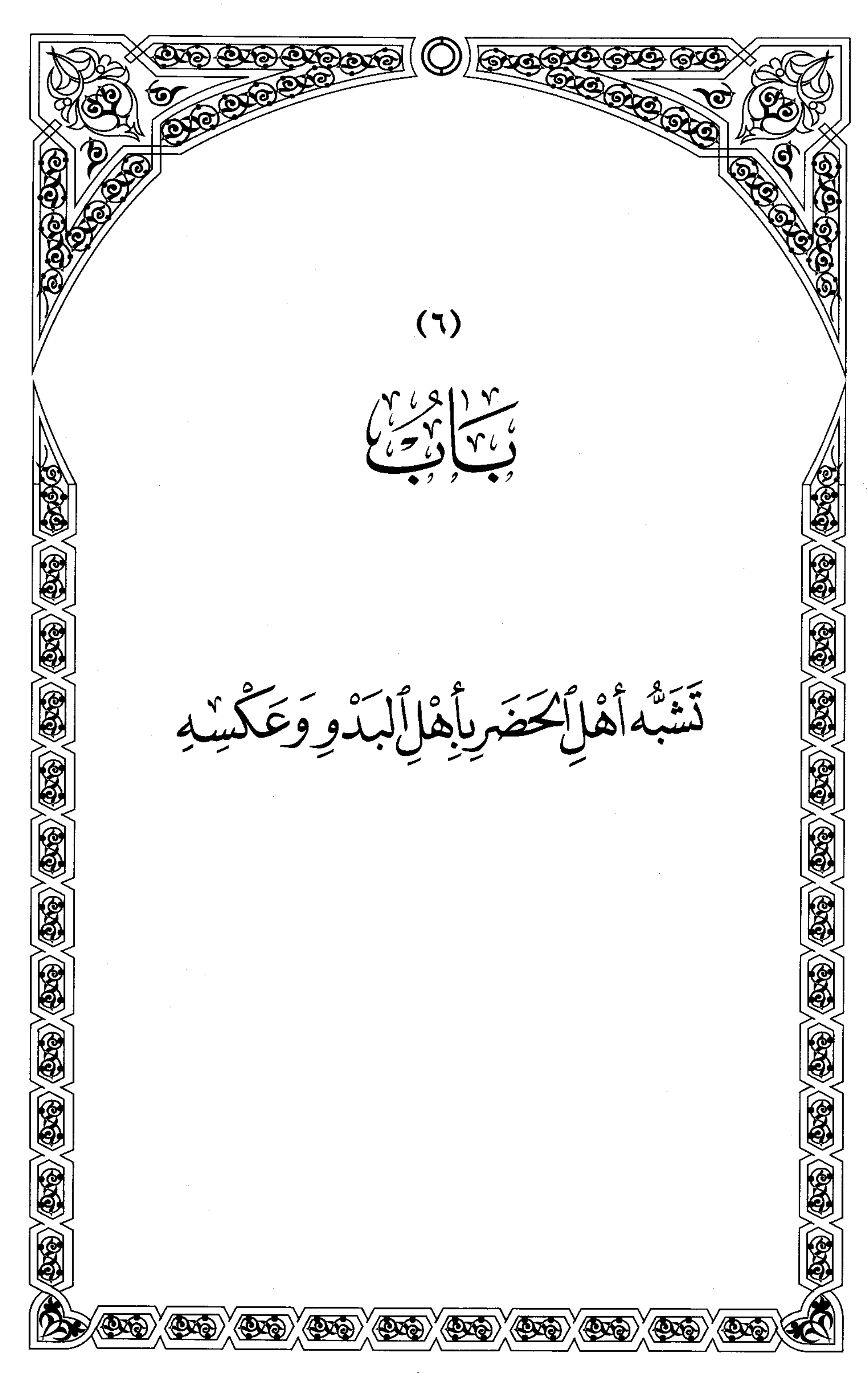
وَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أَنْ تَجُودَ بِها ... فَإِنَّ مِنْها إِذا ما أُنْفِقَتْ خَلَفُ[2]

❑ ❑ ❑

---

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٢/ ٣٨).

(٢) انظر: «روضة العقلاء» لابن حبان (ص: ٢٦٢)، وعنده: «التبذير» بدل «الإنفاق»، و«فالحمد» بدل «فإنَّ منها».

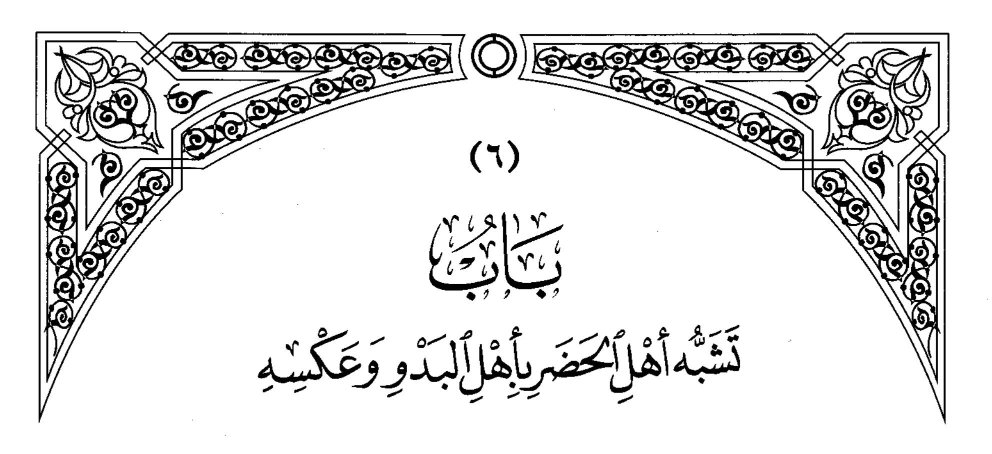


(٦)

بَابُ

تَشَبُّه أَهْلِ الحضرِ بِأَهْلِ البَدْوِ وَعَكْسِهِ





(٦)

بَابُ
تَشَبُّه أَهْلِ الحَضَرِ بِأَهْلِ البَدْوِ وَعَكْسِهِ

فالحضر، والحضرة، والحاضرة، والحضارة ـ وتفتح ـ: خلاف البادية.

والحضارة: الإقامة في الحضر؛ قاله في «القاموس»[1].

قال فيه: والبدو، والبادية، والباداة، والبداوة: خلاف الحضر.

وتبدى: أقام بها.

وتبادى: تشبه بأهلها[2].

وقال في «الصحاح»: البداوة: الإقامة [في البادية].

والبادية ـ بفتح، وبكسر ـ: وهو خلاف الحاضرة.

قال ثعلب: لا أعرف البداوة ـ بالفتح ـ إلا عن أبي زيد وحده[3].

وقال صاحب «المصباح المنير»: الحضر ـ بفتحين ـ: خلاف

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٤٨١) (مادة: حضر).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ١٦٢٩) (مادة: بدو).

(٣) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٢٧٨)، (مادة: بدا).

البدو، والنسبة إليها: حضري على لفظه.

وحضر: أقام بالحضر.

والحضارة ـ بفتح الحاء، وكسرها ـ: سكون الحضر[1].

فأما تشبه أهل الحضر بأهل البدو، فإنه في الأصل مكروه لما فيه من الجفاء.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ: «مَنْ سَكَنَ البادِيَةَ جَفا وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتى السُّلْطانَ افْتُتِنَ»[2].

وروى أبو داود، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ بَدا جَفا، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتى أَبْوابَ السُّلْطانِ افْتُتِنَ، وَما ازْدادَ أَحَدٌ مِنَ السُّلْطانِ قُرْباً إِلاَّ ازْدادَ مِنَ اللهِ بُعْداً»[3].

قال في «الصحاح» في قوله ﷺ: «مَنْ بَدا جَفا»: أي: من نزل البادية صار فيه جفاء[4].

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ١٤٠) (مادة: حضر).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٥٧)، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٦) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي (٤٣٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠٢).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٦٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠٣).

(٤) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٢٧٨)، (مادة: بدا).

وقال الله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٩٧].

الأعراب: أهل البدو من العرب.

الواحد: أعرابي، وهو الذي يكون صاحب نجعة، وارتياد للكلأ؛ كما قاله أبو زيد وغيره.

زاد الأزهري فقال: سواء كان من العرب أو من مواليهم؛ قال: فمن نزل بالبادية، وجاور البادين، وظعن بظعنهم، فهم أعراب، ومن ترك بلاد الريف، واستوطن المدن والقرى العربية، وغيرها ممن ينتمي إلى العرب، فهم عرب، وإن لم يكونوا فصحاء[1].

قال القاضي البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[التوبة: ٩٧]: لتوحشهم، وقساوتهم، وعدم مخالطتهم لأهل العلم، وعدم استماعهم للكتاب والسنة[2].

وهذه الأمور بعينها هي السبب في كراهة التبادي.

وتشبه الحضري بالبدوي انحطاط في الرتبة، ونزول إلى حضيض الجهل، وذلك سكنى البادية، ومخالطة البادين خصوصاً قبل التعلم والتفقه في الدين، ولذلك يدخل في التشبه بالأعراب من عازل أهل العلم والأدب، واشتغل عن تعلم القرآن والسنة بالبطالة والملاهي

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٢/ ٢١٨) (مادة: عرب).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٦٧).

[. . .][1] وعشرة أهل الجهل ـ وإن كان ساكناً في الحضر ـ.

وهذا غالب أحوال الناس الآن، حتى إنهم إذا سمعوا شيئاً من صغار المسائل العلمية وأقربها إلى كل متدين، عجبوا منه كما يعجب أهل البادية وأشد.

نعم، لا يكون من التشبه المذموم بأهل البدو أن يخرج العالم الفقيه إلى البدو ليعلمهم ويفقههم، لا ليجبي أموالهم وصدقاتهم، [. . . .][2] كما يفعله جهلة الصوفية وغيرهم.

فقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[التوبة: ٣٩]، وقد كان تخلف عنه؛ أي: عن النبي ﷺ، أو عن النفر معه ناس في البدو يفقهون قومهم، فقال المنافقون: قد بقي ناس في البوادي، هلك أهل البوادي، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢][3].

وفي الآية دليل على استحباب السفر لتعلم العلم ولتعليمه كيفما صح لذلك السفر من البادية إلى الحاضرة للتعلم، أو من الحاضرة إلى

---

(١) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمة.

(٢) كلمة غير واضحة في «أ» و«ت»

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٦/ ١٧٩٨).

البادية للتعليم.

ومن هنا يحسن تشبه أهل البدو بأهل الحضر في سكنى الحاضرة لأجل التعلم والتأدب، لا لأجل التنعم والترفُّه، والتطاول في البنيان كما اتفق في هذه الأزمنة لكثير من أهل البدو؛ إذ صار منهم مترفون تركوا باديتهم، ورغبوا في سكنى المدن، وتطاولوا فيها في البنيان، وذلك من أمارات الساعة التي أخبر عنها ﷺ في حديث سؤال جبريل عليه السلام المروي من حديث عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما[1].

فتشبه أهل البادية بأهل الحاضرة لأجل هذه الأمور مذموم مكروه، وقد ينتهي إلى التحريم.

ويختلف حكم تشبههم بهم بالقصد والنية كما يختلف حكم عكس ذلك، وهو تشبه أهل الحاضرة بأهل البادية بالنية؛ فإنه مكروه على الوجه الذي ذكرناه، وقد يكون محموداً [. . .][2] من يفر بدينه من الفتن بعد تمام حاله، وكمال أمره من التعلم، والتفقه، والتأدب.

وروى الإمام مالك، والبخاري، وأبو داود [. . .][3] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «يُوْشِكُ أَنْ

---

(١) رواه مسلم (٨) عن عمر رضي الله عنه، و(١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمتين أو ثلاثة.

(٣) بياض في «أ» و«ت» بمقدار ثلاث كلمات ولعلها: «والنسائي وابن ماجه».

يَكُونَ خَيْرُ مالِ الْمُسْلِمِ غَنماً يَتْبعُ بِها شَعَفَ الْجِبالِ وَمَواقِعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»[1].

وروى أبو نعيم، والبيهقي في «الزهد»[2]، وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «يَأْتِي عَلى النَّاسِ زَمانٌ لا يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلاَّ مَنْ فَرَّ مِنْ شاهِقٍ إِلَى شاهِقٍ، أَوْ مِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ كَالثَّعْلَبِ بِأَشْبالِهِ»[3].

وذلك في آخر الزمان حين لا تنال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، فإذا كان كذلك حلت الغربة، يكون في ذلك الزمان هلاك الرجل على يدي أبويه إن كان له أبوان، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له ذلك فعلى يدي الأقارب والجيران؛ يعيرونه بضيق المعيشة، ويكلفونه ما لا يطيق حتى يورد

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٧٠)، والبخاري (١٩)، وأبو داود (٤٢٦٧)، والنسائي (٥٠٣٦)، وابن ماجه (٣٩٨٠).

(٢) لم أقف عليه عند البيهقي في «الزهد الكبير» من حديث ابن مسعود، ولعل المصنف نقل العزو من العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» فأخطأ، أو أن هناك سقطاً، لأن العراقي قال: الخطابي في «العزلة» من حديث ابن مسعود نحوه، وللبيهقي في «الزهد» نحوه من حديث أبي هريرة، وكلاهما ضعيف.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١١٨)، وكذا الخطابي في «العزلة» (ص: ١٠). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٧١).

[نفسه][1] الموارد التي يهلك فيها[2].

وأقرب الناس إلى التشبه بأهل البادية أهل القرى الصغيرة الضواحي دون المدن لأنهم أقرب إلى مخالطة أهل البوادي، وهم الأنباط، والأكَّارون، والفلاحون، والفدَّادون، وهم جمع فداد؛ وهو في الأصل: الصَّيِّت الجافي، من الفديد، ومنه سمي الرعيان الجمالون، والبقارون، والحمارون، والفلاحون، وأصحاب الوبر والمدر [. . .][3] في حروثهم، ومواشيهم، والمكثرون من الإبل، ومالكوا المئتين منها إلى الألف فدادين.

وقال رسول الله ﷺ: «الْجَفاءُ، وَغِلَظُ القُلُوبِ فِي الفَدَّادِينَ أَهْلِ الوَبَرِ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنابِ الإِبِلِ وَالبَقَرِ فِي رَبِيعَةَ وَمُضَرٍ». رواه البخاري من حديث أبي مسعود البدري رضي الله تعالى عنه[4].

وأهل الوبر: أهل البادية؛ كما أن أهل المدر أهل الحاضرة.

وفي الحديث الآخر: «هَلَكَ الفَدَّادونَ». ذكره ابن الأثير في «النهاية»[5].

---

(١) بياض في «أ» و«ت».

(٢) هذا معنى حديث عند البيهقي في «الزهد الكبير» (١٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر التعليق قبل السابق (٨٥).

(٣) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمتين.

(٤) رواه البخاري (٣٣٠٧).

(٥) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤١٩).

وهو يتناول الفدادين بالمعاني المذكورة كلها.

ومعنى: هلكوا: عَرَّضوا أنفسهم للهلاك، أو: قاربوا أن يهلكوا لأنهم يشتغلون بمواشيهم عن الجمعة والجماعات، والتفرغ للتعلم والتفقه، والعبادة.

لِما قررناه من غلبة الجفاء، وغلظ القلوب على أهل البادية لم يبعث الله تعالى رسولاً من أهل البادية كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[يوسف: ١٠٩] لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم[١].

وأما قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقال مجاهد وغيره: إنهم كانوا أهل بادية يملكونها، وهم كانوا يسكنون المدر، ويخرجون إلى البادية في أوقات دون أوقات، وحين قصدوا إلى يوسف عليه السلام بمصر كان ابتداء قصدهم من البدو[٢].

ولا بأس بالخروج إلى البادية في بعض الأحيان لأجل التفكر والاعتبار، وبالخصوص عند إخراج الأشجار، ونمو الزروع في زمن

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٣/ ٨٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢٢١٠) عن قتادة.

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٥٨٩).

الربيع، وعند ذبولها في زمن الخريف.

وروى أبو داود، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يبدو التلاع.

وفي رواية: لهذه التلاع[1].

وهي جمع تلعة ـ بالفتح ـ: وهي ما انحدر من الأرض، وما أشرف منها ضد.

وقيل: التلاع: مسائل الماء من علو إلى سفل.

وروى الترمذي عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ يستحب الصلاة في الحيطان[2].

وهي جمع حائط: وهو البستان إذا كان عليه حائط، وهو الجدار.

وكفى دليلاً على استحباب الخروج إلى البوادي والبراري، والصحاري للنظر، والتأمل والاعتبار قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

ولقد كانوا يضربون في الأرض، ويسيرون في القفار، ويقطعون

---

(١) رواه أبو داود (٢٤٧٨)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٥٥٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٤) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن أبي جعفر، والحسن بن أبي جعفر قد ضعفه يحيى بن سعيد وغيره.

البلاد والأقطار لأغراض أخرى غير الاعتبار والاستبصار، فدعاهم للسير لهذه الفائدة لا للأغراض الفاسدة.

واعلم أن النظر والاعتبار لا يختص بالبوادي، بل هو مطلوب في الحواضر؛ فإن في المسير من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية تذكراً لمن عمرها وسكنها، ثم ذهب عنها وتركها كما وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[الروم: ٩].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[غافر: ٨٢].

واعلم أنه لا يهتدى إلى ما وقع الإرشاد إليه في الآيات الكريمة من الاعتبار والاستبصار إلا بالعلم، وأهل العلم في الناس قليل، وكلما تأخر الزمان كانوا أقل، فالأكثرون لا يهتدون لذلك لغلبة الجهل والهوى عليهم كما قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ

ﭐلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ ﴾[الروم: ٦ ـ ٩] الآية.

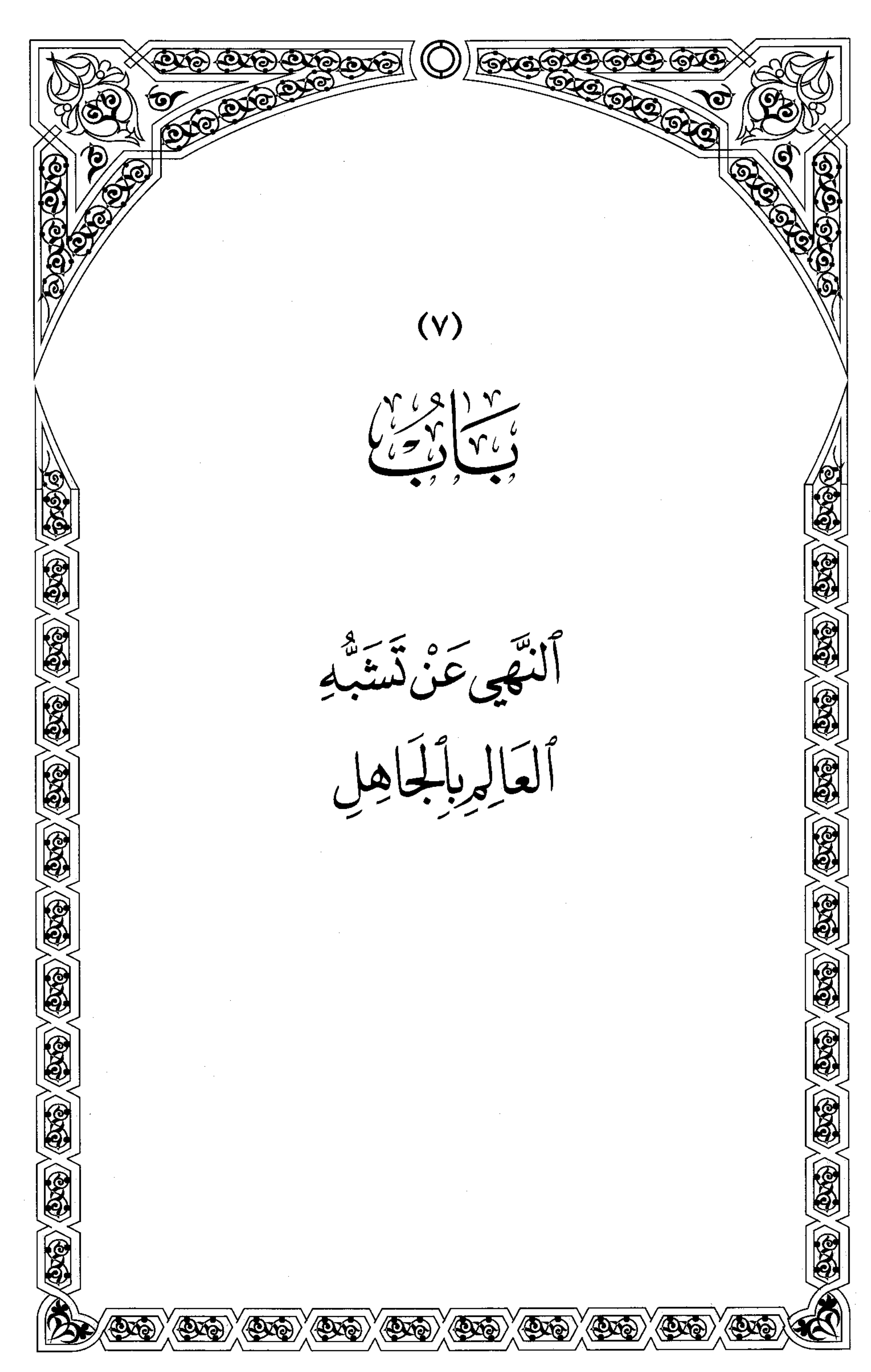
أرشدهم إلى التفكر في أنفسهم أولاً لأن أقرب شيء إلى الإنسان نفسه، فهي أولى بأن يتفكر في خلقها، ويتبصر فيها أولاً، فينظر آيات الله تعالى في نفسه؛ فإن لله تعالى في خلق الإنسان آيات عظيمات للموقنين كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

ثم دعاهم إلى المسير في الأرض، والنظر في عواقب من سكنها من قبله.

وهذه الحقائق والحكم لا تظهر للعبد إلا بالعلم، وتتجلى لكل عالم بقدر علمه، وكلما ازداد علماً ازداد بصيرة، وكلما ازداد بصيرة ازداد من الله تعالى قرباً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾[طه: ١١٤].





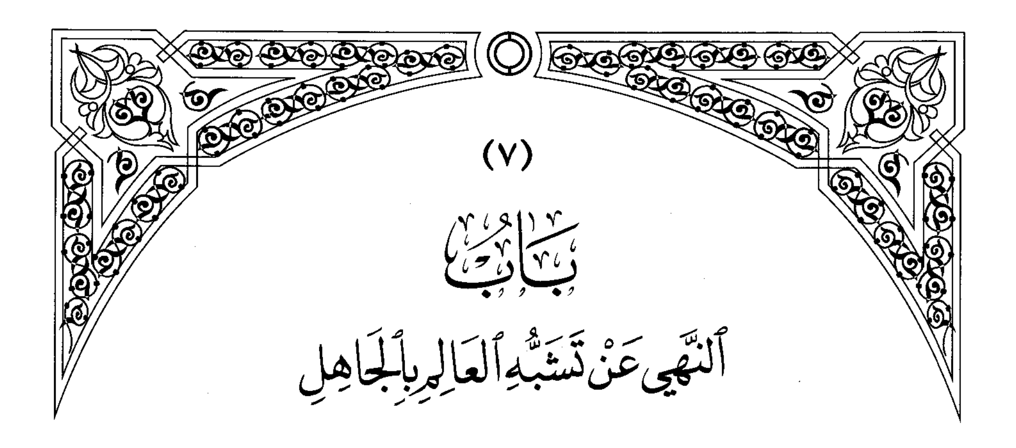


(٧)

بَابُ

النَّهيِ عَنْ تَشَبُّهِ العَالِمِ بِالجَاهِلِ





اعلم أن العلم صفة مناقضة للجهل، فلا يجتمعان ويستحيل أن يكون الشيء معلوماً مجهولاً لإنسان واحد، فالمراد نهي العالم عن التشبه بالجاهل في مقتضى الجهل، لا في نفسه إلا أن يتوارد العلم والجهل على شيء واحد من وجهين، أو يترك العالم تعهد علمه حتى ينساه فيعود إلى الجهل بعد العلم، فإذا تشبه العالم بالجاهل على وجهين؛ في مقتضى الجهل وفي نفسه، فكلاهما مذموم.

فالكلام في هذا الباب من فصلين.

* * *



الفصل الأول
في تشبه العالم بالجاهل في مقتضى الجهل

وهو أن يجري أفعاله وأقواله على خلاف ما يعلم من الحكم.

مثلاً: العلم بتحريم الغيبة يقتضي تركها، والجهل به يقتضي أن لا يتركها، فإذا اغتاب العالم الغيبة المحرمة فقد أشبه الجاهل في فعل ما علم تحريمه وجهله الجاهل، فالجاهل معذور في الجملة ـ وإن كان غير معذور في نفس الجهل ـ بخلاف العالم فإنه غير معذور مطلقاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «يُعافَى الأُمِّيُّونَ ما لا يُعافَى الْعُلَماءُ». رواه أبو نعيم عن أنس رضي الله تعالى عنه[1].

فتشبه العالم بالجاهل قبيح جداً.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية: ١٨].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٢٢) وقال: قال عبدالله ابن الإمام أحمد: قال أبي: هذا حديث منكر، وما حدثني به إلا مرة، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٨٦٨).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأنعام: ٣٥].

أي: بالحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر؛ فإن ذلك من دأب الجهلة.

وقال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[هود: ٤٦].

وقال تعالى لموسى، وهارون عليهما السلام وقد دعيا على فرعون وقومه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٨٩]؛ أي: طريق الجهلة في الاستعجال، وعدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى.

وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[البقرة: ٦٧].

وقال تعالى في حق علماء أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥]؛ أي: لا نطلب صحبتهم، ولا نرغب في أمرهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤].

إنما يتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم جاهلين لا يعلمون شيئاً مما

يؤول إليه عاقبتهم مع إمكانهم أن يتوغلوا إلى العلم النافع لهم.

قال أبو طالب المكي: وكان سهل؛ يعني: التستَري رحمه الله تعالى يقول: ما عصي الله بمعصية أعظم من الجهل.

قيل: يا أبا محمد! هل تعلم شيئاً أشد من الجهل؟

قال: نعم، الجهل بالجهل.

قال: وكان سهل يقول: قسوة القلب بالجهل أشد من قسوة القلوب بالمعاصي؛ لأن الجهل ظلمة لا ينفع البصر معه شيئاً، والعلم نور يهتدي به القاصد وإن لم يمش(١).

وقيل: [من الطويل]

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ
فَأَجْسادُهُمْ حَتَّى القُبُورِ قُبُورُ

وَإِنَّ امْرَأً لَمْ يَحْيَ بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ
وَلَيْسَ لَهُ قَبْلَ النُّشورِ نُشورُ

وقد جاء القرآن العظيم بأن الجهل قد يؤدي بصاحبه إلى ما هو أشد من قسوة القلب التي أشار إليها سهل رحمه الله تعالى، وهو الطبع على القلب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٢٥٨).

جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[الروم: ٥٨ ـ ٦٠].

وأيضاً فإن العلم ينهض بصاحبه عن منازل الذل إلى مراقي العز والشرف كما قال رسول الله ﷺ: «الْحِكْمَةُ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفاً، وَتَرْفَعُ العَبْدَ الْمَمْلُوكَ حَتَّى تُجْلِسَهُ مَجالِسَ الْمُلوكِ». رواه ابن عدي، وأبو نعيم من حديث أنس[١].

وروى ابن النجار عن أبي هريرة ﷺ: ما استرذل الله عبداً إلا حظر الله عليه العلم والأدب[٢].

وأخرجه عبدان في «الصحابة»، وأبو موسى المديني في «الذيل» عن بشير بن النهاس العبدي رضي الله تعالى عنه، ولفظه: ما استرذل الله عبداً إلا حرم العلم[٣].

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٤٣) وأعله بعمرو بن حمزة وقال: وما يرويه غير محفوظ، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٧٣). قال ابن القيسراني في «معرفة التذكرة» (ص: ١٢١): فيه صالح بن بشر المري، وهو متروك الحديث.

(٢) ورواه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٣٩) وقال: موضوع، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٧٩٥).

(٣) ورواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٢٩٦). وقال ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/ ٣١٦): إسناده ضعيف جداً.

ولبعض المتقدمين: [من الطويل]

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُخْلَقُ عالِماً ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جاهِلُ

وَإِنَّ كَبِيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إِذا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحافِلُ

وقال وهب بن منبه: يتشعب من العلم الشرفُ وإن كان صاحبه دنيئاً، والعزُّ وإن كان مهيناً، والقربُ وإن كان قصياً، والغنى وإن كان فقيراً، والنبلُ وإن كان حقيراً، والمهابةُ وإن كان وضيعاً، والسلامةُ وإن كان سقيماً.

نقله والدي في «الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد»[1].

ولقد قلت في معناه: [من الرجز]

يَظْفَرُ ذُو الْعِلْمِ بِهِ كَرامَة ... بِالْعِزِّ وَالشَّرَفِ وَالسَّلامَة

وَالنُّبْلِ وَالْهَيْبَةِ وَالْغِنَى مَعاً ... وَالْقُرْبِ وَالرِّفْعَةِ وَالْمَقامَة

وإذا تشبه العالم بالجاهل في أحواله وأعماله فقد أعرض عن هذه المقاصد، وتعرض لزوال هذه الفوائد.

وفي «تهذيب الكمال» للحافظ المزي في ترجمة صالح بن مهران الشيباني أبي سفيان الأصبهاني، وكان يقال له: الحكيم، وكان إذا تكلم يكتب حديثُه فيقال: إنه كان يتكلم في التوحيد.

قال أبو نعيم الحافظ: كان من الورع بمحل، كان يقول: كل

---

(١) ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٣٩٦).

صاحب صناعة لا يقدر أن يعمل في صناعته إلا بآلته، وآلة الإسلام العلم[1].

قلت: أراد بالإسلام ما يشمل الإيمان؛ فإنه لا يتصور إلا بالعلم.

ومن ثم [وضع][2] النبي ﷺ [المؤمن] في مقابلة الجاهل فيما رواه الطبراني في «الكبير»، وابن عبد البر في «العلم»، [والسجزي] في «الإبانة» ـ وقال: غريب ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قَلِيلُ الفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ العِبادَةِ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ فِقْهاً إذا عَبَدَ اللهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً إِذا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ، وَإِنَّما النَّاسُ رَجُلانِ: مُؤْمِنٌ وَجاهِلٌ؛ فَلا تُؤْذِ الْمُؤْمِنَ، وَلا تُجاوِرِ الْجاهِلَ»[3].

وإنما نهى عن مجاورة الجاهل لأن للمجاورة تأثيراً، فربما أدت مجاورته بالمؤمن إلى التشبه به في خصال الجهل.

وقد تقدم في أوائل الكتاب قول علي رضي الله تعالى عنه: [من الهزج]

وَلا تَصْحَبْ أَخا الْجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أَزْرَى ... حَكِيماً حِينَ ماشاهُ

---

(١) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١٣/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) بياض في «أ» و«ت» بمقدار كلمة أو كلمتين.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٦٩٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٠): فيه إسحاق بن أسيد، قال أبو حاتم: لا يشتغل به.

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، وابنه في «زوائد» عن أبي عثمان الجعد البصري قال: قال لقمان لابنه عليه السلام: لا ترغب في وُد الجاهل؛ فيرى أنك ترضى عمله، ولا تتهاون بمَقْت الحكيم؛ فيزهد فيك(١).

وليس فيما ذكرت معارضة لما رواه الدينوري في «المجالسة» عن مصعب الزبيري قال: لقي حكيم حكيماً فقال له: من أدبك؟

قال: نظرت إلى جهل الجاهل فاجتنبته(٢).

فإنه لا يلزم أن ينظر إلى جهل الجاهل إلا من جاوره، أو جالسه، أو صحبه، بل أقرب الناس إلى نظر جهله، وقبح أعماله من يأنف من صحبته، ويستنفر من مجاورته ورفقته.

وروى ابن السني عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ: «قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحِكْمَةِ لَبَيْتٌ خَرِبٌ؛ فَتَعَلَّمُوا وَعَلِّمُوا، وَتَفَقَّهُوا، وَلا تَمُوتُوا جُهَّالاً؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَعْذُرُ عَلى الْجَهْلِ»(٣).

ولا يهتم أن العلم بكل حكم شرعي يقتضي إجراء ذلك الحكم على مقتضى الشرع إباحة، أو ندباً، أو وجوباً، أو كراهةً، أو تحريماً، والجاهل بذلك الحكم يجريه كيف اتفق، فقد يصادف الحق في

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٧).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٤٥٠).

(٣) تقدم تخريجه.

إجرائه، وقد يكون على الباطل، فلا يؤجر في الأول ويأثم في الثاني، ويعاتب على الجهل على كل حال، أو يعاقب عليه.

ومقتضى الحديث: «الْقُضاةُ ثَلاثَةٌ: اثْنانِ فِي النَّارِ وَواحِدٌ فِي الْجَنَّةِ؛ رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ـ وفي رواية: وَقاضٍ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ـ وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ، فَجارَ فِي الْحُكْمِ، فَهُوَ فِي النَّارِ» [رواه][1] الأربعة، والحاكم وصححه، من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه[2]: أن الجاهل آثم وإن وافق الحق.

وسبق عن سهل التستري رحمه الله تعالى: أن الله ﷻ لم يعص بمعصية أعظم من الجهل[3]، ومن ثَمَّ ذم الله تعالى من يعبده على حرف؛ أي: جهل.

فإذا أجرى العالم ذلك الحكم على خلاف الشرع فقد خالف مقتضى العلم، ووافق مقتضى الجهل، فعقابه أشد من عقاب الجاهل؛ إذ يسوغ للجاهل أن يقول لمن قال له: لم أجريت ذلك على خلاف الشرع؟ أن يقول: لم أكن عالماً به، فإذا قيل له: لم لم تتعلم؟ انقطعت حجته؛ فإن الله لا يعذر على الجهل كما في الحديث، إلا أن

---

(١) بياض في «أ» و«ت»، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) رواه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٧٠١٢).

(٣) تقدم تخريجه.

يكون قريبَ عهدٍ بالإسلام، أو قد نشأ ببادية بعيدة عن الإسلام.

وأما العالم فلا يسعه أن يقول: لم أكن عالماً، بل إذا قيل له: أمَا كنت عالماً؟ لم يسعه إلا أن يقول: نعم، فيقال له: ضيعت العلم، فهو مسيء من ثلاثة أوجه:

الأول: فعله للمعصية.

الثاني: إضاعته للعلم.

الثالث: كفرانه لنعمة العلم.

والجاهل مسيء من الوجهين الأولين فقط أيضاً؛ فإن العالِمَ بأنَّ هذا معصية لا يرضى الله بها، ثم يفعلها أعظمُ جرأة على الله تعالى ممن جهل أنها معصية، فلعله لو عرف أنها معصية امتنع منها، فلذلك عَظُم إثم العالم في معصيته.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٩]؛ أي: لا يستويان في الشرف، ولا في المؤاخذة.

وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٠].

ثم بين سبحانه وتعالى سبب تضعيف العذاب عليهن لو أتين بما يوجبه بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[الأحزاب: ٣٢]؛ أي: في الشرف والفضل.

والشريف في نفسه إذا تنزل إلى فعل لا يليق بشرفه من سفساف

الأمور استوجب العتاب أو العقاب.

أو: لستن كأحد من النساء في العلم لأنكن أعلم النساء بالأحكام الشرعية لأنكن أقربهن إلى النبي ﷺ، وغيركن من النساء إنما يأخذن العلم عنكن، أو عن غيركن من الوسائط، أو عن النبي ﷺ، لكن لهن من الحياء ما يمنعهن من استيفاء الأحكام منه خصوصاً ما يختص بالنساء من الأحكام، وليس من النساء أقرب إلى الرجل من أهله؛ فإنهن أعلم النساء بالأحكام خفياتها وجلياتها، وبالحلال والحرام، فلذلك تتضاعف العقوبة عليكن لو عصيتن الله تعالى.

وروى الطبراني في «الصغير»، وابن عدي في «الكامل»، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ القِيامَةِ عالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ»[1].

وروى الطبراني، وأبو نعيم عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الزَّبانِيَةَ أَسْرَعُ إِلَى فَسَقَةِ القُرَّاءِ مِنْهُمْ إِلَى عَبَدَةِ الأَوْثانِ، فَيَقُولُونَ: يُبْدَأُ بِنا قَبْلَ عَبَدَةِ الأَوْثانِ؟ فَيُقالُ لَهُمْ: لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لا يَعْلَمُ»[2].

وروى الطبراني في «الكبير» بإسناد جيد، عن جندب بن عبدالله الأزدي رضي الله تعالى عنه ـ وكان من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ـ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٨٦). قال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢١٠): وهذا خبر باطل، ما قاله رسول الله ﷺ، ولا أنس رضي الله عنه.

عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّراجِ؛ يُضِيْءُ لِلنَّاسِ، وَيُحْرِقُ نَفْسَهُ»[1].

وأراد بالسراج فتيلته، أو هو على حذف مضاف؛ أي: كمثل فتيلة السراج.

وقد روى البزار، والطبراني الحديث بنحوه من حديث أبي برزة رضي الله تعالى عنه، وقال فيه: «مَثَلُ الفَتِيلَةِ؛ تُضِيْءُ لِلنَّاسِ، وَتُحْرِقُ نَفْسَها»[2].

وروى عن عمار رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى حي من قيس أعلمهم شرائع الإسلام، فإذا قوم كأنهم الإبل الوحشية، طامحة أبصارهم، ليس لهم همٌّ إلا شاة أو بعير، فانصرفت إلى رسول الله ﷺ [فقال]: «ما عملت»، فقصصت عليه قصة القوم، وأخبرته بما فيهم من السهوة، فقال: «يا عَمَّارُ! أَلا أُخْبِـرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْهُمْ؟ قَوْمٌ عَلِمُوا ما جَهِلَ أُوْلَئِكَ ثُمَّ سَهُو كَسَهْوِهِمْ»[3].

وروى ابن عساكر نحوه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أنه قال للنبي ﷺ: أتيتك من عند قوم هم وأنعامهم سواء.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٥): رواه البزار والطبراني في «الكبير» وفيه عباد بن أحمد العزرمي، قال الدارقطني: متروك.

فقال النبي ﷺ: «يا سَعْدُ! أَفلا أُخبِـرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَومٌ عَلِمُوا ما جَهِلَ هَؤُلاءِ، ثُمَّ جَهِلُوا كَجَهْلِهِمْ»[1].

وروى الطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يُوْحَى إِلَيْهِ، وَمَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَداً أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ عَظَّمَ ما صَغَّرَ اللهُ، وَصَغَّرَ ما عَظَّمَ اللهُ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِصاحِبِ القُرْآنِ أَنْ يَجِدَّ مَعَ مَنْ جَدَّ، وَلا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ يَجْهَلُ وَفِي جَوْفِهِ كَلامُ اللهِ»[2].

والمعنى: لا ينبغي له أن يجد مع من جد؛ أي: فيما عليه الناس من العادات المخالفات للقرآن.

وروى الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ حامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ ضَرَّهُ جَهْلُهُ، اقْرَأِ القُرْآنَ ما نَهاكَ، فَإِذا لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَأُهُ»[3].

وقوله: «ضَرَّهُ جَهْلُهُ»؛ أي: جهله بأن العلم الذي لا ينفع صاحبه

---

(1) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٢٠١)، وكذا الدروقي في «مسند سعد» (ص: ٢٠٨) (١٢٥).

(2) تقدم تخريجه.

(3) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٤٥)، وكذا القضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٤): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقد وثق.

وبالٌ على صاحبه، كما روى الطبراني في «الصغير»، وابن عدي، والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذاباً يَوْمَ القِيامَةِ عالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ»[1].

ولذلك استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع، كما رواه مسلم، والترمذي، والنسائي من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه[2].

وروى ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم، وابن ماجه بإسناد حسن، والأصبهاني عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»[3].

يجوز أن يراد بالعلم الذي لا ينفع العلم بأمور الدنيا، والتفقه في تحصيلها وتوفيرها، وبالجهل الذي يضر الجهل بأمور الآخرة، وهو أغلب أحوال الناس كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦ - ٧].

وقد روى الحاكم في «تاريخه» من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ عالِمٍ بِالدُّنْيا جاهِلٍ بِالآخِرَةِ»[4].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢)، والنسائي (٥٥٣٨).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١٢٢)، وابن ماجه (٣٨٤٣)، وكذا ابن حبان في «صحيحه» (٨٢).

(٤) ورواه أبو الشيخ الأصبهاني في «الأمثال» (ص: ٢٧٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٩٤).

وروى الإمام أحمد، والبزار بإسناد صحيح، من حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ كَمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنْفَقُ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللهِ»[١].

وهذا فيه إشارة إلى أن العلم النافع هو العلم الذي يدعو صاحبه إلى العمل به، وإلى تعليمه غيره.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن الحسن رحمه الله تعالى قال: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه، وفي هديه، وفي صدقه، وفي يده، وفي لسانه، وفي صلاته[٢].

وروى الأصبهاني في «ترغيبه» عن هلال بن العلاء قال: طلب العلم شديد، وحفظه أشد من طلبه، والسلامة منه أشد من العمل به[٣]، ثم أنشأ يقول: [من البسيط]

يَمُوتُ قَوْمٌ وَيُحْيِي الْعِلْمُ ذِكْرَهُمُ وَالْجَهْلُ يُلْحِقُ أَمْواتاً بِأَمْواتِ[٤]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٩)، وكذا الدارمي في «السنن» (٥٥٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٤): رواه أحمد والبزار ورجاله موثقون.

(٢) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٦)، والدارمي في «السنن» (٣٨٥).

(٣) وذكره الذهبي في «الكبائر» (ص: ١٤٨).

(٤) ذكره الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٨٠) دون أن ينسبه لأحد.

واعلم أن كل معصية ومخالفة تقع من العالم فهو متشبه فيها بالجاهل، لكنا نشير إلى أمهات الخصال المعدود مرتكبها من الجهال.

١ ـ فمنها: ترك طلب العلم، وترك الاستزادة منه، والرغبة عن ذلك.

روى الدينوري في «المجالسة» عن ابن دأب قال: جاء رجل إلى أبي ذر رضي الله تعالى عنه فقال: إني أريد أن أطلب العلم، وإنما أخاف أن أضيعه ولا أعمل به.

قال: إنك أن توسد العلم خير من أن توسد الجهل.

ثم ذهب إلى أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، فقال له مثل ذلك.

فقال له أبو الدرداء: إن الناس يُبعثون من قبورهم على ما ماتوا عليه، فيبعث العالم عالماً، والجاهل جاهلاً.

ثم جاء إلى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، فقال له مثل ذلك.

فقال له أبو هريرة: ما أنت بواجد شيئاً أضيع له من تركه[1].

٢ ـ ومنها: كتمان العلم عند الحاجة إليه.

فإن العالم إذا كتم العلم كان هو والجاهل سواء، فكما لا يستفاد

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٩٣).

من هذا علم لا يستفاد من هذا، ومن هنا قيل في منثور الحكم: من كتم علماً فكأنه جاهل[1].

وفي الحديث: «مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ العِلْمَ ثُمَّ لا يُحَدِّثُ بِهِ كَمَثَلِ الَّذِي يَكْنِزُ الكَنْزَ وَلا يُنْفِقُ مِنْهُ». رواه الطبراني في «الأوسط»[2].

ورواه الإمام أحمد، والبزار بنحوه، وتقدم[3].

٣ ـ ومنها: وضع العلم في غير أهله، ومنعه من أهله.

روى الدارمي عن أبي فروة: أن عيسى بن مريم عليهما السلام كان يقول: لا تمنع العلم من أهله فتأثم، ولا تنشره عند غير أهله فتجهل، وكن طبيباً رفيقاً يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع[4].

وروى ابن عساكر عن عمرو بن قيس الملائي قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام: إن منعت الحكمة من أهلها جهلت، وإن منحتها غير أهلها جهلت، كن كالطبيب المداوي؛ إن رأى موضعاً للدواء، وإلا أمسك[5].

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٩١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٨٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٤): فيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) رواه الدارمي في «السنن» (٣٧٩).

(٥) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤٥٨).

وروى البيهقي في «المدخل»، وغيره عن ابن عيينة قال: إن للحكمة أهلاً؛ إن منعتها أهلها كنت جاهلاً، كن كالطبيب العالم؛ يضع دواءه حيث ينفع[1].

٤ ـ ومنها: ترك العمل بالعلم.

روى أبو الشيخ عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العِلْمُ خَيْرٌ مِنَ العَمَلِ، وَمِلاكُ الدِّينِ الوَرَعُ، وَالعالِمُ مَنْ يَعْمَلُ».

وروى الخطيب في «تلخيص المتشابه» عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: قلت، أو قيل: يا رسول الله! ما ينفي عني مذمة الجهل؟

قال: «العِلْمُ».

قال: فما ينفي عني حجة العلم؟

قال: «العَمَلُ»[2].

وروى الدارمي عنه أنه قال: يا حملة العلم! اعملوا به؛ فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا

---

(١) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٥١).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٨٩)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٠٩) وأعله بعبدالله بن خراش بن حوشب، وقال: وعامة ما يرويه غير محفوظ.

يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حِلَقاً فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه؛ أولئك لا تصعد أعمالهم [في مجالسهم] تلك إلى الله[1].

وعن سفيان بن عيينة قال: أجهل الناس من ترك ما تعلم، وأعلم الناس من عمل بالعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى[2].

وروى أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطِعْ رَبَّكَ لُتَسَمَّى عاقِلاً، وَلا تَعْصِهِ فَتُسَمَّى جاهِلاً»[3].

وروى ابن جهضم عن بشر بن الحارث الحافي رحمه الله تعالى قال: لأن تكون جاهلاً خير من أن تكون عالماً ولا تعمل.

٥ ـ ومنها: التكبر بالعلم، والإعجاب به وبغيره مما يخصه، والتزين بالعمل أو بالعلم، والمباهاة بهما، واستمالة القلوب بهما لنيل المال والجاه.

وروى الحكيم الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اطْلُبُوا العِلْمَ، وَاطْلُبُوا مَعَ الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ،

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٣٨٢).

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٣٣٠).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٤٥).

وَلِيْنوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلِمَنْ تَعَلَّمْتُمْ مِنْهُ، وَلا تَكُونوا مِنْ جَبابِـرَةِ الْعُلَماءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ عِلْمَكُمْ»[1].

وروى أبو نعيم عن كعب رحمه الله تعالى قال لبعض أهل العلم: اتق الله، وارض بدون الشرف من المجلس، ولا تؤذين أحداً؛ فإنه لو ملأ علمك ما بين السماء والأرض مع العجب ما زادك الله به إلا سَفَالة ونقصاً[2].

وروى الدارمي عن مسروق رحمه الله تعالى قال: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه[3].

وروى الطبراني في «الكبير» عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «قَلِيلُ الْفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ العِبادَةِ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ فِقْهاً إِذا عَبَدَ اللهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً إِذا أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ». الحديث[4].

وروى ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُباهوا بِهِ العُلَماءَ، وَلا تُمارُوا بِهِ السُّفَهاءَ، وَلا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارَ النَّارَ».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٧٦).

(٣) رواه الدارمي في «السنن» (٣٨٣).

(٤) تقدم تخريجه.

وروى الدارمي عن حبيب بن عبيد رحمه الله تعالى قال: كان يقال: تعلموا العلم وانتفعوا به، ولا تعلموه لتجملوا به؛ فإنه يوشك إن طال بكم عمر أن يتجمل ذو العلم بعلمه كما يتجمل ذو البِـزَّة ببزته[1].

وروى عن يحيى بن خالد قال: الشريف إذا تقرى تواضع، والوضيع إذا تقرى تكبر[2].

وروى أبو نعيم عن كعب رحمه الله تعالى قال: يوشك أن تروا جهال الناس يتباهون بالعلم ويتغايرون عليه، كما تتغاير النساء على الرجال[3].

٦ ـ ومنها: إنكار فضل ذوي الفضل، وتجهيلهم في علمهم، والإعراض عما يجيئون به من الحق مع العلم بأنه حق.

قال الله تعالى في حق اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠١].

ذمهم بأنهم تجاهلوا ما جاءهم النبي ﷺ وهو الصادق المصادوق، وأنكروه عليه، وعاملوه معاملة الجاهلين بأمره.

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٣٦٩).

(٢) ورواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٧٧).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٧٦).

وفي الحديث: «إِنَّما يَعْرِفُ الفَضْلَ لِذَوِي الفَضْلِ أَهْلُ الفَضْلِ». أخرجه الخطيب عن أنس، وابن عساكر عن عائشة رضي الله تعالى عنها[1].

٧ ـ ومنها: أن لا يُنزل الناس منازلهم؛ كأن يكرم السفيه والوضيع من غير ضرورة، ويهين العالم والحكيم والشريف.

روى الطبراني في «الأوسط» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد أقبل علي رضي الله تعالى عنه، فسلم، ثم وقف ينظر موضعاً يجلس فيه، فنظر النبي ﷺ في وجوه أصحابه أنهم يوسعوا له، وكان أبو بكر رضي الله عنه عن يمينه، فقال: هاهنا يا أبا الحسن، فجلس علي رضي الله عنه بين النبي ﷺ وبين أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فعرف السرور في وجه النبي ﷺ، فقال: «يا أبا بَكْرٍ! إِنَّما يَعْرِفُ الفَضْلَ لأَهْلِ الفَضْلِ ذُو الفَضْلِ»[2].

وروى ابن عساكر عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن أبا بكر فعل ذلك بالعباس رضي الله تعالى عنهما، فقال النبي ﷺ... الحديث، وقد ذكرناه آنفاً، وهذا سببه[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ١٨٥): رواه العسكري في «الأمثال»، والخِلَعي في تاسع «فوائده».

(٣) تقدم تخريجه.

وفي الإتيان بـ (إنما) الدالة على الحصر بدليل المقام، إشارة إلى أن من لم يعرف الفضل لأهله وينزلهم في منازلهم فليس من أهل الفضل، بل هو من أهل الجهل.

والمراد بالفضل هنا العلم، أو ما يشمله.

وفي الحديث: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنازِلَهُمْ»[1].

واعلم أن في التواضع في المجلس، ومعرفة الفضل لأهله، وإنزالهم منزلتهم كما فعل أبو بكر رضي الله عنه إدخال السرور على صاحب المجلس، وعلى الجلساء، وعلى المتواضع له، والسلامة من إيقاع الوحشة بينهم، وتكدير المجلس، ووقوع أهله فيه لو نافس في المجلس من ضرب المثل به بعد ذلك، وانتشار قصته في الناس الموجودين ومن بعدهم كما يتفق الآن بين المتصدرين، وهو من غلبة جهلهم على علمهم إن سُلِّم لهم علم.

٨ ـ ومنها: المماراة والمجادلة بالعلم، والمناظرة بغير إظهار الحق.

روى الدارمي، وأبو نعيم عن مسلم بن يسار رحمه الله تعالى أنه كان يقول: إياكم والمِراء؛ فإنه ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطان زَلَّته[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٣٩٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٩٤).

ولجدي شيخ الإسلام رضي الدين رحمه الله تعالى: [من مجزوء الرجز]

يَـــا جَـــاهِلاً وَهْـــوَ لأَهْـــ ـــــلِ الْعِلْـــمِ لا يُـــسَلِّمُ

ارْجِـــعْ إِلَـــى الْحَـــقِّ وَإِنْ سُـــئِلْتَ قُـــلْ لا أَعْلَـــمُ

٩ ـ ومنها: الدعوى لغير غرض صحيح، وتزكية النفس، والرضا عنها، واحتقار الناس دونها.

روى الطبراني عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ـ قال: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ ـ قال: «مَنْ قالَ: أَنا عالِمٌ فَهُوَ جاهِلٌ»[١].

وروى ابن أبي الدنيا في «العقل» عن بعض الحكماء أنه قال: من ظن أنه عاقل والناس حمقى كَمُل جهله[٢].

وروى الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد حسن، عن عمر ابن الخطاب، وهما وأبو يعلى عن العباس قالا رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «يَظْهَرُ الإِسْلامُ حَتَّى يَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي البَحْرِ، وَحَتَّى تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟».

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٨٤٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٦): فيه ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٦٣).

ثم قال لأصحابه: «هَلْ فِي أُوْلَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «أُوْلَئِكَ مِنْكُم[1] مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»[2].

وأنشد الأستاذ أبو القاسم القشيري في «عيون الأسئلة»: [من مجزوء الرمل]

وَمِــنَ البَلْــوَى الَّتِــي لَيْـــ ـــسَ لَهــا فِــي النَّــاسِ كُنْــهُ
أَنَّ مَـــنْ يَعْـــرِفُ شَـــيْئاً يَـــدَّعِي أَكْثَـــرَ مِنْــــهُ

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري في «حِكَمِهِ»: لأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه؛ فأي علم لعبد يرضى عن نفسه، وأي جهل لعبد لا يرضى عن نفسه[3]؟

١٠ ـ ومنها: أن يكون عالماً بفن من العلم، فيُطْري ذلك الفن مع الغلو في ذم غيره وذم أهله.

كالفقيه يطعن على المحدث، والمحدث على الفقيه، أو المنطقي يطعن على المتفقه مطلقاً، أو على من يتفقه، أو يشتغل بالعلوم وبالمنطق

---

(١) في «أ» و«ت»: «منهم» بدل «منكم».

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢٤٢)، والبزار في «المسند» (٢٨٣). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٨٦): رجال البزار موثقون.

(٣) انظر: «الحكم العطائية» لابن عطاء الله (ص: ٢٨٣).

قبل إتقان المنطق، والنحوي على المشتغل بغير النحو مطلقاً أو قبل إتقان النحو، أو نحو ذلك مهما كان منشؤه الهوى ومحبة ما النفس عليه؛ فإن منشأ ذلك الجهل، وأكثر ما يحمل الإنسان على ذم علم أو فن جهله به.

وقد قيل: الناس أعداء ما جهلوا(١).

وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[الأحقاف: ١١].

وإذا كان العلم الذي يذمه من العلوم الشرعية؛ كالفقه والتفسير، والذي عني به وأطراه من غيرها؛ كالطب، والشعر، والتاريخ وإن كانت لا تخلو من شرف، كان حاله أسوأ.

وقد أخرج ابن الأخضر في «مناقب الشافعي» رحمه الله تعالى قال: العلم جهل عند أهل الجهل، كما أن الجهل جهل عند أهل العلم(٢)، ثم أنشد الشافعي فيه: [من الوافر]

وَمَنْزِلَةُ الفَقِيهِ مِنَ السَّفِيهِ ... كَمَنْزِلَةِ السَّفِيهِ مِنَ الفَقِيهِ
فَهَذا زاهِدٌ فِي عِلْمِ هَذا ... وَهَذا فِيهِ أَزْهَدُ مِنْهُ فِيهِ(٣)

وأنشد ابن الصلاح في «طبقاته» عن أقضى القضاة الماوردي: أنه أنشد لابن دريد: [من الطويل]

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٤٢) عن ذي النون.

(٢) ورواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٣٦).

(٣) تقدم تخريجه.

جَهِلْتَ وَعادَيْتَ العُلُومَ وَأَهْلَهـا كَذاكَ يُعادِي العِلْمَ مَنْ هُوَ جاهِلُه
وَمَنْ كانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَـصَدِّراً وَيَكْرَهُ لا أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقاتِلُـه[1]

أشار بالبيت الأول إلى معنى الآية: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾، وعقد في البيت الثاني قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إذا ترك العالم (لا أدري) أُصيبت مقاتله. رواه البيهقي[2].

١١ ـ ومنها: الإجابة عن كل ما يسأل عنه إلا أن يقول: لا أعلم، أو: لا أدري فيما لا يدري.

لأن في طي ذلك الدعوى بالإحاطة بكل علم، وهذا إنما هو لله تعالى.

ولقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥].

ومن ثم كان الكامل عند العلماء من لا يستحيي أن يقول: لا أدري، أو: لا أعلم.

وروى البيهقي في «المدخل» عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْراً، وَإِنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً، [وإنَّ من الشعرِ حكماً]، وَإِنَّ مِنَ القَوْلِ عِيالاً».

فقال صعصعة بن صوحان: صدق نبي الله ﷺ.

---

(١) انظر: «طبقات الفقهاء الشافعية» لابن الصلاح (٢/ ٦٤١).

(٢) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٦).

أما قوله: «إِنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً» يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلمه فيجهله ذلك.

وأما قوله: «وَإِنَّ مِنَ القَوْلِ عِيالاً» [فعرضك كلامك][1] وحديثك على من ليس من شأنه، ولا يريده[2].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن المدائني قال: قال بعض الحكماء: لا تقل فيما لا تعلم؛ فتتهم فيما تعلم[3].

وقال ابن عطاء الله في «حِكَمِهِ»: من رأيته مجيباً عن كل ما يسأل، ومعبِّراً عن كل ما شهد، وذاكراً كلَّ ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله[4].

وتقدم قول الجد رحمه الله تعالى: [من مجزوء الرجز]

يَـــا جَـــاهِلاً وَهْـــوَ لأَهْـــ ... ـــلِ الْعِلْـــمِ لا يُـــسَلِّمُ
ارْجِـــعْ إِلَـــى الْحَـــقِّ وَإِنْ ... سُـــئِلْتَ قُـــلْ لا أَعْلَـــمُ

١٢ ـ ومنها: الاشتغال بما ينكره الشرع من العلوم؛ كالسحر، والفلسفة، والتوغل في المنطق، أو فيما لا فائدة فيه كالكيمياء،

---

(١) بياض في «أ» و«ت»، والمثبت من «المدخل».

(٢) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٣٦٤)، وكذا أبو داود (٥٠١٢).

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٣٠١).

(٤) انظر: «الحكم العطائية» لابن عطاء الله (ص: ٢٨٤).

والعزائم، وكتب الأدب التي تخالف آداب الشريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٢].

وروى أبو نعيم عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى قال: من تعلم طُرف الحديث لِيُسِرَّ به قلوب الناس لم يَرَح رائحة الجنة[1].

١٣ ـ ومنها: أن يطمع العالم فيما لا يكون، أو يشاء ما لم يشأ الله، أو يريد أن يكون ما لم يقدره الله؛ وهذا غاية الجهل.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ أي سرباً ﴿فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾؛ أي: فافعل ولست مستطيعاً ذلك لأنَّا لم نشأه.

قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]؛ أي: الذين يريدون، أو يحاولون ما لم يشأ الله عز وجل.

١٤ ـ ومنها: أنْ لا يخشى العالم الله تعالى، ولا يخاف منه، والاغترار به وبإملائه، ويتجرأ عليه، ويأمَن من مكره.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨].

قال الربيع بن أنس في هذه الآية: من لم يخش الله فليس بعالم.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٢٢).

نقله الثعلبي، وغيره[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد»، وابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كفى بخشية الله تعالى علماً، وكفى بالاغترار بالله تعالى جهلاً[2].

وروى الإمام أحمد، والدارمي عن عباس العَمِّي قال: بلغني أن داود عليه السلام كان يقول في دعائه: سبحانك اللهم! أنت ربي تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على من في السماوات والأرض، فأقرب خلقك منك منزلة أشدهم لك خشية، وما علم من لم يخشك؟ أو ما حكمةُ من لم يطع أمرك[3]؟

وروى الدارمي عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: أول علم رفع من الناس الخشوع؛ يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً[4].

سمى الخشوع علماً لأنه ينشأ عن الخشية، وعن معرفة الله

---

(١) وانظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٣٧)، و«تفسير ابن عطية» (٤/ ٤٣٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٥٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٣٢).

(٣) رواه الدارمي في «السنن» (٣٣٦)، وكذا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٣٨١).

(٤) رواه الدارمي في «السنن» (٢٨٨)، وكذا الترمذي (٢٦٥٣).

تعالى، وقد تعوذ رسول الله ﷺ من قلب لا يخشع[1].

وروى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أنه قرأ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[الانفطار: ٦] قال: غرَّه واللهِ جهلُه[2].

وروي من غير طريق عمر مرفوعاً[3].

والغرور أن تعمل المعصية وتتمنى المغفرة.

وأخرجه ابن جرير، وغيره عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى.

١٥ ـ ومنها: كثرة الضحك والمزاح.

روى الدارمي عن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: من ضحك ضحكة مج من العلم مجة[4].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن عمران الكوفي قال: قال عيسى عليه السلام للحواريين: لا تأخذوا من الناس على ما تعلمون إلا مثل ما أعطيتموني، ويا مِلْح الأرض! لا تفسدوا؛ فإن كل شيء إذا فسد فلا دواء له إلا الملح، واعلموا أن فيكم خصلتين

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠/ ٣٤٠٨).

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١/ ١٨٥)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٤٣٩) إلى عبد بن حميد، عن صالح بن مسمار بلاغاً.

(٤) رواه الدارمي في «السنن» (٥٨٣).

من الجهل: الضحك من غير عجب، والصبحة من غير سهر[1].

والصبحة: النوم بعد الصبح، وقد سبق أنها من الحمق، وهو أخو الجهل، أو هو منه.

وروى ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عبد الأعلى التيمي رحمه الله تعالى قال: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾[الإسراء: ١٠٩][2].

وروى أبو نعيم عن موسى بن أعين قال: قال الأوزاعي رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد! كنا نمزح ونضحك، فأما إذ صرنا يقتدى بنا ما أرى يَسَعُنا التبسم[3].

وعن خالد بن دينار: أن أبا جعفر محمد بن علي الباقر رضي الله تعالى عنه وعن آبائه كان إذا ضحك قال: اللهم لا تمقتني[4].

نعم، لا بأس بقليل التبسم والمزح لثبوت ذلك عن النبي ﷺ

---

(١) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٩٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤٦٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٣٦٠)، والطبري في «التفسير» (١٥/ ١٨٢)، وكذا ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٤١)، والدارمي في «السنن» (٢٩١).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٤٣).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٥).

ترويحاً للنفس، واستجماماً للقلب.

قال مالك بن مِغْوَل: مزح الشعبي رحمه الله تعالى في بيته، فقيل له: يا أبا عمرو! تمزح؟

قال: قرأ داخل، وقرأ خارج، نموت من الغم![1]

١٦ ـ ومنها: أن يتجاوز إلى السخف وتضحيك الناس.

وهذا مستقبح من الجهلاء، فهو من عالم أقبح.

روى أبو نعيم عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أنه مر بالغاضري وهو يتكلم ببعض ما يضحك به الناس، فقال: يا شيخ! أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟

فما زالت تعرف في وجه الغاضري حتى لقي الله ﷻ[2].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الحذر» عن وهب بن الورد رحمه الله تعالى قال: كان عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه يتمثل كثيراً: [من الطويل]

يُرَى مُسْتَكِيناً وَهْوَ لِلَّهْوِ ماقِتٌ ... بِهِ عَنْ حَدِيثِ القَوْمِ ما هُوَ شاغِلُهْ

وَأَزْعَجَهُ عِلْمٌ عَنِ الْجَهْلِ كُلِّهِ ... وَما عالِمٌ شَيْئاً كَمَنْ هُوَ جاهِلُهْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٥١)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٨/ ٨٦).

عَبُوسٌ عَنِ الْجُهَّالِ حِينَ يَـراهُـمُ ... فَلَيْسَ لَـهُ مِـنْهُمْ خَـدِيْنٌ يُهازِلُـهْ
تَذَكَّرَ ما يَبْقَى مِنَ العَـيْشِ آجِـلاً ... فَأَشْغَلَهُ عَنْ عاجِلِ العَيْشِ آجِلُـهْ

١٧ ـ ٢٢ ـ ومنها: ست خصال رواها أبو نعيم عن محمد بن منصور الطوسي، وعن محمد بن الفضل البلخي، فقالا رضي الله تعالى عنهما: ست خصال يعرف بها الجاهل: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعظة في غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد، ولا يعرف صديقه من عدوه[1].

فالعالم أحق الناس باجتناب هذه الخصال المذمومة عقلاً وشرعاً.

٢٣ ـ ومنها: كثرة الكلام.

وفي المثل: لا يخلو مِهْذار[2] من عِثار.

وقال أبقراط: الجاهل الساكت فيلسوف الجهلة.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر رضي الله تعالى عنه: يا أحنف! من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استُخِفَّ به، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن كثُر كلامه كثر سَقَطُه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قل حياؤه قل

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢١٦) عن محمد بن منصور، و(١٠/ ٢٣٣) عن محمد بن الفضل.

(٢) لعل الصواب: «مهذار» بدل «مهدار».

رَوْعُه، ومن قل روعه مات قلبه[1].

وفي الحديث: «الصَّمْتُ حِكْمَةٌ أَيُّ حِكْمَةٍ، وَهِيَ لُبابُ العِلْمِ»[2].

وروى أبو الشيخ في «الثواب» عن محرز[3] بن زهير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّمْتُ زَيْنٌ لِلْعالِمِ وَسِتْرٌ لِلْجاهِلِ»[4].

وسبق عن إياس بن معاوية أنه عاب نفسه بكثرة الكلام.

٢٤ ـ ومنها: ما رواه البيهقي عن عروة بن الزبير رحمه الله تعالى قال: يقال: ما شر شيء؟

قال: البطالة في العالم[5].

والذي يليق بالعالم أن يكون في عدة معاده، أو مرمة معاشه.

٢٥ ـ ومنها: محبة الدنيا، وتمنيها، وتعظيمها، وإيثارها على الآخرة، والطمع، وأخذ العوض منها على شيء من العلم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ

---

(١) ورواه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (ص: ٧٧)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٣١٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢٥٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في «أ» و«ت»: «محمد» بدل «محرز».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٩١٤).

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٥ ـ ٩٦].

وعهد الله المأخوذ على العلماء هو أن يبينوا الحق للناس ولا يكتموه، وإن كتموه لغرض أو عَرَض قليل، أو بينوا خلافه لذلك فقد اشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً، وكانوا بمنزلة الجاهلين الذين تركوا ما عند الله وهو باق بما عرض لهم من عرض الدنيا وهو فان نافد.

وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

جعل الله تعالى مقالة أهل العلم في معارضة مقالة أهل الدنيا إشارة إلى جهلهم، كالجاهل يرى الدنيا عظيمة، ويرى أن من كثرت لديه قد أوتي حظاً عظيماً، فيتمنى مثله، والدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فمن يستعظمها في غاية الجهل، والمتمني لها إنما يتمنى الهموم في الدنيا، والعقوبة في الآخرة، فهو في غاية الجهل أيضاً.

وروى أبو نعيم عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لا يكون العالم عالماً حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحقر من دونه، ولا يأخذ على علمه ثمناً[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٦).

٢٦ ـ ومنها: إيثار الدنيا على الآخرة، والطمع في الدنيا، وسخط ما رزق منها، وعدم الرضا بما قسم له منها، واحتقار منزلته منها، والحسد عليها.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

ولا شك في جهل من آثر الدُّون على الخير.

روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد»، وأبو نعيم من طريقه عن شميط بن عجلان رحمه الله تعالى قال: يَعْمَدُ أحدهم فيقرأ القرآن، ويطلب العلم حتى إذا علمه أخذ الدنيا يضمها إلى صدره، وحملها فوق رأسه، فنظر إليه ثلاثة ضعفاء: امرأة ضعيفة، وأعرابي جاهل، وأعجمي، فقالوا: هذا أعلم بالله منا، لو لم ير في الدنيا خيره ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها.

قال عبدالله بن شميط: وكان أبي يقول: فمثله كمثل الذي قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[النحل: ٢٥][(١)].

وروى الدارمي عن عبيدالله بن عمر: أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لعبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه: مَنْ أرباب العلم؟

قال: الذين يعملون بما يعلمون.

قال: فما ينفي العلم من صدور الرجال؟

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٣٠).

قال: الطمع[1].

وعن هشام صاحب الدَّستوائي: أنه قرأ في كتاب بلغه أنه من كلام عيسى عليه السلام: كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته، وقد علم أن ذلك من علم الله وقدرته؟

كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله فيما قضى له، فليس يرضى شيئاً أصابه؟

كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أفضل رغبة؟

كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه، وما يضره أشهى إليه ـ أو قال: أحب إليه مما ينفعه ـ؟

كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به، ولا يطلب ليعمل به؟

وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في «الزهد» بزيادة[2].

وروى ابن أبي شيبة، والدارمي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لا يكون الرجل عالماً حتى لا يحسد من فوقه، ولا يحقر من دونه، ولا يبغي بعلمه ثمناً[3].

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٥٧٥).

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٣٦٨)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٧٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦٢٩)، والدارمي في «السنن» (٢٩٠).

وتقدم من رواية أبي نعيم نحوه[1]، وثمت نحوه عن أبي حازم[2].

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: سبعة يهلكون بسبعة: أهل البادية بالجفاء، وأهل القرى - أي: غير المدن الكبيرة - بالجهل، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، والسلاطين بالظلم، والعلماء بالحسد.

وروى البيهقي بمعناه حديثاً عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ يَومَ القِيامَةِ: الأُمَراءُ بِالْجَوْرِ، وَالْعُلَماءُ بِالْحَسَدِ، وَالعَرَبُ بِالعَصَبِيَّةِ، وَأَهْلُ الأَسْواقِ بِالْخِيانَةِ، وَالدهاقِين بِالْكِبْرِ، وَأَهْلُ الرَّساتِيقِ بِالْجَهْلِ»[3].

وروى أبو نعيم عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: الحسد إنما يكون من لؤم العنصر وتعادي الطباع، واختلاف التركيب، وفساد مزاج البنية، وضعف عقد العقل، والحاسد طويل الحسرات، عادم الراحات[4].

وقد علمت فيما تقدم أنَّ أولَ مَنْ حَسَدَ إبليسُ اللعين؛ حَسَدَ آدمَ

---

(١) تقدم قريباً.

(٢) رواه الدارمي في «السنن» (٢٩٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٤٣) وسيأتي لفظه.

(٣) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٤٩١). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٨٦٥).

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٢/ ١٦٧).

عليه السلام، فإبليس أجهل الجاهلين وأحمق الحَمِقين.

٢٧ ـ ومنها: أن يأكل العالم بدينه.

فإن العلم شرف، والأكل بالدين سَفالة عوضاً عن الشرف، فهو في غاية الجهل.

ذكر أبو طالب المكي، وغيره: أن ابن المبارك سئل: من الناس؟

فقال: العلماء.

قيل: فمن الملوك؟

قال: الزهاد.

قيل: فمن السفلة؟

قال: الذين يأكلون بدينهم[١].

وقال بعض الحكماء: طلب الدنيا بالدف والمزمار خير من طلبها بالعلم أو بالدين[٢].

وروى أبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: لو أن العلم صانوا علمهم ووضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم، ولكن بذلوه لأهل الدنيا لينالوا من دنياهم، فهانوا على أهلها؛ سمعت رسول الله ﷺ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمّاً واحِداً كَفاهُ اللهُ هَمَّ آخِرَتِهِ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٦٣)، ورواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٤).

(٢) تقدم تخريجه.

لَمْ يُبالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِها وَقَعَ»[1].

وصحح الحاكم نحو المرفوع منه من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما[2].

٢٨ ـ ومنها: إطالة الأمل.

وسببه كما قال في «الإحياء»: الجهل وحب الدنيا[3].

قلت: وهو من الجهل أيضاً.

روى الدينوري عن ابن عائشة قال: قيل لبعض الحكماء: ما كمال الحمق؟

قال: طلب منازل الأخيار بأعمال الأشرار، وبغض أهل الحق، وصحبة أهل الباطل.

قيل: فما علامة الجهل؟

قال: حب الغنى، وطول الأمل، وشدة الحرص.

قيل: فما علامة العمى؟

قال: الركون إلى من لا يؤمن غشه، والمن بالصدقة، والعبادة

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٥)، والحديث المرفوع تقدم تخريجه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٩٣٤)، وكذا ابن أبي عاصم في «الزهد» (ص: ٨١)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (ص: ٦٦).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٤٥٧).

مع البخل[1].

٢٩ ـ ومنها: اهتمام العالم بالبناء، وتعليته وزخرفته.

وهو من طول الأمل، وقد علمت أنه من الجهل، ولا يؤجر فيما صرفه فيه إلا ما لا بد منه، وليس من العلم أن يصرف ما لا ثواب فيه.

وروى الطبراني بإسناد صحيح، عن خباب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُها العَبْدُ يُؤْجَرُ فِيها إِلاَّ البُنْيانَ»[2].

وأخرجه الترمذي بنحوه، وصححه[3].

وأنشد: [من البسيط]

لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ يا مَغْرُورُ ما رَقَـأَتْ دُموعُ عَيْنِكَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرِ

ما بالُ قَوْمٍ سِهامُ الْمَوْتِ تَخْطَفُهُمْ يُفاخِرُونَ بِرَفْعِ الطِّينِ وَالْمَـدَرِ[4]

٣٠ ـ ومنها: كثرة الحركة في أمور الدنيا، وفيما لا يعنيه.

بل الأولى به السكون مع الاشتغال بالعلم مذاكرة، ومراجعة،

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٨٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٤٦) عن ابن أبي الدنيا عن عبدالله بن محمد قال: قرأت على ركنِ دارٍ مشيدة. وذكر الأبيات.

وتفكُّراً، وعملاً بموجبه.

روى أبو نعيم عن محمد بن عمران قال: قال رجل للشعبي رحمه الله تعالى: إن فلاناً عالم.

قال: ما رأيت عليه بهاء العلم.

قيل: وما بهاؤه؟

قال: السكينة؛ إذا علم لا يعنف، وإذا علم لا يأنف[1].

وعن عبيد بن عمير رحمه الله تعالى قال: إن الله تعالى يبغض القارىء إذا كان لَبَّاساً، رَكَّاباً، وَلاَّجاً، خَرَّاجاً[2].

٣١ ـ ومنها: الخبرة بأمور الدنيا، وتدقيق النظر في تحصيلها، وفي تحسينها، وتنويعها، والتأنق في مطاعمها، ومشاربها، وملابسها، ومراكبها، ومساكنها مع الغفلة عن أمور الآخرة.

وهذا حال أكثر علماء الروم الآن، ومن حذا حذوهم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[النجم: ٢٩ ـ ٣٠].

قال البيضاوي: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: أمر الدنيا، أو كونها شهية

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٣٢٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٤).

﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ : لا يتجاوزه علمهم[1].

ومن ثم قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسه حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنا مِنْ خَشْيَتِكَ ما يَحُولُ بَيْنَنا وَبَيْنَ مَعاصِيكَ، وَمِنْ طاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ ما تُهَوِّنُ عَلَيْنا مُصِيباتِ الدُّنْيا، وَمَتِّعْنا بِأَسْماعِنا وَأَبْصارِنا وَقُوَّتِنا ما أَحْيَيْتَنا، وَاجْعَلْهُ الوارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنا على مَنْ ظَلَمَنا، وَانْصُرْنا على مَنْ عادانا، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنا فِي دِينِنا، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيا أَكْبَرَ هَمِّنا، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنا وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنا مَنْ لا يَرْحَمُنا». رواه الترمذي، وحسنه[2].

٣٢ ـ ومنها: التردد إلى السلاطين والأمراء والأغنياء، وخدمتهم، والتملق لهم لأجل حصول شيء من الإرفاق.

روى ابن ماجه بإسناد رواته ثقات، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ ناساً مِنْ أُمَّتِي يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيَقْرَؤُونَ القُرْآنَ يَقُولُونَ: نَأْتِي الأُمَراءَ فَنُصِيبُ مِنْ دُنْياهُمْ وَنَعْتَزُّ لَهُمْ بِدِينِنا، وَلا يَكُونُ ذَلِكَ؛ كَما لا يُجْتَنَى مِنَ القَتادِ إِلاَّ الشَّوْكُ، لا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِـهِم إِلاَّ الْخَطايا»[3].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٥٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٢) وحسنه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٥) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٦٧): رواته ثقات. واستدرك عليه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٨) وقال: هذا إسناد ضعيف؛ عبيدالله بن أبي بردة لا يعرف.
وقد تقدم لكن عزاه المصنف هناك إلى غير ابن ماجه.

أشار ﷺ إلى جهل من أراد أن ينتفع من قرب الملوك متجنباً لضررهم بأن من أراد ذلك حاول ما لا يكون كمن يحاول جني الثمر من القتاد، والقتاد لا يجنى منه إلا الشوك، ومحاول ما لا يكون جاهل، وأشار إلى أنهم فيما هم فيه مجتهدون، لكن الخطأ في اجتهادهم ظاهر.

ولقد أصاب محمد بن الفضل البلخي رحمه الله تعالى حيث قال: خطأ العالم إضرار على نفسه وعلى غيره من خطأ الجاهل. رواه أبو عبد الرحمن السلمي[1].

وذلك أن الجاهل يعرفه الناس بالجهل فلا يتبعونه، ويعلم من نفسه أنه غير عالم فيفعل وهو خائف أن لا يوافق فعله الصواب.

ولنا أرجوزة عظيمة في التحذر من الدخول على الملوك، نظمت فيها «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين» للسيوطي.

وروى ابن السمعاني في «أماليه»، وغيره عن علي بن عبد العزيز الجرجاني القاضي أنه أنشد لنفسه: [من الطويل]

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِباضٌ وَإِنَّمـا ... رَأَوا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَما

إِذا قِيلَ هَذا مَنْهَلٌ قُلْتَ قَـدْ أَرى ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمـا

وَما كُلُّ بَرْقٍ لاحَ لِـي يَـسْتَفِزُّنِي ... وَما كُلُّ أَهْلِ الأَرْضِ أَرْضاهُ مُنْعِما

---

(١) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٧٤) ولفظه: «خطأ العالم أضر من عمد الجاهل».

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْدِمَ مَنْ لاقَيْتُ لَكِنْ لأُخْدَما
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صانُوهُ صانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعَظَّما
وَلَكِنْ أَذَلُّوهُ فَهانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأَطْماعِ حَتَّى تَجَهَّما
أَأَغْرِسُهُ عِزّاً وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذاً فَاتِّباعُ الْجَهْلِ قَدْ كانَ أَسْلَما[1]

* **تَنْبِيهٌ:**

اختلف السلف والخلف في القبول من السلاطين:

- فمنهم من كان يقبل.
- ومنهم من كان لا يقبل، وهو الورع.

ومحل الخلاف فيما لا يعلم مالكه فلا يقبله إلا من يأخذه ليرده على مالكه.

وروى ابن أبي الدنيا في «العقوبات» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قال له: يا أبا الدرداء! كنا نأخذ القليل من المال فنجد منه البركة، وإنا نأخذ اليوم الكثير من المال فلا نجد فيه ما ينفعنا ولا نجد فيه بركة؟

فقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: لأنه مال جمع من القلوب؛ يعني: من الظلم.

وبيانه: أنه من أخذ منه ماله مظلوماً في أخذه يتعلق قلبه بماله

---

(١) تقدم تخريج الأبيات.

وتَتْبعه عينه، بخلاف ما خرج عنه مالكه بطيب نفس وانشراح صدر.

٣٣ ـ ومنها: التلبس بالمعصية في صورة الطاعة، وقصد الطاعة بالمعصية أو في المعصية، كما يفعله جهلة الصوفية إذا مر بهم صورة جميلة من المرد، فيقول قائلهم: سبحان الخلاق! يوهم الناظر إليه الطاعة وهو يتوسع في النظر، فإن اعتقد في تلك الصورة حُلولاً كان كفراً.

وكما يفعل جهلتهم، ومن يأخذ عنهم من التعبد بسجود مجرد عن الشكر والتلاوة، وخصوصاً عند مشاهدة الصورة الحسنة.

وكذا لو مر بظالم مطلوب له وهو يستخفي منه، فيسرع عند مفاجأته لئلا يراه، فيسبح مسبح، أو يهلل مهلل تنبيهاً لذلك الظالم عليه، فهذا كله قبيح، وهو من المتحلي بالعلم أقبح.

روى الدينوري في «المجالسة» عن الجرمي قال: سمعت الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى يقول: قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى: إذا أراد الله بعبد خيراً زهَّده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصَّره عيوبه.

قال: ثم التفت الفضيل إلينا، وقال: ربما قال الرجل: لا إله إلا الله، فأخشى عليه النار.

قيل: وكيف ذلك؟

قال: يغتاب بين يديه رجل فيعجبه، فيقول: لا إله إلا الله،

وليس هذا موضعها، إنما هذا موضع أن ينصح له في نفسه، ويقول له: اتق الله[1].

وروى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد في «الزهد» عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى: كان لقمان يقول لابنه عليهما السلام: يا بني! اتق الله، ولا تر الناس أنك تخشى الناس ليكرموك بذلك وقلبك فاجر[2].

قلت: وما أقرب هذ الحال والخلق من علماء السوء.

والعالم الصالح مَنْ سريرته مثل علانيته جميلة، أو أحسن من علانيته.

٣٤ ـ ومنها ـ وهو من أغلاط كثير ممن يدعي العلم والزهد ـ: تضييع العيال اشتغالاً بالعلم، أو بالعبادة من التطوعات.

وفي الحديث: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[3].

وروى ابن جهضم عن يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: ثمرة البكاء ضحك في الجنان، ومجالس الذكر معادن الثواب، ومجالسة الفقراء علامة الإرادة، وإظهار التوكل بغير صدق عناء،

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١١٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٩٣)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٤٩).

(٣) رواه أبو داود (١٦٩٢) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

وطلب الزهد فراراً من العمل بطالة، ولبس الصوف من قبل إماتة شهوة النفس جهالة، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل، والكسب مع وجود الاستغناء عنه كلفة، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق، والتعبد على تضييع العيال جهل[1].

٣٥ ـ ومنها: الاشتغال بحديث الدنيا، ووقائع الوقت، وتُرَّهات الزمان، وما لا يعنيه.

لأن ذلك تضييع لأيام العمر بلا فائدة، والعلم لا يقتضي ذلك، بل يقتضيه الجهل، وأكثر المتوسمين بالعلم الآن هذه مجالسهم، وهذه أوقاتهم مصروفة فيما لا يجديهم؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال مالك بن أبي فروة: كنا نجالس عبدالله بن أبي الهذيل، فإن جاء إنسان فألقى حديثاً من حديث الناس قال: يا عبدالله! ليس لهذا جلسنا[2].

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ قيلَ وَقالَ»[3].

ولا ينبغي لمن علم ما كره الله تعالى والنبي ﷺ لنا أن نرتكبه، فنساوي الجاهلين.

وأنشد العسكري في «المواعظ والزواجر»: [من الخفيف]

---

(١) وانظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (ص: ١١٨).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٣٦٤).

(٣) رواه البخاري (٢٢٧٧)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

يَأْمَلُ الْمَرْءُ أَبْعَدَ الآمالِ وَهْوَ رَهْنٌ بِأَقْرَبِ الآجالِ

أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتَ يا عارِفاً بِاللَّـ ـهِ لِلْمُمْتَرِينَ وَالْجُهَّالِ

نَحْنُ نَلْهُو وَنَحْنُ يُحْصَى عَلَيْنا حَرَكاتُ الإِدْبارِ وَالإِقْبالِ[1]

٣٦ ـ ومنها: أن يكره الذم، ويحب الحمد لغير فضيلة.

واللائق بالعالم أن يستوي عنده حامِدُه وذامُّه.

روى الدارمي عن عميرة رحمه الله تعالى قال: إن رجلاً قال لابنه: اذهب اطلب العلم، فخرج، فغاب عنه ما غاب، ثم جاء فحدثه بأحاديث، فقال له أبوه: يا بني! اذهب فاطلب العلم، فغاب عنه أيضاً زماناً، ثم جاء بقراطيس فيها كتب، فقرأها عليه، فقال: هذا سواد في بياض، فاذهب فاطلب العلم، فخرج فغاب عنه ما غاب، ثم جاءه فقال لأبيه: سلني عما بدا لك.

فقال له أبوه: أرأيت لو أنك مررت برجل يمدحك، ومررت برجل يغيبك؟

قال: إذاً لَمْ أَلُمِ الذي يذمُّني، ولم أحمد الذي يمدحني.

قال: أرأيت لو مررت بصحيفة من ذهب ـ أو قال: من ورق ـ؟

قال: إذا لم أهيجها، ولم أقربها.

---

(١) وذكر الأبيات ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص: ٨٠) عن الحسين بن عبد الرحمن.

قال: اذهب فقد علمت[١].

٣٧ ـ ومنها: العجلة، والطيش، والتهور لاسيما إذا نُمَّ إليه.

ومن شأن العالم التأني، والحلم، والاحتمال.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَأَنَّى أَصابَ أَوْ كادَ، وَمَنْ عَجِلَ أَخْطَأَ أَوْ كادَ». رواه الطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه[٢].

وقال ﷺ: «الأَناةُ مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ». رواه الترمذي عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما[٣].

فإنَّ عجلة[٤] العالِمِ تُؤثر مزلةَ الخطأ وما هو من الشيطان، على مطية الصواب وما هو مِنَ الله تعالى.

---

(١) رواه الدرامي في «السنن» (٣٨٨).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣١٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩): فيه بكر بن سهل، وهو مقارب الحال، وضعفه النسائي، وابن لهيعة فيه ضعف.

(٣) رواه الترمذي (٢٠١٢) وقال: حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في عبد المهيمن بن عباس بن سهل، وضعفه من قبل حفظه.

(٤) في «أ» و«ت»: «علم» بدل «عجلة»، ولعل الصواب ما أثبت.

وروى أبو نعيم عن طاوس رحمه الله تعالى: ما حمل العلم في أفضل من جراب الحلم[1].

٣٨ ـ ومنها معاشرة الجهلاء منهم، ورعاية مودتهم، وصحبتهم تقرباً لخواطرهم لا لتعليمهم، والأخذ على أيديهم.

روى أبو نعيم عن عبدالله بن طاوس رحمهما الله تعالى قال: قال لي أبي: يا بني! صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أن لكل شيء غاية، وغاية المرء حسن عقله[2].

ومن المعلوم أن أحسن الناس عقولاً العلماء.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي عثمان شيخ من أهل البصرة: أن لقمان عليه السلام قال لابنه: يا بني! لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله، ولا تتهاون بمقت الحكيم فيزهد فيك[3].

وروى الأصبهاني في «ترغيبه» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال لقمان لابنه: يا بني! جالسِ العلماء؛ فإنك إن لم

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٣).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٠٧).

تعمل بعلمهم أخذت من أخلاقهم، وإن لم تأخذ من أخلاقهم نزلت النقمة وأنت فيهم.

وكأنه جعل الأشرار هم الجهال؛ فإنه قابلهم بالعلماء.

وفي حديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: «العالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكانِ فِي الْخَيْرِ، وَسائِرُ النَّاسِ لا خَيْرَ [فيه]»[1].

٣٩ ـ ومنها: معاشرة العلماء بالجهل، والسفه، وقلة الأدب، ومعاشرة العوام بالعلم، والأدب، والاحترام.

وهو من حيث الطبيعة عكس الحكمة.

قال معاوية بن قرة رحمه الله تعالى: مكتوب في الحكمة: لا تجالس بعلمك السفهاء، ولا تجالس بسفهك العلماء. ذكره الحافظ المزي في «تهذيب الكمال»[2].

---

(١) رواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢٢١٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٧٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٢): رواه الطبراني في «الكبير» وفيه معاوية بن يحيى الصدفي، قال ابن معين: هالك ليس بشيء.
ورواه ابن ماجه (٢٢٨)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٢٨/ ٢١٥)، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٠١).

٤٠ ـ ومنها: معاداة العلماء، وبغض الأولياء ولاسيما الصحابة رضي الله عنهم.

قال علي رضي الله تعالى عنه: [من البسيط]

وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ ما كانَ يُحْسِنُه   وَالْجاهِلُونَ لأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْداءُ(١)

وروى أبو نعيم عن محمد بن علي الباقر رضي الله تعالى عنه وعن آبائه قال: من لم يعرف قدر أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فقد جهل السنة(٢).

وأي جهل أبلغ من جهل من أبغض واحداً من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعد قوله ﷺ: «اللهَ اللهَ فِي أَصْحابِي! لا تَتَّخِذُونَهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذاهُمْ فَقَدْ آذانِي، وَمَنْ آذانِي فَقَدْ آذى اللهَ، وَمَنْ آذى اللهَ يُوْشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ». رواه الترمذي عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه(٣).

وقوله ﷺ: «احْفَظُونِي فِي أَصْحابِيَ وَأَصْهارِي؛ فَمَنْ حَفِظَنِي فِيهِمْ حَفِظَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِيهِمْ تَخَلَّى اللهُ مِنْهُ، وَمَنْ تَخَلَّى اللهُ مِنْهُ أَوْشَكَ أَنْ يَأْخُذَهُ». رواه أبو القاسم البغوي، والطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة»، وابن عساكر

---

(١) انظر: «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ١٥٠).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٥).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٦٢) وقال: غريب.

عن عياض الأنصاري رضي الله تعالى عنه[1].

٤١ ـ ومنها: أن يتتبع عورات الأقران وعيوبهم، ويطعن عليهم، فيسخر بمن دونه، ويَهْزَأ بمن فوقه.

وكل ذلك من الجهل.

قال مطر الورَّاق: سألت الحسن عن مسألة، فقال فيها، فقلت: يا أبا سعيد! يخالفك فيها الفقهاء.

قال الحسن: ثكلتك أمك يا مطر! هل رأيت فقيهاً قط، وهل تدري ما الفقيه؟

الفقيه: الورع الزاهد، الذي لا يسخر ممن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم علمه الله تعالى حطاماً[2].

وروى أبو نعيم عن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: لا تكون عالماً حتى يكون فيك ثلاث خصال: لا تبغي على من فوقك، ولا تحقر من دونك، ولا تأخذ على علمك دنيا[3].

وعنه قال: إن العلماء كانوا فيمن مضى من الزمان إذا لقي

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠١٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ٢١٦٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٩/ ١٠٤). قال ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (٤/ ٧٥٩): سنده ضعيف.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٧٧).

(٣) تقدم تخريجه.

العالم من هو فوقه في العلم كان يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله ذاكره، وإذا لقي من هو دونه لم يَزْهُ عليه حتى كان هذا الزمان هلك الناس[1].

وتقدم أثر ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في هذا الباب[2].

٤٢ ـ ومنها: أن يكون اهتمامه حين يسأل خلاص السائل في الدنيا وإن ضر نفسه، وأتلف دينه، وضر السائل في دينه كأن يرتب للسائل حيلة تخلصه من حقه، أو توصله إلى باطل.

وهذا جهل عظيم.

قال ربيعة بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى: وقف عليَّ أبو خلدة رحمه الله تعالى قاضياً كان علينا فقال: يا ربيعة! إن الناس قد أطافوا بك؛ همك إذا أتاك السائل أن تخلص قلبك، ولا تخلصه. رواه أبو نعيم[3].

ورواه البيهقي، ولفظه: قال لي أبو خلدة: يا ربيعة! أراك تفتي الناس، فإذا جاءك الرجل يسألك فلا تكن همتك أن تخرجه مما وقع فيه، ولتكن همتك أن تتخلص مما يسألك عنه[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٤٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٦١)، وعنده: «تخلص نفسك».

(٤) رواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٩).

٤٣ ـ ومنها: الجـرأة على الفتوى، والمبـادرة إليها من [غير] تثبت، والتلبيس فيها، والتكلف فيها.

وكل ذلك من الجهل، وقلة العقل، وضعف الرأي.

روى الدارمي عن عبيدالله بن أبي جعفر مرسلاً، عن النبي ﷺ قال: «أَجْرَؤُكُمْ عَلى الفُتْيا أَجْرَؤُكُمْ عَلى النَّارِ»(١).

وروى الشيخان، وغيرهما عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ العُلَماءِ حَتَّى إِذا لَمْ يُبْقِ عالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»(٢).

وروى الدارمي، والنحاس في «ناسخه» عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: إنما يفتي الناس أحد ثلاثة: رجل يعلم ناسخ القرآن من منسوخه، وذلك عمر رضي الله تعالى عنه، ورجل قاض لا يجد من القضاء بداً، ورجل أحمق متكلف، فلست بالرجلين الأولين، وأكره أن أكون الثالث(٣).

وروى سعيد بن منصور، والدارمي، والبيهقي في «المدخل» عن

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (١٥٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الدارمي في «السنن» (١٧٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥١).

ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أفتى بفتيا وهو يعمي فيها كان إثمها عليه[1].

وقال الإمام مالك رضي الله تعالى عنه: العجلة في الفتوى نوع من الجهل والخرق؛ كان يقال: التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما عجل امرؤ فأصاب، واتأد آخر فأصاب، إلا كان الذي اتأد أصوب رأياً، ولا عجل امرؤ فأخطأ، واتأد آخر فأخطأ إلا كان الذي اتأد أشد خطأً. رواه الدارمي[2].

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: نُهينا عن التكلف[3].

وروى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد»، وابن سعد في «الطبقات الكبرى»، والبيهقي في «المدخل» عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى قال: لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومئة من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحد منهم يحدث حديثاً إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا يسأل عن فتوى إلا ود أن أخاه كفاه الفتيا[4].

وقال ابن حُصين: إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (١٦٠)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ١٧٩).

(٢) ورواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٧).

(٣) رواه البخاري (٦٨٦٣).

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٩)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١١٠)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٣).

عمر بن الخطاب لجمع لها أهل[1].

وقال ابن المنكدر: إن العالم بين الله وبين خلقه؛ فلينظر كيف يدخل بينهم.

وفي رواية: فليطلب لنفسه المخرج[2]. رواهما الدارمي.

وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لولا الفَرَق من الله أن يضيع العلم ما أفتيت، يكون لهم المَهْنأ وعليَّ الوزر[3].

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أحداً جَمَع الله فيه من آلة الفتيا ما جمع في ابن عيينة أسكت منه على الفتيا[4]. نقلها والدي رحمه الله تعالى في «الدر النضيد».

٤٤ ـ ومنها: أن يعين صديقه أو حميمه، أو غيرهما على باطل ولو بحيلة، ولو بجاهه، أو خطه، أو لسانه، أو يده؛ فإن هذا من الجهل والحماقة.

روى البيهقي في «سننه» عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يُعِينُ قَوْمَهُ عَلى غَيْرِ الْحَقِّ مَثَلُ بَعِيرٍ تَرَدَّى فَهُوَ يَجُرُّ بِذَنَبِـهِ»[5].

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (١٣٧)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٤).

(٢) ورواه البيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص: ٤٣٨).

(٣) رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٦).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٠).

(٥) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٣٤)، وكذا أبو داود (٥١١٧).

ما اكتفى ﷺ بتمثيله بالبعير في الجهل حتى وصفه بالتردي، ثم بجر ذنبه طلباً للنجاة، فحسب أنه بجر ذنبه ينجو.

٤٥ ـ ومنها: ترك الأفضل والمستحب، وفعل خلاف الأولى والمكروه.

روى الإمام أحمد عن دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله! أحمل لك حماراً على فرس فتنتج بغلاً؟

فقال: «إِنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»[1]؛ أي: الجاهلون.

وذلك أن في حمل الحمار على الفرس تنغيص لذة الحيوانين؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل، ولأن الرَّمكة إذا نتجت فرساً أولى من أن تنتج بغلاً لأن الفرس أشرف، والإعراض عن الأشرف إيثاراً للأدون نوعُ من الجهل.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: لا ينبغي للمؤمن أن يرضى لنفسه إلا بخير المنزلتين.

٤٦ ـ ومنها: التجاوز من المكروهات إلى ارتكاب المعاصي والموبقات، وفعل المكروه مقدمة فعل المحرم.

قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣١١)، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩٩٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٦٥): رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» إلا أنه قال: عن الشعبي أن دحية، مرسل، وهو عند أحمد عن الشعبي عن دحية، ورجال أحمد رجال الصحيح، خلا عمر بن حسيل من آل حذيفة، ووثقه ابن حبان.

﴿كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[يوسف: ٣٣]؛ أي: الذين يحملهم الجهل على فعل الفاحشة، أو: من الجاهلين بالصبا إلى ما لا يحل لهم.

وقال تعالى حكاية عن قوم لوط في خطاب قومه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[النمل: ٥٥].

وروى أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ابْنَ آدَمَ! أَطِعْ رَبَّكَ تُسَمَّى عاقِلاً، وَلا تَعْصِهِ تُسَمَّى جاهِلاً»(١).

٤٧ ـ ومنها ـ وهو من جنس ما قبله ـ: قطيعة الرحم، وأوغل منه في الجهل: عقوق الوالدين.

قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[يوسف: ٨٩].

ثم انظر كيف عاملهم بمقتضى العلم، ولم يقابلهم بمثل جهلهم بالحلم والشفقة، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[يوسف: ٩٢].

ثم تأمل جهلهم حين قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: ٨]، وعلمه حين رفع أبويه على العرش.

٤٨ ـ ومنها: الهجوم في الفتنة، وعدم النظر في العواقب.

روى أبو نعيم عن الحسن رحمه الله تعالى قال: إن الفتنة إذا

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٤٥) عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما. فيه عبد العزيز بن أبي رجاء متروك.

أقبلت عرَّفها العالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل[1].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الفِتْنَةَ تَجِيْءُ بِهِ فَتَنْسِفُ العُبَّادَ نَسْفاً وَيَنْجُو العالِمُ مِنها بِعِلْمِهِ»[2].

٤٩ ـ ومنها: الثقة بالنفس ودعاويها.

وربما حمله الجهل والطيش على الإقسام على نجاز مواعيدها، وربما حملها دعوى الوفاء على التزام ما تعمد به بالنذر ونحو ذلك، وأكثر ما ينتهي الأمر في ذلك إلى الندم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١].

نعم، ينبغي للعبد إذا وعد نفسه بفعل شيء من الطاعات، أو من المكارم أن يقول: إن شاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

وإذا أخل العالم بهذا الأدب كان أسوأ حالاً من الجاهل.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤١).

٥٠ ـ ومنها: أن يحمله حب الدنيا والعيش فيها على ترك المعروف والنهي عن المنكر.

وهذا حال العلماء الآن إلا من وفقه الله تعالى، وقليل ما هم.

روى الأصبهاني في «ترغيبه» عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ما لَمْ تَظْهَرْ فِيكُمْ سَكْرَتانِ: الْجَهْلُ، وَحُبُّ العَيْشِ، وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَسَتُحَوَّلُونَ عَنْ ذَلِكَ إِذا ظَهَرَ فِيكُمْ حُبُّ الدُّنْيا، فَلا تَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلا تَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ، وَلا تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَالقائِمُونَ يَوْمَئِذٍ بِالكِتابِ وَالسُّنَّةِ كَالسَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ»(١).

*** تَنْبِيهٌ:**

مما يجري مجرى الأمثال قول عمرو بن كلثوم التغلبي: [من الوافر]

أَلا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنا

فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجاهِلِينا(٢)

وهذا إنما يستحسن إذا كان على وجه المشاكلة والمقابلة ممن يظلم

---

(١) رواه البزار في «المسند» (٢٦٣١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧١): رواه البزار، وفيه الحسن بن بشر، وثقه أبو حاتم وغيره، وفيه ضعف.

(٢) انظر: «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي (ص: ٦٠).

فينتصر من بعد ظلمه من غير مجاوزة إلى ما يمنع شرعاً كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ١٩٤].

والقصاص في نفسه ليس بعدوان، وإنما أطلق عليه اسم الاعتداء على وجه المشاكلة كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[آل عمران: ٥٤].

وفي قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾[المائدة: ١١٦].

وإطلاق الجهل على الانتصار مجاز، وليس بجهل حقيقة.

وفي مثل ذلك ما في «المجالسة» للدينوري قال: ثنا أحمد بن علي المروزي قال: أنشدني المازني لبعضهم: [من الطويل]

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتاجاً إِلى الْحِلْمِ إِنَّني
إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الأَحايِينِ أَحْوَجُ

فَلِي فَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالْحِلْمِ مُلْجَمٌ
وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالْجَهْلِ مُسْرَجُ

فَمَنْ شاءَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مُقَوَّمٌ
وَمَنْ شاءَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مُعَوَّجُ

وَما كُنْتُ أَرْضى الْجَهْلَ خِدْناً وَلا أَخاً
وَلَكِنَّني أَرْضَى بِهِ حِينَ أُحْوَجُ

أَلا رُبَّمــا ضــاقَ الفَــضاءُ بِأَهْلِــهِ
وَأَمْكَــنَ مِــنْ بَــيْنِ الأَسِــنَّةِ مَخْــرَجُ
وَإِنْ قــالَ بَعْــضُ النَّــاسِ فِيــهِ سَــماجَةً
فَقَــدْ صَــدَقُوا وَالــذُّلُّ بِــالْحُرِّ أَسْــمَجُ[1]

وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم: [من الطويل]

إِذا أَمِــنَ الْجُهَّــالُ جَهْلَــكَ مَــرَّةً
فَعِرْضُــكَ لِلْجُهَّــالِ غُــنْمٌ مِــنَ الْغُــنْمِ
فَعَــمِّ عَلَيْــهِ الْحِلْــمَ وَالْجَهْــلَ وَالْقَــهُ
بِمَنْزِلَــةٍ بَــيْنَ العَــداوَةِ وَالــسَّلْمِ
إِذا أَنْــتَ جازَيْــتَ الْمُــسِيْءَ كَمــا جَــرَى
فَأَنْــتَ سَــفِيهٌ مِثْلُــهُ غَيْــرُ ذِي حِلْــمِ
فَــلا تُفْــضِيَنَّ[2] عِــرْضَ الــسَّفِيهَ وَدارَهُ
بِحِلْــمٍ وَإِنْ أَعْيَــى عَلَيْــكَ فَبِالــصَّرْمِ
فَيَرْجُــوكَ تــاراتٍ وَيَخْــشاكَ مَــرَّةً
وَتَأْخُــذُ فِيمــا بَــيْنَ ذَلِــكَ بِــالْحَزْمِ

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ١٣٨).
(٢) في مصدر التخريج: «تغضبن» بدل «تفضين».

فَإِنْ لَـمْ تَجِـدْ أَمْـراً مِـنَ الْحَـزْمِ[1] فَاسْـتَعِنْ
عَلَيْـــكَ بِجُهَّـــالٍ فَـــذاكَ مِـــنَ الْعَـــزْمِ[2]

وقد تقدم نظير ذلك في الحمقى والمجانين.

* تَتِمَّةٌ:

روى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً، حكيماً، سكيتاً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون لا صخاباً، ولا صيَّاحاً، ولا حديداً[3].

وروى الدينوري أن محمد بن فضالة أنشده: [من الطويل]

يُرى مُسْتَكِيناً وَهْـوَ لِلَّهْـوِ ماقِتـاً ... بِهِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ما هُوَ شـاغِلُهْ
يَبِيتُ إِذا نـامَ الْخَلِيُّـونَ سـاهِراً ... كَثِيـراً تَـشَكِّيهِ كَثِيـراً بِلابِـلُه
تـأَوَّه ذي بَـثٍّ أُصِـيبَ حَمِيمُـهُ ... بِهِ وَلَعٌ تَحْتَ الـشَّراسِيفِ قاتِلُـه
تَذَكَّرَ ما يَبْقَى مِنَ العَـيْشِ آجِـلاً ... فَأَزْعَجَهُ مِنْ عاجِلِ العَيْشِ آجِلُه

---

(١) في مصدر التخريج: «بداً من الجهل» بدل «أمراً من الحزم».

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣١٥).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٨٤).

وَأَزْعَجَهُ عِلْمٌ نفى الْجَهْـلَ كُلَّـهُ وَما عالِمٌ أَمْراً كَمَنْ هُوَ جاهِلُـه[1]

وروى الطبراني في «الأوسط» عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قالَ أَخِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: يا رَبِّ! أَرِني الَّذِي كُنْتَ أَرَيْتَنِي فِي السَّفِينَةِ، فَأَوْحَى اللهُ تَعالَى إِلَيْهِ: يا مُوسَى! إِنَّكَ سَتَراهُ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ يَسِيراً حَتَّى رَأَى الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي طَيِّبِ رِيحٍ، وَحُسْنِ ثِيابِ البَياضِ فَقالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يا مُوسَى بْنَ عِمْرانَ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ وَرَحْمَةَ اللهِ، فَقالَ مُوسى عَلَيْهِ السَّلامُ: وَهُوَ السَّلامُ، وَمِنْهُ السَّلامُ، وَإِلَيْهِ السَّلامُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ الَّذِي لا أُحْصِي نِعَمَهُ، وَلا أَقْدِرُ عَلى شُكْرِهِ إِلاَّ بِمَعُونَتِهِ.

ثُمَّ قالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُوْصِيَنِي بِوَصِيَّةٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِها بَعْدَكَ.

قالَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلامُ: يا طالِبَ العِلْمِ! إِنَّ القائِلَ أَقَلُّ مَلالَةً مِنَ الْمُسْتَمِعِ؛ فَلا تُمِلَّ جُلَساءَكَ إِذا حَدَّثْتَهُمْ.

وَاعْلَمْ أَنَّ قَلْبَكَ وِعاءٌ؛ فَانْظُرْ ماذا تَحْشُو بِهِ وِعاءَكَ، وَاعْزُفْ عَنِ الدُّنْيا، وَانبِـذْها وَراءَكَ؛ فَإِنَّها لَيْسَتْ لَكَ بِدارٍ، وَلا لَكَ فِيها مَحَلُّ قَرارٍ، وَإِنَّها جُعِلَتْ بلِغَةً لِلعِبادِ لِيَتَزَوَّدُوا مِنْها لِلْمَعادِ.

وَيا مُوسَى! وطِّنْ نَفْسَكَ عَلى الصَّبْرِ تَلْقَى الْحُكْمَ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ بِالتَّقْوى تَنَلِ العِلْمَ، وَرَضِّ نَفْسَكَ عَلَى الصَّبْرِ تَخْلُصْ مِنَ الإِثْمِ.

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم للدينوري (ص: ٤٤٣).

يا مُوسَى! تفَرَّغْ لِلْعِلْمِ إنْ كُنْتَ تُرِيدُهُ؛ فَإِنَّ العِلْمَ لِمَنْ تَفرَّغَ لَهُ، وَلا تَكُونَنَّ مِكْثاراً بِالْمَنْطِقِ مِهْذاراً؛ إِنَّ كَثْرَةَ الْمَنْطِقِ تَشِينُ الْعُلَماءَ، وَتُبْدِي مَساوِئَ السُّخَفاءِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِذي اقْتِصادٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالسَّدادِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجِدالِ وَاحْلُمْ عَنِ السُّفَهاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلُ الْحُكَماءِ وَزَيْنُ العُلَماءِ.

إِذا شَتَمَكَ الْجاهِلُ فَاسْكُتْ سِلْماً، وَجانِبْهُ حَزْماً؛ فَإِنَّ ما بَقِيَ مِنْ جَهْلِكَ عَلَيْكَ، وَشَتْمَهُ إِيَّاكَ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ.

يا ابْنَ عِمْرانَ! لا تَفْتَحْ باباً لا تَدْرِي ما غَلَقَهُ، وَلا تُغْلِقْ باباً لا تَدْرِي ما فَتْحُهُ.

يا ابْنَ عِمْرانَ! إِنَّ مَنْ لا تَنْتَهِي مِنَ الدُّنْيا نَهْمَتُهُ، وَلا تَنْقَضِ فِيها رَغْبَتُهُ كَيْفَ يَكُونُ عابِداً؟

مَنْ يَحْقِرُ حالَهُ وَيَتَّهِمُ اللهَ فِيما قَضى لَهُ كَيْفَ يَكُونُ زاهِداً؟

هَلْ يَكُفُّ عَنِ الشَّهَواتِ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَواهُ؟ وَيَنْفَعُهُ طَلَبُ العِلْمِ وَالْجَهْلُ قَدْ حَوَّلَهُ لأَنَّ سَفَرَهُ إِلَى آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ على دُنْياهُ.

يا مُوسَى! تَعَلَّمْ ما تَعَلَّمُ لِتَعْمَلَ بِهِ، وَلا تَعَلَّمْهُ لِتُحَدِّثَ بِهِ فَيَكُونَ عَلَيْكَ بورُه، [ويكون لغيركَ نُورُهُ].

يا ابْنَ عِمْرانَ! اجْعَلِ الزُّهْدَ وَالتَّقْوى لِباسَكَ، وَالْعِلْمَ وَالذِّكْرَ كَلامَكَ، وَأَكْثِرْ مِنَ الْحَسَناتِ فَإِنَّكَ مُصِيبٌ السَّيِّئاتِ، وَزَعْزِعْ بِالْخَوْفِ

قَلْبَكَ، وَاعْمَلْ خَيْراً فَإِنَّكَ لا بُدَّ عامِلٌ سِواهُ.

قَدْ وَعَظْتُ إِنْ حَفِظْتَ.

فَتَوَلَّى الْخَضِرُ، وَبَقِيَ مُوسى حَزِيناً مَكْرُوباً؛ عَلَيْهِما الصَّلاةُ وَالسَّلامُ»[1].

وقول الخضر عليه السلام: وأعرض عن الجهال... إلى آخره، فهو موافق لقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ولا شك أن الإعراض أفضل من مقابلة الجهل بالانتقام.

وفي هذا المعنى ما رواه المعافى بن زكريا في «الجليس والأنيس» عن النضر بن شُميل: أن المأمون قال له: أنشِدْني أحسن ما قالته العرب في الحلم، فأنشده: [من الطويل]

إِذا كانَ دُونِي مَنْ بُلِيتُ بِجَهْلِهِ
أَبَيْتُ لِنَفْسِي أَنْ أُقابَلَ بِالْجَهْلِ

وَإِنْ كانَ مِثْلِي فِي مَحَلٍّ مِنَ العُلا
هَوَيْتُ إِذاً حِلْماً وَصَفْحاً عَنِ الْمِثْلِ

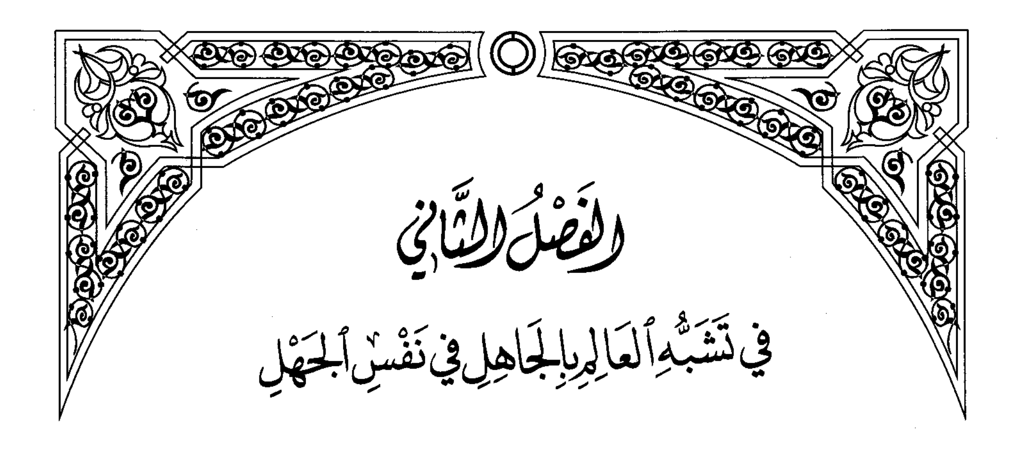
---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٠٨)، وكذا ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٢١٥) وقال: رواه زكريا بن يحيى الوقار، يضع الحديث.

وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مِنْـهُ فِـي الفَـضْلِ وَالْحِجَـى
رَأَيْــتُ لَــهُ حَــقَّ التَّقَــدُّمِ وَالفَــضْلِ[1]

* * *

(١) انظر: «الجليس الصالح والأنيس الناصح» للمعافى بن زكريا (ص: ٢٤٦).



وهو على وجهين:

الوجه الأول: أن يقعد عن طلب الزيادة في العلم، أو ينبغي للمؤمن أن لا يرضى إلا بخير المنزلتين.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤].

وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم؛ فإنه إذا ظن أنه علم فقد جهل. رواه الدينوري في «المجالسة»(١).

لكن طلب الزيادة في العلم إنما يحسُن بعد العمل بما علم والخروج من عهدته، ولذلك ورد في الدعاء: «اللَّهُمَّ انْفَعْنا بِما عَلَّمْتَنا، وَزِدْنا عِلْماً»(٢).

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٦).

(٢) رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ٣١٧) عن أنس رضي الله عنه.

وليس من مقتضى العلم أن يترك العمل به ليزداد من العلم؛ فإن العلم إنما يراد للعمل به.

وكان داود الطائي رحمه الله تعالى يقول: العلم آلة العمل، فإذا أفنيت عمرك في جمع الآلة فمتى تعمل[1]؟

وفي معناه ما قاله بعض العلماء المتقدمين لطلبة الحديث: [من المتقارب]

إِذا كُنْتُمْ تَكْتُبُونَ الْحَدِيثَ نَهاراً وَفِي لَيْلِكُمْ تَرْقُدُونَ
وَقَدْ بانَ مِنْكُمْ زَمانُ الشَّبابِ فَبِاللهِ قُولُوا مَتَى تَعْمَلُونَ

وقال عبدالله بن جعفر المكنى بأبي بكر من أصحاب الإمام أحمد: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله تعالى وسئل عن الرجل يكتب الحديث فيكثر، قال: ينبغي أن يكثر العمل به على قدر زيادته في الطلب، ثم قال: سبيل العلم مثل المال؛ إن المال إذا ازداد زادت زكاته.

قلت: وكما أن المال ينمو بالزكاة ويتضاعف بالنص، فكذلك العلم، والعلم نعمة كالمال، وشكرها المستزيد لها العمل به.

ولذلك قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ». رواه أبو نعيم عن أنس رضي الله تعالى عنه[2].

فكيف يوفق للزيادة من نعمة من لم يوفق لشكرها؟

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٤١).

(٢) تقدم تخريجه.

وروى الأصبهاني في «الترغيب» عن إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه قال: خرج رجل في طلب العلم فاستقبله حجر، فإذا فيه منقور: أنت بما تعلم لا تعمل، كيف تطلب علم ما لم تعلم[1]؟

فإذا قام العالم بحق ما علمه من العلم بالعمل به والرعاية له دون الاقتصاد على روايته فقط، أو على روايته والمجالسة به، فليطلب الازدياد من العلم، وليس من المعقول أن يطلب الإنسان ما لا يحتاج إليه من العلم، ويدع ما يحتاج إليه منه، أو من العمل به كحال أهل العصر الذين أقبلوا على المنطق، والعربية، والبلاغة، وغرائب العلوم، والمسائل، والتبحر فيها، وأعرضوا عن علوم الشريعة المؤدية إلى تزكية النفس ونجاتها في الدار الآخرة.

على أننا لم نذم ولا نذم تلك العلوم، بل نرشد إلى قدر الحاجة منها، وإنما نذم الإيغال فيها، والاشتغال بتكرير مسائلها في الخَلْوة والجَلْوة عن الاشتغال بالأحكام الشرعية خصوصاً ما يتعلق بالعبادات والمعاملات، وأخص منه ما يتعلق بتهذيب النفوس، وإصلاح القلوب، ولا شك أن ذلك من الجهل بما يكون أعود عليهم نفعاً في الدار الآخرة.

ومن كلام بعض السلف: إن من أوتي من العلم ما لا يحزنه لحريٌّ أو لا يكون أوتي علماً ينفعه[2].

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص: ٥٩).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٤١) عن عبد الأعلى التيمي، ولفظه: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفع»، وقد تقدم.

وقد روى [ابن السني] وأبو نعيم كلاهما في «رياضة المتعلمين»، وابن عبد البر عن عبدالله بن المِسور ـ مرسلاً ـ: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: علِّمني من غرائب العلم.

قال: «ما صَنَعْتَ فِي رَأْسِ العِلْمِ؟»

قال: وما رأس العلم؟

قال: «هَلْ عَرَفْتَ الرَّبَّ؟»

قال: نعم.

قال: «وَما صَنَعْتَ فِي حَقِّهِ؟»

قال: ما شاء الله.

قال: «هَلْ عَرَفْتَ الْمَوْتَ؟»

قال: نعم.

قال: «ما أَعْدَدْتَ لَهُ؟»

قال: ما شاء الله.

قال: «اذْهَبْ فَأَحْكِمْ ما هُنالِكَ، ثُمَّ تَعالَ نُعَلِّمْكَ غَرائِبَ الْعِلْمِ»[1].

وروى ابن عبد البر عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل والناس مجتمعون عليه، فقال: «ما هَذا؟»

قالوا: رجل علاَّمة.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٥). قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٤١): ضعيف جداً.

فقال: «ماذا؟»

قالوا: بالشعر وأنساب العرب.

فقال: «عِلْمٌ لا يَنْفَعُ وَجَهْلٌ لا يَضُرُّ».

وقال: «وَإِنَّما العِلْمُ آيةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، أَوْ فَرِيضةٌ عادِلَةٌ»[1].

فانظر كيف بيَّن النبي ﷺ أن علم الشعر والنسب ونحوهما يلحق بالمباحات، وأن العلم الذي يهتم به ويُعتنى بشأنه إنما هو علم الكتاب والسنة والأحكام الشرعية، فإذا أخذ الإنسان حظه منها فلا عليه إذا ظَفِرَ في غيرها من العلوم التي لم تكن بمثابتها.

وإنما سمَّى النبي ﷺ علم الشعر والنسب جهلاً مع تسميته إياه علماً؛ لأن الإنسان إذا اشتغل بهذا العلم في زمان فاته قدر صالح من العلم النافع في ذلك الزمان، وكل زمان يمضي فلا يعود، فاشتغاله بعلم النسب والشعر أدى إلى جهله بذلك القدر من العلم النافع.

وأيضاً فإن أوقات العمر في غاية النفاسة، وهي رأس مال العبد من الدنيا، فإذا صرفها فيما هو نافع، أو فيما هو أكثر نفعاً، فقد جهل مقدار تلك الأوقات حيث بخسها، وبذلها فيما لا يجدي.

ومن هنا يتبين لك معنى الحديث الآتي: «إِنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً»[2].

---

(١) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٣) وقال: في إسناد هذا الحديث رجلان لا يحتج بهما، وهما سليمان وبقية.

(٢) تقدم تخريجه.

قال أبو عبيد: هو أن يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلمه.

قال: وقال الأزهري: هو أن يتعلم ما لا يحتاج إليه كالكلام، والنجوم، وكتب الأوائل، ويدع ما يحتاج إليه لدينه كعلم القرآن والشريعة، انتهى[1].

نعم، مهما أخذ الإنسان بحظه من العلوم النافعة فلا بأس بترويح نفسه بشيء من علم التاريخ، والنسب، والشعر، والأدب، ونحو ذلك.

فقد روى أبو داود عن الزهري مرسلاً، والقضاعي متصلاً، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَوِّحُوا القُلُوبَ ساعَةً وَساعَةً»[2].

واستنشد رسول الله ﷺ أمية بن الصلت وغيره.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه من أعرف الناس بعلم الأنساب.

وكان شيخ الإسلام والدي رحمه الله تعالى ـ ولم يمض له وقت منذ سن التمييز إلا في علم أو خير ـ كان في آخر أمره ينظر في علوم الشرع تفسيراً، وحديثاً، وفقهاً، وأصولاً في سائر أيام الجمعة إلا يوم الجمعة، فيقسمه على وظيفتين:

---

(١) انظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ١٨٣).

(٢) تقدم تخريجه.

إحداهما: قراءة القرآن والعبادة.

والثانية: النظر في سائر العلوم عربية، وبلاغة، وتاريخاً، وغير ذلك.

وبالجملة: فكل فن من العلم صار للعالم فيه ملكة كان في أهله غنياً، فإذا تفنن في العلوم، فأي مكان جلس فيه كان فيه ملياً، بخلاف ما لو جلس في أهل فن خالياً عنه فإنه يكون كالمفلس في الواجدين، والمعدم في المتمولين.

ومن ثم قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: ضالة الجاهل غير موجودة، ومال العالم معه حيثما توجه. رواه ابن جهضم.

*** تَنْبِـيهٌ:**

روى أبو داود عن بريدة رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَ مِنَ البَيانِ سِحْراً وَإِنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْر حِكَماً»[1].

وهو محمول على ما تقدم في تسميته ﷺ علم النسب والشعر جهلاً.

وأشار بقوله في الحديث: «وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكماً» إلى أن الشعر الذي هو علم لا ينفع، وجهل لا يضر ليس كل الشعر، ولكن منه ما هو حكمة، وإن كان الغالب في المقصود منه اللهو واللغو.

---

(١) تقدم تخريجه.

أو يحمل قوله: «وَإِنَّ مِنَ العِلْمِ جَهْلاً» على العلوم التي تؤدي بصاحبها إلى دعوى علم الغيب، أو إلى فساد الاعتقاد كالسحر، والكهانة، والتنجيم، وعلم النجوم، والفلسفة، والهيئة، أو على تعلم الحيل الفقهية في التوصل إلى أكل الربا وغيره مما لا يحل.

وقد حكي لنا: أن فقيهاً عشق امرأة، وأراد أن يتزوجها وهي ذات زوج، وقد غاب زوجها وانقطع خبره، فعلَّمها أن تتكلم بكلمة كفر، أو تفعل فعلاً مكفِّراً، وتدوم عليه إلى انقضاء العدة، ففعلت، وتزوجها آخراً؛ وهل فوق هذا الجهل جهل؟

أو يحمل على علم الخلاف، والقضاء ونحوه من العلوم التي بها يتوصل إلى الولايات والمناصب لنيل ذلك، وخطر هذه الفنون عظيم بحيث أن لو كشف الغطاء لود ذووها أن لو جهلوها.

وذكر أبو طالب المكي في «القوت»: أن إسماعيل بن إسحاق القاضي كان من سادات القضاة وعقلائهم، وكان مؤاخياً لأبي الحسن ابن أبي الورد، وكان هذا من علماء الباطن[1]، فلما ولي إسماعيل بن إسحاق هجره ابن أبي الورد، ثم اضطر إلى أن دخل عليه، فضرب ابن أبي الورد على كتف إسماعيل القاضي، وقال: يا إسماعيل! علمٌ أجلسك هذا المجلس لقد كان الجهل خيراً منه، فوضع إسماعيل رداءه على وجهه، وجعل يبكي حتى بَلَّه[2].

---

(١) في «قوت القلوب»: «وكان هذا من أهل المعرفة» بدل «وكان هذا من علماء الباطن».

(٢) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٧٠).

الوجه الثاني من وجهي تشبه العالم بالجاهل في نفس الجهل: أن يترك الإنسان تعاهد معلوماته بالتدريس والمطالعة، ومراجعة لكتب العلم، ومذاكرة أهل العلم حتى ينساها، ويؤول أمره إلى نسيانها والجهل بها.

قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[الأعلى: ٦].

وروى أبو داود، والترمذي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجورُ أُمَّتِي حَتَّى القَذاةُ يُخْرِجُها الرَّجُلُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ ذُنُوبُ أُمَّتِي، فَلَمْ أَرَ ذَنْباً أَعْظَمَ مِنْ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ، أَوْ آيَةٍ أُوتِيَها الرَّجُلُ ثُمَّ نَسِيَها»(١).

وبهذا الحديث استدل العلماء على تحريم نسيان القرآن بعد تعلمه، وعَدُّوه من الكبائر، والتكليف بالنسيان مرفوع عن هذه الأمة، فحمل ذلك على تهاون الحافظ لما يعرفه من القرآن في محفوظه، وعدم تعاهده بالدراسة، وتعرضه بذلك للنسيان.

وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: آفة العلم النسيان(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٤٦١)، والترمذي (٢٩١٦) وقال: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولم يعرفه البخاري واستغربه، وقال عبدالله: أنكر علي بن المديني أن يكون المطلب سمع من أنس رضي الله عنه. ا. هـ مختصراً.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٤٠).

وأخرجه الدارمي، ولفظه: إن لكل شيءٍ آفةً، وآفة العلم النسيان[1].

ورويا عن الأعمش ـ معضلاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «آفَةُ العِلْمِ النِّسْيانُ وَتَرْكُ الْمُذاكَرَةِ»[2].

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله تعالى: تذاكروا الحديث؛ فإن إحياء الحديث مذاكرته[3].

وقال علقمة رحمه الله تعالى: تذاكروا الحديث؛ فإن ذكره حياته[4].

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: تذاكروا؛ فإن الحديث يهيج الحديث[5].

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تذاكروا هذا الحديث لا يتفلت منكم[6].

وقال: إذا سمعتم منا حديثاً فتذاكروه بينكم[7].

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٦٢٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦١٣٩)، والدارمي في «السنن» (٦٢٤) لكن بلفظ: «وإضاعته أن تحدث به غير أهله»، أما اللفظ الذي ذكره المؤلف فقد رواه الدارمي في «السنن» (٦٢١) من كلام الزهري.

(٣) رواه الدارمي في «السنن» (٦٠٢).

(٤) رواه الدارمي في «السنن» (٦٠٣).

(٥) رواه الدارمي في «السنن» (٥٩٥).

(٦) رواه الدارمي في «السنن» (٦٠٠).

(٧) رواه الدارمي في «السنن» (٦٠٧).

وكان الحارث بن يزيد العكلي، وابن شُبْرُمة، والقعقاع بن يزيد ومغيرة رحمهم الله تعالى إذا صلوا العشاء الآخرة جلسوا في الفقه، فلم يفرق بينهم إلا أذانُ الصبح[1].

روى هذه الآثار الدارمي، وغيره.

وقال الحافظ أبو الحجاج المزي: [من المحدَث]

مَـــنْ حــازَ الْعِلْـــمَ وَذاكَــرَه صَـــلُحَتْ دُنيـــاهُ وَآخِرَتُــــهْ

فَـــأَدِمْ لِلْعِلْـــمِ مُـــذاكَرَةً فَحَيـــاةُ الْعِلْـــمَ مُذاكَرَتُــــهْ[2]

وروى ابن السني في «رياضة المتعلمين» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحِكْمَةِ كَبَيْتٍ خَرِبٍ، فَتَعَلَّمُوا وَعَلِّمُوا، وَتَفَقَّهُوا، وَلا تَمُوتوا جُهَّالاً؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَعْذُرُ عَلى الْجَهْلِ»[3].

وفي «تهذيب الكمال»: قيل لسفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: من أحق الناس بالعلم؟

قال: العلماء؛ لأن الجهل بهم أقبح[4].

---

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٦١١).

(٢) انظر: «فتح المغيث» للسخاوي (٢/ ٣٨٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (١١/ ١٩٢)، وعنده: «من أحوج» بدل «من أحق».

* **فَوائِدُ:**

الأُولَى: روى الطبراني في «الكبير» ـ ورواته موثقون ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إني لأحسب الرجل ينسى العلم كما تعلمه للخطيئة يعملها(١).

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن الضحاك رحمه الله تعالى قال: ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب يحدثه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[الشورى: ٣٠]، ونسيان القرآن أعظم المصائب(٢).

ونقل والدي رحمه الله تعالى في «الدر النضيد» عن علي بن خشرم قال: شكوت إلى وكيع رحمه الله تعالى قلة الحفظ.

قال: استعن على الحفظ بقلة الذنوب(٣).

وأنشدوا في معناه: [من الوافر]

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعاصِي

وَقالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ وَفَضْلُ اللهِ لا يُؤْتَى لِعاصِي

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٨٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٩): رجاله موثقون، إلا أن القاسم لم يسمع من جده.

(٢) ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩٩٩٦).

(٣) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٣٤).

وفي مقابلة ذلك أن الطاعة تزيد في الحفظ والعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وتقدم الحديث: «مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ وَفَّقَهُ اللهُ لِعِلْمِ ما لَمْ يَعْلَمْ»[1].

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: روى الطبراني في «الأوسط» عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْبَغِي لِلْعالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلى عِلْمِهِ مَعَ عِلْمِهِ، وَلا يَنْبَغِي لِلْجاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلى جَهْلِهِ؛ قالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٤٣]»[2].

قوله: «لا يَنْبَغِي لِلْعالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلى عِلْمِهِ»؛ أي: مع علمه؛ يعني: إذا رأى ما يخالف العلم لا يسكت مع علمه بالحكم الشرعي عن الإنكار على من يخالفه.

وقوله: «ولا يَنْبَغِي لِلجاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلى جَهْلِهِ»؛ أي: لا ينبغي له أن يصبر على الجهل، ويرضى به لنفسه، بل يطلب العلم.

وليس معناه أن يتكلم مع الجهل، بل اللائق به أن يسكت عما يجهله وإن سئل عنه، وليس له التشبه بالعلماء حينئذ.

ولقد قال بعض الحكماء: الصمت زينة للعاقل، وستر للجاهل[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٣٦٥). وضعف العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١٧).

(٣) تقدم تخريجه.

وقال أبقراط: الجاهل الساكت فيلسوف الجهلة.

وروى ابن أبي الدنيا في «الصمت» بإسناد حسن، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَفَّ لِسانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ مَلَكَ غَضَبَهُ وَقاهُ اللهُ عَذابَهُ، وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ»[1].

ولا شك أن الجهل عيبٌ وعورةٌ.

وروى هو والطبراني، والبيهقي في «الشعب» بإسناد حسن، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه كان على الصفا يلبي، ويقول: يا لسان! قل خيراً تغنم، وأنصت تسلم من قبل أن تندم.

قيل له: يا أبا عبد الرحمن! هذا شيء تقوله، أو شيء سمعته؟

قال: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَكْثَرَ خَطايا ابْنِ آدَمَ فِي لِسانِه»[2].

والعالم إذا تكلم بعلمه في محله غنم ثواب العلم والنصيحة، وإن سكت عن العلم في غير محله سلم من ضرر الكلام، والجاهل إذا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٥٥). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٦٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٤٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٣). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٦٨).

سكت عن جهله سلم من ضرر الجهل وخجلته، فإن تكلم بالجهل ظهر عذابه في الدنيا، فيخجل فيندم لخجله، وإذا رأى عقوبة ما تكلم به في الآخرة ندم أيضاً.

الفائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تقدم التحذير من صحبة الجهلاء وما فيها.

وذكر أبو طالب المكي في «القوت»: أن بعض الصالحين قال لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق؟

وقال مرة: قلت له: دُلَّني على عمل أجد فيه قلبي مع الله في كل وقت على الدوام.

فقال: لا تنظر إلى الخلق ـ يعني: عامتهم ـ؛ فإن النظر إليهم ظلمة.

قلت: لا بد لي من ذلك.

قال: فلا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة.

قلت: لا بد لي من ذلك.

قال: فلا تعاملهم؛ فإن معاملتهم وحشة.

قلت: إني بين أظهرهم، لا بد لي من معاملتهم.

قال: فلا تسكن إليهم.

قلت: هذا لعله.

فقال لي: يا هذا! تنظر إلى الغافلين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين، وتريد أن تجد قلبك مع الله على الدوام؟ هذا ما لا يكون[1].

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ١٧٧).

الفَائِدَةُ الرَّابِـعَةُ: روى الحاكم في «المستدرك» عن أنس رضي الله تعالــى عنه، والديلمي عن أبي هـريـرة رضي الله تعالى عنه قالا: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذا العِلْمَ دِينٌ؛ فَانْظُروا عَنْ مَنْ تَأْخُذُونَ دِيْنَكُمْ»[1].

فيتعين لمن طلب العلم أن يكون طلبه ممن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، وعرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكملت مروءته، وحسن تعليمه، وجاد تفهيمه، ولا يرغب فيمن زاد علمه مع نقص دينه أو ورعه، أو سوء في خلقه؛ فإن الشيخ من يدلُّك على الله بحاله قبل مقاله، ولقد كان هذا عزيزاً في الزمان الأول، فكيف بنا الآن والدهر تقهقر والحال تحول؟

وقد روى ابن جهضم عن حسن القزويني رحمه الله تعالى قال: أربعة أشياء عزيزة في الخلق: عالم مستعمل لعلمه، وحكيم ينطق عن فعله، وواعظ ليس له طمع، ومتعبد ليست له إعلالة[2].

---

(١) ورواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ١٤٨) عن أنس ﷺ. قال ابن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٢/ ٩٨٢): فيه خليد بن دعلج ضعيف جداً.

ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤١٩٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه الخطيب البغدادي في «الجـامع لأخـلاق الراوي وآداب الـسامع» (١/ ١٢٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه مسلم في «مقدمة الصحيح» (١/ ١٤) عن ابن سيرين موقوفاً عليه.

(٢) ورواه الرافعي في «تاريخ قزوين» (٣/ ٤٣٥).

الفائِدَةُ الْخامِسَةُ: روى الدينوري في «المجالسة» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: إن الناس يبعثون من قبورهم على ما ماتوا عليه، فيبعث العالم عالماً، والجاهل جاهلاً[1].

وهو بمعناه في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، ولفظه: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ على ما ماتَ عَلَيْهِ»[2].

ومقتضاه: أن العبد يبعث على آخر حالاته من علم أو جهل، ومن طاعة أو معصية، ومن ذكر أو غفلة، فينبغي للعالم أن لا يترك تذكرة العلم وتذكره لعله يختم له به؛ فإنما الأعمال بالخواتيم.

وفي الحديث: «لا تُعْجَبُوا بِعَمَلِ عامِلٍ حَتَّى تَنْظُروا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ». أخرجه الديلمي من حديث أبي أمامة رضي الله عنه[3]، وأصله في «الصحيح».

الفائِدَةُ السَّادِسَةُ: روى ابن أبي الدنيا في «العقل» قال: حدثني محمد بن رجاء مولى بني هاشم قال: قال بعض الخلفاء لجلسائه: من الغريب؟ فقالوا، فأكثروا، فقال: الغريب هو الجاهل؛ أما سمعتم قول الشاعر: [من الطويل]

يُعَدُّ عَظِيمَ القَدْرِ مَنْ كانَ عـاقِلاً ... وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَصْلِهِ بِحَسِيبِ

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٨).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٧٣٥٢)، وكذا الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٠٢٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٤): رواه الطبراني، وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف.

وَإِنْ حَلَّ أَرْضاً عاشَ فِيها بِعَقْلِهِ   وَما عاقِـلٌ فِـي بَلْـدَةٍ بِغَرِيـبِ[1]

وروى الدينوري في «المجالسة» عن أبي العالية رحمه الله تعالى قال: كنت آتي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقريش حوله، فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامزت في قريش، ففطن لهم ابن عباس، فقال: هكذا هذا العلم؛ يزيد الشريف شرفاً، ويُجْلِس الملوك على الأسرة.

ثم أنشد محمد بن الحارث المروزي أحد رواته في أثره: [من الطويل]

رَأَيْتُ رَفِيعَ النَّاسِ مَنْ كانَ عالِمـاً   وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَـسِيبِ
إِذا حَلَّ أَرْضاً عاشَ فِيها بِعِلْمِـهِ   وَما عـالِمٌ فِـي بَلْـدَةٍ بِغَرِيـبِ[2]

الفائِدَةُ السَّابِـعَةُ: روى الإمام أحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه قال: ما لي أرى علماءكم يذهبون، وأرى جهالكم لا يتعلمون؟ تعلموا قبل أن يرفع العلم؛ فإن رفع العلم ذهاب العلماء[3].

وتقدم حديث ابن عمرو رضي الله تعالى عنهما: «إِنَّ اللهَ لا يَقْبِـضُ العِلْمَ انْتِزاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبادِ، وَلَكِنْ يَقْبِـضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَماءِ، حَتَّى إِذا لَمْ يُبْقِ عالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً» الحديث[4].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٦٠).
(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٥٥).
(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٤٤).
(٤) تقدم تخريجه.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا ذهب الأول قبل أن يتعلم الآخر فذلك حين هلكوا[1].

وروى أبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَزالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ ما أَخَذُوا العِلْمَ عَنْ أَكابِـرِهِمْ، فَإِذا أَخَذُوا العِلْمَ عَنْ أَصاغِرِهِمْ هَلَكُوا»[2].

وروى البيهقي عن الحسن قال: لا يزال الناس بخير ما تباينوا ـ أي: العلم ـ فإذا استووا ـ أي: في الجهل ـ فذلك عند هلاكهم[3].

وروى أبو عمرو الداني في «الفتن»، والروياني عن أبي الدرداء ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْراطِ السَّاعَةِ طَلَبَ الْعِلْمِ عِنْدَ الأَصاغِرِ دُونَ الأَكابِـرِ».

وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي أمية[4] الجمحي رحمه الله تعالى أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَشْراطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ العِلْمُ عِنْدَ الأَصاغِرِ»[5].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١٥١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٤٩) موقوفاً، وكذا ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٨١).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٨٤).

(٤) في «أ» و«ت»: «أبي أسيد» بدل «أبي أمية».

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٦١). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٣٥): فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

الفائِدَةُ الثَّامِنَةُ: روى الإمام أحمد، والستة إلا أبا داود عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «[إنَّ مِنْ أشراطِ السَّاعةِ] أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَفْشُوَ الزِّنا، وَتُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَتَذْهَبَ الرِّجالُ، وَتَبْقَى النِّساءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةٍ قَيِّمٌ واحِدٌ»[1].

وفي رواية: «أَنْ يَذْهَبَ العِلْمُ وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ»[2]، وهي مبيِّنة لمعنى الرواية الأولى.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ». رواه البخاري، وغيره[3].

وروى أبو عمرو الداني عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى قال: كان يقال: يأتي على الزمان ينتقص فيه الصبر، والعقل، والحلم، والمعرفة حتى لا يجد الرجل من يبث إليه ما يأخذه من العلم.

قيل له: وأي زمان هو؟

قال: أراه زماننا هذا[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٢١٣)، والبخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١)، والترمذي (٢٢٠٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٠٦)، وابن ماجه (٤٠٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٣).

(٣) رواه البخاري (٩٨٩).

(٤) رواه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٣/ ٥٢١).

وثَمَّ أخبار تدل على أشراط ما تتعلق بالعلم والعلماء استقريتها في غير هذا الكتاب.

الفائِدَةُ التَّاسِعَةُ: روى ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن عثمان بن عفان ﵁: لا يتعلم العلم لثلاث، ولا يترك لثلاث: لا يتعلم ليُمارى به، ولا ليباهى به، ولا ليُراءى به، ولا يترك حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه[1].

وقال مجاهد: لا ينال العلم مستحي، ولا متكبر[2].

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: «نِعْمَ النِّساءُ نِساءُ الأَنْصارِ؛ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَياءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ»[3].

وقيل:

الْعِلْـمُ حَـرْبُ الفَتَـى الْمُتَعـالِي   كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العالِي[4]

وفي التنزيل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٤٦] الآية.

الفائِدَةُ العاشِرَةُ: روى الشيخان من حديث أبي موسى رضي الله

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ١٠٢) عن عمر بن الخطاب ﵁.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

تعالى عنه: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ما قَدَّمْتُ وَما أَخَّرْتُ، وَما أَسْرَرْتُ وَما أَعْلَنْتُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِيَ، وَإِسْرافِي فِي أَمْرِي، وَما أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمدِي، وَهَزْلِي وَجِدِّي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

وفي نسبة الجهل إلى نفسه ﷺ دليل على أنه لا يخلو إنسان من جهل ولو كان معصوماً؛ فإنه لا يمكنه الإحاطة بالمعلومات كلها؛ إذ لا يكون ذلك إلا لله ﷻ، وكأنه ﷺ عدَّ على نفسه جهل ما لم يصل علمه إليه ذنباً، فاستغفر منه.

والجهل من صفات الإنسان التي طُبع عليه، كما وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

فهو جهول بكل معلوم إلا ما علمه الله تعالى، وكذلك غيره من الخلق؛ ألا ترى إلى قول الملائكة عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[البقرة: ٣٢]؟

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥].

ثم أشار إلى أن العبد لا ينال من العلم شيئاً إلا بتعليمه بقوله:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٦٩].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٧١٩).

وقال حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

وقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

فإذاً ينبغي للعبد أن يسأل من الله تعالى أن يعلمه ويزيده من العلم.

وروينا عن ابن خبيق قال: سمعت إبراهيم البكَّاء يقول: قلت لمعروف الكرخي رحمه الله تعالى: أوصني.

قال: توكَّل على الله حتى يكون هو معلمك، ومؤنسك، وموضع شكواك؛ فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك[1].

وقلت في معناه: [من السريع]

مـا نَفَـعَ النَّـاسُ وَلا ضَـرُّوا	وَاللهُ مِنْـهُ النَّفْـعُ وَالـضُّرُّ
فَحَسْبِيَ اللهُ تَوَكَّلْـتُ فِـي	أَمْـرِي عَلَيْـهِ فَـانْتَهَى الأَمْـرُ
إِنْ لَـمْ يُعَلِّمْنِـي فَـلا عِلْـمَ لِـي	وَكَـلَّ مِنِّـي الـذِّهْنُ وَالْفِكْـرُ
أُنْسِـي بِـهِ إِنْ لَـمْ يَكُـنْ مُؤْنِـسي	مـا كـانَ لِـي أُنْـسٌ وَلا قَـرُّ

(١) وروه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٨٣).

وَهُــوَ الَّــذِي إِنْ مَــسَّنِي نائِــبٌ أَشْــكُو إِلَيْــهِ مــا جَنَــى الــدَّهْرُ
فَعادَ لَمَّــا اسْــتَحْكَمَتْ عُــسْرَتِي عَلَــيَّ مِنْــهُ اليُــسْرُ وَالنَّــصْرُ
وَاللهِ لَــوْلا اللهُ مــا كــانَ لِــي فِــي الْحــالَتَيْنِ الــصَّبْرُ وَالــشُّكْرُ

ولقد أتينا في هذا الباب مع ما ذكرناه في التشبه بالصدِّيقين ما فيه مقنع لمن وفقه الله تعالى إلى الخير، فمن وفقه الله تعالى للعمل به كان ممن تم له شرف العلم ونوره، وانزاح عنه ظلام الجهل وديجوره؛ وفقنا الله تعالى للعمل بما فيه، والسعي في طاعاته ومراضيه.

* * *



خَاتِمَةٌ لِهَذَا ٱلقِسْمِ

لا يدخل في جميع ما ذكرناه من أول هذا القسم؛ أي: من التشبه المذموم إلى ما هنا، شبه الصالح بالطالح في خلقته، أو صورته، أو حِليته، أو في اسمه، ونحو ذلك، فلا يضر المؤمن إذا كان أعور شبه الشيطان أو الدجال في كونه أعور العور الصوري، وإنما يضره العَوَر القلبي كالعمى القلبي كما قيل فيمن أثبت الشريعة وأنكر الحقيقة، أو عكس أنه أعور بإحدى عينيه، فمتى كان الاعتقاد صحيحاً والعمل صالحاً فلا يضر صاحبهما كونه يشبه كافراً في الصورة، أو في اللون، أو عجمة اللسان، أو فصاحته، أو القصر أو الطول، أو في الشحم أو الهزال، أو في الاسم أو في الكنية.

وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فيما أخرجه ابن أبي شيبة، والحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: «يا أَكْثَمُ! عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ فَرَأَيْتُ فِيها عَمْرَو بْنَ لحي بْنِ قمعةَ بْنِ حنيفٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، فَما رَأَيْتُ رَجُلاً أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ وَلا مِنْهُ بِكَ».

فقال أكثم: أخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «لا؛ إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كافِرٌ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَبَحَرَ البَحِيرَةَ، وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَحَمَى الحامِي»[1].

وروى الإمام أحمد، والحاكم وصححه، عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال في حديثه: «فَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، وَرَأَيْتُ فِيها عَمْرَو بْنَ لحيٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ مَعْبَدُ بْنُ أَكْثَمٍ الْخُزاعِيُّ».

فقال معبد: يا رسول الله! أتخشى عليَّ من شبهه؟

فقال: «لا؛ أَنْتَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كافِرٌ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ حَمَلَ العَرَبَ عَلى عِبادَةِ الأَصْنامِ»[2].

واعلم أن من تمام النعمة وكمال المنة حسن الصورة واعتدال الخِلقة؛ فإن الله تعالى امتن علينا بذلك فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٧٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٨٩)، وكذا البزار في «المسند» (٨٩٩١)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤٩٠).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٨٨). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٨٨): فيه عبدالله بن محمد بن عقيل وفيه ضعف، وقد وثق.

وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وروى مسلم، والترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمالَ»(١).

وروى الإمام أحمد عن أبي ريحانة، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، وفي «الأوسط» عن جابر، وهو والحاكم وصححه، عن ابن عمر، وابن عساكر عنهما، وأبو يعلى عن أبي سعيد.

وأخرج البيهقي حديثه وزاد فيه: «وَيُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلى عَبْدِهِ، وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّباؤُسَ»(٢).

وروى ابن لال عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الْخَيْرَ فِي الرَّبْعَةِ»(٣).

ووجهه: أن الربعة معتدل بين القصير والطويل، واعتدال الْخَلْق يتبعه اعتدال الْخُلُق غالباً، ولذلك كان النبي ﷺ رَبْعة من الرجال.

ولو قلنا: إنه هو المراد بالربعة في الحديث لم يبعد، وقد تقدم هذا المعنى في التشبه بالصالحين.

وروى البيهقي في «الشعب» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتاهُ اللهُ وَجْهاً حَسَناً، وَاسْماً حَسَناً، وَجَعَلَهُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه كله، إلا حديث أبي ريحانة ﷺ رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٣).

(٣) كذا عزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٥٨٠) إلى ابن لال.

اللهُ فِي مَوْضِعِ غَيْرِ شائِنٍ لَهُ، فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ».

قال ابن عباس: قال الشاعر: [من الخفيف]

أَنْتَ شَرْطُ النَّبِيِّ إِذْ قالَ يَوْماً اطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسانِ الْوُجُوهِ[١]

وهذه النعمة تقتضي شكراً، فإذا كَفَرها العبد فقد كان عَدَمُها خير له لو عدمها، فهي إذاً ليست بنعمة عليه، ولا يكون حينئذ من صفوة الله المشار إليهم في حديث ابن عباس؛ فإنه ليس في موضع غير شائن له، وهو موضع المعصية وكفران النعمة.

قد وقع بيان ذلك فيما رواه أبو نعيم عن عون بن عبدالله رحمه الله تعالى قال: من كان ذا صورة حسنة في موضع لا يشينه، ووسَّع عليه رزقه، ثم تواضع لله، كان من خالصة الله.

وفي رواية: من حسن الله صورته، وأحسن رزقه، وجعله في منصب صالح، ثم تواضع لله، فهو من خالص الله[٢].

وروى ابن أبي شيبة عن رجل من جهينة رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «خَيْرُ ما أُعْطِيَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ خُلُقٌ حَسَنٌ، وَشَرُّ ما أُعْطِيَ الرَّجُلُ قَلْبُ سُوءٍ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ»[٣].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥٤٣) وقال: في هذا الإسناد ضعف، وكذا الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٥٠٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٥٠).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٣٣١)، وكذا أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣١٠٤).

وفيه إشارة إلى أن من انطوى قلبه على السوء وصورته حسنة أقبحُ حالةً، وشرٌّ مكاناً ممن قلبه كذلك وصورته قبيحة؛ لأن صاحب الصورة الحسنة كفر نعمة لم يعطها صاحب الصورة القبيحة؛ فافهم!

وروى الخرائطي في «مكارم الأخلاق»، وأبو العباس الدغولي في «الآداب» عن جرير ﷺ: أن النبي ﷺ قال له: «إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ خَلْقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ»[1]؛ أي: تحمل نفسك على حسن الخلق؛ فإن التخلُّق قد يأتي بالخُلق، وإلا فإن حسن الخلق لا يكون إلا من الله تعالى ومعونته كما قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِيَ فَحَسِّنْ خُلُقِي». رواه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، وابن حبان في «صحيحه» من حديث عبدالله بن مسعود[2].

ومعنى قوله: «فَحَسِّنْ خُلُقِي»؛ أي: زده حُسْناً.

أو: زدني من الأخلاق الحسنة.

أو: احفظ عليَّ حُسن خلقي؛ فإنه ﷺ كما قال البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما: كان أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً. رواه الخرائطي، والبيهقي بإسناد حسن[3].

وفي «صحيح مسلم»، و«شمائل الترمذي» عن أبي الطفيل رضي

---

(١) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص: ٢٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٦٨) عن عائشة رضي الله عنها. وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٦٠٣). وابن حبان في «صحيحه» (٩٥٩) عن عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٢٥٠)، وكذا البخاري (٣٣٥٦).

الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ أبيض مليحاً، مقصداً[1].

أي: معتدلاً، لا طويلاً ولا قصيراً، ولا جسيماً ولا هزيلاً.

فإن قلت: ما معنى قوله ﷺ: «مِنْ سَعادَةِ الْمَرْءِ أَنْ يُشْبِـهَ أَباهُ»؟ أخرجه الحاكم في «مناقب الشافعي رضي الله تعالى عنه» عن أنس رضي الله تعالى عنه[2].

قلت: هو على وجهين:

الأول: معناه أن يشبه في الصورة والخلقة لئلا يُطْعن في نسبه، ولئلا تُرمى أمه.

والثاني: أن يشبه أباه فيما به السعادة من الإيمان، والأخلاق الحسنة، والمكارم كما قال الشاعر: [من الرجز]

بِأَبِـهِ اقْتَـدَى عَـدِيٌّ فِـي الكَـرَمْ وَمَـنْ يُـشابِـهْ أَبَـهُ فَمـا ظَلَـمْ[3]

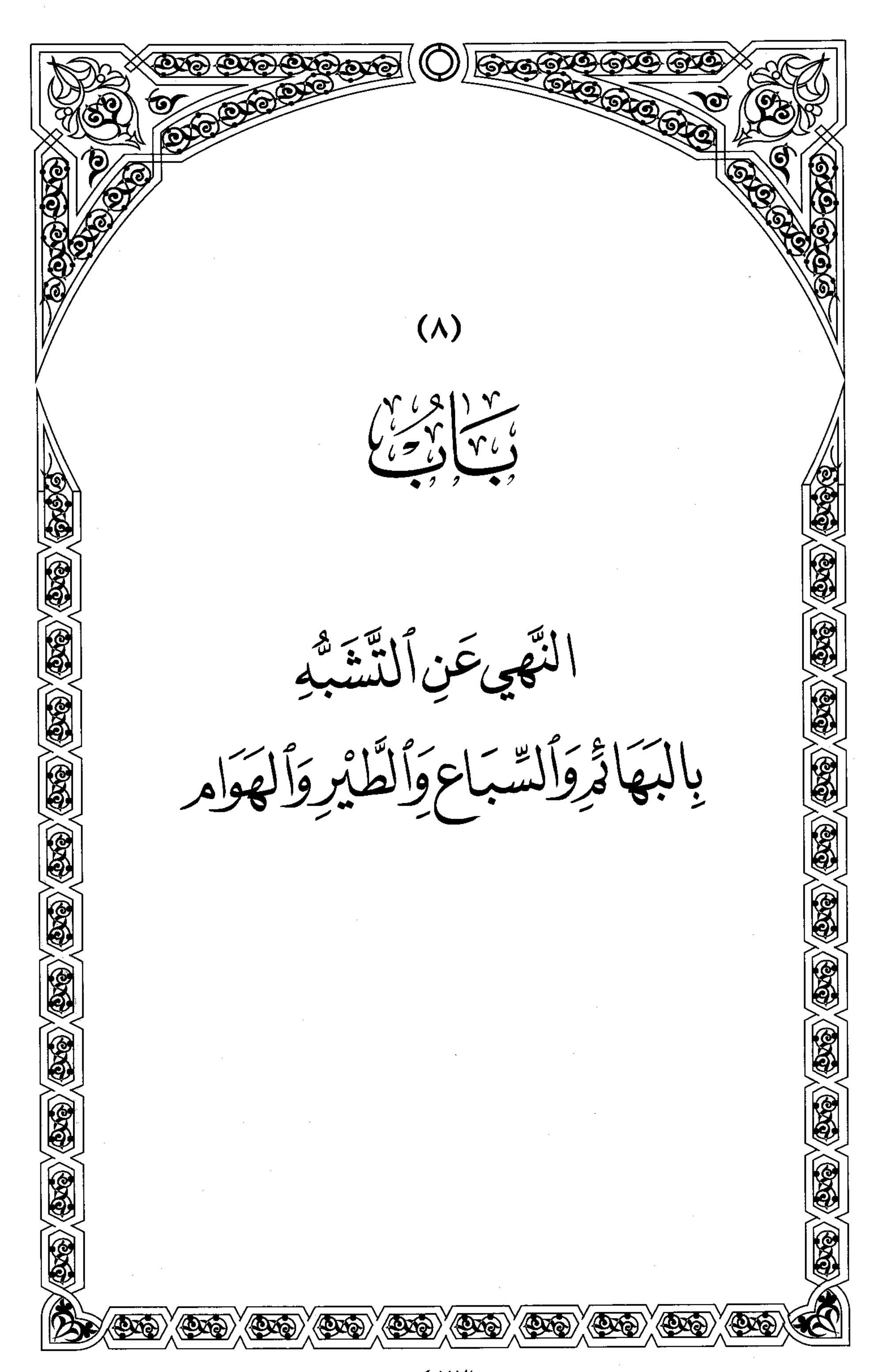
❐ ❐ ❐

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤٠)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (ص: ٤١).

(٢) ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٠١٢).

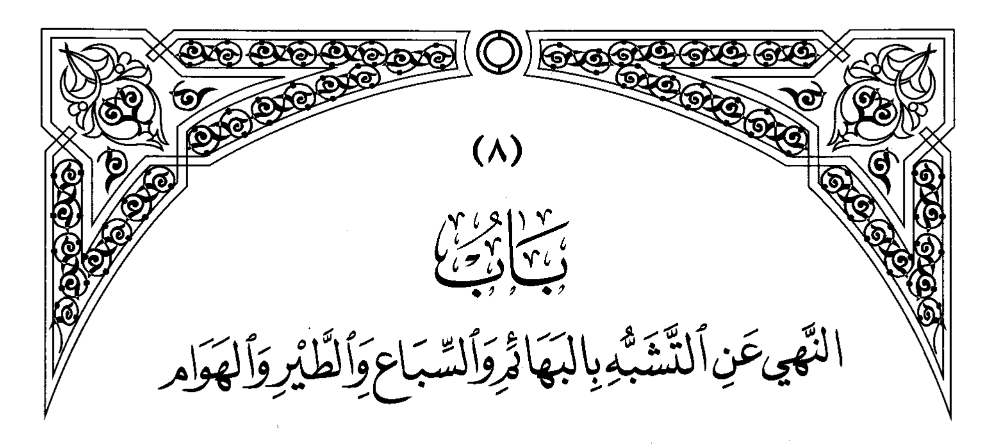
(٣) جاء في نهاية الجزء السادس من النسخة الخطية للمكتبة الظاهرية والمرموز لها بـ «أ»: «تم الجزء، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.
في نهار الثلاثاء سابع عشر شعبان سنةَ ١٠٤١.



(٨)

بَابُ

النَّهيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ وَالهَوَام



(٨)

بَابُ النَّهيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ وَالهَوَام

اعلم أننا جعلنا هذا الباب في خاتمة هذا القسم الثاني من الكتاب لأنه بهذا القسم أليق، وبهذا النوع أحق؛ لأن التشبه بالبهائم والسباع والطير والهوام لا يحسن إلا على ضرب من التأويل كما ستعلم.

واعلم أن الإنسان إنما أكرمه الله تعالى، وفضَّله بالعقل والمعرفة والبيان حيث يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء: ٧٠].

قال جعفر رحمه الله تعالى: بالمعرفة[1].

وقيل: بالنطق.

وبهذه الثلاثة يتميز الإنسان على سائر الحيوانات، وإلا كان هو والبهائم على حد سواء.

ولذلك قال بعض الحكماء: المرء بأصغريه لسانه وقلبه؛ أي: عقله ومعرفته لأن القلب محلهما.

وقال آخر: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة، أو صورة ممثلة.

---

(١) انظر: «تفسير السلمي» (١/ ٣٩١).

ولا خفاء أن فضل الإنسان لا يتم إلا إذا كان نطقه معقولاً ناشئاً عن عقل رصين، وقلب سليم.

ومن ثم قال عدي بن حاتم الطائي رضي الله تعالى عنه: لسان المرء تَرجمان عقله[1].

وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى: [من المتقارب]

تَعاهَدْ لِسانَكَ إنَّ اللِّسانَ ... سَرِيْعٌ إِلَى الْمَرْءِ فِي قَتْلِهِ

وَهَذا اللِّسانُ بَرِيْدُ الْفُؤادِ ... يَدُلُّ الرِّجالَ عَلى عَقْلِهِ[2]

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن الله تعالى أنطق اللسان بالبيان، وافتتحه بالكلام، وجعل القلوب أوعية العلم، ولولا تلك لكان الإنسان بمنزلة البهيمة؛ يومئ بالرأس، ويشير باليد[3].

ثم اعلم أن الإنسان لا يتلبس بالعلم والمعرفة، ولا بالصواب في النطق إلا بالعقل، فالعقل رأس الحكمة، ومنبع المعرفة، وأصل الديانة، وإنما سمي عقلاً لأنه يعقل؛ أي: يمنع صاحبه من الخطأ.

قال عامر بن عبدالله بن قيس رحمه الله تعالى: إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عما لا يليق فأنت عاقل[4].

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ٢٩٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ٢٩٨).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٧).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٤٩).

ثم لا يُعقل المرء عن الخطأ ما لم يعرف الصواب من الخطأ، والخطأ من الصواب.

والمراد من الصواب ما صوَّبه الشرع، والخطأ ما كان بخلافه.

فرجع معنى العقل إلى متابعة الشرع، فالعاقل من عَقَله عَقْلُه بعُقال الشرع، وعن تعدي حدود الشرع ومتابعة هوى نفسه.

وكلما كان الإنسان متابعاً للشرع كان أمكن في العقل بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠].

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله فنعمل به ما كنا في أصحاب السعير[1].

وروى الحارث بن أبي أسامة عن أبي سعيد ﵁، عن النبي ﷺ: أنه قال: «لِكُلِّ شَيءٍ دِعامَةٌ، وَدِعامَةُ عَمَلِ العَبْدِ عَقْلُهُ، فَبِقَدرِ عَقْلِهِ تَكُوْنُ عِبادَتُهُ، أَما سَمِعتُم قَولَ الفاجِرِ: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠]؟»[2].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٥٨).

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٤٠)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٩٩٩). قال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/ ٧٢٥): هذه الأحاديث من «كتاب العقل» لداود بن المحبر، كلها موضوعة، ذكرها الحارث في «مسنده» عنه.

وقال في «تهذيب التهذيب» (٣/ ١٧٣) في ترجمة داود بن محبر: قال الإمام أحمد: شبه لا شيء، كان لا يدري ما الحديث، وقال الدارقطني: متروك الحديث. =

قلت: وفيه إشارة إلى أن العمل المعتدَّ به ما كان عن عقل عاقل ونُهية كاملة.

وقد توجد صورة العمل في عبد ولا يكون في العبد بذاك، وأكثر ما يكون رؤية النفس في العمل والمن به، والكبر والخيلاء، والبغي والطغيان في الأعمال الصورية التي لا روحانية لها.

ومثل هذه الأخلاق إنما تنشأ عن قلة العقل والجهل بمقدار النفس.

ومن ثم قال معاوية بن قُرة رحمه الله تعالى: إن القوم يحجون ويعتمرون، ويجاهدون، ويصلون، ويصومون، ولا يعقلون، ولا يعطون يوم القيامة إلا على قدر عقولهم[1].

وقال أبو زكريا رحمه الله تعالى: إن الرجل يتلذذ في الجنة بقدر عقله[2]. رواهما ابن أبي الدنيا، وابن الجوزي في «الأذكياء».

وروى أبو القاسم البغوي عن البراء بن عازب رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «جَدَّ الملائِكَةُ واجْتهدُوا في طاعَةِ اللهِ بِالعَقلِ، وَجَدَّ المؤْمِنُونَ مِنْ بَني آدَمَ عَلى قَدرِ عُقُولِهِم؛ فَأَعْمَلُهُمْ بِطاعَتِهِ أَوْفَرُهُم عَقْلاً»[3].

= قلت: وسيأتي أحاديث منها في هذا الجزء، وسأكتفي بالحكم فيها بالقول: وفيه داود بن المحبر.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٤٢)، وابن الجوزي في «الأذكياء» (ص: ١٠) واللفظ له.

(٢) رواه ابن الجوزي في «الأذكياء» (ص: ١٠).

(٣) ورواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨١٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه. =

وروى الحكيم الترمذي، وابن أبي الدنيا، والخطيب عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله! بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا؟

قال: «بِالعَقْلِ».

قلت: وفي الآخرة؟

قال: «بِالعَقْلِ».

قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟

فقال: «يا عائِشَةُ! فَهَلْ عَمِلُوا إلاَّ بِقَدرِ ما أَعْطاهُمُ اللهُ تَعالى مِنَ العَقْلِ؟ فَبِـقَدْرِ ما أُعْطُوا مِنَ العَقْلِ كانَتْ أَعْمالُهُم، وَبِـقَدْرِ ما عَمِلُوا يُجْزَوْنَ»[1].

وروى البيهقي في «الشعب» عن جابر رضي الله تعالى عنه قال:

= وفيه داود بن المحبر.

قال ابن حجر في «الإصابة» (٧/ ٢٤٨): أخرجه البغوي من طريق ميسرة ابن عبد ربه، أحد المتروكين، عن حنظلة بن وداعة، عن أبيه، عن أبي عازب ﷺ.

وأشار إلى الروايتين ـ رواية البراء ورواية أبي عازب ـ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٥٠) لكنه قال: ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء بالسند نفسه.

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٥٦)، وكذا الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٢٣). وفيه داود بن المحبر.

قال رسول الله ﷺ: «قِوامُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَقْلَ لَهُ»[1].

وروى أبو نعيم عن عبدالله بن حبان قال: قيل لعطاء ـ يعني: ابن أبي رباح ـ: ما أفضل ما أُعطي العباد؟

قال: العقل بالله، وهو المعرفة بالدين[2].

وقال القاضي أبو الحسن الماوردي في «أدبه»: اختلف الناس فيمن صرف عقله إلى الشر هل يسمى عاقلاً؟

فقال بعضهم: أسميه عاقلاً بوجود العقل منه.

وقال بعضهم: لا أسميه عاقلاً حتى يكون خيِّراً ديناً لأن الخير والدين من لباب العقل، وأما الشرير فلا أسميه عاقلاً، وإنما أسميه صاحب رويِّة وفكر.

قال: وقد قيل: العاقل من عَقَل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس: إنه يكون مصروفاً إلى الزهاد لأنهم انقادوا للعقل، ولم يغتروا بالأمل.

قال: وروى لقمان بن عامر عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يا عُوَيْمِرُ! اِزْدَدْ عَقْلاً تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْباً، وَبِهِ عِزّاً».

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٤٤) وقال: تفرد به حامد بن آدم، وكان متهماً بالكذب.

وكذا رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٠٠) وقال: منكر.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣١٥)، وعنده: «العقل عن الله».

قلت: فداك أبي وأمي! من لي بِالعقل؟

قال: «اِجْتَنِبْ مَحارِمَ اللهِ، وَأَدِّ فَرائِضَ اللهِ تَكُنْ عاقِلاً، ثُمَّ تَنَفَّلْ صالحاتِ الأعمالِ تَزْدَدْ في الدُّنْيا عَقْلاً، وَتَزْدِدْ مِنَ رَبِّكَ قُرْباً وَبِهِ عِزّاً»[1]، انتهى[2].

وفي هذا الحديث الذي ذكرته إشارة إلى أن العبد إنما يستتم العقل بتأدية الفرائض واجتناب المحارم، ومن تساهل في شيء من ذلك فإنما هو لنقصان عقله.

وقال الدينوري في «المجالسة»: أنشد محمد بن موسى: [من الطويل]

أَلا إِنَّ خَيْرَ الْعَقْلِ ما حَضَّ أَهْلَهُ ... عَلى الْبِرِّ وَالتَّقْوى بَدْئاً وَعاقِبَة

وَلا خَيْرَ فِي عَقْلٍ يَزِيْغُ عَنِ التُّقى ... وَيَشْغَلُ بِالدُّنْيا الَّتِي هِيَ ذاهِبَة[3]

* **تَنْبِيْهٌ:**

لو استحسن الإنسان بعقله شيئاً يتقرب به إلى الله تعالى وهو مخالف للشريعة لا يكون عاقلاً، ومن لم ينتفع بعقله فكأنما كان بلا عقل، والعقل النافع هو الذي ينقذ صاحبه من النار، وفعله ما استحسنه

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٢٨)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٥٨). وفيه داود بن المحبر.

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٣ ـ ١٥).

(٣) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٢٩٧).

بعقله لا ينقذه من النار؛ إذ المنقذ من النار طاعةُ الله تعالى، وإنما يطاع الله تعالى من حيث أَمر، لا من حيث يَستحسن العبد، فالطاعة المنقذة من النار هي الطاعة الموافقة للشرع والأمر بدليل: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠].

وروى البيهقي في «الشعب» عن أبي عمرو الزجاجي رحمه الله تعالى قال: كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطباعهم، فجاء النبي ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع؛ قال: فالعقل الصحيح الذي يستحسن محاسن الشريعة، ويستقبح ما تستقبحه[1].

ثم إن العبد كلما كان أطوع لله وأتقى كان أصعد في مراتب العقل وأرقى، وكلما كان أكمل عقلاً وأتم نهياً كان أبعد عن الطبع البهيمي والمزاج الحيواني، وبذلك يكون الإنسان كريماً مكرماً، فاضلاً مفضلاً، ممدوحاً محموداً.

قال أبو القاسم الراغب في كتاب «الذريعة إلى محاسن الشريعة»: الإنسان ـ وإن كان بكونه إنساناً أفضل موجود ـ فذلك بشرط أن يراعى ما به الإنسان صار إنساناً، وهو العلم والعمل المحكم، فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضُل، ولهذا قيل: الناس أبناء ما يحسنون؛ أي: يعرفون، ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة.

يقال: أحسن الإنسان إذا علم، وأحسن إذا عمل حسناً.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٦٢).

قال: فأما الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار، وإنما فضيلته بنطقه وقواه ومقتضاه، انتهى.

ونقل الماوردي عن بعض العلماء أنه قال: ركَّب الله تعالى الملائكة عليهم السلام من عقل بلا شهوة، وركَّب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما؛ فمن غلب عقلُه شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم[1].

قلت: وحيث علمت أن الإنسان من الملك والبهيمة بحيث إنه بقدر ما يغلب عقلُه ونُهاه شهوتَه وهواه يقرب من الملائكة، ثم يترقى حتى يصير في منزلتهم أو يفوقها كما في الحديث المار يقول الله تعالى: «أَيُّها الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتَهُ لي، أَنْتَ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلائِكَتِي»[2].

وكما روى الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالَ اللهُ تَعالى: عَبْدِي المؤْمِنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ مَلائِكَتِي»[3].

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٢٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٦٣٤). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٨٢): وفيه أبو المهزم وهو متروك.

ورواه ابن ماجه (٣٩٤٧) ولفظه: «المؤمن أكرم على الله ﷻ من بعض ملائكته». وفيه أبو المهزم هذا.

وبقدر ما تغلب شهوتُه عقلَه يقرب من البهائم، ثم يتأخر حتى يصير في منزلة البهيمة، أو ينزل في حضيض أسفل من منزلة البهائم كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الفرقان: ٤٤].

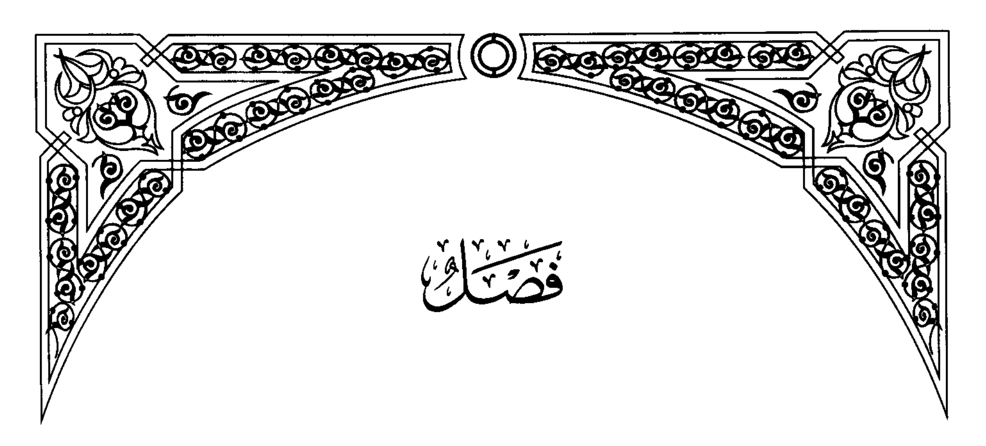
فقد ظهر لك في ترتيب كتابنا هذا سر عجيب، وهو أنا ذكرنا أولاً التشبه بالملائكة عليهم السلام، وجعلناه في بداية القسم الأول من الكتاب، وذكرنا آخراً التشبه بالبهائم، وجعلناه في نهاية القسم الثاني من الكتاب، فكان التشبه بالملائكة والتشبه بالبهائم كطرفين للكتاب أعلى وأدنى، وكأن المتشبه بالملائكة في الطرف الأعلى من الإنسانية، والمتشبه بالبهائم في الطرف الأدنى من الحيوانية، وجعلنا التخلق بأخلاق الله تعالى في وسط الكتاب لأنه هو النهاية التي يُنتَهى إليها بسير السائرين، والمحط الذي عليه تحط رحال العارفين، ثم ذكرنا بعد ذلك النهي عن التشبه بالشيطان إشارة إلى من لم يتخلق بأخلاق الله ﷻ، ولا بأخلاق عباده الصالحين فهو إما شيطان، وإما قرين شيطان، وإما بهيمة في صورة إنسان.

فعدنا بعد الأمر بالتلبس بالحق إلى الزجر عن التلبس بالباطل، فكأن لسان الحال قد قال: إن لم تأمر بما أمرناك به من السلوك في مسالك الأبرار والأخيار، فلا أقل من أن تنزجر عن الذهاب في سبيل الفجار والأخيار، فإن لم يُصبها وابلٌ فطَل.

وإذا انحصر الحق في التخلق بأخلاق الله تعالى، وأخلاق عباده

الصالحين، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فتبين بذلك أن من لم يترق في درجات الحق فهو متنزل في دركات الباطل؛ والله سبحانه وتعالى هو الموفق.

* * *



فَصْلٌ

قال حجة الإسلام في «الإحياء»: اعلم أن الإنسان قد اصطحب في تركيبه وخلقه أربع شوائب، فلذلك اجتمعت عليه أربعة أنواع، وهي: الصفات السبعية، والبهيمية، والشيطانية، والربانية.

قال: فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء، والتهجم على الناس بالضرب والشتم.

ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشَّرَه، والحرص، والشَّبق، وغير ذلك.

ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥] فإنه يدعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء، والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتعزز بالرئاسة، والانسلال عن رِبقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها، بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة، والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ويحزن إذا قذف بالجهل.

قال: والإحاطة بجميع الحقائق، والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، والإنسان حريص على ذلك.

قال: ومن حيث يختص من البهائم والسباع بالتمييز مع مشاركته لها في الشهوة والغضب حصلت فيه شيطانية تستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، وتتوصل إلى الأغراض بالمكر، والحيلة، والخداع، ويعرض الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

قال: وكل إنسان ففيه شَوب من هذه الأصول الأربعة؛ أعني: الربانية، والشيطانية، والسبعية، والبهيمية.

وكل ذلك مجموع في القلب، وكأن المجموع في إهاب الإنسان خنزير، وكلب، وشيطان، وحكيم.

فالخنزير هو الشهوة؛ فإنه لم يكن مذموماً لكونه وشكله وصورته، بل لجشعه، وكَلَبه، وحرصه.

والكلب: هو الغضب؛ فإن السبع الضاري، والكلب العقور ليس كلباً وسبعاً باعتبار اللون والصورة والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة، والعداوة، والعقر.

وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه، وشَبَق الخنزير وحرصه، فالخنزير يدعو بالشر إلى الفحشاء والمنكر، والسبع يدعو إلى الظلم والإيذاء، والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير، وغيظ السبع، يغرِّر أحدهما بالآخر، ويحسِّن لهما ما هما مجبولان عليه.

قال: والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة، ونوره المشرق الواضح،

وأن يكسر شهوة هذا الخنزير بتسليط الكلب؛ إذ بالغضب يكسر سَورة الشهوة، ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه، ويجعل الكل مقهوراً تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر، وظهر العدل في مملكة البدن، وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير، ويرضي الكلب، فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير. انتهى كلام الغزالي في «الإحياء»[1].

وقد اشتمل هذا الفصل من كلامه على فوائد:

الأُولَى: أن الغالب على البهائم الشهوة، وعلى السباع الغضب، وهما معتدلان في الإنسان ليستعملهما في منافع بدنه وشرائع دينه، ويدفع بهما مضار معاشه ومَعَاده باستعماله كلاً منهما في محله بقدر الحاجة، بحيث يكون مستولياً بعقله عليهما، فإن غلبا أو أحدهما على عقله، واستوليا أو أحدهما على فطنته، فقد فوَّت على نفسه الخاصة الإنسانية، وترجح فيه جانب البهيمية أو السبعية، أو كليهما، فالعبد بسبب استرساله في الشهوة، واستطلاقه مع الهوى يكون متشبهاً في ذلك بالبهائم والسباع، ومهما غلب عقله على شهوته وغضبه كان مترقياً عن هذه المنزلة السافلة، سامياً إلى مراقي الحكمة العلية الفاضلة كما قال أبو بكر بن دريد: [من الرجز]

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ١٠ ـ ١٢).

وَآفَةُ العَقْـلِ الْهَـوى فَمَـنْ عَـلا   عَلـى هَـواهُ عَقْلُـهُ فَقَـدْ نَجـا[1]

الفائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الشيطان عبارة عن غلبة الغضب، وغلبة الشهوة مع التمييز بينهما، والإدارك لما يترتب عليهما من المنافع والمضار، واستعمالهما على خلاف الحكمة مع عدم مراعاة اجتلاب المنافع واجتناب المضار، بل هكذا خَبْطَ عَشْواء على مَتن عَمْياء.

فقد علم بذلك أن الإنسان المتميز عن البهيمة والسبع بالنطق والتمييز إذا غلبت عليه الشهوة والغضب كان بهيمة وسبعاً لغلبة شـهوته وغضبه، بل أضلّ منهما، لأن الشـهوة ـ وإن غلبت على السباع ـ فإنها لا تميز بين مضار ذلك ومنافعه، ولا تعرف طريق وضعه في مواضعه، فهي معذورة في ذلك، ومن ثم لم تكن مكلفة، ولا يترتب على فعلها ثواب ولا عقاب، بخلاف الإنسان؛ فإن الشهوة والغضب قد غلبا عليه، وهو مميِّز بين مضارهما ومنافعهما، وله عقل يعرف به طريق وضع كل منهما في موضعه، ومن ثم كان مكلفاً مطالباً، مثاباً على أفعاله، أو معاقباً عليها، فهو أخس من البهائم، وأجهل من السباع كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الفرقان: ٤٤].

وإنما كان أضل من البهيمة والسبع لأنه تنزل بجهله عن منزلتهما

---

(١) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٠٥).

إلى الشيطانية، فصار شيطاناً، والشيطان عبارة عن خلق مميز غلبت شهوته، واشتد غضبه، فاسترسل معهما حتى هلك، وبسبب التمييز كان الشيطان ومن كان على طريقته معذبين في النار، ولم يصيروا تراباً كسائر البهائم، فهم أسوأ حالاً من البهائم، ولذلك يقول الكافر الشامل للشيطان إذا رآها صارت تراباً، وذهب به إلى النار: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[النبأ: ٤٠].

وقد تحرر لك من ذلك أن المتشبه بالبهائم والسباع فيما ذكرناه متشبه بالشيطان أيضاً، فهو جامع للخصلتين؛ فافهم!

* **تَنْبِيهٌ**:

حين يقول الشيطان في الكفار: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾[النبأ: ٤٠] لا يبعد أن يقال له: إذاً تبين لك أن عنصر النار الذي خلقت منه ليس بخير من عنصر التراب الذي خلق منه آدم، ومن ثم قال بعضهم: إن المراد بالكافر في الآية الشيطان، والألف واللام فيه للعهد.

الفائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن ذم الكلب والخنزير ليس راجعاً إلى ظاهر صورتهما، بل إلى ما في الخنزير من الجشع، والكَلَب، والحرص الناشئ عن الشهوة، وما في الكلب من الضراوة، والعداوة، والعقر الناشئ عن الغضب، فإذا كان الذم إنما يرجع إلى هذه الأوصاف فلا فرق في استحقاقهما الذم بين أن تكون في إهاب كلب وخنزير، أو غيرهما من البهائم والسباع، وبين أن تكون في إهاب إنسان، بل هي

في الإنسان أحق بالذم، وإنها في البهائم والسباع جبلات وطباع، وهي ليست مكلفة بأفعالها، بخلاف الإنسان فهي فيه أكثر قبحاً وأحق ذماً.

فقد علمت بذلك أن المتشبه بالبهائم والسباع مستوجب لأشد اللوم وأقبح الذم، وذلك كان في التنفير عن التشبه بهما.

ومن كلام الراغب في «الذريعة»: ومن صرف همته كلها في تربية القوى الشهوانية باتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام لَخَلِيق أن يلحق بأفق البهائم فيصير غَمْراً كثور، وإما شَرِهاً كخنزير، أو ضارياً ككلب، أو حقوداً كجمل، أو متكبراً كنمر، أو ذا رَوَغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله كشيطان مَريد، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[المائدة: ٦٠](1).

الفائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الحكيم الذي هو مثال العقل في كلام الغزالي رحمه الله تعالى مأمور بثلاثة أمور بها يكون حكيماً، وإلا كان سفيهاً:

- أن يدفع كيد الشيطان.
- ويكسر شهوة الخنزير.
- ويدفع ضراوة الكلب.

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٩).

ويسوس بهذا الثلاثة التي اشتملت عليها دائرة مملكته أحسن السياسة، وإلا بأن أطاع شيطانه، أو استرسل مع شهوته، أو امتد في غضبه لم يكن حكيماً، بل إن غلبت عليه الشهوة صار بهيمة، أو الغضب أو الضراوة صار سبعاً، وإن جمع بينهما مع علمه بأن ذلك يضره صار شيطاناً.

وقد اتضح لك بذلك أن الذي يستحق أن يطلق عليه اسم الحكيم هو الرجل العاقل؛ أي: الذي قدر بعقله على منع شهوته، وقَطَع غضبه، وقَمَع شيطانه.

وتسمية العقل حكيماً على سبيل المبالغة، والإشارة إلى أن الحكيم لا يقال لغير العاقل المتصرف بعقله في مملكة إنسانيته أحسن التصرف.

ولذلك قال ابن زيد رحمه الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]: الحكمة: العقل في الدين[١].

وقال الإمام مالك: الفقه في دين الله[٢]. أخرجهما ابن أبي حاتم.

وروى عبد بن حميد عن قتادة رحمه الله تعالى قال: الحكمة:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٤٨٠)، وكذا الطبري في «التفسير» (١/ ٥٥٧).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٥٣٢).

الفقه في القرآن[1].

وروى هو وابن جرير عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: الحكمة: القرآن، والعلم، والفقه[2].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء ﷺ في الآية قال: الحكمة: قراءة القرآن، والفكر فيه[3].

وقال مجاهد أيضاً: الحكمة: الإصابة في القول. رواه عبد بن حميد[4].

وقال ابن القاسم: الحكمة: طاعة الله، والفقه في الدين، والعمل؛ أي: الصالح[5].

وقال الحسن رحمه الله تعالى: الحكمة: الورع[6].

وقال الربيع بن أنس رحمه الله تعالى: الحكمة: الخشية[7]. رواهما الثعلبي.

وقال أبو العالية رحمه الله تعالى: خشية الله رأس كل حكمة،

---

(١) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٦٦).

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٩٠).

(٣) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٦٦).

(٤) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٦٦).

(٥) انظر: «تفسير القرطبي» (٣/ ٣٣٠).

(٦) رواه الثعلبي في «التفسير» (٢/ ٢٧٢)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (ص: ٤٨).

(٧) ورواه الطبري في «التفسير» (٣/ ٩١)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٥٣١).

وقرأ الآية. رواه ابن أبي حاتم[1].

وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: الخشية حكمة، من خشي الله فقد أصاب أفضل الحكمة. رواه ابن المنذر[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن خالد بن ثابت الربعي رحمه الله تعالى قال: وجدت فاتحة زبور داود عليه السلام: إن رأس الحكمة خشية الرب ﷻ[3].

وروى الحكيم الترمذي، وابن لال عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأْسُ الحِكْمَةِ مَخافَةُ اللهِ»[4].

وروى ابن المنذر عن عروة بن الزبير رحمه الله تعالى قال: كان يقال: الرفق رأس الحكمة مخافة الله[5].

والعقل هو الحكيم الذي تحصل به الحكمة؛ لأن مِنْ لازِمِ العقل التفقه في الدين، والترقي في معارف الكتاب والسنة، وذلك يورث الخشية من الله تعالى؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، والخشية تورث العمل بمقتضى هذه العلوم، وهو طاعة الله تعالى، والورع عن المحرمات، ثم عن المكروهات، ثم عن كل ما سوى الله

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٥٣١).

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٦٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٧٣).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

تعالى، وما يراد به وجهه الكريم، والرفق في سائر الأمور، والتخلص عن الخرق في سائر الأحوال.

ومَنْ تحقَّق بهذا المقام آثر الصمت، ولذلك كان الصمت حكمة، أو نطق بالصواب، ورزق الإصابة في القول والعمل، وكان قوله مقبولاً، وعمله حُلْواً عند الناس لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[الأنفال: ٢٩]؛ تفرقون به بين الحق والباطل، وبين النافع والضار.

ومن هنا قال بندار بن الحسين رحمه الله تعالى حين سأله أبو الحسن الهمذاني عن قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٦٩]: الحكمة: سرعة الجواب مع إصابة الصواب[1].

وقد تبين بهذا الذي قررناه: أن من لم يكن حكيماً فهو إما شيطان، وإما بهيمة، وإما سبع وإن كان في الصورة إنساناً.

وقد قلنا في المعنى: [من السريع]

لا تَحْسِبِ الإنْسانَ مَنْ لَمْ يَنَلْ
مِنْ خِلْقَةِ الإنْسانِ إلاَّ الصُّورْ

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٧١).

مــــا هُــــــوَ إلاَّ سَـــــبُعٌ كاسِـــــرٌ

أَوْ بُهْمَـــــةٌ فِـــي مِثْـــلِ شَـــكْلِ البَـــشَرْ

أَوْ هُـــــــوَ شَـــــيْطانٌ مَرِيـــــدٌ لَـــــهُ

فِـــي صُـــورَةِ الإِنْـــسانِ بُـــؤْسٍ وَشَـــرٌ

وَإِنَّمــــــا الإِنْـــــسانِ ذُو حِكْمَـــــــةٍ

يُعْطِــــي بِهـــا النَّفْـــعَ وَيَنْفِـــي الـــضَّرَرْ

وتبين أيضاً: أن الإنسان إذا ترقى بعقله في طاعة الله تعالى، واكتسب المعارف السنية تارة بالتعلم، وتارة بالطاعة والتعبد والتقوى، صار حكيماً يوافق بكلامه الصواب مع سرعة الجواب، وما ذاك إلا لتكامل عقله وتضاعف معرفته، فاستعمال العقل فيما وضع له ينتج التزايد في العقل لأن العقل نعمة، واستعماله فيما وضع له شكر لتلك النعمة، والشكر يقتضي الزيادة في النعمة، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله لأبي الدرداء ﷺ: «ثُمَّ تَنَفَّلْ صالحاتِ الأَعْمالِ تَزْدَدْ عَقْلاً»(١).

ومن هنا قالوا: إن العقل قسمان: غريزي ومكتسب من العقل الغريزي لكثرة الاستعمال والتجارب كما قيل: [من الطويل]

(١) تقدم تخريجه.

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ العَقْـــلَ زَيْـــنٌ لأَهْلِـــهِ

وَلَكِـــنْ تَمـــامُ العَقْـــلِ طُـــولُ التَّجـــارِبِ(١)

وإنما يستنتج العقل النافع باستعمال العقل في اكتساب الآداب الشرعية، وتحصيل الأخلاق المرضية، وتطهير النفس عن الأوصاف الدنية باستعماله بالدهاء والحيلة، والمكر والخديعة.

وما أحسن ما أنشده الأصمعي رحمه الله تعالى: [من البسيط]

إِنْ يَكُـــنِ العَقْـــلُ مَوْلُـــوداً فَلَـــسْتُ أَرى

ذا العَقْـــلِ مُـــسْتَغْنِياً عَـــنْ حـــادِثِ الأَدَبِ

إِنِّـــي رَأَيْتُهُمـــا كَالْمـــاءِ مُخْتَلِطـــاً

بِـــالتُّرْبِ تَظْهَـــرُ مِنْـــهُ زَهْـــرَةُ العُـــشُبِ

وَكُـــلُّ مَـــنْ أَخْطَأَتْـــهُ فِـــي مَوالِـــدِهِ

غَرِيـزَةُ العَقْـلِ حـاكَى الْـبُهْمَ فِـي النَّـسَبِ(٢)

وقال آخر، وفي «الإحياء»: أنه لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: [من الهزج]

---

(١) انظر: «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٠١).

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٢٨٦).

رَأَيْــــتُ العَقْـــلَ نَـــوْعَيْنِ   فَمَــــــسْمُوعٌ وَمَطْبُــــــوعُ
وَلا يَنْفَــــــعُ مَطْبُــــــوعٌ   إِذا لَـــــمْ يَـــــكُ مَـــــسْمُوعُ
كَمـــــا لا تَنْفَـــــعُ العَـــــيْنُ   وَضَـــوْءُ الـــشَّمْسِ مَمْنُـــوعُ[1]

قال الماوردي: واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لأنه نتيجة منه، وقد ينفك العقل الغريزي عن المكتسب فيكون صاحبه مسلوبَ الفضائل، موفور الرذائل كالأَنْوك الذي لا تجد له فضيلة، والأحمق الذي قل ما تخلو منه رذيلة.

قال: وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الأَحْمَقُ أَبْغَضُ خَلْقِ اللهِ إِلَيْهِ؛ إِذْ حَرَمَهُ أَعَزَّ الأَشْياءِ عَلَيْهِ»، انتهى[2].

وقال الراغب: العقل الغريزي بمنزلة البصر للجسد، والمستفاد بمنزلة النور، كما أن البدن متى لم يكن له بصر فهو أعمى، كذلك النفس متى لم يكن لها بصيرة؛ أي: عقل غريزي فهي عمية، وكما أن البصر متى لم يكن له نور لا ينتفع به، كذلك العقل متى لم يكن له نور من العلم مستفاد لم تجد بصيرته.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

---

(١) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٦)، و«إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٨٦)، وعندهما:

ولا ينفـــــع مـــــسموع   إذا لـــــم يـــــك مطبـــــوع

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٥).

ثم قال: ولما كان فقدان البصيرة أشنع من فقدان البصر لأنه بارتفاع البصيرة انتفاع النفس بالبصر قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦].

فذمهم بفقدان البصيرة تنبيهاً على أن فقدانها اختياري؛ إذ هو بتركهم استفادة العلم، وأكثر من أن البصر ضروري، انتهى.

وحاصل ما قررناه في هذا الفصل: أن اتصاف الإنسان بالأوصاف الحيوانية، وتخلقه بالطباع البهيمية مما يخالف الحكمة الإلهية، ويخل منه بالإنسانية، فلذلك جاء الشرع الشريف بالنهي عن التشبه بالبهائم والسباع في كثير من الخصال والطباع، وجاء القرآن العظيم بتمثيل الكفار والفساق بالأنعام، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٧١].

فمثل واعظ الكفار وداعيهم بالراعي إذا نعق بالغنم، وهي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً لا تفهم معناه، بل هم أسوء حالاً من الغنم لأنها قد تنزجر بنعق الراعي، وتنضم من نفشاتها، بخلاف الكفار ونحوهم؛ فإنَّ وعظ الواعظ لا يؤثر فيهم، ولا يزجرهم عن كفرهم وطغيانهم، وإذا ذكروا لا يذكرون، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[المرسلات: ٤٨].

فأشار سبحانه وتعالى إلى أنهم أسوء حالاً من الغنم بقوله في وصفهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[البقرة: ١٧١]؛ أي: صم عن سماع الحق، بكم عن النطق به، عَمِي عن رؤية مسالكه وطرائقه، فهم لا يعقلون

الحق حقاً فيتبعونه، ولا الباطل باطلاً فيتقونه.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[المدثر: ٤٩ ـ ٥١] شبههم في إعراضهم عن الحق ونفورهم عن استماع الذكر بالحمر النافرة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال: ٢٠ ـ ٢٢].

قال القاضي في تفسير عدهم من البهائم: ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله، انتهى[(١)].

وقد اشتملت الآية على نهي المؤمنين عن التشبه بالكافرين في سماعهم بالمسموع بشرِّ الدواب من حيث إن الدواب تسمع ولا تنتفع، وكذلك حكم هؤلاء ومن جرى على منوالهم، فالآية متضمنة لنهي المؤمنين عن التشبه بالكفار في شبههم بالبهائم فيما ذكر.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

قال مجاهد: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٩٨).

الآخرة، ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى، ولهم آذان لا يسمعون بها الحق، جعلهم كالأنعام، ثم جعلهم شراً من الأنعام، فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[الأعراف: ١٧٩]، ثم أخبر أنهم الغافلون. رواه ابن جرير[١].

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤].

قال مقاتل رحمه الله تعالى: البهائم تعرف ربها، وتهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها التي تعلِفها، وهؤلاء لا ينقادون، ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم[٢]؛ أي: فكانوا أضل منها من هذه الحيثية.

وقيل: كانوا أضل منها لأنها لا تعتقد صحة التوحيد والنبوة، ولا تعتقد بطلانها، وهؤلاء يعتقدون بطلانهما، فهم أسوء حالاً منها.

وروي أن سفيان الثوري رحمه الله تعالى كان يقول: إلهي! البهائم يزجرها الراعي فتنزجر عن هواها، وأراني لا يزجرني كتابك عما أهواه، فواسوأتاه[٣].

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٣٢).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦).

(٣) انظر: «الطبقات الكبرى» للشعراني (ص: ٧١).

* **لَطِيفَةٌ:**

قيل في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣]: إنهم كانوا يعبدون الحجر، فإذا رأوا أحسن منه تركوه وعبدوا الآخر، وكذلك البهائم إذا رعت في كلأ، فرأت غيره أبهج منه تركته، غير أن البهائم تنتفع بما ترعى أولاً وثانياً بخلاف هؤلاء؛ فإنهم لم تنفعهم آلهتهم التي عبدوها أولاً، ولا التي عبدوها ثانياً، فهم أضل من البهائم(١).

وروى أبو سليمان الخطابي بإسناده في «غريب الحديث»: أن رجلاً قال لعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه: إنك في هذه البلاغة والرأي الفاضل كنت تأتي حجراً فتعبده؟

فقال: والله لقد كنت أجالس أقواماً تزن حلومهم الجبال الرواسي، ولكن ما قولك في عقول كادَها خالقها؟(٢)

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «العقل» عن القاسم بن أبي بزة رحمه الله تعالى قال: إن رجلاً من بني قشير أتى النبي ﷺ فقال: إنا كنا نعبد في الجاهلية أوثاناً، وكنا نظن أنها تضر وتنفع، فقال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ اللهُ لَهُ عَقْلاً»(٣).

---

(١) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (٦/ ٩٢).

(٢) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٤٨٦).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله» (ص: ٣٨).

وقد آن أن نذكر جملة من الخصال التي يكون الإنسان بها متشبهاً بالبهائم، أو السباع، أو الحشرات، أو الهوام زجراً عنها، وتنفيراً منها.

١ ـ فمنها: الجهل من حيث هو.

وليس للإنسان تميز عن البهائم إلا بالعلم والعقل كما علمت، فإذا آثر الجهل على العلم كان أسوء حالاً من البهائم.

وروى ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: أنه قال: يا رسول الله! أتيتك من عند قوم هم وأنعامهم سواء.

قال ﷺ: «يا سَعْدُ! أَفَلا أُخْبِرُكَ بِأَعْجَبَ مِنْ ذلكَ؟ قَوْمٌ عَلِمُوا ما جَهِلَ هَؤُلاءِ، ثُمَّ جَهِلُوا كَجَهْلِهِمْ»[1].

وروى أبو نعيم عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: أنه ليالي قدم من اليمن سأله النبي ﷺ: «كَيْفَ تَرَكْتَ النَّاسَ بَعْدَكَ؟»

فَقالَ: تركتهم لا هَمَّ لهم إلا هم البهائم.

فقال له النبي ﷺ: «كَيْفَ أَنْتَ إِذا كُنْتَ في قَوْمٍ عَلِمُوا ما جَهِلَ هَؤُلاءِ، وَهَمُّهُمْ مِثْلُ هَمِّ هَؤُلاءِ؟»[2].

لكن ضعَّف أبو نعيم هذا الحديث؛ فإن معاذاً إنما قدم من اليمن بعد وفاته ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٤٢).

قلت: ولعل هذا السؤال لمعاذ إنما وقع من أبي بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره، فالتبس على بعض الرواة.

ومن أمثال الناس في الجهل: كأنه ديك حجل.

وهو مأخوذ من قول حذيفة رضي الله تعالى عنه: إنما يهلكون إذا لم يعرف لذي الشيب شيبه، وإذا صرتم تمشون الركبات كأنكم يعاقيب حجل؛ لا تعرفون معروفاً، ولا تنكرون منكراً[1].

والركبات: جمع ركبة: المرة من الركوب.

ومعنى تمشون الركبات: تمشون راكبين رؤوسكم في الباطل من غير تثبت؛ كما قاله في «النهاية»[2].

واليعاقيب: جمع يعقوب، وهو ذكر الحجل.

والأثر أورده الزمخشري في «الفائق».

ومما حيَّر العقولَ سعةُ الدنيا لأكثر الجهال، وضيقُها على أكثر العلماء، أو على أفاضلهم، أو على كثير منهم، ولا حيرة عند من كوشف بالحكمة في ذلك.

والحكمة فيه أن أهل العلم والكمالات لو خُصُّوا بسعة الرزق في الدنيا وطيب العيش فيها، لحسب الناس أن الرازق لهم العلم والكمال.

---

(١) انظر: «الفائق» للزمخشري (٢/ ٨١)، ورواه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص: ١٢١).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٢٥٧).

وأيضاً: فإن الدنيا لو كانت لها عند الله قيمة لخص بها أولياءه من أهل العلم والفضل.

وفي الحديث: «لَوْ كانَتِ الدُّنْيا تُساوِي عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوْضَةٍ ما سَقى كافِراً مِنْها شَرْبَةَ مَاءٍ»[1].

وأيضاً: لو أن الله تعالى جعل الرزق وسعته وطيب عيشه على الفضل والكمال والعلم، لم يكن للبهائم فيها نصيب كما قالت الحكماء: لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم[2].

فنظمه أبو تمام، فقال: [من الطويل]

يَنالُ الفَتَى مِنْ عَيْشِهِ وَهْوَ جاهِلٌ
وَيُكْدي الفَتَى مِنْ دَهْرِهِ وَهْوَ عالِمُ

وَلَوْ كانَتِ الأَرْزاقُ تَجْرِي عَلى الْحِجى
هَلَكْنَ إِذاً مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهائِمُ

فاقتضت الحكمة الإلهية والكرم الربوبي شمول رزقه لخلقه، وتوسعة الرزق تارة إحساناً إلى المحسن وبرّاً به، وإملاءً للمسيء ومكراً به، وتضييقه تارة تمحيصاً للمؤمن وحماية له من بطر المعيشة، وطغيان النفس، وعقوبةً للفاجر، وتأديباً للمخلط ليرجع إلى الإخلاص، ويعود

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٤٢).

إلى الاعتدال، وإيذاناً بأنه يفعل ما يريد، وهو الولي الحميد، والغني المجيد.

٢ ـ ومنها: أن يكون الإنسان من حملة العلم الشريف، ولا ينتفع بعلمه أو يجتهد في تحصيل الكتب العلمية، ويغالي في أثمانها، ويرفع في سومها، ويزاحم العلماء في اقتنائها، وهو جاهل بما فيها.

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الجمعة: ٥].

قال القرطبي: في هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه، ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء، انتهى[١].

قال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: إن الحمار لا يدري سفر على ظهره، أو زبل[٢].

وقال الشاعر: [من البسيط]

إِنَّ الـــرُّواةَ عَلـــى جَهْـــلٍ بِمـــا حَمَلُـــوا

مِثْـــلُ الْحَمِيـــرِ عَلَيْهـــا يُحْمَـــلُ الـــوَدَعُ

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٤).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٩٤).

لا الــوَدْعُ يَنْفَعُــهُ حَمْــلُ الْحِمــارِ لَــهُ

وَلا الْحِمــارُ بِحَمْــلِ الــوَدْعِ يَنْتَفِــعُ[1]

وقال آخر: [من الطويل]

زَوامِــلُ للأَسْــفارِ لا عِلْــمَ عِنْــدَهُمُ

يَفِيدُونَــــهُ إِلاَّ كَعِلْــــمِ الأَبَـــاعِرِ

لَعَمْــرُكَ مــا يَــدْرِي البَعِيــرُ إِذا غَــدا

بِأَوْسـاقِهِ أَوْ راحَ مــا فِــي الغَرائِــر

وروى عبد الكريم بن السمعاني في «ذيل تاريخ بغداد» عن مطر الوراق رحمه الله تعالى قال: إذا سألت العالم عن مسألة فحك رأسه، فاعلم أن الحمار قد بلغ القنطرة[2].

ومعناه: أن السؤال يميز بين العالمين والجهال، كما أن الخيل والبغال والحمير تتساوى في المسير ما دامت السهول، فإذا بلغت القناطر والمصاعد ظهرت نهضة الفرس والبغل، وعَيُّ الحمار.

وقلت في المعنى: [من الرجز]

إِذا سَــأَلْتَ مُتَعَمِّمــاً فَحَــكّْ

بِرَأْسِــهِ أَوْ خَلْــفَ أُذْنِــهِ دَلَــكْ

---

(١) البيتان لعمر الكلبي، كما في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ١٣١).

(٢) ورواه ابن الجوزي في «أخبار الظراف والمتماجنين» (ص: ٨٠).

كــــانَ كَأَنَّــــهُ حِمـــــارٌ بَلَـــغَ الــــــ

ـمَـــصْعَدَ فَــانْحَطَّ وَقَــدْ كــانَ سَــلَكْ

يــــا خَجْلَــةَ الْجاهِــلِ حِــينَ يُبْتَلَــى

بِــــسائِلٍ يَكْـــسِفُ مِنْـــهُ مـــا مَلَــكْ

وروى أبو نعيم عن أحمد بن حميد المروزي قال: قيل لعبدالله ابن المبارك رحمه الله تعالى: إنَّ إسماعيل بن عُلية قد ولي الصدقات، فكتب إليه: يا جاعِلَ العِلْمِ لَهُ بازِياً... الأبيات الآتية.

وروى ابن السمعاني في «أماليه» عن عبدالله بن محمد الضبي قال: كنا عند عبدالله بن المبارك، وأخبر أن ابن علية ولي على الصدقات، فكتب إليه: [من السريع]

يــــا جاعِـــلَ العِلْـــمِ لَـــهُ بازِيـــاً

يَـــــصْطادُ أَمْـــــوالَ الْمَـــــساكِينِ

احْتَلْــــــتَ لِلــــــدُّنْيا وَلَــــذَّاتِها

بِحِيلَــــــةٍ تَــــذْهَبُ بِالــــــدِّينِ

فَــــصِرْتَ مَجْنُونــــاً بِهـــا بَعْــدَما

كُنْــــــتَ دَواءً لِلْمَجــــــانِينِ

أَيْـــنَ رِواياتُـــكَ فِـــي سَـــرْدِها

عَـــنِ ابْـــنِ عَـــوْنٍ وَابْـــنِ سِـــيرِينِ

أَيْــــنَ رِواياتُــــكَ فِيمــــا مَــــضى
لِتَــــرْكِ أَمْــــوالِ الــــسَّلاطِينِ
إِنْ قُلْــــتَ أُكْرِهْــــتُ فَمــــاذا كَــــذا
زَلَّ حِمــــارُ العِلْــــمِ فِــــي الطِّــــينِ

قال: فلما رآها ابن علية بكى، واستعفى؛ يعني: من الولاية[1].

وتقدمت هذه القصة من طريق آخر على وجه آخر في التشبه بأهل الكتاب.

وحُدِّثت عن شيخ الإسلام الوالد رحمه الله تعالى: أنه كان يحكي أن بعض الطلبة بمصر كان يقال له: حمار الروضة؛ لأنه كان يحفظ كتاب الروضة عن ظهر قلب، ولا يكاد يفهم مسائلها، فإذا احتاجت الطلبة محلاً منها وهو حاضر قيل له: اقرأ من موضع كذا، ومن باب كذا، فيقرأ حتى يقال له: قف، فيقطع القراءة.

وفي تسميته حمار الروضة تورية لطيفة بروضة المقياس؛ لأنها تخصب في وقت الخصب، فتكون أوفق لدواب الأرض مرعىً، وأخصبَ لها خلاً.

ومن لطائف ابن الدهان النحوي: [من المجتث]

---

(١) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٣٧).

لا تَحْسَبَنْ أَنَّ بِالْكُتْـ ... ـبِ مِثْلَها سَتَصِيرُ

فَلِلدَّجاجَةِ رِيشٌ ... لَكِنَّها لا تَطِيرُ[1]

وما أحسن قول ابن الوردي: [من المديد]

مَنْ عَلِمَ العِلْمَ وَهْوَ لاهٍ ... عَمَّا أَتاهُ بِهِ النَّذِيرُ

فَذاكَ مِثْلُ الدَّجاجِ عِنْدِي ... لَهُ جَناحٌ وَلا يَطِيرُ

وقال الوالد رحمه الله تعالى في شرحه على «الألفية» في باب الحال: [من الرجز]

لَطِيفَةٌ مِنْ عالِمٍ قَدْ سَأَلَهْ ... شَخْصٌ هَلِ الْحالُ مِنَ الْمُضافِ لَهْ

يَجُوزُ وَهْوَ حامِلٌ أَسْفاراً ... قالَ نَعَمْ وَاسْتَشْهَدَ اسْتِظْهارا

بِقَوْلِهِ كَمَثَلِ الْحِمارِ ... يَحْمِلُ أَسْفاراً عَلى البِدارِ

فَأَطْرَقَ السَّائِلُ مِنْهُ وَحَصَلْ ... لَهُ بِذا القَوْلِ حَياءٌ وَخَجَلْ

قلت:

* لَطِيفَةٌ أُخْرى مِنْ مَشْرَبٍ آخَرَ:

روى الشيخان عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيامَةِ فَيُلْقَى في

---

(١) انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصفهاني (٣/ ٢٢)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٣٨٣).

النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ؛ أي: أمعاؤه، فَيَدُوْرُ كَمَا يَدُوْرُ الحِمارُ في الرَّحَا، فَيَطُوْفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُوْلُوْنَ: مَا لَكَ؟ فَيَقُوْلُ: كُنْتُ آمُرُ بِالخَيْرِ وَلا آتِيْهِ، وَأَنهى عَنِ الشَّرِ وَآتِيْهِ»[1].

قلت: فالعالم الذي لم ينتفع بعلمه يعيش في الدنيا مثل الحمار، ويدور في النار يوم القيامة كما يدور الحمار في المدار.

وفي المعنى قلت: [من الكامل]

حَرِّرْ عُلُومَكَ ما اسْتَطَعْتَ وَلا تَكُنْ

مِثْلَ الْحِمارِ يُحَمَّلُ الأَسْفارا

وَاعْمَلْ بِعِلْمِكَ إِنَّ عَبْداً لَمْ يَكُنْ

بِالْعِلْمِ يَعْمَلُ سَوْفَ يَصْلَى النَّارا

فَيَدُورُ فِيها كَالْحِمارِ عَلى الرَّحا

لا يَبْرَحَنَّ عَلى الْمَدَى دَوَّارا

فَيَطُوفُ فِي الدُّنْيا حِماراً سارِحاً

وَيَدُورُ فِي نارِ الْجَحِيمِ حِمَارا

* تنْبِيهٌ:

وقع تشبيه العالم إذا لم ينتفع بعلمه بالشاة التي ترعى ما لا تنتفع به فيما روى ابن أبي شيبة عن أبي وائل رحمه الله تعالى قال: ما شبهت

---

(١) تقدم تخريجه.

قراء زماننا هذا إلا بدراهم مزوقة، أو غنم رعت الحمض، فنفخت بطونها، فذبح منها شاة، فإذا هي لا تنقي[1].

٣ ـ من الخصال المشار إليها: أن يكون الإنسان عالماً ولا يعمل بعلمه، أو يحمله طلب الدنيا والرغبة فيها على مخالفة ما يعلم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

قال مقاتل: رضي بالدنيا[2].

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[الأعراف: ١٧٦].

قال الجوهري في «الصحاح»: لَهَث الكلب، يلهث لَهْثاً، ولُهثاً ـ بالضم ـ: إذا أخرج لسانه من التعب والعطش[3].

قلت: مثَّل الله تعالى العالم إذا عمل بخلاف ما يعلم لطلب الدنيا، وهو متكالب على طلبها، واتبع عليها بكليته بالكلب اللاهث بها إن طردته أولم تطرده لشدة عطشه وكَدِّه، فإن الإنسان إذا اتبع هواه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٩١٠).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ٣٠٨).

(٣) انظر: «الصحاح» للجوهري (١/ ٢٩٢)، (مادة: لهث).

في طلب الدنيا، واسترسل في شهواته منها، فإنه لا يكاد ينتهي منها إلى آخر، ولا يشبع مما حصل له من مستحسناتها، ولا يروى مما شرب من خمر شهواتها، ولا يفيق من سكره منها كما في الحديث: «لَوْ كانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لابْتَغَى لَهُمَا ثالِثاً»[1].

فلا يستريح من تعب طلبها، ولا يسكن من نصب رغبها، فحينئذ لا ينفع فيه زجر، ولا ينجع فيه وعظ، فهو كالكلب اللاهث حملت عليه أو تركته لأن قلبه مات من الشهوات، وبردت حرارة الموعظة فيه.

قال ابن جريج رحمه الله تعالى: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، كذلك الذي يترك الهدى لا فؤاد له، وإنما فؤاده منقطع كان ضالاً قبلُ وبعدُ. رواه أبو الشيخ في «تفسيره»، وغيره[2].

وقال الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»: إنما شبه الله تعالى العالم المنسلخ من الآيات بالكلب من بين سائر السباع لأن الكلب ميت الفؤاد، وإنما لهث لموت فؤاده، وسائر السباع ليست كذلك.

قيل: وسبب موت فؤاد الكلب: أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض لاذت به سائر السباع، وسكنت إليه، ونَبَحه الكلب، فضربه آدم بعصا في يده، فانقطع قلبه.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٧٢) واللفظ له، ومسلم (١٠٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) ورواه الطبري في «التفسير» (٩/ ١٢٩).

ومن ثم لا يطيق الكلب العصا متى رفعت له[1].

وقلت في المعنى: [من مجزوء الكامل المذيَّل]

إنَّ الَّــــذِي حَمَـــلَ العُلُـــو ... مَ وَلَـــمْ يَكُـــنْ مِمَّـــنْ أَجَـــادْ

بَـــلْ آثَـــرَ الـــدُّنْيا بِحَيْـــ ... ـــثُ لأَجْلِها بِالـــدِّينِ جـــادْ

لِـــلأَرْضِ أَخْلَـــدَ فَـــالْتَوَى ... عَـــنْ مَـــنْهَجِ التَّقْـــوى وَحَـــادْ

فَهْـــوَ الَّـــذِي نَطَـــقَ الكِتَـــا ... بُ بِذَمِّـــهِ بَـــيْنَ العِبَـــادْ

كَالْكَلْـــبِ يَلْهَـــثُ دائِمـــاً ... وَالْقَلْـــبُ مُنْقَطِـــعُ الفُـــؤادْ

وهذه الآية نزلت في بلعام بن باعورا على أشهر الأقوال.

ذكر القرطبي أنه كان بحيث إذا نظر يرى العرش، وكان في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه، ثم صار بحيث إنه كان أول من صنف كتاباً أن ليس للعالم صانعاً. انتهى[2].

وقال أكثر المفسرين: كان مستجاب الدعوة، فأعطاه ملكُ الجبارين مالاً عظيماً، وجوائز كثيرة حتى يدعو على موسى عليه السلام في عسكره، فدعا، فرجع الدعاء عليه وعلى قومه[3].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: بعث موسى نبي الله عليه السلام بلعام بن باعورا إلى ملك

---

(١) انظر: «الأمثال من القرآن والسنة» للحكيم الترمذي (ص: ٢٧).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٣١٩).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ١٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٧).

مدين يدعوهم إلى الله تعالى، وكان مجاب الدعوة، وكان موسى عليه السلام يقدمه في الشدائد إذا نزلت من السماء يدعو ويؤمِّن موسى، فأقطعه؛ يعني: ملك مدين، وأعطاه، فترك دين موسى، وتبع دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾[الأعراف: ١٧٥][1].

قال القرطبي: وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم عام في كل من أوتي القرآن فلم يعمل به.

وقيل: هو في كل منافق.

قال: والأول أرجح[2].

وقال الإمام الوالد في «تفسيره»: [من الرجز]

وَذَلِكَ الْمِثالُ شامِلٌ لِمَنْ ... أُوْتِيَ عِلْماً وَبِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ

*** تَنْبِيهٌ:**

لا يختص العالم المتكالب على الدنيا بالتشبيه بالكلب، بل كل متكالب على الدنيا فهو كالكلب، وعليه قوله ﷺ في حديث أنس رضي الله تعالى عنه: «لا تَطْرَحنَّ الدُّرَّ في أَفْوَاهِ الكِلابِ».

قال محمد بن بكار ـ أحد رواته ـ: أظنه يعني العلم. أخرجه أبو حفص بن شاهين[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٣٢١).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٣).

(٣) تقدم تخريجه.

قلت: وكأنه ﷺ نهى أن يستودع العلم أهل الدنيا المتكالبين عليها؛ فإن ذلك إضاعة للعلم، ومن هنا كان بعض العلماء إذا جاءه طالب لا يعلمه حتى يستكشف عن نيته؛ هل يريد بالعلم وجه الله تعالى، أو طلب المناصب والولايات، فإن شم منه رائحة الإخلاص علمه، وإلا تركه.

ولطف أبو الحسين الجزار الأديب المشهور في إطلاق الكلاب على أهل الدنيا بقوله: [من الخفيف]

لا تَعِبْنِي بِصَنْعَةِ القَصَّابِ
فَهْيَ أَزْكى مِنْ عَنْبَرِ الآدابِ
كانَ فَضْلِي عَلى الكِلابِ فَمُذْ صِرْ
تُ أَدِيباً رَجَوْتُ فَضْلَ الكِلابِ

ومن المشهور الجاري على الألسنة: الدنيا جيفة، وطلابها كلابٌ[1].

ولا يعرف هذا في أصول الحديث أصلاً، وإنما روى البزار عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ: دَعُوا الدُّنْيَا لأَهْلِهَا، مَنِ اتَّخَذَ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ مِمّا يَكْفِيهِ أَخَذَ جِيْفَةً وَهُوَ لا يَشْعُرُ»[2].

---

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣٨) عن علي رضي الله عنه، ويروى مرفوعاً ولا يصح.

(2) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٥٤): رواه البزار، وقال: =

وروى أبو نعيم، والديلمي عن حذيفة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لَيَجِيْئَنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ أَقْوَامٌ وَأَعْمَالُهُمْ كَجِبَالِ تِهَامَةَ، فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلى النَّارِ».

قالوا: يا رسول الله! مصلين؟

قال: «نعَمْ، كَانُوا يُصَلُّوْنَ، وَيَصُوْمُوْنَ، وَيَأْخُذُوْنَ وهناً مِنَ اللَّيْلِ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ وَثَبُوا عَلَيْهِ»[1].

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» بنحوه من حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه.

وصفهم بالوثوب، وهو من صفات السباع والكلاب.

وقال أبو الحسن بن جهضم الهمذاني في «بهجة الأسرار»: حدثنا أبو الفتح أحمد بن الحسن، ثنا على بن جعفر عن أبي موسى، عن أبي يزيد؛ يعني: البسطامي رحمه الله تعالى قال: خلق الله تعالى إبليس كلباً من كلابه، وخلق الدنيا جيفة لإبليس، ثم قعد إبليس على آخر طريق الدنيا وأول طريق الآخرة، وأعمال الخلق كلها مارة به،

= لا يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه. وفيه هانئ بن المتوكل، وهو ضعيف.

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (1/ 178) عن سالم مولى أبي حذيفة، والديلمي في «مسند الفردوس» (8875) عن أنس بن مالك ﷺ. وضعف العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (2/ 876) إسناديهما.

وقيل: انظر؛ كلما وجدت في عمل عبد من عبادي شيئاً من جيفتك فقد سلطتك عليه.

وروى أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقاته»، وأبو نعيم عن أحمد بن أبي الحواري قال: الدنيا مزبلة، ومجمع للكلاب، وأقل من الكلاب من يعكف عليها، وإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف، والمحب لها لا يزايلها بحال[1].

ورأيت بخط بعض العلماء القدماء أبياتاً منسوبة للإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أَلَمَّ فيها بهذا المعنى، فقال: [من الطويل]

أَأَنْعُمُ عَيْشاً بَعْدَما حَلَّ عارِضِي
طَلائِعُ شَيْبٍ لَيْسَ يُغْنِي خِضابُها

وَلَذَّةُ عَيْشِ الْمَرْءِ قَبْلَ مَشِيبِهِ
فَقَدْ فَنِيَتْ نَفْسٌ تَوَلَّى شَبابُها

إِذا اسْوَدَّ لَوْنُ الْمَرْءِ وَابْيَضَّ شَعْرُهُ
تَنَغَّصَ مِنْ أَيّامِهِ مُسْتَطابُها

خَبَتْ نارُ نَفْسِيَ بِاشْتِعالِ مَفارِقِي
وَأَظْلَمَ لَيْلِي إِذْ أَضاءَ شِهابُها

---

(١) رواه السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٩٤).

فَيا نَوْمَةً قَدْ عَشَّشَتْ فَوقَ هامَتِي

عَلى الرَّغْمِ مِنِّي حِينَ طارَ غُرابُها

رَأَيْتِ خَرابَ العُمْرِ مِنِّي فَزُرْتِنِي

وَمَأْواكِ مِنْ كُلِّ الدِّيارِ خَرابُها

فَلا تَمْشِيَنْ فِي مُنْكَرِ الأَرْضِ فاخِراً

فَعَمَّا قَلِيلٍ يَحْتَوِيكَ تُرابُها

وَأَحْسِنْ إِلَى الأَحْرارِ تَمْلِكْ رِقابَهُمْ

فَخَيْرُ تِجاراتِ الكِرامِ اكْتِسابُها

فَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيا فَإِنِّي طَعِمْتُها

وَسِيقَ إِلَيَّ عَذْبُها وَعَذابُها

فَلَمْ أَرَها إِلاَّ غُرُوراً وَباطِلاً

كَما لاحَ فِي ظَهْرِ الفَلاةِ سَرابُها

وَما هِيَ إِلاَّ جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ

عَلَيْها كِلابٌ دَأْبُهُنَّ اجْتِذابُها

فَإِنْ تَجْتَنِبْها كُنْتَ سِلْماً لأَهْلِها

وَإِنْ تَجْتَذِبْها نازَعَتْكَ كِلابُها

فَطُوبَى لِنَفْسٍ وَطِئَتْ قَعْرَ دارِها

مُغَلَّقَةَ الأَبْوابِ مُرْخًى حِجابُها

فَيــا رَبِّ هَــبْ لِــي تَوْبَــةً قَبْــلَ مِيْتَتِــي
أَفُــوزُ بِهــا مِــنْ قَبْــلِ يُغْلَــقُ بابُهــا

وإذا أفادت البصائر أن الشره في الدنيا في مقام كلب شره في جيفة، وأهل العلم هم أهل البصائر، وإذا شره العالم خصوصاً البالغ في العلم فيها، فقد حير من دونه إذا رغب عنها، ويرى من فوقه رغب فيها، وأضل من ليس من أهل العلم إذا أراد الاقتداء لأنه إذا رأى من معه طرف من العلم يزهد فيها ويرغب عنها، ورأى الأعلم والأبصر يرغب فيها اقتضى رأيه أن يقتدي بالأعلم، ومن ثم تعلم أنه ليس في الدنيا أفتن لعقول الناس من العلماء المفتونين.

وقد روى الدينوري في المجالسة عن أبي عبدالله القلانسي قال: سمعت إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يتمثل بأبيات من الشعر: [من المتقارب]

رَأَيْــتُ الــذُّنوبَ تُميــتُ القُلُــوبَ
وَيُتْبِــعُها الــذُّلَّ إِدْمانُهــا
وَتَــرْكُ الــذُّنوبِ حَيــاةُ القُلُــوبِ
وَالْخَيْــرُ لِلــنَّفْسِ عِــصْيانُها
وَهَــلْ أَهْلَــكَ الــدِّينَ إلاَّ الْمُلُــوكُ
وَأَحْبَــارُ سَــوْءٍ وَرُهْبانُهــا

فَبَــــاعُوا النُّفُـــوسَ فَلَــــمْ يَرْبَحُـــوا

وَلَــــمْ تَغْــــلَ بِــــالبَيْعِ أَثْمانُهَــــا[1]

والمشهور أن هذه الأبيات لعبدالله بن المبارك، وكان بينه وبين إبراهيم بن أدهم تمام الصداقة رضي الله عنهما[2].

وروى الدينوري عن ابن حبيق عن موسى بن طريف قال: كنت عند يوسف بن أسباط، فإذا كلب يبحث في مزبلة، فقال: والله ما بعث الله هذا الكلب يبحث في المزبلة في وجهي إلا أني حدثت نفسي بشيء من أمر الدنيا[3].

٤ ـ ومن الخصال المشار إليها: تشبه المتكثر بالعلوم التي لا تنفع، فتحسبه عالماً، فإذا طلبت عنده البغية من العلم لم تجد عنده شيئاً بالدابة المنتفخة المتورمة، حتى إذا تناولتها بها لم تغن عنك شيئاً.

روى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن شقيق بن سلمة رحمه الله تعالى قال: مثل قراء هذا الزمان كغنم ضوائن، ذات صوف عِجاف أكلت من الحمض، وشربت من الماء حتى انتفخت خواصرها،

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٣٦). وزاد بيتاً فيه موضع الاستشهاد:

لقـد وقـع القـوم علـى جيفـة ... يبـــين للعاقــــل إنتانهــــا

(٢) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٢٧٩).

(٣) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٤٢٢).

فمرت برجل فأعجبته، فقام إليها، فعبط شاة منها، فإذا هي لا تنقي، ثم عبط أخرى فإذا هي كذلك، فقال: أف لك سائر اليوم[1].

قال في «القاموس»: عبط الذبيحة يعبطها: نحرها من غير علة وهي سمينة[2].

والمعنى أنه نحرها على أنه عبط بها، حسبها سماناً فإذا هي عجاف؛ أي: ذهب سمنها وليس فيها إلا الصوف.

لا تنقى ـ بفتح أوله ـ؛ أي: لا نقي لها؛ أي: لا مخ لعظمها.

٥ ـ ومنها: تشبه علماء السوء، وقراء السوء، وعباد السوء بالذئاب والخنازير في أكل الدنيا من غير مبالاة بحلال أو حرام.

روى ابن عبد البر في «فضل العلم» عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوْحَى اللهُ تَعَالى إِلى بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ: قُلْ لِلَّذِيْنَ يَتَفَقَّهُوْنَ لِغَيرِ الدِّيْنِ، وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيرِ العَمَلِ، وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، يَلْبَسُونَ للنَّاسِ مُسُوكَ الكِبَاشِ وَقُلُوْبُهُمْ كَقُلُوْبِ الذِّئَابِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَقُلُوْبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبرِ: لي يُخَادِعُونَ، وَبِـيْ يَسْتَهْزِؤُونَ، لأُتِيْحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَكِيْمَ حَيْرَانَ»[3].

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٦٥).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٨٧٤) (مادة: عبط).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٨٩)، وكذا الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤٢).

وروى الدارمي عن معاذ ﷺ قال: سيبلى القرآن في قلوب أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت، يقرؤونه ولا يجدون له شهوة ولا لذة، يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا: سيبلغ بنا، وإن أساؤوا قالوا: سيغفر لنا؛ لا نشرك بالله شيئاً[1].

وروى أبو نعيم عن كعب رحمه الله تعالى قال: قال موسى عليه السلام: تلبسون ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الخنازير والذئاب الضواري، فإن أحببتم أن تبلغوا ملكوت السماوات فأميتوا قلوبكم لله تعالى[2].

إنما شبه قلوبهم بقلوب الخنازير من حيث غلبة الشهوة عليها حتى تتجاوز الحلال إلى الحرام، كما تتجاوز شهوة الخنازير بها إلى أكل العذرات، وبقلوب الذئاب من حيث العدوان والجبروت والطغيان.

وقرأت بخط الشيخ برهان الدين بن جماعة لبعضهم: [من الخفيف]

عُلَماءَ البِلادِ أَنْتُمْ ذِئابٌ
سَتَرَتْكُمْ عَنِ العُيُونِ الثِّيابُ
غَيْرَ أَنَّ الذِّئابَ تَصْطادُ وَحْشاً
وَمَباءَتُها القِفارُ اليَبابُ

(١) رواه الدارمي في «السنن» (٣٣٤٦).
(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٦٥).

وَتَـــصِيدُ العُـــدُولُ مـــالَ اليَتـــامَى

بِانْقِـــضاضٍ كَمـــا يَـــصِيدُ العُقـــابُ

عَمَـــرُوا مَوْضِـــعَ التَّـــصَنُّعِ مِـــنْهُمْ

وَمَكـــانُ اليَقِـــينِ مِـــنْهُمْ خَـــرابُ

٦ ـ ومنها: تشبه قضاة السوء، وحكام السوء بالذئاب في أكل أموال الناس بالباطل، وبالعقعق في اختلاس أموالهم بالحيل.

وقالوا في المثل: ألص من عقعق[١].

وأنشد ابن قتيبة في «عيون الأخبار» لبعضهم يهجو قاضياً: [من الطويل]

[. . .][٢] يحيـــى ســـعيداً وَخالِـــداً

وَلَـــيْسَ عَلـــى ذَنْـــبِ القُـــضاةِ أَمِـــينُ

أَلا إِنَّمـــا حَمَّلْـــتُمُ الـــدِّينَ عَقْعَقـــاً

لَـــهُ نَحْـــوَ عَلَـــوِيِّ البِـــلادِ حَنِـــينُ

وقرأت بخط الشيخ برهان الدين بن جماعة: دخل على الحجاج رجل من بني فهد من قضاعة، فقال الحجاج: إيه، ألست القائل: [من الطويل]

---

(١) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ١٨٠)، والعقعق: طائر نحو الحمام، وهو نوع من الغربان.

(٢) غير واضح في «أ» بمقدار كلمة.

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ الْحَـــقَّ مُـــذْ مـــاتَ مُـــصْعَبُ

دَفَنَّـــــاهُ وَاسْـــــتَرْعَى الأَمانَـــــةَ ذِئْـــــبُ

أَنَحْـــــنُ أُنـــــاسٌ أَوْثَقَتْنـــــا ذُنُوبُنـــــا

أَمَّـــــا لِثَقِيـــــفٍ حَوبَـــــةٌ وَذنـــــوبُ

يا سياف! اضرب عنقه.

فقال رجل كان إلى جنبه سراً: ما في هذا ما يوجب القتل.

فسمعها الحجاج، فقال: ابدأ بهذا فاقتله.

فقال رجل إلى جنبه سراً: رجل أنكر منكراً يقتل؟

فقال الحجاج: ابدأ به قبلهما.

فسبح رجل كان حاضراً أو هلَّل، فقال: ابدأ به قبلهم، فقتلوا جميعاً.

ومن أمثالهم: من استرعى الذئب ظلم، وذلك لأنه أسلمها للتلف[1].

وأنشدوا: [من الوافر]

وَراعِـــي الـــشَّاءِ يَحْمِـــي الـــذِّئْبَ عَنْهـــا

فَكَيْـــفَ إِذا الرَّعَـــــاءُ لَهـــــا ذِئـــــابُ

وأحوال الحكام الآن حتى بعضهم على بعض أحوال الذئاب، يظلمون الناس، ثم يظلم أقواهم من دونه، كما أن الذئب إذا جاع

---

(١) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ٢٦٥).

عوى فتجتمع له الذئاب، ويثِبُ بعضها إلى بعض، فإذا وطئ واحد منها تواثبت سائر الذئاب عليه فأكلته، حتى إذا ظفرت بإنسان فاجتمعت عليه وهي حريصة على أكله، فإذا جرح الإنسان واحداً منها فَدَماه، تركت الذئاب الإنسان، ووثبت على المدمي منها، فمزَّقته.

قال الفرزدق يعاتب صديقاً أعان عليه: [من الطويل]

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمَّا رَأَى دَماً

بِصاحِبِهِ يَوْماً أَحالَ عَلَى الدَّمِ[1]

ومن هذا ما قيل في المثل: أعق من ذئبة؛ لأنها تكون مع ذئبها فيدمى، فإذا رأته قد دمي وثبت عليه فأكلته[2].

قال رؤبة بن العجاج: [من الرجز]

وَلا تَكُونِي يا ابْنَةَ الأَثِيمِ

وَرْقاءَ دَمِّي ذِئْبُها الْمُدْمَى[3]

أراد بالورقاء: الذئبة.

وقال آخر: [من الطويل]

---

(١) انظر: «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحي (٢/ ٣٦٠)، و«الأغاني» للأصبهاني (١٠/ ٣٠٩).

(٢) انظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ٦٩).

(٣) البيت لرؤبة. انظر: «مجالس ثعلب» (ص: ٧٢).

فَتَـىً لَـيْسَ لابْــنِ العَــمِّ كَالــذِّئْبِ إِنْ رَأَى

بِـــصاحِبِهِ يَوْمــاً دَمــاً فَهْــوَ آكِلُــهُ[1]

وكذلك حال الظلمة وأعوانهم يعتادون الظلم حتى لو وقع واحد منهم حملوا عليه، وتواثبوا إليه، لا يرحمه منهم راحم، وكل منهم له راجم.

كما تقول العوام في أمثالهم: إذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها.

٧ ـ ومنها: تشبه علماء السوء في تكالبهم، وتهافتهم، وتغايرهم على المناصب، والولايات ونحوها بالتيوس.

روى الحاكم، والخطيب في «تاريخيهما» عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتي عَلَى أُمَّتي زَمَانٌ يَحْسُدُ الْفُقَهَاءُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَيَغَارُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَتَغَايُرِ التُّيُوسِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ»[2].

---

(١) البيت لزينب بنت الطثرية ترثى أخاها يزيد، وتروى للعجير السلولي. انظر: «الأمالي» لأبي علي القالي (٢/ ٨٧)، و«الأغاني» للأصبهاني (٨/ ١٩٢).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٠٢)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٦٨٢). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٩٢): هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وإسحاق بن إبراهيم متهم بوضع الحديث.

٨ ـ ومنها: تشبه علماء السوء وقراء السوء في أكل بعضهم لمال بعض، وغيره بالديدان.

وفي معناه: أَخْذُ بعضِهم منصبَ الآخر من تدريس، أو ولاية، أو غيرهما.

وكذلك أكل بعضهم للحم الآخر بالغيب.

ومن العجائب أنهم يقرؤون في دروسهم ومحاضراتهم أن غيبة العلماء والقراء كبيرة، ثم يقع بعضهم في بعض في غير ذات الله تعالى بخلاف الغيبة في ذات الله تعالى، وهي بيان حال الراوي ونحوهما فيه نصيحة.

ولعل مَنْ وصفناهم هم المشار إليهم بقوله ﷺ: «سَيَكُوْنُ في آخِرِ أُمَّتي دِيْدَانُ الْقُرَّاءِ؛ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُمْ». رواه أبو نعيم من حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه[١].

ويجوز أن تكون الإشارة بديدان القراء إلى حثالتهم، وأراذلهم الذين استبذلوا أنفسهم لأهل الدنيا لأجل الدنيا، ودخلوا في طلبها منهم كل مدخل، وكثيراً ما كنت أشبه أهل هذا العصر إلا قليلاً منهم لا يكاد يوجد بدود القبر؛ فإنها تأكل لحم الميت حتى إذا لم تبق منه شيئاً، ثم يأكل أقوياؤها ضعفاءها حتى إذا لم يبق إلا النزر القليل كالواحدة فتموت جوعاً.

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٥)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٤٢٣).

٩ ـ ومنها: التشبه بالبهائم في عدم الانتفاع بالموعظة وإن سمعها.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾[الفرقان: ٤٤] قال: مثل الذين كفروا كمثل البعير والحمار والشاة؛ إن قلت لبعضهم: كل، لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، كذلك الكافر إن أمرته بخير، أو نهيته عن شر، أو وعظته، لم يعقل ما تقول، غير أنه يسمع صوتك. رواه ابن أبي حاتم(١).

والذم في الآية لم يقع على الكفر ـ وإن كان قبيحاً ـ بل على ما اتصف به الكفار من عدم الاستماع إلى الخير، وعدم فهمه وتعقله، فإذا اتصف المؤمن بذلك كان مؤاخذاً في ذلك من وجهين؛ من حيث إنه كان كالأنعام بل أضل منها، ومن حيث إنه تشبه بالكفار في ذلك.

١٠ ـ ومنها: تشبه الملوك، والأمراء، والمتجوهين في قهر الناس، والشماخة عليهم، والزهو، والتكبر، والتسلط بالجبروت بالأسد، أو النسر، وفي أكل أموال الناس، والانتهاب بالبهائم، والذئاب، والكلاب.

ومن هنا مُسِخَ بختنصر، وهو أحد الملكين الكافرين اللذين ملكا الأرض؛ أولهما نمرود، وهذا ثانيهما، مُسِخَ أسداً، ثم نسراً، ثم ثوراً

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١/ ٢٨٢)، وكذا الطبري في «التفسير» (٢/ ٨٠).

كما روى أبو نعيم عن بكار بن عبدالله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: مسخ بختنصر أسداً فكان ملك السباع، ومسخ نسراً فكان ملك الطير، ثم مسخ ثوراً فكان ملك الدواب، وهو في ذلك يعقل عقل الإنسان، وكان ملكه قائماً يدبر، ثم رد إليه روحه، فدعا إلى توحيد الله، وقال: كل إله باطل إلا إله السماء.

قال بكار: قيل لوهب: أمؤمناً مات؟

قال: وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: قرأ من قبل أن يموت.

وقال بعضهم: قتل الأنبياء، وحرق الكتب، وخرب بيت المقدس، فلم تقبل منه التوبة[١].

وعن وهب أيضاً قال: أصاب أيوب عليه السلام سبع سنين، وترك يوسف عليه السلام سبع سنين، وعذب بختنصر وحول في السباع سبع سنين[٢].

١١ ـ ومنها: تشبه الملوك، ونحوهم في طلب الدنيا، والانهماك فيها، والاغترار بها، والتمتع، والتكثر، والتكبر عن قبول الحق بالقردة.

روى أبو يعلى، والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «سَيَكُوْنُ أَئِمَةٌ مِنْ بَعْدِي يَتَوَلَّوْنَ فَلاَ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ، يَتَقَاحَمُوْنَ

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٥٣).

في النَّارِ تَقَاحُمَ الْقِرَدَةِ»[1].

ومنهم من خص ذلك ببني أمية.

والحق أن ذلك عام فيهم وفي غيرهم من الملوك الذين هم على نحو ما وصفت.

وروى ابن جرير عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: رأى رسول الله ﷺ بني الحكم بن أبي العاص يَنْزُون على منبره نَزْو القردة، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات.

وأنزل الله تعالى ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[الإسراء: ٦٠][2].

وروى الطبراني عن الحسن رحمه الله تعالى: أنه سمع رجلاً يدعو على الحجاج، فقال له: لا تفعل؛ إنكم لمن أنفسكم أُتيتم، إنا

---

(١) رواه أبو يعلى في «المسند» (٧٣٨٢) لكن عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.
وقال: قال وجدت في كتابي عن سويد ولم أر عليه علامة السماع وعليه صح فشككت، فيه وأكبر ظني أني سمعته منه.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٣٩٣) لكن عن معاوية رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٣٦): رجاله ثقات.
وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٤/ ٣١٤): هذا حديث حسن.

(٢) رواه الطبري في «التفسير» (١٥/ ١١٢). قال ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٥٠): هذا السند ضعيف جداً؛ فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

نخاف إن عزل الحجاج، أو مات أن يستولي عليكم القردة والخنازير، فقد روي أن أعمالكم عُمَّالكم، وكما تكونون يُولَّى عليكم[1].

* لَطِيفَةٌ:

روى أبو نعيم عن طاوس رضي الله تعالى عنه قال: كان يقال: اسجد للقرد في زمانه[2].

وأنشد الدميري في «حياة الحيوان»: [من الرجز]

اسْجُدْ لقرد السُّوءِ فِي زَمَانِهِ ... وَدارِهِ ما دُمْتَ فِي سُلْطانِهِ[3]

وأنشد العارف بالله سيدي علوان الحموي في «شرح تائية ابن حبيب» لبعضهم: [من المتقارب]

خَبِرْتُ الرِّجالَ وَجَرَّبْتُهُمْ ... فَكُلٌّ يَمِيلُ إِلَى شَهْوَتِهْ

فَلِلَّهِ دَرُّ فَتًى عاقِلٍ ... يُدارِي الزَّمانَ عَلَى فِطْنَتِهْ

وَيَلْبَسُ لِلدَّهْرِ أَثْوابَهُ ... وَيَرْقُصُ لِلْقِرْدِ فِي دَوْلَتِهْ[4]

وأنشد السيوطي لبعضهم: [من الوافر]

---

(١) كذا عزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٥٢٠) إلى الطبراني.

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١١).

(٣) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٣٣٤).

(٤) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (٨/ ٢٠٥) مع بعض الاختلاف في الألفاظ.

سَـجَدْنا لِلْقُـرودِ رَجـاءَ دُنْيـا ... حَوَتْهـا دُوْنَنَـا أَيْـدِي القُـرودِ

فَمـا ظَفِـرَتْ أَنامِلُنـا بِـشَيْءٍ ... رَجَوْنـاهُ سِـوى ذُلِّ الـسُّجودِ

ومما يدخل في قسم التشبه بالقردة: الاستخفاف بأولياء الله تعالى، والإنكار لكرامتهم.

وفي «ربيع الأبرار» للزمخشري: قال رجل للحسين بن منصور الحلاج: إن كنت صادقاً فيما تدعيه فامسخني قرداً، فقال: لو هممت بذلك لكان نصف العمل مفروغاً منه[1].

قلت: يشير بذلك إلى مسخ القلب؛ فإن المسخ يكون في الصورة، ويكون في القلب.

وعلى ذلك تأول بعض العلماء ما ورد في الأحاديث من المسخ الذي يكون في هذه الأمة آخر الزمان أنه يكون في القلب، والحق أنه يكون في الأجساد والقلوب، وقد يكون في القلوب دون الأجساد، وقد وقع الأول قليلاً، والثاني كثيراً.

وقد قدمنا عن بعض كتب التاريخ: أن رجلاً عبث بآخر وهو في الصلاة فمسخ خنزيراً.

وروى اللالكائي في «السنة» عن الوضاح بن حسان، عن بعض أهل الكوفة: أن رجلاً كان يسب أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما؛ قال: وكان قد صحبنا في سفر، فنهيناه، فلم ينته، فقلنا له: اجتنبنا، ففعل.

---

(١) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ١٣٧).

فلما أردنا الرجوع تذممنا، فقلنا: لو صحبنا حتى يرجع، فلقينا غلامه، فقلنا: قل لفلان يرجع إلينا.

فقال: إنه قد حدث به حدث سوء، قد تحوَّلت يداه يدي خنزير.

قال: فأتيناه فقلنا له: تحول إلينا.

فقال: إنه قد حدث بي أمر عظيم، فأخرج ذراعيه فإذا هما ذراعا خنزير.

قال: فتحول إلينا حتى انتهينا إلى قرية كثيرة الخنازير، فلما رآها صاح صياح الخنازير، فوثب من دابته فإذا هو خنزير، فاختلط مع الخنازير فلم يعرف، فجئنا بمتاعه وغلامه إلى الكوفة[1].

وروى الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتاب «النهي عن سب الصحابة» رضي الله تعالى عنهم عن صفوان قال: اكتريت إبلاً إلى الشام، فدخلت مسجداً فصليت خلف إمام، فلما انفتل من صلاته أقبل على الناس بوجهه، وذكر أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما بسوء.

قال: فخرجت من ذلك المسجد، ورجعت من قابل، ودخلت ذلك المسجد، فصليت خلف إمام آخر، فلما انفتل من صلاته أقبل على الناس بوجهه، وقال: اللهم ارحم أبا بكر وعمر.

فقلت لرجل كان بجنبي: ما فعل الذي كان يلعنهما؟

فقال لي: تشاء أن أريكه؟

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٧/ ١٢٥٧).

فقلت: بلى.

فأدخلني داراً، فأراني كلباً مربوطاً في سارية، فقال للكلب: هذا رجل صلى خلفك عام أول وأنت تشتم أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فأومأ الكلب برأسه؛ أي: نعم.

فقال الرجل: قد مسخه الله كما ترى.

وقال أيضاً في الكتاب المذكور: سمعت الشيخ أبا بكر بن مسعود الهكاري قال: كنت أخدم مع ميمون القصري بحلب، فجرى ذكر الرافضة بعض الأيام عنده، فقيل: إذا مات منهم إنسان تغير خلقه خنزيراً، فأنكر ذلك ميمون القصري، ثم قال: عندهم فلان البزدار، إن مات أبصرناه، فاتفق أن ذلك الرجل مات، فقال ميمون: ادفنوه في موضع وحده، ثم خرج ميمون ونحن معه إلى المقبرة، وبات برا البلد، وأمر بنبشه، فإذا هو خنزير، فأبصرناه، فأمر ميمون بحطب، ثم أمر به فأحرقه.

وروى أبو القاسم الأصبهاني في «الترغيب»، وغيره عن العَوَّام ابن حوشب رحمه الله تعالى قال: نزلت مرة حياً وإلى جانب ذلك الحي مقبرة، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر، فخرج منه رجل رأسه رأس حمار، وجسده جسد إنسان، فنهق ثلاث نهقات، ثم انطبق عليه القبر، فإذا عجوز تغزل شعراً وصوفاً، فقالت امرأة ترى تلك العجوز: قلت: ما لها؟

قالت: تلك أم هذا.

قلت: وما كانت قصته؟

قالت: كان يشرب الخمر، فإذا راح تقول له أمه: يا بني! اتق الله، إلى متى تشرب هذا الخمر؟

فيقول لها: إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار.

فمات بعد العصر، فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات، ثم ينطبق عليه القبر(١).

قال أبو القاسم: حدث به أبو العباس الأصم إملاء بنيسابور بمشهد من الحفاظ، فلم ينكروه(٢).

وروى ابن عساكر عن [الأعمش](٣) قال: تغوط رجل على قبر الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، فجعل ينبح كما تنبح الكلاب، ثم إنه مات، فسمع من قبره يعوي ويصيح(٤).

وروى الحافظ محمد بن السَّكَن في كتاب «العجائب» عن نوفل ابن مساحق قال: رأيت شاباً بمسجد نجران، فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله، وتمامه، وجماله، فقال: ما لك تنظر إلي؟

فقلت: أعجب من جمالك وكمالك.

---

(١) ورواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٦/ ١١٤٥).

(٢) انظر: «الزواجر» للهيتمي (٢/ ٦٥٧).

(٣) بياض في «أ» و«ت»، والمثبت من «تاريخ دمشق».

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/ ٣٠٥).

فقال: إن الله ليعجب مني.

قال: فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر، فأخذه بعض قرابته في كمه وذهب.

أورده ابن كثير في «تفسيره» في قصة قارون[1].

وروى الترمذي عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «في هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ».

قال رجل من المسلمين: متى ذلك؟

قال: «إِذَا ظَهَرَتْ الْقَيْنَاتُ، والمعَازِفُ، وَشُرْبُ الخَمْرِ»[2].

وروى ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه» عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتي الخَمْرَ يُسَمُّوْنَهَا بِغَيرِ اِسمِهَا، يُضْرَبُ عَلَى رُؤُوْسِهِمْ بِالمعَازِفِ وَالقَينَاتِ، يَخْسِفُ اللهُ بهم الأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيْرَ»[3].

وروى الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَبِيْتَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتي عَلَى

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٠١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠٢٠) واللفظ له، وابن حبان في «صحيحه» (٦٧٥٨)، وشطره الأول عند أبي داود (٣٦٨٨).

أَكْلٍ وَلهوٍ وَلَعِبٍ، ثُمَّ لَيُصْبِحُنَّ قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ»[1].

ورواه عبدالله ابن الإمام أحمد من حديث عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه بنحوه، وزاد فيه: «بِاسْتِحْلالِهِمُ المحَارِمَ، وَاتخَاذِهِمُ القَينَاتِ، وَشُرْبِهِمُ الخَمْرَ، وَبِأَكْلِهِمُ الرِّبَا، وَلُبْسِهِمُ الحَرِيْرَ»[2].

وروى الترمذي، وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «في هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ فِيْ أَهْلِ القَدَرِ»[3].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَأْتِي المرْأَةُ فَتَجِدُ زَوْجَهَا قَدْ مُسِخَ قِرْداً لأَنَّهُ لاَ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ»[4].

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٩٩٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٠): فيه فرقد السبخي ضعيف.

(٢) رواه عبدالله بن الإمام أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ٣٢٩). وفيه فرقد السبخي.

(٣) رواه الترمذي (٢١٥٢) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٤٠٦١).

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧١٥٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٦): فيه بشار بن قيراط، وهو ضعيف.

قال: «يَكُوْنُ فِيْ آخِرِ هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ».

قيل: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟

قال: «نَعَمْ، إِذَا ظَهَرَ الخَبَثُ»[1].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

* لَطِيفَةٌ:

ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراوي القاهري في كتاب «العهود»: أن الشيخ محيي الدين بن العربي ركب البحر، فهاجت الريح، فقال: اسكن بالخير؛ فإن عليك بحراً من العلم، فسَكَن البحر لقوله.

ثم إنه طلعت له هائشة، فقالت: يا محيي الدين! أسألك عن مسألة، فإن أجبت عنها كنت عالماً، وإن لم تجب عنها فأنت جاهل.

فقال لها: ما هي؟

فقالت: إذا مسخ الله زوج المرأة ماذا تعتد؟ هل تعتد عدة الأحياء أو عدة الأموات؟

فما درى الشيخ ما يقول، فقالت الهائشة: تعلمني شيخة لك وأنا أقول لك عنها؟

فقال: نعم.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٥) وقال: غريب، وعبدالله بن عمر ـ أحد رجال السند ـ تكلم فيه يحيى بن سعيد من قبل حفظة.

فقالت: إن مسخ حيواناً اعتدت عدة الأحياء، وإن مسخ جماداً اعتدت عدة الأموات.

فمن ذلك اليوم ما شُمَّ منه رائحة دعوى العلم حتى مات.

* **فائِدَةٌ زائِدَةٌ:**

ذكرنا بعض ما وقع في هذه الأمة من المسخ، وأما الخسف والقذف فروى اللالكائي في «السنة» عن حماد بن زيد رحمه الله تعالى قال: جعل رجل لرجل جعلاً على أن يعبر نهراً، فعبر حتى إذا قرب من الشط قال: عبرت والله، فقال له رجل: قل ما شاء الله، قال: شاء الله أو لم يشأ، قال: فأخذته الأرض[1].

وروى الدينوري عن الأوزاعي رحمه الله تعالى قال: كان عندنا صياد، وكان يخرج يوم الجمعة لا يمنعه مكان الجمعة من الخروج، فخسف به وببغلته، فخرج الناس وقد ذهبت بغلته في الأرض، ولم يبق إلا أذناها وذنبها[2].

وحكى بعض العلماء: أن قوماً اجتمعوا على شرب وطرب، فحضرت الصلاة، فصلى بهم أحدهم، فقرأ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾[الملك: ٢٨]، فخسف قبل تمام الآية.

وروى ابن الجوزي في «ذم الهوى» عن بعضهم قال: مررت

---

(١) رواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (٤/ ٧٢٦).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (ص: ١٣١).

بديار قوم لوط، فأخذت حجراً مما رجموا به، فطرحته في مخلاة، ودخلت مصر، فنزلت في بعض الدور في الطبقة الوسطى، وكان في سفل الدار حدث، فأخرجت الحجر من خرجي، ووضعته في روزنة في البيت، فدعا الحدث الذي كان أسفل صبياً، واجتمع معه، فسقط الحجر من الروزنة على الحدث، فقتله[1].

١٢ ـ ومن الخصال التي تدخل في التشبه بالبهائم والهوام: إنكار القدر.

روى الشيخ المحدث شمس الدين محمد بن طولون الصالحي في «تعليقته» التي روى فيها عن البهائم، والطيور، والهوام عن داود بن أبي هند رحمه الله تعالى قال: كانت العنقاء عند سليمان بن داود عليهما السلام، وكان سليمان بن داود عليهما السلام قد عُلِّم كلام الطير، وسُخِّرت له الشياطين، وأعطي ما لم يعط أحد، فذكر عنده القضاء والقدر، وكانت العنقاء حاضرة فقالت: وأي شيء القضاء والقدر؟

وقيل لسليمان عليه السلام: تولد في المشرق جارية، ويولد في المغرب غلام في يوم واحد في ساعة واحدة، وإنهما يجتمعان على الفجور، فقالت العنقاء: إن هذا لا يكون، وكيف يكون وهذا بالمشرق وهذا بالمغرب؟

فقال لها سليمان: إن هذا بالقضاء والقدر.

---

(١) رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص: ٢٠٥).

قالت: لا أقبل ذلك، أنا آخذ الجارية فأصيرها في موضع لا يصل إليها مخلوق، وأحفظها حتى يكون ذلك الوقت الذي ذكرت أنهما يجتمعان فيه.

فقال سليمان عليه السلام: اذهبي وخذي الجارية، وتحرزي بما قدرت، فإذا كان ذلك الوقت آمرك أن تجيئي أنت بالجارية، ونجيء نحن بالغلام.

فانطلقت العنقاء، فاحتملت الجارية حتى صيرتها في جزيرة من جزائر البحر، وكان في تلك الجزيرة جبل عظيم في رأسه قلة لا يصل إليها مخلوق، وفي ذلك الرأس كهف، فصيرت الجارية في ذلك الكهف، ثم جعلت تختلف إليها حتى كبرت وشبت، وصارت امرأة.

ثم إن الغلام لم يزل يشب وينشأ حتى صار رجلاً، فركب في البحر سفينة ومعه فرس، فلما انتهى إلى تلك الجزيرة، كسر به المركب، فخرج هو وفرسه إلى تلك الجزيرة، وغرقت السفينة فلم ينج منها أحد غيره، فبينما هو يدور في تلك الجزيرة إذ رفع رأسه فبصر بالجارية وبصرت به، فدنا منها، وكلمها وكلمته، فأخذ بقلبها وأخذت بقلبه، فمكثا يطيلان الحيلة كيف يصل كل واحد منهما إلى صاحبه، فقالت الجارية: إن التي ربتني طير عظيم الشأن، وليس لك حيلة تصل بها إلي الآن إلا أن تذبح فرسك، ثم ترمي بما في جوفه في البحر، وتدخل أنت فيه، فإنها إن أبصرتك قتلتك، فإني سأسألها أن تحمل الفرس إلي، فإذا فعلت صرت عندي.

ففعل، فلما جاءت العنقاء قالت لها الجارية: يا أمه! لقد رأيت في البحر شيئاً عجباً لم أر مثله قط.

قالت: وما هو؟

فقالت: ذاك الذي ترين على شط البحر.

قالت: هذا فرس ميت ألقاه البحر.

قالت: فجيئيني به حتى أنظر إليه.

فانطلقت العنقاء، فاحتملت الفرس والفتى في جوفها حتى وضعتها بين يدي الجارية، ثم انطلقت إلى سليمان عليه السلام لتخبره أن الوقت قد مضى، ولم يكن من القضاء شيء، وأن القضاء والقدر باطل.

فخرج الفتى في غيبتها، وواقع الجارية.

فلما صارت العنقاء عند سليمان عليه السلام قالت له: قد مضى الوقت الذي قلت إنهما يجتمعان فيه.

فقال لها: قد اجتمعا، وكان منهما ما أخبرتك أنه يكون.

فقالت: أنا جئت من عند الجارية الساعة، وما وصل إليها خلق، فأين الرجل؟

قال لها سليمان عليه السلام: جيئينا بالجارية فإنا نجيئك بالرجل.

فانطلقت العنقاء إلى الجارية، فلما أحست بها أمرت الفتى فدخل في جوف الفرس، فقالت لها العنقاء: إن سليمان أرسلني إليك لأحملك.

فقالت: كيف تحمليني وأنا امرأة قد كبرت وثقلت؟

وخافت على الرجل أن تتركه وحده فيموت، وكانت قد علقته ودخل قلبها حبه، فأحبت أن لا تذهب إلا به، فقالت للعنقاء: يا أمه! إن كنت لا بد فاعلة فإني أدخل جوف هذا الفرس، ثم تحمليني، فإن وقعت لم يضرَّني شيء.

فقالت: صدقت.

فدخلت في جوف الفرس، فحملتهما معاً في الفرس حتى وضعتهما بين يدي سليمان عليه السلام، فقالت: هذه الجارية فأين الرجل؟

فقال: قولي للجارية تخرج، فخرجت.

فقال سليمان للرجل: اخرج، فقد جاءت بك تحملك على رغم أنفها على ظهرها.

فخرج، فاستحيت العنقاء، فخرجت على وجهها، فلم ير لها أثر حتى الساعة[1].

فهي يضرب بها المثل؛ يقال: أخفى من العنقاء.

قال ابن طولون: ورأيت في بعض الآثار: أن الطير صاحت عليها: يا عنقاء! يا قدرية! فذهبت، فلا يدرى أين ذهبت.

قيل: وكانت تشبه البوم، فلذلك ترى الطير إذا رأت البوم صاحت عليه.

---

(١) ورواه ابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٣).

وقيل: بل هي البوم، وكانت كبيرة فصغرت بعد ذلك.

وذكر القزويني أن العنقاء أعظم الطير جثة وأكبره، تخطف الفيل، وكان في قديم الزمان بين الناس فيتأذون منه، إلى أن سلبت يوماً عروساً بحليها، فدعا عليها حنظلة النبي عليه السلام، فذهب الله تعالى به إلى بعض جزائر البحر المحيط تحت خط الاستواء، وهي جزيرة لا يصل إليها الناس[1].

وذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: خلق الله تعالى في زمن موسى عليه السلام طيراً اسمه العنقاء، لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجهها كوجه الإنسان، وأعطاها من كل شيء، وخلق لها ذكراً مثلها، وأوحى إليه: إني خلقت طائرين عجيبين، وجعلت رزقهما في الحوش الذي حول بيت المقدس، فتناسلا وكثر نسلهما، فلما توفي موسى عليه السلام انتقلت، فوقعت بنجد والحجاز، فلم تزل تأكل الوحوش، وتخطف الصبيان إلى أن نبئ خالد بن سنان العبسي عليه السلام قبل النبي ﷺ، فشكوه إليه، فدعا عليها، فانقطع نسلها وانقرضت[2].

وذهب جماعة إلى أنه لا عنقاء، وأنه من الألفاظ الدالة على غير معنى حتى قيل: [من البسيط]

---

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٢٢١).

(٢) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (٢/ ١٢).

الْجُـــودُ وَالغُـــولُ وَالعَنْقَـــاءُ ثالِثُهـــا

أَسْـماءُ أَشْـياءَ لَـمْ تُوْجَـدْ وَلَـمْ تَكُـنِ[1]

١٣ ـ ومن الخصال التي تلحق صاحبها بالبهائم: الجهل بالله تعالى، وتعظيم قدره وفعله، وإن كان ذلك داخلاً في مطلق الجهل الذي هو صفة البهائم.

وقد علمت أنه معظم أركان هذا الباب؛ أعني: التشبه بالبهائم ونحوها.

روى أبو داود عن جندب رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته، ثم عَقَلها ودخل المسجد، فصلى خلف رسول الله ﷺ، فلما سلم رسول الله ﷺ أتار راحلته فأطلقها، ثم ركب، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا تشرك في رحمتنا أحداً.

فقال رسول الله ﷺ: «أَتَقُوْلُوْنَ: هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيْرُهُ؛ أَلَمْ تَسْمَعُوْا إلى مَا قَالَ؟»[2].

والمعنى: أهو أجهل بالله وسعة رحمته، أم بعيره؟

١٤ ـ ومنها: تشبه العبد في معرفة أمور الدنيا، وجهل أمور الدين، وأحوال الآخرة بالبهيمة التي لا تعرف إلا أمر مرعاها وسقياها، ولا تتقيد بمعقول، ولا ترجع إلى منقول.

---

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٢٦٦)، وعنده: «الخل» بدل «الجود».

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٥).

وهذا حال أكثر الناس إلا من وفقه الله تعالى كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦ ـ ٧].

وروى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ عَلِمَتِ البَهَائِمُ مِنَ المَوْتِ مَا عَلِمَ بَنُو آدَمَ مَا أَكَلُوْا مِنْهَا لحْماً سمِيْناً»[1].

فإذا غفل العبد عن الموت وما بعده كان هو والبهيمة سواء.

قال الماوردي في «أدب الدين والدنيا»: وأنشدني بعض أهل العلم: [من الكامل]

أَبُنَــيَّ إِنَّ مِـــنَ الرِّجَـــالَ بَهِيمَـــةً
فِـــي صُـــوْرَةِ الرَّجُـــلِ الـــسَّمِيعِ الْمُبْـــصِرِ

فَطِـــنٌ بِكُـــلِّ مُـــصِيبَةٍ فِـــي مالِـــهِ
فَـــإِذا أُصِـــيبَ بِدِينِـــهِ لَـــمْ يَـــشْعُرِ[2]

١٥ ـ ومنها: الغفلة عن طاعة الله تعالى اشتغالاً بالدنيا، ونحوها تشبهاً بالعير، والحمار، ونحوهما من البهائم.

قـــال الله تعـــالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥٠].

---

(١) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٥٤٥): رواه البيهقي في «الشعب»، والقضاعي، من حديث أم صبية الجهنية به مرفوعاً، ورواه الديلمي من حديث أبي سعيد رفعه.

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ١٢٦).

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: ما أقلَّ أكياسَ الناس! لا يبصر الرجل أمره حتى يبصر إلى الناس وإلى ما أمروا به، وإلى ما أكبوا عليه من الدنيا، فيقول: ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر التي لا هَمَّ لها إلا ما تجعله في أجوافها، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه؛ قال: والله إني لأراني من شرهم بعيراً واحداً[1].

١٦ ـ ومنها: التشبه بالبعير، ونحوه أيضاً في الشَّراد عن الله تعالى، والإباء عن الانقياد له.

روى ابن أبي شيبة عن أبي أمامة ﷺ قال: لا يدخل النار من هذه الأمة إلا من شرد عن الله تعالى شراد البعير[2].

وروى الطبراني في «الأوسط»، والحاكم وصححه، عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبَى».

زاد الإمام أحمد، والحاكم وصححه: «وَشَرَدَ شُرُوْدَ البَعِيْرِ عَلَى أَهْلِهِ».

قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟

قال: «مَنْ أَطَاعَني دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاني فَقَدْ أَبَى»[3].

---

(١) ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٨٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٧٣١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣١٤٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٢٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧١): رجال أحمد رجال الصحيح، غير علي بن خالد وهو ثقة، وإسناد الطبراني حسن.
وأصل الحديث في البخاري (٦٨٥١) عن أبي هريرة ﷺ.

قلت: ومن آل على الله تعالى فلم يمتثل أوامره كان كالشيطان أيضاً كما تقدم لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾[البقرة: ٣٤].

١٧ ـ ومنها: التشبه بالبعير، وغيره في الطواف بلا ذكر ولا استلام.

روى أبو الوليد الأزرقي في «تاريخ مكة» عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: كنا مع عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما في الطواف، فنظر إلى رجل يطوف كالبدوي، ولا يستلم الركن، ولا يكبر، ولا يذكر الله تعالى، فقال له ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أي شيء تصنع ههنا؟

قال: أطوف.

قال ابن عمر: مثل الجمل تخبط، ولا تستلم، ولا تكبر.

ثم قال له: ما اسمك؟

قال: حنين.

قال: وكان ابن عمر إذا رأى الرجل لا يستلم الركن قال: حنيني هو[1].

١٨ ـ ومنها: التعبد على جهل.

روى أبو نعيم عن واثلة بن الأسقع ﷺ قال [قال رسول الله ﷺ]: «المتعبِّدُ بغيرِ فِقْهٍ كالحِمَارِ في الطَّاحُونِ»[2].

---

(١) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٣٣٦).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢١٩). وقال: غريب لم نكتبه إلا من حديث بقية. ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٦٠٧).

قلت: وجه المشابهة أن الحمار يتعب وهو يدور في الطاحون، ولا يدري ما يفعل، ولا ما يستفاد من طحنه، ولا يستفيد مما يطحنه شيئاً، ولا يدري هل يطحن بُرّاً أم خزفاً، وكذلك المتعبد على جهل فيما لا يدري حقيقة عاقبته.

١٩ ـ ومنها: التشبه في العجلة، والطيش، وعدم التروي في العبارة خصوصاً في المناظرة بالعصفور، ونحوه في سرعة تقلبه وزقزقته.

ذكر ابن السبكي في «طبقاته»: أنه لما وقع لابن تيمية في «المسألة الحموية» ما وقع، وعقد له المجلس بدار السعادة بين يدي الأمير تنكز، وجمعت العلماء، أشاروا بأن الشيخ صفي الدين الهندي يحضر، فحضر، وكان الهندي طويل النفس في التقرير، إذا شرع في وجه يقرره لا يدع شبهة، ولا اعتراضاً إلا أشار إليه في التقرير، بحيث لا يتم التقرير إلا وقد بَعُد على المعترض مقاربته، فلما شرع يقرر أخذ ابن تيمية يَعْجَل عليه على عادته، ويَخْرُج من شيء إلى شيء، فقال له الهندي: ما أراك يا ابن تيمية إلا كالعصفور، حيث أردت أن أقبضه من مكان فرَّ إلى مكان آخر[1].

---

(١) ذكر الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٦) ما يدل أن ابن تيمية رحمه الله حاجَّ الشيخ صفي الدين فقال: «وحضر الشيخ صفي الدين الهندي وتكلم مع الشيخ تقي الدين كلاماً كثيراً، ولكنَّ ساقيتَه لاطمت بحراً».
بل نقل الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٦٢) في ترجمة الشيخ صفي الدين الهندي: «يقال كان لا يحفظ من القرآن إلا ربعه، حتى نقل أنه قرأ ﴿الٓمٓصٓ﴾[الأعراف: ١] بفتح الميم وتشديد الصاد». =

وكان الأمير تنكز يعظم الهندي ويعتقده، وكان الهندي شيخ الحاضرين كلهم، فكلهم صَدَر عن رأيه، وحبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة، وهي التي تضمنت قوله بالجهة[1]، ونودي عليه في البلد وعلى أصحابه، وعُزلوا من وظائفهم[2].

= قلت: فكيف له بمناظرة مثل أبي العباس رحمه الله.

وأما كلام السبكي المتقدم، فمعلوم حدة تاج الدين السبكي لشيخ الإسلام، ولكنه على عداوته له، لم ينكر فضله، واعترف بعلمه وديانته، كما نقل هذا ابن حجر في «الدرر الكامنة» (١/ ١٨٦): «وكتب الذهبي إلى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية، فأجابه، ومن جملة الجواب: وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين، فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق، والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل فيما مضى من أزمان»، انتهى.

ثم سامح الله المؤلف على إيراد مثل هذا على ابن تيمية، وقد عرف موضعه من العلم والعمل، مع أنه قد نقل عنه واستفاد منه أيما فائدة في أبواب كثيرة من كتابه دون الإشارة إليه كما تقدم.

(١) تقدم التعليق سابقاً على من شنع على ابن تيمية قوله بالجهة ونسب إليه ذلك، وهو منه براء.

(٢) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٩/ ١٦٤).

٢٠ ـ ومنها: الإعراض عن طلب العلم، والحكمة، والموعظة الحسنة.

روى عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» عن عكرمة رحمه الله تعالى قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين: يا معشر الحواريين! لا تلقوا اللؤلؤ للخنازير؛ فإنها لا تصنع به شيئاً، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها؛ فإن الحكمة أحسن من اللؤلؤ، ومن لا يريدها أشر من الخنزير[1].

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ فِيْ غَيرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الدُّرِّ في أَعْنَاقِ الخَنَازِيْرِ»[2].

قال في «الإحياء»: جاء رجل إلى ابن سيرين رحمه الله تعالى قال: رأيت كأني أقلد الدر أعناق الخنازير.

قال: أنت تعلم الحكمة غير أهلها[3].

وروى أبو نعيم عن حميد بن عبد الرحمن قال: سمعت الأعمش يقول: انظروا أن لا تنثروا هذه الدنانير على الكباش؛ يعني: الحديث.

قال حميد: وسمعت أبي يقول: [سمعت] الأعمش يقول:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٩٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٢٣).

لا تنثروا اللؤلؤ تحت أظلاف الخنازير[1].

وعن أبي سفيان بن حسين قال: أخذ الأعمش ناحية هذا السواد، فأتاه قوم منهم، فسألوه أن يحدثهم، فأبى، فقال بعض جلسائه: يا أبا محمد! لو حدثت هؤلاء المساكين.

فقال الأعمش: من يعلق [الدر] على الخنازير[2].

وروى الشيخ تاج الدين السبكي في «طبقاته» عن أبي عمرو العثماني قال: لما دخل الشافعي إلى مصر كلَّمه أصحاب مالك، فقال:

[من الطويل]

أَأَنْثُرُ دُرّاً بَيْنَ راعِيَةِ الغَنَمْ
وَأَنْثُرُ مَنْظُوماً لِراعِيَةِ النَّعَمْ

لَئِنْ كُنْتُ قَدْ ضُيِّعْتُ فِي شَرِّ بَلْدَةٍ
فَلَسْتُ مُضِيْعاً بَيْنَهُمْ غُرَرَ الكَلِمْ

فَإِنْ فَرَّجَ اللهُ الكَرِيْمُ بِلُطْفِهِ
وَأَدْرَكْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ

بَثَثْتُ مُفِيداً وَاسْتَفَدْتُ وِدادَهُمْ
وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٥٢).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٥٢).

وَمَــنْ مَــنَحَ الْجُهَّــالَ عِلْمــاً أَضــاعَهُ

وَمَــنْ مَنَــعَ الْمُــسْتَوجِبِينَ فَقَــدْ ظَلَــمْ[1]

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ قال: الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله، وما آوى إلى ذكر الله، والعالم والمتعلم في الأجر سواء، وسائر الناس همج لا خير فيهم[2].

قال صاحب «المنفرجة»[3]: [من الخبب المحدث]

وَخِيَــارُ النَّــاسِ هُــداتُهُمُ

وِســواهُمْ مِــنْ هَمَــجِ الْهَمَــجِ[4]

الهمج: ذباب صغير كالفراش.

وروى أبو نعيم عن كُميل بن زياد قال: أتيت علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، فأخذني إلى ناحية الجَبَّان، فلما صحرنا جلس، ثم تنفس، ثم قال: يا كميل بن زياد! القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة، فعالمٌ رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رَعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيؤوا بنور العلم، ولم

---

(١) انظر: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١/ ٢٩٤).

(٢) رواه عبدالله ابن الإمام أحمد في «زوائد الزهد» (ص: ١٣٧).

(٣) هو ابن النحوي، و«المنفرجة» هي قصيدة له اشتهرت بهذا الاسم، وسماها السبكي: «الفرج بعد الشدة». ومطلعها:

اشــتدي أزمــة تنفرجــي ... قــد آذن ليلــك بــالبلج

(٤) انظر: «شرح المنفرجة» لزكريا الأنصاري (ص: ٣٩).

يلجؤوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دِين يُدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه إن ههنا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ علماً لو أصبت له حملة، بل أصبته لفتى غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله تعالى على كتابه، وبنعمه على عباده، أو منقاد لأهل الحق، لا بصيرة له في أحيائه، يقتدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا ذا ولا ذاك، أو منهوم باللذات، سَلِس القياد للشهوات، أو مُغرى بجمع الأموال والادخار، وليس من دعاة الدين، أقرب شَبَهاً بهم الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم بلى، لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة لكي لا تبطل حجج الله وتبيانه، أولئك هم الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله ﷻ عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأَنِسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان معلقة بالمنظر الأعلى، أولئك خلفاء الله في بلاده، ودعاته إلى دينه، هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك، إن شئت فقم[1].

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٨٠).

٢١ ـ ومن الخصال المذكورة: تشبه العالم إذا فغر [فاه][1] لتناول أموال الناس، وما سنح له منها بالخنزير إذا وقع في أرض، فعاث فيه يميناً وشمالاً، وأتلف ما انتهى منه.

قال الماوردي في «أدب الدين والدنيا»: وقال بعض الأدباء: [من السريع]

ارْثِ لِرَوْضَـةٍ تَوَسَّـطَها خِنْزِيـرْ وَابْـكِ لِعِلْـمٍ حَـواهُ شِـرِّيرْ[2]

وقلت في معناه:

ارض لـرَوضٍ ظَـلَّ فِيـه خِنْزِيـرُ وَابْـكِ لِعِلْـمٍ قَـدْ حَـواهُ شِـرِّيرْ

وَاحْذَرْ مِـنَ الـشَّرِّ وَأَنْـتَ عـالِمٌ وَانْظُـرْ فَمـا أَقْـبَحَ هَـذا التَّنْظِيـرْ

٢٢ ـ ومنها: التشبه بالبهائم في كثرة القيام بالليل مع اللهو، والتبسط في الشهوات، والخوض في الباطل بالنهار.

روى ابن حبان في «صحيحه»، والأصبهاني في «ترغيبه» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ، جَوَّاظٍ، صَخَّابٍ فِيْ الأَسْوَاقِ، جِيْفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، [عالمٍ بأمرِ الدُّنيا]، جَاهِلٍ بِأَمْرِ الآخِرَةِ»[3].

---

(١) كلمة غير واضحة في «أ» و«ت».

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٩٤).

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢)، وكذا البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٩٤).

قال أهل اللغة: الجعظري: الشديد الغليظ، والجواظ: الأكول، والصخاب: الصياح.

وروى الإمامان عبدالله بن المبارك، وأحمد؛ كلاهما في «الزهد» عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: لا ألفين أحدكم جيفة ليل قطرب نهار[1].

قال عبدالله ابن الإمام أحمد: القطرب: الذي يجلس ساعة هنا وساعة هنا[2].

وفي «حياة الحيوان» للدميري، و«ديوان الحيوان» للسيوطي: القطرب: طائر نحو البلبل يجول الليل كله لا ينام.

وهو أيضاً الفأرة، والذئب الأمعط، والكلب الصغير، ودويبة لا تستريح نهارها سعياً[3].

قلت: والمراد هنا المعنى الأخير.

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن كعب رحمه الله تعالى أنه كان يقول: قلة المنطق حكم عظيم، وقلة وزر، وخفة من الذنوب، فأحصوا باب الحكم؛ فإن بابه الصبر، وإن الله يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء إلى غير أرب، ويحب الوالي الذي يكون كالواعي لا يغفل عن رعيته، واستحيوا من الله تعالى في سرائركم كما تستحيون

---

(١) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٦٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٣٠) لكنه قال: قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حكي لي عن ابن عيينة أنه قال... فذكره.

(٣) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٣٤٨).

الناس في علانيتكم، واعلموا أن الكلمة الحكمة ضالة المؤمن؛ فعليكم بالعلم من قبل أن يرفع، ورفعه أن تذهب رواته[1].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الحذر» عن محمد بن سلام قال: سمعت الربيع بن عبد الرحمن يقول: رضيت لنفسك وأنت الحول القلب أن تعيش عيشة البهائم؛ نهارك هائم، وليلك نائم، والأمر أمامك جد[2].

وروى هو وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» من طريقه عن القاسم بن غزوان قال: كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يتمثل بهذه الأبيات: [من الطويل]

أَيَقْظَـانُ أَنْـتَ اليَـوْمَ أَمْ أَنْـتَ نـائِمٌ
وَكَيْـفَ يُطِيـقُ النَّـوْمَ حَيـرانُ هـائِمُ

وَلَـوْ كُنْـتَ يَقْظـانَ الغَـداةِ لَحَرَّقَـتْ
مَـدامِعَ عَيْنَيْـكَ الـدُّموعُ الـسَّواجِمُ

بَلْ أَصْبَحْتَ فِـي النَـوْمِ الطَّوِيـلِ وَقَـدْ دَنَـتْ
إِلَيْـكَ أُمـورٌ مُفَظَعـاتٌ عَظـائِمُ

نَهـارُكَ يـا مَغْـرُورُ سَـهْوٌ وَغَفْلَـةٌ
وَلَيْلُـكَ نَـوْمٌ وَالـرَّدى لَـكَ لازِمُ

---

(١) روى نحوه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٦).

(٢) ورواه ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٣/ ٣٥٣).

يَغُــرُّكَ مــا يَفْنَــى وَتُــشْغَلُ بِــالْمُنَى
كَمــا غُــرَّ باللَّــذَّاتِ فِــي النَّــوْمِ حــالِمُ
وَتُــشْغَلُ فِيمــا سَــوْفَ تَكْــرَهُ غِبَّــهَ
كَــذَلِكَ فِــي الــدُّنْيا تَعِــيشُ البَهــائِمُ[1]

وروى أبو نعيم عن جعفر بن عون قال: سمعت مسعراً رحمه الله تعالى يقول: [من الطويل]

نَهــارُكَ يــا مَغْــرُورُ لَهْــوٌ وَغَفْلَــةٌ
وَلَيْلُــكَ نَــوْمٌ وَالــرَّدى لَــكَ لازِمُ
وَتَتْعَــبُ فِيمــا سَــوْفَ تَكْــرَهُ غِبَّــهُ
كَــذَلِكَ فِــي الــدُّنْيا تَعِــيشُ البَهــائِمُ[2]

٢٣ ـ ومنها: التشبه بالقطرب في معانيه المذكورة أولاً، وبالكلاب، والخنازير، وبنات آوى، والذئاب ونحوها في سهر الليل في اللصوصية، والاختلاس، وأذى الناس، أو في اللهو واللعب بضرب الآلات، والغناء، والحكايات المضحكة، ونحو ذلك مما لا ينفع في الدنيا، ويكره غِبَّه في الآخرة.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١/ ٤٥٩)، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ١٢٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٢٠).

وروى ابن أبي الدنيا في ذم «الملاهي»، والبيهقي عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَبِيْتُ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى طُعْمٍ وَشُرْبٍ، وَلَهوٍ وَلَعِبٍ، فَيُصْبِحُوْنَ قَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيْرَ»[1].

وتقدم هذا الحديث بلفظ آخر.

٢٤ ـ ومنها: تشبه البليد في البلادة والفَهَاهَة بالحمار ونحوه من البهائم.

وإنما ينبغي للمؤمن أن يكون كما وصف النبي ﷺ كيِّساً فطناً[2].

ومن ثم استحسن العقلاء صحبة ذوي النشاط والفطنة، وحذَّروا من صحبة ذوي البلادة، والجبن، والكسل خوفاً من سريان الطبع، وجريان العادة حتى قال أبو بكر الخوارزمي: [من الكامل]

لا تَصْحَبِ الْكَسْلانَ فِي حاجاتِهِ
كَمْ صالِحٍ بِفَسادِ آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَى الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ
الْجَمْرُ يُوْضَعُ فِي الرَّمادِ فَيَخْمُدُ[3]

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦١٤)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٥٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «يتيمة الدهر» للثعالبي (٤/ ٢٢٣).

٢٥ ـ ومنها: التتابع في الشر، والتواطؤ على القبيح، والتوارد عليه تشبهاً بالحمر؛ فإنها تتزاحم إذا اجتمعت في ممر ضيق ونحوه، وإذا بال واحد منها بالت حيث بال.

ومن ثم قالوا في المثل: بال حمار فاستبال أحمره؛ أي: حملها على البول؛ يضرب في التعاون على الإثم، والتوارد على القبائح[1].

وكثيراً ما كان التقليد سبباً لهلاك الناس كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣].

٢٦ ـ ومنها: تكسب الدنيا بالدين من غير مراعاة لأحكام الشريعة تشبهاً بالخنازير ونحوها؛ فإنها لا وازع لها من عقل، ولا دين من تناول ما اشتهت من مآكلها ومشاربها.

روى أبو طالب المكي في «القوت» عن عبيد بن أبي واقد عن عثمان بن أبي سليمان قال: كان رجل يخدم موسى عليه السلام، فجعل يقول: حدثنا موسى كليم الله حتى أثرى، وكثر ماله، وفقده موسى عليه السلام دهراً، فجعل موسى عليه السلام يسأل عنه، فلا يحس منه أثراً، حتى جاء رجل ذات يوم وفي يده خنزير في عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟

قال: نعم، هو هذا الخنزير.

فقال موسى عليه السلام: يا رب! أسألك أن ترده إلى حاله الأول حتى أسأله مما أصابه هذا.

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٩٨).

فأوحى الله إليه: لو سألتني بالذي دعا آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكني أخبرك: إنما صنعت فيه هذا لأنه كان يطلب الدنيا بالدين[1].

٢٧ ـ ومنها: التشبه بالبهائم في قِصَر العمر على مصالح الدنيا، وشهوات النفس دون الاشتغال بشيء من أمر المعاد.

روى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: أنه قال رضي الله تعالى عنه: ويل للواثين الذين يلوثون مثل البقر، ارفع يا غلام، ضع يا غلام في ذلك، لا يذكرون الله تعالى[2].

شبه الذين ليس لهم هم إلا الولع بالأمر والنهي في أمور دنياهم مع الغفلة عن الآخرة بالبقر إذا ولعت بشيء في أفواهها لا تعقل شيئاً من الطاعات ولا تفعله.

٢٨ ـ ومنها: التشبه بالكلب في الذل عند الجوع.

بلغني عن والدي رحمه الله تعالى أنه كان يقول: اللئيم إذا جاع ذل، والكريم إذا جاع ساء خلقه وغضب، والكريم في ذلك متشبه بالأسد، واللئيم متشبه في ذلك بالكلب.

---

(١) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ٢٤٩).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢١٨).

وروى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سددت كَلْبَ الجُوْعِ بِرَغِيْفٍ وَكُوْزٍ مِنْ مَاءِ القَرَاحِ، فَعَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا الدَّمَارُ»(١).

٢٩ ـ ومنها: شم الطعام قبل أكله، والأولى ترك ذلك.

روى الطبراني عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ تَشَمُّوا الطَّعَامَ كَمَا تَشَمُّهُ السِّبَاعُ»(٢).

٣٠ ـ ومنها: التشبه في كثرة الأكل، أو في أكل الحرام، أو الأكل مع الغفلة عن الآداب الشرعية بالبهيمة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[محمد: ١٢].

قال القشيري رحمه الله تعالى: الأنعام تأكل بلا تمييز من أي موضع وجدت، وكذلك الكافر لا تمييز له من الحلال وجد أم من الحرام، والأنعام ليس لها وقت لأكلها، بل في كل وقت تقتات وتأكل لا تعرف الشبع، وكذلك الكافر أكول.

---

(١) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٣٩٤)، وكذا ابن السني في «القناعة» (١/ ٥٦). وضعف العراقي إسناد الديلمي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٧٥٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٢٨٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٠): فيه عباد بن كثير الثقفي، وكان كذاباً متعبداً.

وفي الخبر: إنه «يأكل في سبعة أمعاء»[1]، والمؤمن يجتزئ باليسير كما في الخبر[2].

ويقال: الأنعام تأكل على غفلة؛ فمن أكل ناسياً لربه فأكله كأكل الأنعام[3].

وقيل لسهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى: الرجل يأكل في اليوم أكلة؟

قال: أكل الصديقين.

قيل: وأكلتين؟

قال: أكل المؤمنين.

قيل: ثلاثة؟

قال: قل لأهلك يبنوا لك مَعْلفاً[4].

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة[5].

وأنشدوا:

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧٨)، ومسلم (٢٠٦٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وصححه عن المقدام بن معدي كرب.

(٣) انظر: «تفسير القشيري» (٣/ ٢٠١).

(٤) رواه القشيري في «رسالته» (ص: ١٧٩).

(٥) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (٢/ ٢٩٢).

شَكَوْتُ إِلَى طَبِيْبِي ضَعْفَ جِسْمِي
فَقَالَ الضَّعْفُ مِنْ قِبَلِ الغِذاءِ

أَتَأْكُلُ كُلَّ يَوْمٍ أَكْلَ عَيرٍ
وَتَرْجُو أَنْ تَعِيشَ بِغَيْرِ داءِ

وروى الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى في «الزهد» عن أبي حسان قال: استأذن سعد بن معاذ ﷺ رسول الله ﷺ أن يأتي أصهاراً له من أهل البادية، فأذن له ما شاء الله، ثم رجع ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، فدخل وهو يقلب يده، فقال النبي ﷺ: «لَقَدْ رَأَى سَعْدٌ عَجَباً».

قال: يا رسول الله! أتيتك من عند قوم إنما همهم فيما فيه نهم أنعامهم من لذات بطونهم وفروجهم.

فقال ﷺ: «لَقَدْ رَأَى سَعْدٌ عَجَباً، أَفَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ مَنْ عَرَفَ مِثْلَ الَّذِي أَنْكَرَ، ثُمَّ فَعَلَ هُوَ كَفِعْلِهِمْ»[1].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: ما أقل أكياس الناس؛ لا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أكبوا عليه من الدنيا فيقول: ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر التي لا همَّ لها إلا ما تجعل في أجوافها، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر

---

(١) تقدم تخريجه.

إلى نفسه قال: والله إني لأراني من شرهم بعيراً واحداً[1].

وروى الإمام أحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، إِنَّهُ لاَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ ممَّا يُنْبِتُ الرَّبِيْعُ يَقْتُلُ حَبَطاً أَو يُلِمُّ إِلاَّ آكِلَةَ الخَضِرِ؛ فَإِنهَا أَكَلَت حَتَّىْ إِذَا امْتَلأَت خَاصِرَتُهَا اسْتَقْبَلَت الشَّمْسَ فثلطث وَبَالَتْ ثمَّ رتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَنعم صَاحِبُ المالِ لمنْ أَعْطَاهُ المسْكِينَ وَاليَتِيْمَ وَابْنَ السَّبِيْلِ، فَمَنْ أَخَذَهُ بحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِيْ حَقِّهِ فَنِعْمَ المعُوْنَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ»[2].

أشار بذلك إلى آكلة الخضر التي أشار إليها في أول الحديث؛ فإنها تأكل حتى تميل خاصرتها، ثم تثلط وتبول، ولا تعرف للشبع حداً تنتهي إليه وتقف عليه.

ففيه إشارة إلى أن آكل الحرام متشبه بالبهيمة التي تأكل ولا تشبع، وذلك لأن النفس تستحلي الحرام من حيث إنها ممنوعة منه، والنفس مائلة إلى الممنوع، وكلما حصلت منه على شيء تشوَّفت إلى شيء، وهذا حال البهيمة والسبع، وأيضاً من يأكل الحرام وهو خبيث متشبه بالكلاب، والسباع، والرخم، والحداء، ونحوها في أكل الميتة وإن أنتنت.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧)، والبخاري (٢٦٨٧)، ومسلم (١٠٥٢)، والنسائي (٢٥٨١)، وابن ماجه (٣٩٩٥).

وقد حكى لي رجل كان ترجماناً عند قاضي القسمة، وهو قاضي اليتامى، وكان يأخذ على قسمته من أموال اليتامى شيئاً معلوماً، قال: فنمت ليلة فرأيت كأنه وضع بين يدي طعام، فمددت يدي وتناولت منه، فإذا يد صبي صغير فألقيتها، ثم تناولت غيرها فإذا رجل صبي صغير، وهكذا كلما أخذت شيئاً وجدته عضو آدمي صغير، فقلت لأهلي: ما هذا؟

فقالوا: هذا اللحم الذي جئتنا به طبخناه لك.

قال: فلما استيقظت تركت الترجمة.

ثم رأيته بعد ذلك عاد إليها، ولم يصبر عنها.

وقلت: [من المتقارب]

أَلا رُبَّ آكِـــلِ مـــالِ يَتِـــيمٍ ... وَأَمْثالِــهِ تــابَ عَنْــهُ زَمانــا

وَعـادَ إِلَـى مِثْـلِ مـا تـابَ مِنْـهُ ... وَقَـدْ نَقَـضَ الْعَهْـدَ مِنْـهُ وَمانـا

فَــلا تَعْجَبُــوا مِنْــهُ إِنَّ النُّفـو ... سَ تَطْلُبُ ما مُنْعَتْ كَيْـفَ كانـا

كَمَـا أُوْلِعَـتْ بِالوَقِيـذِ الأنـوقُ ... وَالْكَلْبُ لَـوْ طُـرِدا مـا اسْـتكانا

تَلَـذُّ الْخَبائِـثَ نَفْـسُ الْخَبِـيثِ ... فَاعْتَبِــرِ الْجُعَــلَ الْمُــسْتَهانا

وما أشبه أكل مال اليتيم ونحوه بالغُول، والسعلاة، والهر، والكلب، والسبع التي تأكل من لحوم الناس.

واعلم أن آكل مال اليتيم، والعالم الذي يشري بعلمه ثمناً قليلاً، والغني الذي يسأل الناس، يشبهون النعامة أيضاً؛ فإنها تأكل الجمر.

نعم هي تأكل الجمر حالاً، وهم يأكلون ما يؤول إلى الجمر مآلاً، ولكن وجه المشابهة بينها وبينهم: أن النعامة تدرك من حرارة الجمر ما يمنعها من استعماله لولا ما في طبعها من ملاءمة حرارة الجمر، وكذلك العالم الباذل علمه في مقابلة الحطام، وآكل مال اليتيم، والسائل الغني، يدركون ضرر ما يأكلون، وإلا لم يكونوا مسلمين، ثم يأكلون لما صار في جبلتهم من استحلاء تناول ما ذكر.

والأدلة على ما سبق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾[النساء: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾[البقرة: ١٧٤].

وحديث حبشي بن جنادة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ يَسْأَلُ غيْرَ فَقِيْرٍ فَكَأَنَّمَا يَأْكُلُ الجَمْرَ». رواه الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، وابن حبان في «صحيحه»، وغيرهم(١).

وفي لفظ: «فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الجَمْرَ»(٢).

ورواه البيهقي بلفظ: «مَثَلُ الَّذي يَسْأَلُ فيْ غيرِ حَاجَةٍ كَمَثَلِ الَّذِي

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٥٠٦).

(٢) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٤٦).

يَلْتَقِطُ الجَمْرَ»[1].

وفي رواية عند الطبراني: «مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ فِيْ غَيرِ مُصِيْبَةٍ جَاحَتَهُ فَإِنَّمَا يلقمُ الرَّضفةَ»[2].

وفي رواية عنده أيضاً: «مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ لِيثْري بِهِ مَالهُ كَانَ خُموشَاً في وَجْهِهِ وَرضيفاً فِي جَهَنَّمَ يَأْكُلُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُقِلَّ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْثِرْ»[3].

الرَّضَف ـ بالضاد المعجمة ـ: الحجارة المحماة، واحدتها: رضفة.

وفي معناه ما أخرجه الإمام أحمد، ومسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ تَكَثُّراً فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جمْرَ جَهَنَّمَ؛ فَلْيَسْتَقِلَّ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»[4].

وقلت في معنى ما ذكرته هنا: [من الخفيف]

مَـنْ يَكُـنْ آكِـلَ الْحُطـامِ بِعِلْـمٍ ... أَوْ لِمـالِ الْيَتِـيمِ ظُلْمـاً وَقَهْـراً

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٥١٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٥٠٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٩٦): رواه الطبراني في «المعجم الكبير» وفيه جابر الجعفي، وفيه كلام وقد وثقه الثوري وشعبة.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٥٠٤)، وكذا الترمذي (٦٥٣).

(٤) تقدم تخريجه.

أَوْ يَكُـنْ سـائِلاً بِغَيْـرِ احْتِيـاجٍ فَهْـوَ مِثْـلَ النَّعـامِ يَأْكُـلُ جَمْـراً
صـارَ أَكْـلُ الْحَـرامِ مِنْـهُ طِباعـاً فَكَـذا لَـمْ يُحِـسَّ لِلنَّـارِ حَـرَّاً
لَـوْ غَـدا مُوْقِنـاً بِـذَلِكَ يَوْمـاً صارَ مِنْ سُوءِ مـا تَجَـرَّأَ صَـدْراً

*** تَتِمَّةٌ:**

ذكر أبو طالب المكي في «القوت»: أن من وصية أبي عبد الرحمن الثوري[1] التابعي المشهور لابنه: يا بني! عود نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخصم خصم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، إن الله خلقك إنساناً وفضلك، فلا تجعل نفسك بهيمة أو سبعاً، واحذر سرعة الكِظة، ونهم البطنة[2].

والكظة ـ بالكسر ـ: شيء يعتري الإنسان من امتلاء البطن، يقال: كظه الطعام: ملأه حتى لا يطيق التنفس.

والبطنة ـ بالكسر أيضاً ـ: الأشر، والبطن، وامتلاء البطن أيضاً.

ومن أمثال الناس: البطنة تُذهب الفطنة.

٣١ ـ ومن الخصال المذكورة: تقصد السمن بالمآكل والمشارب، والأدوية، والراحة، والقعود عن الطاعات خصوصاً إذا تعدى فاعل

(١) في «أ» و«ت»: «السلمي».

(٢) انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٦/ ١٩٦).

ذلك إلى محرم كشرب الخمر؛ فإنه يكون بذلك متشبهاً بالخنزير وغيره من البهائم لأنها تأكل من القمامات، وبعضها يأكل العذرات.

روى ابن أبي شيبة عن حنظلة بن عمر كاتب رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إن قومك زيَّنوا مساجدهم، وأخربوا قلوبهم، وتسمنوا كما تسمن الخنازير ليوم ذبحها، وإني نظرت إليهم فلعنتهم، ولا أستجب دعاءهم، ولا أعطيهم مسائلهم[1].

ورواه الإمام أحمد في «الزهد» عن هارون بن رباب [عن ابن عم حنظلة]، ولفظه: قل لبني إسرائيل: يا بني إسرائيل! زخرفتم مساجدكم، وخرَّبتم قلوبكم، وسمَّنتم أنفسكم كما تسمن البهائم ليوم ذبحها، فنظرت إليكم نظرة ولعنتكم، فإن دعوتموني لم أستجب لكم، وإن سألتموني لم أعطكم[2].

ورواه أبو نعيم، ولفظه: أوحى الله إلى نبي من أنبيائه عليه السلام أن أخبر قومك أنهم قد عمروا لبنائهم، وخربوا قلوبهم، وتسمنوا كما تسمن الخنازير ليوم ذبحها، فنظرت إليهم فَقَلَيْتُهم، فدعوني فلم أستجب لهم، وسألوني فلم أعطهم[3].

وروى الدينوري في «المجالسة» عن ضبة بن محصن قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: أما

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٢٨٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ٨٦).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٥٥) عن هارون بن رئاب.

بعد! فإن للناس نفرة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك، فأقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الله؛ فإن الدنيا تنفد، والآخرة تبقى، وأخف الفساق، [واجعلهم] يداً يداً، ورجلاً رجلاً، عُدْ مريض المسلمين، واحضُر جنائزهم، وافتح بابك، وباشر أمورهم بنفسك، وإنما أنت رجل منهم، غير أن الله تعالى جعلك أثقلهم حملاً، وقد بلغني أنه نشأ لك ولأهل بيتك هِنَة في لباسك، ومطعمك، ومركبك، وليس للمسلمين مثلها؛ فإياك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمن؛ فإنما حتفها في السمن، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من شَقِيت به رعيته.

وأنشدوا: [من الوافر]

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ عَبْدٍ سَمِينٍ ... كَثِيرِ اللَّحْمِ مَهْزُولِ الْمَعَالِي

كَمِثْلِ الطَّبْلِ يُسْمَعُ مِنْ بَعِيدٍ ... وَباطِنُهُ مِنَ الْخَيْراتِ خالِي

* تَنْبِيهاتٌ:

الأَوَّلُ: الشحم إنما يربو من النعمة وفراغ البال، وخلوه من الهم والغم، والحزن والخوف، وليس من شأن العالم إلا خشونة العيش؛ إما في شأن معاده، وإما في شأن معاشه، والغم بسبب ما وقع منه من التفريط والحزن على ما فات من عمره مضيعاً في غير طاعة، والخوف من الله تعالى، ومن عذابه وعقابه، والاهتمام بما بين يديه، فإن كان

على خلاف ذلك لم يكن منتفعاً بعلمه.

وقد استعاذ رسول الله ﷺ من علم لا ينفع[1].

ومن ثم كان العالم السمين ممقوتاً.

روى ابن أبي شيبة، والإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إني لأكره أن يكون القارئ سميناً.

وفي رواية: سميناً نسِيّاً للقرآن[2].

وفي رواية ابن جرير، وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى قال: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ! هَلْ تَجِدُ فِيْ التَّوْرَاةِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الحبرَ السَّمِينَ؟» ـ وكان حبراً سميناً ـ فغضب، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١][3].

قلت: وإنما كان الحبر السمين بغيضاً عند الله تعالى لأن سمنه دليل قلة خوفه من الله تعالى، وقلة همه بأمر آخرته، وقلة الخوف تناقض حال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٧٣)، وكذا أبو عبيد في «فضائل القرآن» (١/ ٣١٣).

(٣) رواه الطبري في «التفسير» (٧/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٤/ ١٣٤٢).

العالِم؛ إذ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨].

وروى أبو نعيم عن محمد بن سوقة رحمه الله تعالى قال: إن المؤمن الذي يخاف الله تعالى لا يسمن، ولا يزداد لونه إلا تغيراً[١].

وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: قرأت في الحكمة: إن الله ﷻ يبغض كلَّ حَبْر سمين[٢].

وروى الإمامان مالك، وأحمد، وأبو يعلى، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن جعدة بن خالد الجشمي رضي الله تعالى عنه [قال: سمعت النبي ﷺ و] رأى رجلاً سميناً، فطعن في بطنه، وقال: لو كان بعض هذا في غير هذا لكان خيراً لك، ولو كان بعض ما في بطنك في غير السمن والتنعم كان يكون في سبيل الله؛ كإطعام الجائعين كان خيراً لك[٣].

قلت: وما ذكر من أن الخائف من الله تعالى لا يسمن؛ هذا جري على الغالب، وقد يكون المؤمن عارفاً متسع المعرفة بحيث رسخ قدمه في الطاعة، وصار في حال الأنس والطمأنينة بالله تعالى؛ إذ لم يفرط فيحزن ويغتم، وصارت الطاعة في حقه خلقاً وطبعاً، فلا يتكلف

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٦٢).

(٣) رواه الطيالسي في «مسنده» (١٢٣٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢١٨٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٦٦٦).

لها ولا يهتم.

وأما أمر معاشه فثقته بالله تعالى أسقطت عنه هم المعاش، وخوَّفه من الله تعالى معدل لرجائه لفضله وإحسانه، فلا يظهر الهُزال في بدنه، بل يبدن ويسمن، وعلى ذلك يحمل ما روي أن النبي ﷺ بَدَن في آخر عمره مع أنه ﷺ لم يكن إلا في كفاف من العيش والقوت، يأكل ما وجد، ويلبس ما وجد، فما حصل له من البدونة إنما هو بسبب امتلاء قلبه من الفرح بربه، والسرور بقربه.

ومن لطائف الاعتذار عن السمن ما ذكره ابن خميس في «مناقب الأبرار»، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن أبي بكر الشبلي رحمه الله تعالى أنه قيل له: نراك جسيماً بديناً والمحبة تضني؟

فأشار يقول: [من المنسرح]

أَحَبَّ قَلْبِي وَما دَرى بَدَنِي ... وَلَوْ دَرى ما أَقامَ فِي السِّمَنِ[1]

وذكر الشيخ تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري في «لطائف المنن» عن شيخه الشيخ أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى: أنه كان ببلاد المغرب ولي من أولياء الله تعالى يتكلم على الناس، وكان بادناً، فجلس يوماً يتكلم على الناس، فقال رجل مكشوف الرأس كبيرها: هذا يزهد في الدنيا وهو كالدب؟ فكوشف الشيخ، فقال من فوق

---

(1) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٧١)، وكذا السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٦٠).

منبره: يا أبا ويس ما سمنني إلا حبه، ثم أنشد: [من المنسرح]

وَقائِلٍ لَسْتَ بِالْمُحِبِّ وَلَوْ ... كُنْتَ مُحِبّاً لَذُبْتَ مِنْ زَمَنِ

أَجَبْتُهُ وَالفُؤادُ فِي حَرَقٍ ... لَمْ تَذُقِ الْحُبَّ كَيْفَ تَعْرِفُنِي

أَحَبَّ قَلْبِي وَما دَرَى بَدَنِي ... وَلَوْ دَرى ما دَرَى أَقامَ فِي السِّمَنِ

التَّنْبِيهُ الثَّانِي: السمن والشحم للمرأة محمود إذا كان معتدلاً، ولا بأس بقصده لتحبب المرأة إلى بعلها أو سيدها من غير مبالغة في ذلك، ولا خروجٍ عن حد الاعتدال.

روى أبو نعيم في «الطب» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: تزوجني النبي ﷺ، فجهد أبواي على أن يسمناني، فلم أسمن، فأمرهما النبي ﷺ أن أطعم القثاء بالرطب، فسمنت عليه كأحسن السمن[1].

وروى البيهقي عنها قالت: أرادت أمي أن تسمنني، فلم أقبل عليها بشيء مما تريد، حتى أطعمتني القثاء بالرطب، فسمنت عليه كأحسن السمن[2].

وبالغ ابن الحاج في «المدخل» في إنكار استعمال الأدوية المسمنة حتى تصير المرأة بحيث لا تستطيع الاستنقاء، وربما احتاجت إلى من يقوم عليها بذلك من جارية وغيرها[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٣/ ٤٩).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٩٩٢)، وكذا أبو داود (٣٩٠٣).

(٣) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٦٣ ـ ٦٥).

ومثل ذلك لا شبهة في إنكاره، وهو للرجال أقبح، وخصوصاً إذا كان باستعمال الأدوية التي لا يبيحها الشرع كالسمومات، ومحرم ما لا يؤكل من الحيوانات وشحومها، وكالذي يشرب المسكر ليحسِّن لون بدنه ووجهه؛ كل ذلك مما لا شبهة في تحريمه.

وفرق بين ذلك وبين إطعام عائشة رضي الله تعالى عنها الرطب والقثاء ظاهر.

التَّنْبِيهُ الثَّالِثُ: التسمن، وكثرة ظهور السمن في الناس من أمارات الساعة، وأحوال الزمان المتأخر.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتي القَرْنُ الَّذِيْ بُعِثْتُ فِيْهِ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُم، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُم، ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السمانَةَ، يَشْهَدُوْنَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوْا»[1].

وروى الترمذي، والحاكم عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «خَيرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُم، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُم، ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِهِم قَوْمٌ يَتَسَمَّنُونَ وَيُحِبُّوْنَ السِّمَنَ، يُعْطُونَ الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلُوهَا»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٣٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٢٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٥٩٨٨)، وأصل الحديث عند البخاري (٢٥٠٨)، ومسلم (٢٥٣٥) بلفظ قريب.

ورواه أبو عمرو الداني في «الفتن»، ولفظه: «خَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ القُرُوْنُ الَّتِيْ بُعِثْتُ فِيْهِم، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُم، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُم ـ قال مطر: والله أعلم أذكَر الثالث أم لا، ـ ثُمَّ يَنْشَأُ قَوْمٌ يَشْهَدُوْنَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَنْذُرُونَ وَلاَ يُوفُونَ، وَيُحَدِّثُونَ وَلاَ يُوقِنُونَ، وَيَفْشُو فِيْهِمُ السِّمَنُ»[1].

قلت: وسبب فشو السمن فيهم تواطؤهم على اتباع الشهوات وإيثار المستلذات، وغفلتهم عما يراد بهم ومنهم، وأمنهم من مكر الله تعالى، وعدم مبالاتهم بما نقص من دينهم، أو أخذ من أعراضهم إذا توفرت لهم أنواع دنياهم، وتوصلوا إلى أغراضهم، وهو حال أكثر أبناء هذا الزمان؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون!

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنه النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيْمُ [السَّمينُ] يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوْضَةٍ»[2].

٣٢ ـ ومن الخصال المشار إليها: البطالة، والفراغ عما ينتفع به العبد في معاده، أو في معاشه.

روى أبو نعيم عن الشافعي رحمه الله تعالى قال: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن.

قيل له: ولم؟

---

(١) رواه أبو عمرو الداني في «الفتن» (٣/ ٦٧٣)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣٦).

(٢) رواه البخاري (٤٤٥٢)، ومسلم (٢٧٨٥).

قال: لأن العاقل لا يخلو من إحدى خلتين: إما يغتم لآخرته ومعاده، أو لدنياه ومعاشه، والشحم مع الغم لا ينعقد، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم فينعقد الشحم[1].

وأخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» بلفظ: «يهتم» عِوَضَ «يغتم»، و«الهم» عِوَضَ: «الغم»[2].

وروى الإمام أحمد في «الزهد» عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إني لأبغض الرجل أن أراه فارغاً ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة[3].

وفي «فائق الزمخشري»: عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لأكره أن أرى أحدهم سَبَهْللاً لا في عمل دنيا ولا في عمل أخرى[4].

وقال الجوهري: قال الأصمعي: جاء الرجل يمشي سبهللاً: إذا جاء وذهب في غير شيء، ثم ذكر كلام عمر.

وفي الحديث الطويل عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ في صُحُفِ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَعَلَى العَاقِلِ مَا لم يَكُنْ مَغْلُوْباً عَلَى عَقْلِهِ أَنْ يَكُوْنَ لَهُ سَاعَاتٌ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيْهَا رَبَّهُ ﷻ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٤٦).

(٢) ورواه بهذا اللفظ ابن الجوزي في «الأذكياء» (ص: ١٧٠).

(٣) ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٥٦٢)، وابن السري في «الزهد» (٢/ ٣٥٧).

(٤) انظر: «الفائق» للزمخشري (٢/ ١٤٩).

فِيْهَا نفْسَهُ، وَسَاعَةٌ يَتفَكَّرُ فِيْهَا في صُنْعِ اللهِ تَعَالى، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيْهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ المطْعَمِ وَالمشْرَبِ، وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ لاَ يَكُوْنَ ظَاعِناً إِلاَّ لِثَلاَثٍ: تَزَوُّدٍ لمعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لمعَاشٍ، أَوْ لُقْمَةٍ فِيْ غَيرِ مُحَرَّمٍ». رواه ابن حبان، والحاكم وصححاه، وغيرهما[1].

* فائِدَةٌ:

روى الإمام عبدالله بن المبارك في «الزهد» عن أبي قلابة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ وذكر شيئاً، فقال: «ذَاكَ أَوَانُ نَسْخِ القُرْآنِ».

فقال رجل كالأعرابي: يا رسول الله! ما ينسخ القرآن؟ أو: كيف ينسخ القرآن؟

قال رسول الله ﷺ: «وَيحَكَ! يُذْهَبُ بِأَصْحَابِهِ، وَتَبْقَى رِجَالٌ كَأَنَّهُم النَّعَامُ».

وضرب رسول الله ﷺ إحدى يديه على الأخرى، فمدها يشير بها، فقال الناس: يا رسول الله! أفلا نتعلمه ونعلمه أبناءنا ونساءنا؟

فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ قَرَأَتِ اليَهُوْدُ وَالنَّصَارَى، قَدْ قَرَأَتِ اليَهُوْدُ وَالنَّصَارَى»[2].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٧٧).

وفي هذا الحديث أن الناس عند قيام الساعة يكونون كالبهائم، وإنما خص النعامة منها لأنها أحمق البهائم حتى يضرب بها المثل في الحمق؛ فإنها تخرج لطلب الطعام، فمتى وجدت بيض نعامة أخرى حضنته، وتنسى بيضها فلا ترجع إليه.

كما قيل: [من المتقارب]

فَـإِنِّي وَتَرْكِـي لِـذِي الأَكْـرَمِينَ ... وَقدحِي وَكَفِّـي زِنـاداً شـحاحا

كَتارِكَـــةٍ بَيْـــضِـها بِـــالعَراءِ ... وَمُلْبِسَةٍ بَيْضِ أُخْرى جَناحـا[1]

وكذلك أحوال أكثر الناس في هذه الأعصار؛ يتركون ما يعنيهم ولو كان يعنيهم، ويشتغلون بما لا يعنيهم ولو كان لا يعنيهم.

ومما قلت: [من السريع]

أَقْبِـلْ عَلى شَـأْنِكِ إِنْ كُنْـتَ تَـرْ ... جُـو رِفْعَـةَ الـشَّأْنِ بِـدارِ القَـرارِ

وَلا تُضِـعْ عُمْـرَكَ فِـي غَيْـرِ مـا ... يَعْنِيكَ تَنْـدَمْ لاتَ حِـينَ الفِـرارِ

فَـإِنَّ بَعْـضَ النَّـاسِ مِـنْ جَهْلِـهِ ... يَنْزُو عَلـى الـدُّنْيا كَنَـزْوِ الغُـرارِ

والغُرار ـ بالضم ـ: ولد النعجة، والماعزة، والبقرة الوحشية.

والنزو: الوثوب.

---

(١) البيتان لابن هرمة، كما في «الحيوان» للجاحظ (١/ ١٩٩)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ١٠).

٣٣ ـ ومن الخصال المذكورة: التشبه بالبهائم في الغفلة عن الموت.

روى أبو نعيم في «الطب» عن أنس رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَوْ تَعْلَمُ البَهَائِمُ مِنَ الموْتِ مَا تَعْلَمُوْنَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا سَمِيْناً»(١).

وروى هو والبيهقي في «الشعب» عن أم حبيب الجهنية رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَوْ تَعْلَمُ البَهَائِمُ مِنَ الموْتِ مَا يَعْلَمُ بَنُوْ آدَمَ مَا أَكَلُوْا مِنْهَا لَحْماً سَمِيْناً»(٢).

وروى الديلمي عن أبي سعيد نحوه(٣).

وروى أبو نعيم عن الحسن رحمه الله تعالى أنه قال: ابنَ آدم! السكين تحد، والكبش يعتلف، والتنور يسجر(٤).

وعن مسعر رحمه الله تعالى: أنه كان يتمثل بهذه الأبيات في كل جنازة: [من الطويل]

وَنُحَدَّثُ رَوْعاتٍ لَدى كُلِّ فَزْعَةٍ
وَنُسْرِعُ نِسْياناً وَلَمْ يَأْتِنا الأَمْنُ

---

(١) ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٠٨٨) بمعناه.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٥٧)، وكذا القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣٤).

(٣) كذا عزاه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٥٤٥) إلى الديلمي.

(٤) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٢).

فَإِنَّـــــا وَلا كُفْـــــرانَ لِلَّـــــهِ رَبِّـــــنا

لَكَالْبُـــدْنِ لا تَـــدْرِي مَتَـــى يَوْمُهـــا البــدْنُ[1]

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» عن مسعر رحمه الله تعالى قال: لم يقل لبيد رضي الله تعالى عنه في الإسلام إلا هذين البيتين: [من الطويل]

نُجَـــدِّدُ أَحْزانـــاً لَـــدى كُـــلِّ هالِـــكٍ

وَنُـــسْرِعُ نِـــسْياناً وَلَـــمْ يَأْتِنـــا الأَمْـــنُ

فَإِنَّـــــا وَلا كُفْـــــرانَ لِلَّـــــهِ رَبِّـــــنا

لَكَالْبُـــدْنِ لا تَـــدْرِي مَتَـــى يَوْمُهـــا البــدْنُ

وقال الدينوري: أنشدنا ابن قتيبة لعروة بن أذينة: [من الوافر]

نُـــــراعُ إِذا الْجَنـــــائِزُ قابَلَتْنـــــا

وَيُحْزِنُنـــــا بُكـــــاءُ الباكِيـــــاتِ

كَرَوْعَـــــةِ ثلَّـــــةٍ لِمُغـــــارِ لَيْـــــثٍ

فَلَمَّـــــا غـــــابَ عـــــادَتْ راتِعـــــاتِ[2]

ونقل الإمام أبو محمد عبد الحق الإشبيلي في كتاب «العاقبة» عن أبي عمر بن العلاء قال: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه

---

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٢١).

(٢) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (١/ ١٥٨).

شعراً، فاطلعت جنازة، فأمسك وقال: شيبتني هذه الجنائز، وأنشأ يقول: [من الوافر]

تُرَوِّعُنـا الْجَنـائِزُ مُقْبِلاتٍ ... وَنَلْهُو حِينَ تَذْهَبُ مُدْبِراتِ

كَرَوْعَةِ ثُلَّةٍ لِمُغارِ ذِئْبٍ ... فَلَمَّا غابَ عادَتْ راتِعاتِ[1]

وأنشد عبد الحق أيضاً قول الآخر: [من السريع]

يا راكِبَ الرَّوْعِ لِلَذَّاتِهِ ... كَأَنَّهُ فِي أَتْنِ عَيْرْ

وَآكِلاً كُلَّ الَّذِي يَشْتَهِي ... كَأَنَّهُ فِي كَلاءِ ثَوْرْ

وَناهِضاً إنْ يَدْعُ داعِيَ الْـ ... ـهَوى كَأَنَّهُ مِنْ خِفَّةٍ طَيْرْ

وَكُلَّما يَسْمَعُ أَوْ ما يَرى ... كَأَنَّما يُعْنَى بِهِ الْغَيْرْ

إِنَّ كُؤُوسَ الْمَوْتِ بَيْنَ الوَرى ... دَائِرَةٌ قَدْ حَثَّها السَّيْرْ

وَقَدْ تَيَقَّنْتَ وَإِنْ أَبْطَأَتْ ... أَنْ سَوْفَ يَأْتِيكَ بِها الدَّوْرْ

وَمَنْ يَكُنْ فِي سَيْرِها حائِراً ... تَاللهِ ما فِي سَيْرِها حَوْر[2]

وأنشد إسحاق الختلي في «الديباج» لمعبد النجدي: [من الكامل]

الدَّهْرُ أَفْنانِي وَما أَفْنَيْتُهُ ... وَالدَّهْرُ غَيَّرَنِي وَما يَتَغَيَّرُ

---

(١) انظر: «العاقبة في ذكر الموت» لعبد الحق الإشبيلي (ص: ١٥٢).

(٢) انظر: «العاقبة في ذكر الموت» لعبد الحق الإشبيلي (ص: ٢٧).

إِنَّ امْـــرَأً أَمْـــسى أَبُــوهُ وَأُمُّـــهُ   تَحْـتَ التُّــراب لِهَوْلِـهِ يَتَفَكَّــرُ
مِثْـلَ الْبَهـائِمِ لا تَـرى آجالَهـا   حَتَّى تُقادَ إِلَـى الْمَنِيَّـةِ تُجْـزَرُ[1]

فإن قلت: فما تصنع بما رواه ابن أبي حاتم عن ابن سابط قال: ما أبهمت البهائم فلم تبهم عن أربع: تعلم أن الله ربها، ويأتي الذكر الأنثى، وتهتدي لمعاشها، وتخاف من الموت[2].

قلت: لا يلزم من خوفها من الموت أن تعلم ما نعلم منه، وإنما هو معنى يحصل للدابة إذا أحست بما هو من أسباب الموت، فتراع عند مشاهدته فتذعر كما يحصل للشاة عند مشاهدة الذئب دون غيره، وللفأرة عند مشاهدة الهر، وللفرس وغيرها عند مشاهدة الأسد، ولأكثر الحيوانات عند مشاهدة الآدمي، فأما أن تعلم حقيقة الموت وما بعد الموت من عذاب أو نعيم فهذا مما خص الله تعالى به العقلاء، فمن لم يؤمن بعذاب القبر وفتنته، والبعث والحساب، أو آمن بذلك ثم اغتر بالدنيا، فهو ملحق بالبهائم، أو أسوء حالاً منها.

وما أحسن ما قيل: [من مجزوء الرمل]

أَيُّهـــــا الْمُغْتَـــــرُّ بِالـــــدُّ   نْيـــا إِلَـــى كَـــمْ ذا الغُـــرُورُ
كَيْـــــفَ يَغْتَـــــرُّ بِـــــدُنْيا   مَـــنْ إِلَـــى الْمَـــوْتِ يَـــصِيْرُ

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٧٣)، و«الزهد الكبير» للبيهقي (ص: ٢٣٤)، وعندهما: «معبد العنبري».

(٢) انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٥٨٢).

وروى ابن أبي الدنيا في «القبور» عن فضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال: ويحك! ألست تموت وتخرج من أهلك، ومآلك إلى القبر وضيقه وحدك؟

ثم قال: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

ثم قال: إن كنت لا تعقل هذا، فما في الأرض دابة أحمق منك.

* **تنبيهانِ:**

الأَوَّلُ: روى الإمامان مالك، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم وصححوه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيْهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَفِيْهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيْهِ أُهْبِطَ، وَفِيْهِ تِيْبَ عَلَيْهِ، وَفِيْهِ قُبِضَ، وَفِيْهِ تَقُوْمُ السَّاعَةُ، مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ تُصْبِحُ يَوْمَ الجُمُعَةِ مُصِيْخَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شفقاً مِنَ السَّاعَةِ إِلاَّ ابْنَ آدَمَ، وَفِيْهِ سَاعَةٌ لاَ يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ وَهُوَ فِيْ الصَّلاَةِ يَسْأَلُ اللهَ شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»[1].

فالمذكور في هذا الحديث من إصاخة الدواب وإشفاقها محمول

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ١٠٨)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١) وقال: حسن صحيح، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (١٠٣٠)، وكذا النسائي (١٤٣٠)، وروى مسلم (٨٥٤) طرفاً منه.

على ما تقدم من أن الله تعالى يخلق في الدواب معنى يوجد فيها في تلك الساعة من كل جمعة، فيحصل لها الفَرَق والشفق لخصوصية قيام الساعة يوم الجمعة في أول ساعة منه حتى تطلع الشمس، فتذهب عنها تلك الحالة إلا ما كان من ابن آدم والجن أيضاً.

ففي حديث آخر: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ تَفْزَعُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلاَّ هَذَيْنِ الثَّقَلَيْنِ: الإِنْسُ وَالجِنُّ». رواه ابن حبان، وابن خزيمة في «صحيحيهما»[1].

وإنما تحصل تلك الحالة للثقلين على وجه الإلقاء لأنهما مكلفان، فلو جعل ذلك في طباعهما لم يكن فيه ثواب، فجعل اهتمام المكلف بيوم الجمعة وبقيام الساعة موكولاً إلى علمه واختياره ليكون له ثوابه إذا اهتم بيوم الجمعة، وارتاع لقيام الساعة، وتأهَّب لها باختياره.

وأما غيره من الدواب، بل والجمادات كما في حديث آخر رواه الإمام أحمد، والبزار من حديث سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ الأَيَّامِ يَوْمُ الجُمُعَةِ»، فذكر الحديث، وقال فيه: «وَفِيْهِ تَقُوْمُ السَّاعَةُ، مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلاَ سمَاءٍ، وَلاَ أَرْضٍ، وَلاَ رِيَاحٍ، وَلاَ جِبَالٍ، وَلاَ بَحْرٍ إِلاَّ وَهُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ»[2].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٧٧٠)، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٢٧)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٧٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٨٤)، وكذا الطبراني في «المعجم =

فهذا المعنى يحصل لهذه المذكورات؛ يعني: إن الله تعالى يخلق لهن إدراكاً لذلك، فيشفقن أن تقوم الساعة كما قيل: إن الله تعالى خلق في السموات والأرض والجبال إدراكاً لمعنى الأمانة، وثقل حملها حتى أشفقن منها حين عرضه إياها عليهن.

ويجوز أن تكون الحكمة في خلق المعنى المذكور للدواب والجمادات في يوم الجمعة إقامة الحجة على من يغفل عن الساعة من الثقلين كأن يقال لهم: خلقت لكم عقولاً لم أخلقها للدواب والجمادات، فكانت تشفق وترتاع لقيام الساعة، ولم تغفل عن قيام الساعة وما يترتب عليه من الأهوال، والحساب والجزاء ما غفلتم، وأنتم كنتم في غفلة عنها ولكم العقول التي تميزتم بها عن هؤلاء؛ كما أراد الله تعالى إقامة الحجة على الإنسان حين عرضت عليه الأمانة فحملها، ولم يأب كما أبت السماوات والأرض والجبال حَمْلَها حين عرضت عليهن.

التَّنْبِيهُ الثَّانِي: روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ القُبُوْرِ يُعَذَّبُونَ فِيْ قُبُوْرِهِم عَذَاباً تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ»[1].

وروى الإمام أحمد، وابن حبان عن أم مبشر رضي الله تعالى

= الكبير» (٥٣٧٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٦٣): رواه الإمام أحمد والبزار والطبراني، وفيه عبدالله بن محمد بن عقيل، وفيه كلام، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات.

(١) رواه البخاري (٦٠٠٥)، ومسلم (٥٨٦).

عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «اِسْتَعِيْذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ القَبرِ».

قلت: يا رسول الله! وإنهم ليعذبون في قبورهم؟

قال: «نعَمْ، عَذَاباً تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ»[1].

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر، وهو يسير على راحلته فنفرت، قلت: يا رسول الله! ما بال راحلتكم نفرت؟

قال: «إِنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَ رَجُلٍ يُعَذَّبُ فِيْ قَبرِهِ»[2].

قلت: الحكمة في سماع البهائم لعذاب المعذبين في قبورهم أن تكون شاهدة بصدق النبي ﷺ فيما أخبر به من الأمور المغيبات.

ويؤيده حديث يعلى بن مرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يَعْلَمُ أَني رَسُوْلُ اللهِ إِلاَّ كَفَرَةُ الإِنْسِ وَالجِنِّ». رواه الطبراني في «الكبير»[3].

وأما الناس فلم يسمعهم الله تعالى عذاب القبر إلا بعض الخواص منهم زيادة في الابتلاء، وليحصلوا على فضيلة الإيمان بالغيب، ولأنهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١٢٥).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٣٦٦). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٥٦): فيه جابر الجعفي، وفيه كلام كثير، وقد وثق.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٦١). فيه عمر بن عبدالله بن يعلى بن مرة ضعيف.

لو اطلعوا على عذاب القبر لم يدفنوا موتاهم، كما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث المار في التشبه بقابيل: «لَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوْا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُم عَذَابَ القَبرِ»[١].

٣٤ ـ ومن الخصال المذكورة: تشبه الإنسان في جمع الأموال، وتركها للورثة بدود القَزِّ.

قال أبو طالب المكي في «القوت»: وقد مثَّل بعضُ الحكماء ابن آدم بدود القز لا يزال ينسج على نفسه بجهله حتى لا يكون له مخلص، فيقتل نفسه، ويصير القز لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه؛ لأن القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فيشمس، وربما غمز بالأيدي فيموت لئلا يقطع القز، وليخرج القز صحيحاً.

قال: فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي أهلك عمره وماله، فتتنعم ورثته بما شقي به؛ فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية لأنه أكسبهم إياه، فلا يدري أي الحسرتين عليه أعظم: أذهابه وتركه لغيره؟ أو نظره إلى ماله في ميراث غيره[٢]؟

أخبرنا أبي شيخ الإسلام عن قاضي القضاة زكريا، وغيره عن ابن حجر الحافظ قال: قرأت على أبي إسحاق التنوخي، عن يحيى بن سعد عن جعفر بن علي: أنا السلفي قال: أنشدنا أبو سعيد الشيرازي

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (١/ ١٥٣).

قال: أنشدنا أبو علي بن شبل لنفسه: [من البسيط]

يُعْنَى[1] البَخِيلُ بِجَمْعِ الْمالِ مُدَّتَهُ ... وَلِلْحَوادِثِ وَالوُرَّاثِ ما يَدَعُ

كَدُودَةِ القَزِّ ما تَبْنِيهُ يُهْلِكُها ... وَغَيْرُها بِالَّذِي تَبْنِيهِ يَنْتَفِعُ[2]

ولأبي الفتح البستي: [من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ طُولَ حَياتِهِ ... مُعَنًّى بِأَمْرٍ لا يَزالُ يُعالِجُهْ

كَدُودٌ كَدُودِ القَزِّ يَنْسُجُ دائِماً ... وَيَهْلَكُ غَمَّاً وَسْطَ ما هُوَ ناسِجُهْ[3]

وروى البخاري، والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟»

قالوا: يا رسول الله! ما منا أحد إلا ماله أحب إليه.

قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ»[4].

---

(١) في مصدري التخريج: «يفنى» بدل «يعنى».

(٢) انظر: «نهاية الأرب» للنويري (١٠/ ١٨١).

(٣) انظر: «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١/ ١٠٣).

(٤) رواه البخاري (٦٠٧٧)، والنسائي (٣٦١٢).

وروى الإمام أحمد، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُوْلُ العَبْدُ: مَالي، مَالي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ [ثلاثٌ] مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَأَبْقَى، مَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ»[1].

وأنشد الخطابي في «غريبه» لعبد الرحمن بن عتبة بن مسعود:

[من المتقارب]

سَأَفْرِشُ نَفْسِيِ الَّتِي خَوَّلَتْ ... وَأُوْثِرُ نَفْسِي عَلَى الوارِثِ

أُبادِرُ إِنْفاقَ مُسْتَجْمِلٍ ... بِمالِي أَوْ عَبَثَ العابِثِ[2]

وأنشد الإمام أبو الفتوح الطائي في «أربعينه» بإسناده إلى الأمير أبي الفضل عبدالله بن أحمد الميكالي: [من مخلَّع البسيط]

مالُكَ لِلْحادِثاتِ نَهْبٌ ... أَوْ لِلَّذِي حازَهُ وِراثَةْ

أَوْ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَهُ ذُخْراً ... فَلا تَكُنْ أَعْجَزَ الثَّلاثَة[3]

٣٥ ـ ومنها: التشبه بالدود في ركوب البحر، والأسفار الشاقة البعيدة في طلب الدنيا.

لأن الدودة قد تذهب في طلب رزقها إلى حيث تضيع فتهلك،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٨)، ومسلم (٢٩٥٩).

(٢) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٣/ ١٤٥)، وعنده: «مستحمد» بدل «مستجمل».

(٣) وانظر: «المدهش» لابن الجوزي (ص: ٣٨٣).

ورُبَّ دودةٍ في صخرة يأتيها رزقها من غير سعي، فالكادُّ في طلب رزقه الراكب للأهوال في كسبه كالنوع الأول من الدود، وهو دون النوع الثاني منه.

وذكر الدميري في «حياة الحيوان»: أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه: صِفْ لي البحر وراكبه.

فقال: خَلْق قوي يركبه خلق ضعيف؛ كدودٍ على عود إن ضاعوا هلكوا، وإن بقوا فرقوا.

فقال عمر رضي الله عنه: لا أحمل فيه أحداً أبداً[1].

٣٦ ـ ومنها: تشبه الكافر والفاجر في انشراح الصدر بالكفر أو بالمعصية، وانقباضه عن الخير، وعن سماع القرآن والمواعظ بالْجُعَلِ إذا دفن في الورد مات، فإذا دفن [في] الزبل عاش، وكذلك دودة الخل إذا وقعت في العسل ماتت.

وأنشد السيوطي رحمه الله تعالى في «ديوان الحيوان» لأبي منصور بن عبد الحميد بن محمد المدائني: [من السريع]

إذا نَهَيْتَ الوَغْدَ عَنْ طَبْعِهِ ... أَتاكَ مِنْهُ الزَّيْغُ وَالْخُلْفُ

لا يَصْبِرُ الْمَرْءُ على حالَةٍ ... كانَ لَهُ فِي ضِدِّها إِلْفُ

كَدُودَةِ القَزِّ إذا أُلْقِيَتْ ... فِي عَسَلٍ بادَرَها الْحَتْفُ

---

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (١/ ٤٧٧).

٣٧ ـ ومنها: أن يتأخر الإنسان عن الانقياد إلى الحق، وعن تأديته إلى أهله حتى يعاقب، أو يخوف ويهدد ليكون في ذلك متشبهاً بالحمار يتأخر عن المسير ويحرن، فلا يمشي حتى يُهان ويضرب.

وقد وقع التنبيه على ذلك في شعر ابن عبدل الذي أنشده النضر ابن شميل للمأمون حين قال له: يا نضر! أنشدني أقنع بيت للعرب كما رواه الزبير بن بكار، والمعافى بن زكريا في «الجليس والأنيس»، وهو قوله: [من المنسرح]

إنِّي امْرُؤٌ لَمْ أزَلْ وَذاكَ مِنَ اللـ ـهِ أَدِيباً أُعَلِّمُ الأَدَبا

أُقِيمُ بِالدَّارِ ما اطْمَأَنَّتْ بِيَ الدَّ ارُ وَإِنْ كُنْتُ نازِحاً طَرَباً

لا أَجْتَوِي خُلَّةَ الصَّدِيقِ وَلا أُتْبِعُ نَفْسِيَ شَيْئاً إِذا ذَهَبا

أَطْلُبُ ما يَطْلُبُ الْكَرِيْمُ مِنَ الرِّ زْقِ بِنَفْسِي وَأُجْمِلُ الطَّلَبا

وَأَطْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفِيَّ وَلا أُجْهِدُ أخلاقَ غَيْرِها حَلَبا

إِنِّي رَأَيْتُ الفَتَى الكَرِيْمَ إِذا رَغَّبْتَهُ فِي صَنِيْعَهِ رَغِبا

وَالْعَبْدَ لا يَطْلُبُ العلاءَ وَلا يُعْطِيكَ شَيْئاً إِلاَّ إِذا رَهِبا

مِثْلَ الْحِمارِ الْمُوْقِعِ السُّوءَ لا يُحْسِنُ شَيْئاً إِلاَّ إِذا ضُرِبا

وَلَمْ أَجِدْ عُرْوَةَ الْخَلائِقِ إِلاَّ الدِّيْنَ لَمَّا اخْتَبَرْتُ وَالْحَسَبا

قَدْ يُرْزَقُ الْخافِضُ الْمُقِيمُ وَما شَدَّ بِعِيسٍ رَحْلاً وَلا قَتَبا

وَيُحْرَمُ الـرِّزْقَ ذُو الْمَطِيَّـةِ والـ ـرحل وَمَـنْ لا يَـزالُ مُغْتَرِبـا[1]

والصفي: روي بالصاد المهملة، وهو: الشـيء الـذي يختـار ويصطفى.

وروي بالمعجمة، وهو: الناقة الغزيرة اللبن.

٣٨ ـ ومنها: تشبه الناس في قتل بعضهم بعضاً عصبيةً وهوىً بالحيات، والذئاب، ونحوها.

روى عبد الرزاق، ومن طريقه أبو محمد البغوي في «شرح السنة» عن كرز بن علقمة الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: قال أعرابي: يا رسول الله! هل للإسلام منتهى؟

قال: «نعَمْ، أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ العَرَبِ أَوْ العَجَمِ أَرَادَ اللهُ بِهِمْ خَيراً أَدْخَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الإِسْلاَمَ».

قال: ثم ماذا يا رسول الله؟

قال: «ثُمَّ تَقَعُ الفِتَنُ كَأَنَّهَا الظُّلَلُ».

قال: فقال الأعرابي: كلا يا رسول الله!

فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفسِيْ بِيَدِهِ، ثُمَّ لَتَعُوْدُنَّ فِيْهَا أَسَاوِدَ صباً، يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْضٍ»[2].

---

(١) رواه المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح والأنيس الناصح» (ص: ٢٤٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/ ٣٠).

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٧٤٧)، والبغوي في «شرح السنة» =

الأساود: جمع أسود؛ قال أبو عبيد: وهو العظيم من الحيات.

وقوله: صباً: لأنها إذا أرادت أن تنهش ارتفعت، ثم تصب.

وقال شمر: الأسود أخبث الحيات، وربما عارض الرفقة وتبع الصوت[1].

قلت: وعلى هذا قاطع الطريق متشبه بالأساود، وينبغي أن يعد من الخصال التي يكون صاحبها متشبهاً بالهوام والسباع قطعُ الطريق؛ لأن الأسد والذئب ونحوهما قد يقطع الطريق على المارة.

وروى الحافظ عبد الغني عن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ أَكْثَرُهُم وُجُوهُهُم وُجُوْهُ الآدَمِيِّيْنَ، وَقُلُوْبُهُمْ قُلُوْبُ الذِّئَابِ الضَّوَارِي، سَفَّاكُوْنَ لِلدِّمَاءِ، لا يرعونَ عَنْ قَبِيْحٍ فَعَلُوْهُ، فَإِنْ تَابَعْتَهُم وَارَبُوْكَ، وَإِنْ حَدَّثْتَهُم كَذَّبُوْكَ، وَإِنْ اِئْتَمَنْتَهُم خَانُوْكَ، وَإِن تَوَارَيْتَ عَنْهُم اغْتَابُوْكَ، صَبِيُّهُم عَارِمٌ، وَشَابُّهُم شَاطِرٌ، وَشَيْخُهُم فَاجِرٌ، لاَ يَأْمُرُهُم بِمَعْرُوْفٍ وَلا يَنْهَاهُمْ عَنْ مُنْكَرٍ، الاِخْتِلاَطُ بِهِمْ ذُلٌّ، وَطَلَبُ مَا فِيْ أَيْدِيْهِم فَقْرٌ، الحَكِيْمُ فِيْهِمْ غَاوٍ، وَالغَاوِي فِيْهِمْ حَكِيْمٌ، وَالسُّنَّةُ فِيْهِمْ بِدْعَةٌ، وَالبِدْعَةُ فِيْهِمْ سُنَّةٌ، وَالآمِرُ بَيْنَهُمْ بَالمعْرُوْفِ مُتَّهَمٌ، وَالفَاسِقُ فِيْهِمْ

= (١٥/ ٢٩)، وكذا الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٠٥): رواه أحمد والبزار والطبراني بأسانيد، وأحدها رجاله رجال الصحيح.

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٥/ ٣٠).

مُشَرَّفٌ، وَالمؤْمِنُ بَيْنَهُمْ مُسْتَضْعَفٌ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَوْماً إِنْ تَكَلَّمُوْا قَتَلُوْهُمْ، وَإِنْ سَكَتُوْا اِسْتَبَاحُوْهُم، يَسْتَأْثِرُوْنَ عَلَيْهِمْ بِنَعِيْمِهِم، وَيَطَؤُونَ حَرِيمَهُم، وَيَجُوْرُونَ فِيْ حُكْمِهِم»[1].

قلت: من يشك أنه زمانا هذا، وقد ابتلي أكثر الناس بأهل الدولة من الأروام، وغيرهم، وأتباعهم؛ نسأل الله تعالى السلامة.

٣٩ ـ ومنها: التشبه في الغدر والسطوة بجوارح السباع والطير.

أنشد الثعالبي لبعضهم: [من المنسرح]

تَجَمَّعَتْ فِيهِ وَحْدَهُ شِيَمٌ ... فَهْوَ مِنَ الطَّيْرِ فِي أَفَانِينِ

زَهْوُ غُرابٍ وَكَذْبُ فاخِتَةٍ ... وَشُؤْمُ بُومٍ وَغَدْرُ شاهِينِ

٤٠ ـ ومنها: التشبه في السفاهة والفحش والبذاء ـ ولا سيما على الأكابر والعلماء ـ بالكلب إذا نبح على الأسد ونحوه مما هو أشرف منه.

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح، عن عبدالله بن عمرو[2] رضي الله تعالى عنهما: أن النبي ﷺ قال: «ضَافَ ضَيْفٌ رَجُلاً مِنْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ وَفِيْ دَارِهِ كَلْبَةٌ، فَقَالَتْ الكَلْبَةُ: وَاللهِ لاَ أَنْبَحُ ضَيْفَ أَهْلِي، فَعَوَى جِرَاؤُهَا فِيْ بَطْنِهَا، قِيْلَ: مَا هَذَا؟ فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إِلى رَجُلٍ

---

(١) ورواه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٢٩٧) وقال: لا أصل لهذا عن النبي ﷺ.

(٢) في «أ» و«ت»: «عبدالله بن عمر».

مِنْهُمْ: هَذَا مَثَلُ أُمَّةٍ مِنْ بَعْدِكُمْ؛ يَقْهَرُ سُفَهَاؤُهَا حُلَمَاءَهَا»[1].

ولقد أحسن جدي شيخ المحققين رضي الدين ﷺ في قوله:

[من الرجز]

كَلْـبٌ عَلـى سَـبْعٍ يهـر نائِحـاً مِنْ ضَعْفِ قَلْبِـهِ تَرى أَوْ مِنْ حَسَدْ
فَـإِنْ بِـهِ سَـطا بِبَطْـشِهِ فَـذا جَزاءُ كَلْبٍ اجْتَرا عَلـى الأَسَـدْ

وأنشد الدينوري في «المجالسة» لمحمد بن عبدالله الحضرمي:

[من مجزوء الخفيف]

عاشِـرِ النَّـاسَ بِالْجَمِيـ ـلِ وَسَـدِّدْ وَقـارِبِ
وَاحْتَـرِسْ مِـنْ أَذَى الْكِـرا مِ وَجُـدْ بِالْمَواهِـبِ
لا يَـسُودُ الْجَمِيـعَ مَـنْ لَـمْ يُقِـمْ بِالنَّوائِـبِ
لا تَبِـعْ عِرْضَـكَ الْمَـصُو نَ بِعِـرْضِ الْمُكالِـبِ
إِنَّ رَدَّ اللَّئِـيمِ شَتْـ ـمَكَ إِحْـدى الْمَـصائِبِ
أَنَـا لِلـشَّرِّ كـارِهٌ وَلَـهُ غَيْـرُ هائِـبِ
لَـسْتُ لِلـشَّرِّ مـا تَبَـا عَـدَ عَنِّـي بِـصاحِبِ[2]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨٠): رواه أحمد والبزار والطبراني، وفيه عطاء بن السائب، وقد اختلط.

(٢) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٥٠٥).

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» عن إبراهيم بن ميسرة رحمه الله تعالى قال: يقال: الفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب، أو في جوف كلب(١).

وفي «ارتشاف الضرب» لأبي حيان: وقد ركَّب أبو العباس بن سريج ما دخلت عليه لو تركيباً غريباً، فقال: [من الطويل]

وَلَوْ كُلَّما كَلْبٌ عَوى مِلْتُ نَحْوَهُ
أُجاوِبُهُ إِنَّ الكِلابَ كَثِيرُ

وَلَكِنْ مُبالاتِي بِمَنْ صاحَ أَوْ عَوى
قَلِيلٌ فَإِنِّي بِالْكِلابِ بَصِيرُ(٢)

٤١ ـ ومنها: التشبه بالكلب والخنزير في التكبر.

وصورة هذا التشبه لا تظهر لنفس المتكبر في نفسه لأنه لو لم ير نفسه عظيماً لم يتكبر، وإنما تظهر تلك الصورة عند الناس كما أنه كذلك عند الله تعالى.

روى ابن أبي شيبة عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته. وقال: انتعش أنعشك الله؛ فهو في نفسه صغير، وفي أنفس الناس كبير.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ١٨٥).

(٢) وانظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٤/ ٢٨٩)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٢/ ٥٣١).

وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره وضعه الله إلى الأرض، وقال: اخسأ أخسأك الله؛ فهو في نفسه كبير، وفي أنفس الناس صغير، حتى لهو أحقر عندهم من خنزير(١).

وروى نحوه أبو نعيم، وقال فيه: حتى يكون أهون من كلب(٢).

وتظهر صورة التكبر على الكلب في أمرين:

الأول: أنه ينبح الفقراء ومن رثت أثوابه، ولا ينبح الأغنياء.

والثاني: أنه ينام في ممر الناس ولا يعبأ بهم، فربما عوقب في كبره بأنه يوطأ في الغالب، فيظهر ذله وحقارته في نفس كبره.

وروى البزار بإسناد حسن، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ المتكَبِّرُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيْ صُوْرَةِ الذَّرِّ، يَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِم عَلَى اللهِ تَعَالى»(٣).

٤٢ ـ ومنها: التشبه بالكلب في النظر إلى ظاهر الهيئة، واعتبار الأغنياء دون الفقراء، وازدراء الفقراء دون الأغنياء، والتسلط عليهم بالظلم والعدوان كالكلب العَقُور.

قال صاحب «حياة الحيوان»: ومن طبع الكلب أنه يكرم أهل

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٤٦١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ١٢٩).

(٣) رواه البزار في «المسند» (٨٠٢١). وحسن العراقي إسناده في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٥٠).

الوجاهة ولا ينبحهم، وينبح أهل الرثاثة والدنس[1].

قال السيوطي: وإلى هذا أشار القائل: [من الكامل]

يَمْشِي الفَقِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ ضِدُّهُ
وَالْخَلْقُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوابَها

وَتَراهُ مَمْقُوتاً وَلَيْسَ بِمُذْنِبٍ
وَيَرَى العَداوَةَ لا يَرى أَسْبابَها

حَتَّى الْكِلابُ إِذا رَأَتْ ذا بِزَّةٍ
هَشَّتْ إِلَيْهِ وَلَوْلَحَتْ أَذْنابَها

وَإِذا رَأَتْ يَوْماً فَقِيراً مُعْدَماً
نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أَنْيابَها[2]

٤٣ ـ ومنها: التشبه في أكل لحم المؤمن بالغيبة بالذي يأكل الميتة من السباع.

قال الله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢].

وللإمام الشافعي رضي الله عنه: [من الوافر]

---

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٣٧٨).

(٢) الأبيات للأحنف العكبري، كما في «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار (١٧/ ٣٥).

وَلَـــيْسَ الـــذِّئْبُ يَأْكُـــلُ لَحْـــمَ ذِئْـــبٍ
وَيَأْكُـــلُ بَعْـــضُنا بَعْـــضاً عَيانـــا[1]

وروى ابن أبي الدنيا في «الصمت» عن علي بن الحسين رضي الله عنهما: أنه سمع رجلاً يغتاب رجلاً فقال: إياك والغيبة؛ فإنها إدام كلاب الناس[2].

وروى ابن عبد البر عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: الغيبة مرعى اللئام[3].

وروى الثعلبي بسند ضعيف، عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ المُمَزِّقَ لأَعْرَاضِ النَّاسِ يُحْشَرُ فِيْ صُوْرَةِ كَلْبٍ ضَارٍ»[4].

وروى أبو نعيم عن ميمون بن مهران رحمه الله تعالى قال: إنما الفاسق بمنزلة السبع، فإذا كلمت فيه فخليت سبيله فقد خليت سبعاً على المسلمين[5].

وقال الشيخ الإمام جدي رضي الله عنه: [من الرجز]

---

(١) انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (ص: ٢٣٢).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت وآداب اللسان» (ص: ١٧٣).

(٣) وانظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٢٩)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣١).

(٤) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٤): رواه الثعلبي في «التفسير» بسند ضعيف.

(٥) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٩١).

يـــا آكِـــلاً لَحْـــمَ أَخِيـــهِ مَيِّتـــاً

بالغَــتَ يــا مَكْلُــوبُ فِــي التَّــوَحُّشِ

عُوْقِبْــتَ بِالْمَــسْخِ مِــنَ اللهِ وَلَــمْ

تَرْجِــعْ وَلا مِــنَ الْعِقــابِ تَخْتَــشِي

قَــدْ زالَ أُنْــسُ الإِنْــسِ عَنْــكَ عِنْــدما

نَــشَأْتَ فِــي هَــذا التَّجَــرِّي الْمُفْحِــشِ

وَمــا بِــهِ انْتَــشَأْتَ مِنْــهُ لَــمْ تَفِــقْ

يــا لَيْــتَ مَــسْلُوبَ الْحِجَــى لَــمْ يَنْتَــشِي

٤٤ ـ ومنها: اتفاق المتصادقين والمترافقين في غرض، فإذا عرضت لهما الدنيا أعرض أحدهما، أو كل منهما عن الآخر؛ كل منهما يريد الاستقلال بها، فيتجاذبانها، ويتهاتران عليها تشبهاً بالكلاب؛ فإنها تكون على اجتماع وهراش، فإذا لاح لها ميتة أو غيرها تهالكت عليها، وأحب كل واحد منهما لو يستقل بها، ويحمي عنها حتى كأنه لم يعرف رفيقه.

وهذا حال أكثر الناس حين تلوح لهم الدنيا، وتفاضلهم فيها هو السبب في أنهم يكونون مجتمعين، فإذا تفرقوا وقع كل واحد في عرض الآخر يمزقه.

فالعاقل المعرض عنهم بقلبه مقبلاً على ربه إلا على وجه المداراة

لهم، والاحتراز من شرهم.

وقد أحسن مِهْيار الديلمي في قوله: [من الكامل]

كَـــمْ أَسْـــتَعِزُّ وَأَسْـــتَجِيرُ بِآكِـــلٍ
لَحْمِـــي فَـــأعرَقَ وَهُـــوَ غَيْـــرُ سَـــمِينِ
وَيَقُـــودُنِي قَـــوَدَ الْجَنِيـــبِ مـــدامِحٌ
بِريائِـــهِ عَـــنْ دائِـــهِ الْمَـــدْفُونِ
وَلَقَـــدْ تَحَـــدَّثَ لَـــوْ فَطِنْـــتُ بِقَلْبِـــهِ المـــ
ـــغْلُولِ لِـــي فِـــي لَحْظِـــهِ الْمَـــسْنُونِ
اشْـــدُدْ عَلـــى النُّكَبـــاءِ كَفَّـــكَ كُلَّمـــا
قُلْـــتَ اعْتَلَقْـــتُ بِـــصاحِبٍ مَـــأْمُونِ
وَتَمَـــشَّ فِـــي أَخَوَيْـــكِ يَـــومَ أَمانَـــةٍ
مـــا بَـــيْنَ ذِئْـــبِ غَـــضا وَلَيْـــثِ عَـــرِينِ
فَالنَّـــاسُ عِنْـــدَكُ راتِـــعٌ فِيمـــا ادَّعَـــى
غَـــصْباً وَدافِـــعُ حَقِّـــكَ الْمَـــضْمُونِ
ذُمَّ الْحفـــاظَ فَـــذُو الـــصَّرامَةِ عِنْـــدَهُمْ
مُعْطِـــي الْخِـــلابِ وَمـــانِعُ الْمـــاعُونِ
وَسَـــرى النَّفـــاقُ كَأَنَّـــهُ سَلْـــسَالُهُ
فِـــي الْمـــاءِ أَوْ صَلْـــصالُهُ فِـــي الطِّـــينِ

أَفَأَنْـــتَ فِـــي سُـــوءِ الظُّنُـــونِ تَلُـــومُنِي
عَنِّـــي فَمـــا عَـــدَتِ اليَقِـــينَ ظُنُـــونِي

كِلْنِـــي إِلَـــى الـــرِّزْقِ العَزِيـــزِ قَلِيلِـــهِ
وَالـــذُّلُّ تَحْـــتَ كَثِيـــرِهِ الْمَمْنُـــونِ

فَـــإِذا الَّـــذِي فَـــوْقِي لِفَـــضْلَةِ مالِـــهِ
لِغِنَـــايَ عَنْـــهُ كَأَنَّـــهُ مِـــنْ دُونِـــي

٤٥ ـ ومنها: التشبه بالبوم في الحسد، وتمني زوال النعمة عن من خصه الله تعالى بها بموت، أو فقد عزيز، أو خراب ديار.

فإن الناس يقولون في المثل: فلان كالبوم لا يصيح إلا بالخراب.

وقد وقع هذا المعنى في قول سويد بن أبي كاهل كما رواه الدينوري في «المجالسة»: [من الرمل]

رُبَّ مَـــنْ أَنْـــضَجَتْ غَيْظـــاً صَـــدْرُهُ
قَـــدْ تَمَنَّـــى لِـــيَ مَوْتـــاً لَـــمْ يُطَـــعْ

وَيَرانِـــي كَالـــشَّجا فِـــي صَـــدْرِهِ
عَـــسِرٌ مَخْرَجُـــهُ مـــا يُنْتَـــزَعْ

جُـــرَذٌ يَخطـــر مـــا لَـــمْ يَرَنِـــي
فَـــإِذا أَسْـــمَعْتُ صَـــوْتِيَ انْقَمَـــعْ

لَـــمْ يَـــضِـرْني غَيْـــرَ أَنْ يَحْـــسُدَنِي

فَهْـــوَ يَزْقُـــو مِثْلَمـــا يَزْقُـــو الـــضُّوَعْ

وَيُحَيِّيـــــــــــــنِي إِذا لاقَيْتُـــــــــــهُ

فَـــإِذا يَخْلُـــو لَـــهُ لَحْمِـــي رَتَـــعْ

قَـــدْ كَفَـــانِي اللهُ مـــا فِـــي نَفْـــسِهِ

وَإِذا مـــا يكْـــفَ شَـــيْئاً لَـــمْ يَـــضَعْ[1]

مثـل الحاسـد بالجرذ الذي يبدو، فإذا أحس بالإنسان انزوى وانقمع في وكره، وبالضوع ـ على وزن جرد، وعنب كما فـي «القاموس» ـ مـن طيـور الليـل، وهـو ذكـر البـوم، ويقـال: الكروان[2].

وقال الجوهري: هو من جنس الهام[3].

٤٦ ـ ومنها: التشبه في الزنا بالتيس، والكلب، والقرد، والهر، وغيرها.

فإن السبع والبهيمة يُسَافد ما يرى من أنثى، وكذلك الزاني تحمله الشهوة الحيوانية على الوقوع على كل أنثى أمكنت من غير تقيد بالعقد ولا بالملك.

---

(١) انظر: «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ص: ٣٧٥)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٢/ ١٦٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (ص: ٩٥٩) (مادة: ضوع)، وعنده: «على وزن صرد».

(٣) انظر: «الصحاح» للجوهري (٣/ ١٢٥٢)، (مادة: ضوع).

ومن أمثالهم: أزنى من قرد.

وقال الزمخشري في «المستقصى»: هو قرد بن معاوية الهذلي، وفد على رسول الله ﷺ فقال: أسلم على أن تحل لي الزنا.

فقال له ولوفده: «أَتحِبُّوْنَ لِبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ ذَلِكَ؟»

قالوا: لا.

قال: «فَأَحِبُّوْا لِلنَّاسِ مَا تحِبُّوْنَ لأَنْفُسِكُمْ».

فرجع بهم، ولم يسلموا[1].

وذكر فيه من الأمثال: أزنى من قط؛ وقال: هو السنور، ومن هجرس؛ وقال: هو القرد، وقيل: الدب.

وأزنى من هر؛ وقال: هي امرأة يهودية من حضرموت، كان اسم أبيها يامناً، وكان الفساق ينتابونها للفسق في الجاهلية، وهي إحدى الشوامت بموت النبي ﷺ، فأخذها المهاجر بن أمية عاملُه، فقطع يدها[2].

وقال السيوطي في «ديوان الحيوان»: ومن أمثالهم: أسفد من هجرس، وأغلم من هجرس؛ أي: القرد، وأزنى من هجرس؛ أي: الدب، أو القرد[3].

---

(١) انظر: «المستقصى من أمثال العرب» للزمخشري (١/ ١٤٩).

(٢) انظر: «المستقصى من أمثال العرب» للزمخشري (١/ ١٥٠).

(٣) وانظر: «جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٥٠٦)، و«حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٥١٤).

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: أتي رسول الله ﷺ برجل قصير أشعث، ذي عضلات، عليه إزار، قد زنى، فرده مرتين، ثم أمر به فرجم، فقال رسول الله ﷺ: «كُلَّمَا نَفَرْنَا غَازِيْنَ فِي سَبِيْلِ اللهِ تَخَلَّفَ أَحَدُكُمْ يَنِبُّ نَبِيْبَ التَّيْسِ يمنحُ إِحْدَاهن الكُثْبَة، إِنَّ اللهَ لاَ يُمَكِّنُنِي مَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلاَّ جَعَلْتُهُ نَكَالاً»[1].

قال أهل اللغة: نب التيس نبيباً: إذا صاح وهاج[2].

وروى ابن أبي شيبة عن أبي ميسرة رحمه الله تعالى قال: تبقى رجرجة من الناس لا يعرفون حقاً ولا ينكرون منكراً، يتراكبون تراكب الدواب والأنعام[3].

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد، وأبو نعيم عن مالك بن دينار رحمه الله تبارك وتعالى قال: مكتوب في التوراة: مثل امرأة حسناء لا تحصن فرجها كمثل خنزيرة على رأسها تاج، وفي عنقها طوق من ذهب، يقول القائل: ما أحسنَ هذا الحلي، وأقبحَ هذه الدابة[4].

٤٧ ـ ومنها: التشبه بالبهائم في إتيان البهيمة.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه المتقدم في التشبه

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٢).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١/ ٧٤٧) (مادة: نبب).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٥٨٧).

(٤) أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٧٦).

بقوم لوط: «مَلْعُونٌ مَنْ أَتى شَيْئاً مِنَ البَهائِمِ»[1].

وروى الطبراني، والبيهقي عنه أيضاً، عن النبي ﷺ: «أَرْبَعَةٌ يُصْبِحُوْنَ فِيْ غَضَبِ اللهِ وَيُمْسُوْنَ فِيْ سَخَطِ اللهِ».

قلت: من هم يا رسول الله؟

قال: «المتَشَبِّهِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالمتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ، وَالَّذِي يَأْتِي البَهِيْمَةَ، وَالَّذِيْ يَأْتِي الرِّجَالَ»[2].

وقوله: «المتشبهين» كذا وجدته، وهو منصوب على إضمار (أعني)، أو: (أذم).

ومن لطائف بعض أذكياء النساء: أنها اطلعت على زوجها وهو يأتي أتاناً، فلم تشعره أنها اطلعت عليه، حتى جاء وقت طعامه، فوضعت له السفرة، ووضعت عليها صحفة فيها شعير، فقال: ما هذا؟

قالت: طعام بعثت به إليك حليلتك التي وقعت عليها.

فنبهته أن الذي يأتي البهيمة ينبغي أن يأكل من علفها.

٤٨ ـ ومنها: التشبه بالقرد في الاستمناء بشيء من بدنه.

ذكر صاحب «حياة الحيوان»: أن القرد إذا اشتد به الشَّبَقُ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٨٥٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٨٥). قال ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٢٨): منكر لا يُتابع محمد بن سلام الخزاعي عليه، وعندي أن هذا الحديث أنكر شيء له، وهذا الذي أنكره البخاري عليه.

استمنى بفيه[1].

وروى الحسن بن عرفة في «جزئه»، والبيهقي في «الشعب» عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ لا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلا يُزَكِّيْهِم، وَلا يَجْمَعُهُمْ مَعَ العَالَمِيْنَ، يُدْخِلُهُمْ النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِيْنَ إِلاَّ أَنْ يَتُوْبُوا، إِلاَّ أَنْ يَتُوْبُوا، إِلاَّ أَنْ يَتُوْبُوا، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ: النَّاكِحُ يَدَهُ، وَالفَاعِلُ وَالمفْعُوْلُ، وَمُدْمِنُ الخَمْرِ، وَالضَّارِبُ أَبَوَيْهِ حَتىَّ يَسْتَغِيْثَا، وَالمُؤْذِي جِيْرَانَهُ حَتىَّ يَلْعَنُوْهُ، وَالنَّاكِحُ حَلِيْلَةَ جَارِهِ»[2].

ولولا أن سنده ضعيف لدل على أن الاستمناء باليد من الكبائر.

وقد نص العلماء على أنه حرام.

٤٩ ـ ومنها: التشبه بالخنزير، والحمار، والسِّنَّور في اللواط فاعلية ومفعولية.

روى ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» عن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى قال: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير، والحمار، والسنور[3].

---

(١) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٣٣٠).

(٢) رواه الحسن بن عرفة في «جزئه»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٧٠)، وكذا الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٤٩٧). وضعف ابن حجر إسناده في «التلخيص الحبير» (٣/ ١٨٨).

(٣) ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٠١).

قلت: وذكر ابن قتيبة في «عيون الأخبار» عن المثنى بن زهير: أنه رأى ذكراً من الحمام يقمط ذكراً[1].

قلت: وأخبرني رجل ثقة أنه رأى ثوراً نزا على ثور، وأصاب.

وأخبرني جماعة أن التيوس إذا جمع بعضها مع بعض ولا أنثى بينها، استذلت واحداً منها فنزت عليه، فإن بقي بينها لا تزال تنزو عليه حتى يهلك.

*** فائِدَةٌ:**

روى الزبير بن بكار في «الموفقيات»، والديلمي، والخطابي في «غريب الحديث» ـ وقال: لا أصل له ـ عن علي ﷺ: أن النبي ﷺ سئل عن المسوخ فقال: «هُمْ ثَلاثَةَ عَشَرَةَ: الفِيْلُ، وَالدُّبُّ، وَالخِنْزِيْرُ، وَالقِرْدُ، وَالخِريتُ، وَالضَبُّ، وَالوَطْوَاطُ، وَالعَقْرَبُ، وَالدُّعموصُ، وَالعَنْكَبُوْتُ، وَالأَرْنَبُ، وَسُهَيْلٌ، وَالزهرةُ».

فقيل: يا رسول الله! وما سبب مسخهن؟

فقال: «أَمَّا الفِيْلُ: فَكَانَ رَجُلاً جَبَّاراً لُوْطِيَّاً لا يَدَعُ رَطْباً وَلا يَابِسَاً.

وَأَمَّا الذِّئْبُ: فَكَانَ مُخَنَّثَاً يَدْعُوْ الرِّجَالَ إِلى نَفْسِهِ.

وَأَمَّا الخِنْزِيْرُ: فَكَانَ مِنَ النَّصارىْ الَّذِيْ سَأَلُوْا المائِدَةَ فَلَمَّا نَزَلَتْ كَفَرُوْا.

وَأَمَّا القِرْدُ: فَيَهُوْدِيٌّ اِعْتَدَى فِيْ السَّبْتِ.

---

(١) انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (ص: ١٧٤).

وَأَمَّا الخَرِيْتُ: فَكَانَ دَيُّوْثاً يَدْعُوْ الرِّجَالَ إِلى حَلِيْلَتِهِ.

وَأَمَّا الضَّبُّ: فَكَانَ أَعْرَابِيَّاً يَسْرِقُ الحَاجَّ بمحجنهِ.

وَأَمَّا الوَطْوَاطُ: فَكَانَ رَجُلاً يَسْرُقُ الثِّمَارَ مِنْ رُؤُوْسِ النَّخْلِ.

وَأَمَّا العَقْرَبُ: فَكَانَ لا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ لِسَانِهِ.

وَأَمَّا الدُّعْمُوْصُ: فَكَانَ نَمَّاماً يُفَرِّقُ بينَ الأَحِبَّةِ.

وَأَمَّا العَنْكَبُوْتُ: فَامْرَأَةٌ سَحَرَتْ زَوْجَهَا.

وَأَمَّا الأَرْنَبُ: فَامْرَأَةٌ كَانَتْ لا تَتَطَهَّرُ مِنْ حَيْضٍ.

وَأَمَّا سُهَيْلٌ: فَكَانَ عَشَّاراً بِاليَمَنِ.

وَأَمَّا الزهرَةُ: فَكَانَتْ بِنْتاً لِبَعْضِ مُلُوْكِ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ اِفْتَتَنَ بِهَا هَارُوْتُ وَمَارُوْتُ»[1].

قلت: المشهور أن قصة هاروت وماروت كانت في زمن إدريس عليه السلام، وذلك قبل بني إسرائيل بزمن كثير.

وعلى ذكر المسوخ؛ فروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: «فُقِدَتْ أُمةٌ مِنْ بَنِيْ إِسْرَائِيْلَ لا أَدْرِي مَا فَعَلَت،

---

(١) رواه الخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ١٨٥) وقال: لا أصل له، وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٢٤٩). قال ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٣٠): هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وما وضعه إلا ملحد يقصد وهن الشريعة بنسبة هذا إلى رسول الله ﷺ، أو مستهين بالدين لا يبالي ما فعل، والمتهم به مغيث، قال أبو الفتح الأزدي: خبيث كذاب لا يساوي شيئاً، روى حديث المسوخ، وهو حديث منكر.

وَلا أَرَاهَا إِلاَّ الفَأْرَةَ، أَلا تَرَوْنَهَا إِذَا وُضِعَ لهَا أَلْبَانُ الإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْ، وَإِذَا وُضِعَ لهَا أَلْبَانُ غَيرِهَا شَرِبَتْ»[١].

وروى ابن حبان، والطبراني في «الكبير»، وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الحَيَّاتُ مَسْخُ الجِنِّ كَمَا مُسِخَتْ القِرَدَةُ وَالخَنَازِيْرُ مِن بَنِي إِسْرَائِيْلَ»[٢].

وروى أبو نعيم عن وهب بن منبه قال: مسخ بختنصر أسداً فكان ملك السباع، ثم مسخ نسراً فكان ملك الطير، ثم مسخ ثور فكان ملك الدواب، وهو في ذلك يعقل عقل الإنسان، وكان ملكه قائماً يدبر، ثم رد إليه روحه فدعا إلى توحيد الله، وقال: كل إله باطل إلا إله السماء.

قيل لوهب: أمؤمناً مات؟

قال: وجدت أهل الكتاب اختلفوا[٣].

وذكر ابن قتيبة في «عيون الأخبار»: أن الأعراب تزعم أن الله تعالى مسخ ماكسين ضبعاً وذئباً، وبهذه القرابة يتسافدان ويتناجلان، وأنشد: [من الخفيف]

إِنَّ رَبِّي لِمَا يَشاءُ قَدِيرُ   مَا لِشَيْءٍ أَرادَهُ مِنْ مَفَرِّ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٧)، وكذا البخاري (٣١٢٩).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٦٤٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٩٤٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥/ ١٦٤٢).

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٦٤).

مَسَخَ الْماكسينِ ضَبُعاً وَذِئْباً　　فَلِهَذا تَناجَلا أُمَّ عَمْرِو[1]

وذكر محمد بن يوسف الشيرازي المعروف بالحكيم في أرجوزة له من المسوخ أيضاً: الأسد، والكلب، والقنفذ، والزُّنبور، والقمري، والفاخت، والخنفساء، وابن عُرس، وابن آوى، والعقعق.

فأما الأسد: فكان واعظاً يخالف قوله فعله.

وأما الكلب: فكان مفسداً لذات البين.

وأما القنفذ: فكانت دلاَّلة خبيثة.

وأما الزنبور: فكان يؤذي جاره.

وأما القمري: فكان يحتكر القوت.

وأما الفاختة: فكانت تستدين ولا توفي.

وأما الخنفساء: فكانت امرأة متهتكة.

وأما ابن عرس: فكان نباشاً ينبش القبور.

وأما ابن آوى: فكان قصاباً ينفح الشاة قبل أن تموت.

وأما العقعق: فكان يدخل الحمام بغير مئزر.

ولا يعارض ذلك كله ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ سئل عن القردة والخنازير هي مما مسخ، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الله لَمْ يُهْلِكْ قوماً فيجعل لهم نَسْلاً، وأنَّ القِردةَ كانَتْ

---

(1) البيتان للحكم بن عمرو البهراني. انظر: «الحيوان» للجاحظ (٦/ ١٤٨)، و«ربيع الأبرار» للزمخشري (ص: ٢٧٣).

قَبْلَ ذلكَ»[1].

قال الدميري، والسيوطي: اختلف العلماء في المسوخ هل تعقب، أم لا؟ على قولين، والجمهور على الثاني[2].

قلت: قد يقال: إن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم بأنهما ممسوخان من بني إسرائيل، وأن الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كان مما حفظه ابن مسعود عن النبي ﷺ قبل أن يعلم بذلك.

ويؤيده: أن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه ممن أسلم بعد الهجرة بزمن كثير، بخلاف ابن مسعود فإنه من السابقين الأولين، وابن عباس رضي الله تعالى عنهما من صغار الصحابة.

وإن قلنا بقول الجمهور، فيحمل ما روي أن الفيل كان لوطياً فمسخ، وأن الدب كان مخنثاً فمسخ، على أن معناه: أن بعض من فعل ذلك مسخ واحداً من جنس الفيل، أو واحداً من جنس الدب، وكذلك الباقي.

وعلى كل تقدير، ففي ما ذكرناه زجر عن هذه الأفعال التي مسخت أربابها شيئاً مما ذكر؛ فافهم!

❐ ❐ ❐

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) انظر: «حياة الحيوان الكبرى» للدميري (٢/ ٣٣٤)، و«فتح الباري» لابن حجر (٧/ ١٦٠).





فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تابع

المقام الثاني

في النهي عن التشبه بغير المبتدعة من الفسقة

(١)

باب

النهي عن تشبه العاقل بالمجانين والحمقى

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

(٢)

بَابُ

النَّهْيِ عَنْ تَشَبُّهِ الْحُرِّ بِالرَّقِيقِ وَعَكْسِهِ

الموضـــوع	الصفحة

(٣)

بَابُ
النَّهيُ عَنْ تَشَبُّهِ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ وَعَكْسِهِ

(٤)

بَابُ
النَّهْيِ عَنْ تَشَبُّهِ الرِّجَالِ بِالصِّبْيَانِ

الموضـــوع	الصفحة

(٥)

بَابُ
تَشَبُّهُ الفَقِيرِ بِالغَنِيِّ وَعَكْسِهِ

الموضوع	الصفحة

(٦)

بَابُ
تَشَبُّهُ أَهْلِ الحَضَرِ بِأَهْلِ البَدْوِ وَعَكْسِهِ

(٧)

بَابُ
النَّهْيُ عَنْ تَشَبُّهِ العَالِمِ بِالجَاهِلِ

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

